طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب

(أواخر العصور الوسطى)

تأليف

دكتور نعيم زكى فهمى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

طرق التجارة الدّولية ومحطاتها بين الشرق والغرب

(أواخر العصور الوسطى)

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ١٣٢ -

تأليف (٨٨)

ترجمة (١٧)

القاهرة

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب

(أواخر العصور الوسطى)

تأليف

دكتور نعيم زكى فهمى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

المقدمة

تعتبر الدراسات التاريخية الاقتصـادية من أكثر الموضـوعات صعوبة وتعقيدا ، لذا يعزف كثير من الدارسين والباحثين عن طرق هذا النوع من الدراسات التى تحتاج الى دراية واسعة باللغات الأوربية الحديثة والوسيطة ، والى صبر ودأب على استقراء الوثائق والنصوص والمعاهدات ، بالاضافة الى أن معظمها ليس فى متناول أيدينا ، رغم أنها الأساس لهذا النوع من الدراســات ، ثم ان المراجع التى تبحث فى هذا النوع من الدراسة شحيحة، وبعضها قاصر عن ايفاء الموضوعات الاقتصادية حقها المطلوب .

وتكاد تخلو مكتبتنا العربية من هذا النوع من الدراســة فى العصور الوسطى التى يعتبرها الاقتصاديون حجر الأساس فى تطوير النظم الاقتصادية فى العصور الحديثة . لذا هدفت الدراسات والبحوث الحديثة الى التوسع فى هذه الموضوعات . وقد استهوتنى الدراســة الاقتصادية منذ فترة غير قصيرة فكعفت على تتبع تطورها ونظمها ، ووجدت أن أكثرها أهمية هى الفترة الأخيرة من القرن الخامس عشر الذى يعتبر من أكثر فترات العصور الوسطى أهمية بالنسبة للأحداث الجســام التى حدثت فيه وأدت الىتغييرات جوهرية فى العــالم .

ولعل أهم هذه الأحداث وأولها هو سقوط القسطنطينية عــام ١٤٥٣ فى أيدى القوات العثمانية ، واندفاع هذه القوات غربا الى شرق ووسط أوربا ، ثم مد حدودها بعد ذلك الى البحر الأسود وايران شرقا . وقد عمدت فى تحركاتها العسكرية الى ســد الطرق التجارية

لدواعى الأمن ، مما أثر فعلا فى التجارة وطرقها ومراكزها بين آسيا وأوربا . ومع أن التجارة تحولت تماما بعد هذا الحدث الى موانىء مصر والشـــام والبحر الأحمر ، الا أن الغرب الأوربى كان قد مل التعامل مع المماليك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك ، وقوة الاحتكارات ، مما دفع الأوربيين الى البحث عن طريق آخـر أكثر أمنا ، ووقع هذا العبء على عاتق البرتغال ، فاندفـع بحارتها ، يحدوهم التحمس الدينى ، يدورون حول افريقية ويندفعون الى الهند حيث تمكنوا خلال عدة معارك حربية من القضاء على نفوذ المماليك والسيطرة على تجارة الشرق . وكان هذا ثانى الأحداث الهامة فى هذه الفترة من العصور الوسطى .

أما ثالث هذه الأحداث وأخطرها فهو الذى ختم العصورالوسطى وتم على عهد السلطان سليم الأول العثمـــانى الذى قضى على دولة المماليك الجراكسة بالشام ومصر ، وأنهى دور هذه البلاد الرائع فى مجال الحضارة والحرب والتجارة .

وقد اتجهت فى هذا الموضوع اتجاها اقتصاديا صرفا ، فأحطت بشتى نواحيه شارحا العلاقات الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغربه ، داعما هذه العلاقات بالعديد من الوثائق والمعاهدات المنشورة والمخطوطة التى استفدت منها فى استخلاص حقائق ونظم اقتصادية لم يصل اليها جهد الباحثين من قبل ، وكان لابد ـ والحال كذلك ـ من البحث فى الطرق والمراكز وأهميتها وما بقى منها وما اندثر حتى وصول البرتغاليين للهند ، والعثمانيين للشرق العربى ، والذى أدى الى انهيار اقتصاديات المنطقة بعد قرون عديدة زاهرة .

وقد ألحقت بالكتاب عديدا من الوثائق المخطوطة والمطبوعة ، وملحقا خاصا بالخرائط التوضيحية للطـرق والمراكز ، وثبتا وافيـا بالمراجع العربية والافرنجية التى رجعت اليها .

وانى اذ أقدم هذا المؤلف للمكتبة العربية ، أرجو أن أكون قد أضفت اليها لونا جديدا من الدراسات التاريخية الاقتصـــادية ، كما أرجو أن أكون قد فتحت بابا للدارسين فى التاريخ الاقتصادى للمزيد من الجهد الواعى النافع .

والله ولى التوفيق .

القاهرة ١٩٧٠

الدكتور نعيم زكى فهمى

الفصل الأول

نظرة سياسية عامة في أحوال دول البحر المتوسط من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ الى دخول العثمانيين مصر ١٥١٧

أهم أحداث أواخر العصور الوسطى

يجمع المؤرخون على أن استيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، هو أول حادثة فى سلسلة الحوادث العظمى التى غيرت أحوال البلاد الواقعة حول البحر المتوسط ، ثم أحوال العالم كله أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الحادث الثانى فهو وصول البرتغاليين بحرا من الهند بعد أن داروا حول افريقية عام ١٤٩٨ ، ونتج عن هذا الحادث الثانى نتائج سياسية واقتصادية كبيرة فى شرق البحر المتوسط ، وخاصة فى دولة سلاطين المماليك . واذا قيل ان سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين مهد فعلا للحروب المماليكية العثمانية أوائل القرن السادس عشر فان وصول البرتغاليين بحرا الى الهند هدد كيان دولة سلاطين المماليك بالذات ، اذ أخذت تجارة الشرق الأقصى وأرباحها الهائلة تتحول عن مصر والشام وموانيهما الى أوربا بالطريق البحرى الجديد، وبكميات متزايدة وأسعار معتدلة . على أنه ينبغى أن يضاف الى هذين الحادثين الكبيرين حوادث أخرى داخلية ساعدت على تهديد كيان دولة سلاطين المماليك منذ عام ١٤٥٣ ، اذ دبت الشيخوخة فى أوصالها واعترى الفساد نظمها ، فعجزت عن الاحتفاظ بكيانها بسبب اشتداد الخلاف بين السلطان وطوائف المماليك ، فكثيرا ما تمرد المماليك كلما دعوا للحرب لعجز السلطان عن توفير المال اللازم لتوزيع ما هو معروف بالنفقة قبل الخروج الى القتال (١) .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٢ ص ٣٩ (طبعة بولاق) .

ولا أقل من أن نلقى نظرة عامة سريعة على دولة المماليك وجيرانها فى القرن الخامس عشر لندرك الظروف التى عاشت فيها هذه الدولة من ناحية والتى أثرت فى مصائر حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى . فقد شملت دولة سلاطين المماليك عام ١٤٥٣ البلاد الواقعة من الشلال الأول جنوبا ، وأعالى الفرات شمالا بما فى ذلك بلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى حتى طرسوس وملطية ، كما خضعت لها جزيرةقبرص . وامتدت الأطراف المماليكية الجنوبية من عيذاب على البحر الأحمر الى بلدة القصير على مسافة خمسة أميال جنوبى أسوان ، ومنها امتدت عبر الصحراء مشتملة على بلاد الواح (الواحات) حتى برقة . وعلى الأطراف الشمالية الشرقية امتدت الامارات التركمانية عام ١٤٥٣ ومنها امارة دلغادر وامارة رمضان ومناطق تركمانية أخرى ذات امارات مماثلة ، وانتشرت بالمنطقة حتى ديار بكر، ودانت كلها للسلاطين المماليك بالتبعية والجزية والرأى فى تعيين أمرائها .

وتبدو أهمية هذه الامارات فى موقعها الجغرافى بين الدولتين المماليكية والعثمانية ، فضلا عن مرور الطرق التجارية بها من وسط آسيا الى آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، لذا كانت على علاقات سياسية واقتصادية بدولة سلاطين المماليك (٢) .

وأسس امارة دلغادر (زين الدين قراجا) فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان الأمير عليها عام ١٤٥٣ (سليمان بك قراجا) الذى تزوج السلطان محمد الثانى العثمانى أخته . (٣) والى

---

(٢) الخالدى : المقصد الرفيع المنشا : ص ٨٢ أ ، ب (مخطوطة) .
الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٥٢ ، ٥٤ .
المقريزى : الخطط ج ١ ص ١١٣ .

— Ency. D'Islam, T. II, Article, «Karaman Oghlu.»
— Ziada, Foreign Relations. pp. 83-85 and pp. 101-103.
— Lane-peole, A History of Egypt in the Middle Ages. p. 309.

(٣) — Ency. D'Islam, Op. Cit., Art., «Dol'Kader» pp. 985-987.
— Hammer, Histoire De L'Empire Ottomane. T. II pp. 425, 426, & p. 435.
— Ziada, Op. Cit., pp. 252, 253.

الغرب من امارة دلغادر امتدت امارة « قرمان أوغلو » وتنسب الى زعيمها « قرمان » الذى حصل قديما من السلاجقة على حق النزول بالمناطق الجبلية حول قونية . وشـملت أملاك هذه الامارة سـاحل قيليقية وأنطاكية ، وكانت عاصمتها « لارندة أوقرمان الجديدة » . واحتمى بنو قرمان بسـلاطين المماليك خوفا من العثمـانيين ، وكان « ابراهيم » حفيد علاء الدين قرمان هو الأمير عام ١٤٥٣ (٤) .

وعلى الأطراف الغربية لامارة قرمان كانت الدولة العثمانية التى أخذت تعمل على اخضاع ما تبقى خارجا عن طاعتها من امارات آسيا الصغرى ، فاكتسحت امارة قرمان عام ١٤٦٣ . ومن الامارات الخارجة وقتذاك عن الدائرة العثمـانية « امارة اسفنديار » التى امتدت من حدود قرمان أوغلو الشمالية حتى شـواطىء البحر الأسود وعرفت باسم « قسطمونى » أو « قزيل أحمدلى » ، وتنسب لمؤسسها « ميرز الدين اسفنديار » والأمير عليها عام ١٤٥٣ « ابراهيم بن اسماعيل » ، ثم انتزع الامارة منه أخوه قزيل أحمدلى بمعاونة السلطان محمـد الثانى العثمانى (٥) .

والى الشرق من اسـفنديار امتدت امبراطورية « طرابيزون » البيزنطية على الساحل الجنوبى للبحر الأسـود حتى أملاك التركمان شرقا . وكان الامبراطور هناك « حنا الرابع كومنين » ، وقد اكتسـح

= ابن اياس : المرجع السابق ص ٨١ ـ ٩٦ ـ ١٠٩ ـ ١٣٩ ـ ٢١٩ ـ ٢٣٢ ـ ٢٤٦ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٢ ـ ٣٣٠ .

ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٣٨ ـ ٨٠٧ ـ ٨٢٢ ـ ٨٣٣ (طبعة بوبر ـ كالفورنيا) .

(٤) القرمانى : أبو العباس بن أحمد الدمشقى : أخبار الدول وآثار الأول ورقة ٩٧ أ (مخطوطة) ونسخة مطبوعة فى بولاق ١٢٩٠ هـ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. ; «Karaman Oghlu».

(٥) Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Isfandyar Oghlu» T. II. p. 565.

— Ziada, Op. Cit., p. 103.

القرمانى : أخبار الدول ـ المصدر السابق مطبوع ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

السلطان محمد الثاني العثماني هذه الامبراطورية عام ١٤٦١ . (٦)

والى الشرق من طرابيزون امتدت مملكة جورجيا حوالى ستين ميلا حتى تفليس ، وهى على الطريق التجارى البرى من وسط آسيا الى شرق البحر المتوسط ، لذلك تعرضت لأخطار المناوشات بين القبائل التركمانية والعثمانيين . (٧) وامتدت مملكة شروان « شرقى مملكة جورجيا حتى بحر قزوين ، والملك عليها عام ١٤٥٣ ، « خليل الله » ١٤٢٧ ــ ١٤٦٢ . واتخذ هذا الملك موقف الحياد فى معظم التيارات والحوادث الجارية حوله . (٨)

وعاصرت الدولة المماليكية كذلك قبيلتى « الشاه البيضاء ــ الآق قيونلو » و « الشاه السوداء ــ القره قيونلو » التركمانيتين بأعالى العراق وفارس ، ونزلت قبيلة الشاة البيضاء ديار بكر واتخذها أفرادها عاصمة لهم ، ومنها امتدت أملاكهم حتى تبريز ، وكان الأمير عليها عام ١٤٥٣ « جهانكير » ابن الأمير على بك ونازعه فى الامارة أخوه « أوزون حسن » الذى اغتصب الحكم وانفرد به ، ولم يلبث أن مد فتوحاته فشملت أرمينيا وحصن كيفا وديار بكر وماردين . (٩)

---

(٦) كان آخر حكام أسرة كومنين الكبيرة فى طرابيزون : جون الرابع الذى تزوج اوزون حسن من ابنته ثم آخرهم داود .
— Heyd, Histoire Du Commerce, T. II pp. 363, 365 & p. 390.
— Camb. Med. Hist. Vol. I pp. 76, 77.
— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 36-37, 79, 153.
— Depping, Histoire Du Commerce T. II p. 221.

(٧) الخالدى : المصدر السابق : (مخطوطة) ورقة ٢٨١ ب ــ ٢٨٢ ب .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Georgie».
— Ziada, Op. Cit., pp. 104-105.

(٨) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٢ ب .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Derband. Shirwan Shah».

(٩) قرمانى : المصدر السابق (مطبوع) ص ٣٣٦ .
— Hammer, Op. Cit., III pp. 61, 151-464-466.
— Hammer, Op. Cit., IV pp. 69-80, 81.

الظاهرى : المصدر السابق ص ١٤٩ ــ١٥١ .

ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٣ ــ ١٠٦ (بولاق) .
— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Ak. Kouynlu» p. 228. — Ozon Hassan — Hisn Kaifa.

أما قبيلة الشاه السوداء فامتدت أملاكها جنوب بحيرة « وان » والأمير عنيها عام ١٤٥٣ « جهان شاه » وقد آلت أملاكها الى أوزون حسن عام ١٤٦٩ . (١٠)

أما بلاد الحجاز فظلت مرتبطة بالسلطنة المماليكية والسلطان المماليكى يخطب له من منابر مكة بألقاب « سلطان البحرين وحامى الحرمين » وحصل سلاطين المماليك على أموال كثيرة من رسوم تجارة الهند فى ميناءى جدة وينبع (١١) . وفى اليمن تنازع بنو رسول وبنو طاهر الحكم بين عامى ١٤٤٦ ــ ١٤٥٤ م حتى خلصت لبنى طاهر عام ١٤٥٤ وظلوا تابعين للمماليك حتى عام ١٥١٧ (١٢) .

وعلى الأطراف الجنوبية لدولة سلاطين المماليك انتشرت قبائل البجاه بين النيل والبحر الأحمر وامتدت مساكنهم على طول الطريق التجارى بين قوص وعيذاب . (١٣) .

ومن البلاد التى جاورت الأطراف المماليكية الجنوبية ، النوبة المسيحية ــ وامتدت أراضيها امتدادا صحراويا من جنوبى أسوان الى

---

(١٠) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٦٤٤ ــ ٦٥٠ و ٦٨٥ و ٧٦٦ و ٧٤٠ وجـ ٧ ص ٢١١ و ٢٤٠ (كاليفورنيا) .

الظاهرى : المصدر السابق ص ٥٩ .

(١١) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٨٢ أ و ب ــ ١٥٣ ب و ١٥٥ أ .

الظاهرى : المصدر السابق (ص ١٦ ــ ٤٢ ــ ٥٢) .

(انظر بعده الفصل الثالث)

— Lane Peole, Op. Cit., p. 309.
— Lane Poole, Cairo p. 237.
— Ziada, Op. Cit., pp. 93, 94-98.
— Ency. D'Islam. Op. Cit. Art. «Arabia-Medina».

(١٢) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ٢٧٣ ب ــ ٢٧١ أ ــ ٢٧٤ أ .

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٧ ــ ٣٥ .

— Lane Poole, Mohammedan Dynasties, pp. 99, 100.

(١٣) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٧٣ ــ ٢٧٦ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Bega, Bisharia, T. I». pp. 608, 609-687.

دارفور الحالية وقاعدتها مدينة « دنقله » (١٤) ومنها أيضا مملكة الحبشة المسيحية التى امتدت شرقى النيل من أطراف سلطنة مالى حتى البحر الأحمر . وفى عام ١٤٥٣ كان على الحبشة الملك «يعقوب» الذى لقب فى العصور الوسطى المتأخرة « بالحطى » ، وحصلت الحبشة على مطرانها منذ القدم من القاهرة . ولكى يتم ذلك يرسل ملك الحبشة الى السلطان يطلب تعيين مطرانا جديدا . (١٥) أما بلاد الأحباش المسلمين فكانت الأراضى الساحلية المطلة على البحر الأحمر ويعبر عنها « بالطراز الاسلامى » وتعرف فى بلاد المماليك باسم بلاد الزيلع وتخضع للحطى ملك الحبشة . (١٦)

وفى شمال افريقية عاصرت دولة سلاطين المماليك دول بنى حفص فى تونس وبنى زيان فى تلمسان فى الجزائر وبنى مرين فى مراكش وامتدت الدولة الحفصية من أطراف مصر الغربية عند برقة وكانت العاصمة مدينة تونس . (١٧) وعقد الحفصيون معاهدات تجارية مع جمهوريات بيزا وجنوة وفلورنسا والبندقية . أما الجزائر فقد تقاسمها الحفصيون وبنو زيان ، وأخذ هؤلاء يستولون عليها شيئا فشيئا حتى

---

(١٤) الخالدى : المصدر السابق ـ (مخطوطة) ورقة ٢٧٤ أ .
القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٧٥ .
— Ency. D'Islam, Art. «Bakt», pp. 608, 609-1072, 1073.
— Lane Poole, A Hist. of Egypt In the Middle Ages, pp. 12-15-27-111.
— Ziada, Op. Cit., p. 113.

(١٥) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦ ـ ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .
الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٨ .
— Ency. of Islam. p. 119. Vol. I.

(١٦) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ـ ٣٣٢ و ٣٣٣ جـ ٨ ص ١٤٩ ـ ١٥١ .
الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٧٥ أ و ٢٧٦ ب ـ ٢٨٨ ب .
ابو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٨٩ (كاليفورنيا) .
— Ency. of Islam, Vol. I pp. 985, 986.

(١٧) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٧٦ ب .
ابو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٨٣٤ (كاليفورنيا) .
القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

امتلكوها كلها . (١٨) وامتدت مراكش غربا حتى مدينة آسفى على المحيط الأطلنطى وعاصمتها فارس وبقيت فى حكم المرينيين حتى عام ١٤٦٥ ، ثم فى حكم بنى وطاس بعد عام ١٤٦٥ ، وانتزع منهم البرتغاليون والاسبان آسفى ومليلة عام ١٤٧٠ (١٩) .

ومن الدول المعاصرة الاسلامية لدولة سلاطين المماليك ، الهند الاسلامية وأكثرها صلة بمصر مملكة الدكن البهمنية ١٣٤٧ ــ ١٥٢٦م والمملكة الخليجية ١٤٣٦ ــ ١٥٣١م ومملكة جوجيرات ١٤٠١ــ١٥٧٣ ومملكة دلهى حيث حكمت أسرة لودى ١٤٥٠ ــ ١٥٢٦ م . وكان ملوك الهند الاسلامية يرسلون للخليفة العباسى بالقاهرة يطلبون التقليد الخليفى لتثبيت سلطانهم على بلادهم ، كما كان لمصر صلات تجارية وثيقة بالهند ، اذ اجتذبت تجارة التوابل والأحجار ، الكريمة أفواجا مستمرة من التجار المسلمين الى سواحل الهند الغربية واشتركت سفنهم مع سفن المماليك فى مهاجمة الأسطول البرتغالى فى مياه الهند عامى ١٥٠٨ ــ ١٥٠٩ (٢٠) .

أما الممالك المسيحية الداخلة فى نطاق شرق وغرب البحر المتوسط والتى ارتبطت بمصر بروابط سياسية واقتصادية ، فهى مملكة قبرص والجمهوريات الايطالية ومملكة قشتالة بأسبانيا وفرانسا ودانت

---

(١٨) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤٩ ــ ١٥١ .

(١٩) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٧٩ أ ــ ٢٧٦ أ .

أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٨٣٤ (كاليفورنيا) .

— Ency. of Islam, Op. Cit., Art. «Hafsids», Vol. II pp. 229, 230.
— Lane Poole, Op. Cit., Mohammedan Dynesties, pp. 49, 50.

(٢٠) — Ency. D'Islam, Op. Cit., II pp. 509-533. Art., «Benghal-Delhi-Malwa-Kandish-Gulbara - Kashmir - Djaunpur - Gujerat.»
— Lane Poole, Mohamm. Dynast., pp. 305-508, 189-193, 283-298, 300-312-314.
— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, pp. 350-352.
— Lane Poole, India, pp. 168-170, 171, 172-175, 176.
— Ziada, Op. Cit., pp. 253, 254.

مملكة قبرص لسلاطين المماليك بالتبعية والجزية ، وكان ملكها عام ١٤٥٣ « حنا الثانى لوزجنان » (٢١) .

ومن جمهوريات ايطاليا ذات الصلة الوثيقة بشرق البحر المتوسط جمهورية البندقية . ومنذ سقوط القسطنطينية والبنادقة يتجهون بتجارتهم الى بلاد السلطات المماليكية وصارت البندقية أكبر عميل فى تجارة شرق البحر المتوسط ، وأنشأت لها جالية كبيرة بالاسكندرية وغيرها من موانى المماليك . وكانت فلورنسا كذلك من أكثر الجمهوريات الايطالية اتصالا بشرق البحر المتوسط . ومنذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر وأسرة ديميديتشى الحاكمة فى فلورنسا تعمل على توثيق صلاتها التجارية بالسلطات المماليكية ، وذلك رغم التحريمات التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الفلورنسيين والبنادقة وغيرهم من المتاجرة فى المواد الحربية مع المماليك . (٢٢)

وفى أسبانيا ظلت دولة المسلمين بالاندلس تغالب المسيحيين حتى لم يبق فى يدها عام ١٤٥٣ الا مملكة غرناطة وكان الأمير عليها اذ ذاك « اسماعيل بن يوسف الناصرى » الذى أعلن خضوعه لهنرى الرابع ملك قشتالة ، وأدى له جزية سنوية قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ، واستمر

---

(٢١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤ (طبعة كاليفورنيا) .
— Heyd, Op. Cit. T. II pp. 425, 426-428, 429-475.
— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, p. 339.
— Muir, The Mammeluks or Slave Dynasty, p. 142.
— Mas Latrie, Chypre, T. III p. 73 & p. 765.
— Ziada, Op. Cit., p. 87.

(٢٢) فكرت البابوية بعد هزيمة عكا ١٢٩١ فى اضعاف المماليك عن طريق حرمانهم من المورد الأساسى لغناهم وقوتهم وهو التجارة ، لذلك أصدرت البابوية مراسيم التحريم البابوية متضمنة عدم التعامل مع المسلمين عامة والمماليك خاصة فى أصناف معينة من السلع اهمها المواد التى تدخل فى صناعة الأسلحة والسفن كالخشب والحديد والكبريت والقار . وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت فضلا عن الرقيق الأبيض الذى اعتمد عليه النظام المماليكى .

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .
— Pernaud, Les Villes Marchands, p. 30.

هذا العهد حتى قيام الأمير « أبو الحسن على » بعد وفاة أبيه اسماعيل عام ١٤٦٦ ، وكان على مالقه الأمير « محمد » المعروف « بالزغل » ، وهذان الأميران هما اللذان قاوما قوات أسبانيا المسيحية حتى انتهاء حكم المسلمين فى غرناطة ١٤٩٢ م . (٢٣) وحتى وصول البرتغاليين للهند كان الاسبان يحصلون على حاجتهم من التوابل الشرقية من أسواق شرق البحر المتوسط . وفى فرنسا استطاع الملك « شارل السابع » طرد الجيوش الانجليزية عام ١٤٥٣ من فرنسا . (٢٤)

وفى عام ١٤٥٣ كان السلطان المماليكى فى القاهرة السلطان الأشرف اينال (١٤٥٣ — ١٤٦٠) وكان طاعنا فى السن منقادا لمماليكه الجلبان الذين كثيرا ما رفضوا الخروج للخدمة وحماية الأطراف المماليكية لعجز السلطان عن توزيع النفقة اللازمة للحرب . (٢٥)

وأصدر السلطان اينال عددا من القوانين الاقتصادية الهامة مثل قانون العملة وضرب على أيدى الزغلية مزيفى النقود بأن شنق عشرة منهم على باب زويلة . (٢٦)

---

(٢٣) محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية · ص ٢٢٧ — ٢٣٧ ·
انظر الفصل الثانى بعده ·

(٢٤) Lodge, Richard, A. Hist. of Mod. Europe. p. 22. —

(٢٥) الخالدى : المصدر السابق ورقة ٨٥ ب و ١٤٣ أ و ١٤٠ أ ·
الظاهرى : المصدر السابق ص ٣٥ ·
أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٤٠ و ٢٣١ (كاليفورنيا) ·
ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤١ و ٤٢ و ٤٣ — ٦٤ ·
— Lane, Poole, Egypt In The Middle Ages pp. 325, 326.
تسكن بعض القبائل على حدود مصر فى الصعيد والوجه البحرى وخاصة فى صحراء البحيرة والشرقية وولايات مصر العليا والوسطى وعاشوا بين الأهالى الاصليين وان كانوا يغيرون عليهم فى بعض الأحيان ، وكانوا يدفعون الجزية للسلطان · وفى حالات الحرب ترسل هذه القبائل بعض رجالها وخيولها للاشتراك فى المعارك · وعلى أية حال فقد كانوا مصدر ازعاج دائم للسلطات الحاكمة ، بل كانوا احيانا يغيرون على قوات السلطان نفسه ويقاتلون بعضهم البعض ويغيرون على الطرق التجارية ·

(٢٦) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٦ و ٥٧ — ٦١ · انظر الفصل الخامس بعده ·

واتبع اينال سياسة ودية مع جيرانه من الدول الاسلامية وخاصة السلطنة العثمانية ، وأرسل للسلطان محمد الثانى العثمانى سفارة لتهنئته بفتح القسطنطينية . وأعلن الأمير « سليمان دلغادر » الولاء للسلطنة المماليكية وسلك ابنه « أصلان دلغادر » هذا المسلك حتى عام ١٤٦٥ . (٢٧) وظلت العلاقات طيبة بين السلطان اينال وأوزون حسن زعيم قبيلة الشاة البيضاء التركمانية على حين أعلن جهان شاه « زعيم قبيلة الشاه السوداء » عداءه للسلطنة المماليكية وتحداها بايوائه أحد الأمراء الفارين من القاهرة ، فنهض أوزون حسن لمحاربة جهان شاه وهزمه ونال بذلك رضا السلطان اينال . (٢٨) ولم يحدث أن قام السلطان اينال خلال حكمه الذى امتد الى عام ١٤٦١ بحملة ضد أية دولة اسلامية سوى حملة تأديب ضد « ابراهيم » أمير قرمان الذى استولى على أطنة وطرسوس بعد أن تجاهل السلطان اينال صرخاته عندما اشتد عليه ضغط السلطان محمد الثانى العثمانى . (٢٩) وقاد هذه الحملة الأمير المماليكى « خشقدم » فصد هجمات ابراهيم قرمان وما زال به حتى طلب الصلح وظل مخلصا للماليك حتى اكتسح السلطان محمد الثانى العثمانى هذه الامارة نهائيا عام ١٤٦٣ . (٣٠)

ومنذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، تعرضت جزيرة قبرص لتهديد السلطان محمد الثانى العثمانى بعد فتح القسطنطينية ، فطلب ملكها « حنا الثانى لوزجنان » معونة السلطان اينال لابعاد الخطر

(٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٥٧٦ .
ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .
(٢٨) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٤٨٤ .
ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٦ ـ ٥٩ .
(٢٩) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧ و ٤٨ .
— Ency. D'Islam, Art. «Karaman Oghlu».
(٣٠) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٤٨٧ ـ ٤٩٠ و ٥٠٠ و ٥٠١ ـ ٥٠٨ ـ ٦٥٧ .
ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٥ و ٥٦ ـ ٦٣ .

العثمانى على الجزيرة وكتب اينال للسلطان العثمانى يذكره بأن ملك قبرص تابع له ، فكف السلطان العثمانى عن تهديد الجزيرة . (٣١) ومات حنا الثانى عام ١٤٥٨ وأيد السلطان اينال لحكم الجزيرة الأمير « جيمس » الابن غير الشرعى ، ضد أخته « شارلوت » الوريثة الشرعية وزوجة الأمير لويس حاكم مقاطعة سافوى الايطالية (٣٢) ، على حين أيد فرسان القديس يوحنا فى رودس الأميرة شارلوت . وأخيرا سافر من القاهرة واعتلى عرش قبرص باسم جيمس الثانى عام ١٤٦٠ . ورافقه اليها أسطول مماليكى . (٣٣) وانسحبت شارلوت من الجزيرة فى يناير ١٤٦١ ورحلت الى رودس وتعقبها المماليك وهاجموا سواحل جزيرة كالوس التابعة للفرسان . (٣٤)

وخلف اينال فى السلطنة سنة ١٤٦٠ ابنه أحمد الذى لم يلبث أن خلعه المماليك على طريقتهم المعهودة وولوا « خشقدم » عام ١٤٦١ ـ ١٤٦٨ ، وهو أول السلاطين المماليك من اليونانيين . (٣٥) واتبع خشقدم مدة سلطنته سياسة التفرقة بين المماليك . وفى السياسة الخارجية حدث تغيير جديد فى علاقة المماليك بجيرانهم ، لذا يعتبر عهد خشقدم بداية الصراع الطويل بين المماليك والعثمانيين ، وذلك منذ أن

---

(٣١) — Mas Latrie, Documents, T. II p. 73-75 & N. 7 p. 74.

ارسل جون الثانى خطاب تهنئة لاينال بمناسبة توليه العرش ، وفى هذا الجزء من الكتاب رد اينال على التهنئة ، وبالكتاب اشارة بوصول جون الثانى للقاهرة ١٤٥٣ لحضور احتفالات تولى اينال السلطنة ، ولو أن المراجع العربية المعاصرة لا تذكر هذا الخبر .

(٣٢) — Mas Latrie, Ibid, T. II p. 89 N.I.

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٥٤٤ ـ ٥٤٩ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٣ .

(٣٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥١ .
— Mas Latrie, Ibid, T. II p. 96-98 & pp. 104-106.

(٣٤) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٦٥١ .
— Mas Latrie, Ibid T. II pp. 104-106.

(٣٥) السلطان اليونانى الثانى هو « تمربغا » .
— Ziada, Op. Cit., p. 30.

تدخل السلطان محمد الثانى العثمانى عام ١٤٦٣ ليؤيد أحد الأمراء على ولاية دلغادر التركمانية غير من أيدته السلطنة المماليكية . ومع هذا لم تنشب الحرب على عهد خشقدم . (٣٦) وعلى عهده ساءت العلاقات بين المماليك وأوزون حسن الذى آوى بعض الأمراء الفارين من السلطان ، ثم تحسنت هذه العلاقات عندما أخضع أوزون حسن قبيلة الشاه السوداء التركمانية وذبح زعيمها جهان شاه وأرسل رأسه الى القاهرة . (٣٧) غير أن أوزون حسن لم يلبث أن أعلن عن حقيقة نواياه حين هاجم حصن كيفا التابع للمماليك ، ومع هذا فضل السلطان خشقدم مهادنته ومنحه الحصن مكافأة له على خدماته السابقة ضد جهان شاه . (٣٨) وظلت العلاقات طيبة بين المماليك وابراهيم قرمان ثم تنازع أبناؤه الامارة بعد وفاته عام ١٤٦٤ واستعان أكبرهم « بير أحمد » بخاله السلطان محمد الثانى العثمانى واستعان «اسحق» بالسلطان المماليكى خشقدم وأوزون حسن ، وانتصر بير أحمد وصار تابعا للسلطان العثمانى ، مما جعل العلاقات تتوتر بين السلطنة المماليكية والسلطنة العثمانية . (٣٩) . وفى أثناء تدهور العلاقات بين خشقدم ومحمد الثانى العثمانى ـ بسبب المشكلة الدلغادرية ـ حاول أوزون حسن أن يدس أنفه فى هذه الامارة ، ولا سيما بعد أن منحه خشقدم نيابة « خربوط » الدلغادرية ، فاغتال أتباعه الأمير « أصلان دلغادر » فى « أبلستين » ، واعتقد السلطان خشقدم أنه حل المشكلة الدلغادرية بهذه الطريقة . وتجاهل قدوم الأمير « سيف بن أصلان » الى القاهرة لتلقى الخلعة السلطانية خلفا لوالده ، وأعلن شقيقه « شاه

---

(٣٦) — Ziada, Op. Cit., p. 30.

(٣٧) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٧٠٤ .

(٣٨) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٧٣٠ ـ ٧٣٢ ، ٧٥٤ ـ ٨٥٥ .

خليل بن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Hisn Kaifa».

(٣٩) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٨٠٥ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Karaman Oghlu».

بداق » أميرا للامارة ، على حين أيد السلطان محمد الثانى العثمانى أخا ثالثا هو « شاه سوار » . ومن أجل ذلك اشتعلت الحرب بين الأخوين ، وتحرك شاه سوار نحو الأطراف المماليكية فأرسل خشقدم الى نواب حلب وحماه وطرابلس للاستعداد للحرب . (٤٠)

وفى قبرص واصل السلطان خشقدم سياسة سلفه فى تأييد الملك جيمس الثانى لوزجنان ، وبفضل ذلك التأييد استطاع الملك جيمس استعادة فاماجوستا من الجنويين . غير أن جيمس الثانى لم يلبث أن ضاق بأفراد القوة المماليكية فى الجزيرة فاغتال قائدها وأرسل يعتذر للسلطان عن ذلك الحادث ، كما أعلن استمرار خضوعه للسلطان . وانتهزت الأميرة شارلوت الفرصة وأثارت حقها فى عرش قبرص ، ولكن السلطان رفض الاستماع لمندوبيها (٤١) . وفى أواخر أيام خشقدم أثار البدو الاضطرابات فى صعيد مصر وسوريا وشمال بلاد العرب، وأعقب ذلك وفاة السلطان فى أكتوبر ١٤٦٧ دون أن تخرج حملة فى الداخل أو فى الخارج لتأديب البدو . (٤٢)

وفى أواخر يناير ١٤٦٨ تولى السلطنة فى القاهرة السلطان الأشرف قايتباى ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦ ، وامتلأت سلطنته بالأعمال العمرانية والحربية ، فاهتم ببناء المساجد والمدارس ، وقام بجولات تفتيشية فى بلاد السلطنة المماليكية وسلك مسلكا طيبا مع من سبقه من السلاطين المعزولين . (٤٣) وفى المجال الخارجى ترك خشقدم لقايتباى مشكلة

---

(٤٠) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٧٣٧ ـ ٧٤٧ ، ٧٥٢ ـ ٨٠٢ .

ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨١ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Dol, Kader».

(٤١) — Ziada, Op. Cit., p. 172.

— Mas Latrie, Op. Cit., T. II p. 402.

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Kochkadam».

(٤٢) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٨٢٦ ملاحظة ٢ .

ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٢ .

(٤٣) — Lane Poole, Egypt in the Middle Ages pp. 341, 342.

— Ziada, Op. Cit., p. 35.

امارة « دلغادر » وعبء مدافعة أوزون حسن عن الأطراف المماليكية . واستطاع ابن رمضان ـ تابع السلطان قايتباى على اقليم أطنة ـ تشتيت شاه سوار عدو السلطنة المماليكية عام ١٤٦٩ وابعاده عن الأطراف الشمالية ، كما نجحت قوات المماليك فى أسره وارساله للقاهرة مكبلا بالحديد حيث شنق على باب زويلة . غير أن الجو لم يصبح بذلك خاليا للأمير « شاه بداق » ، اذ نازعه أخوه « علاء الدولة دلغادر » بتأييد من السلطان بايزيد الثانى العثمانى الذى خلف والده محمد الثانى العثمانى عام ١٤٨١ (٤٤) ثم استطاعت قوات المماليك هزيمة علاء الدولة وأجبرته على اعلان الولاء للسلطنة المماليكية ، ولم يلبث أن صار من أخلص أعوان المماليك ، وكان يبلغ السلطان قايتباى تحركات العثمانيين على الأطراف المماليكية . أما شاه بداق فوصل الى القاهرة وأرسله السلطان قايتباى الى الصعيد وأجرى عليه الأرزاق حتى مات عام ١٤٩٨ . (٤٥)

وكان أوزون حسن قد هنأ السلطان قايتباى بالسلطنة وأرسل اليه هدايا فاخرة لدى اعتلائه العرش فى ٣١ من يناير عام ١٤٦٨ . ثم لم تلبث أطماع أوزون حسن أن ظهرت ، اذ انتهز فرصة الخلاف بين السلطنة المماليكية وشاه سوار فاكتسح بقواته قلاع قبيلة « الشاه السوداء » ثم أرسل مفاتيح تلك القلاع للقاهرة عام ١٤٦٩ م ، امعانا فى الخداع ، واضطر قايتباى الى السكوت وقتذاك على مضض لانشغاله بحرب شاه سوار ، ثم توسع أوزون حسن فى فتوحاته شرقا فى فارس ووسط آسيا ، وأسر « أبا سعيد التيمورى » ملك سمرقند

---

(٤٤) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١١١ ـ ١٦٧ و ١٢٩ ـ ١٣٦ .
— Heyd, Op. Cit., T. II p. 327.
— Lane Poole ; Turkey, pp. 634, 135, 136.
— Hammer, Op. Cit., T. III, pp. 117, 118.

(٤٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٣٢ ـ ٢٤١ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

وأصدق خلفاء قبيلة الشاه السوداء وذبحه وأرسل رأسه للقاهرة عام ١٤٦٩ . (٤٦) ولم يكتف أوزون حسن بذلك بل أرسل كسوة الكعبة باسمه ، ووصل قصاده فعلا للقاهرة عام ١٤٧١ فى طريقهم للحجاز . وكان السلطان قايتباى قد فرغ من شاه سوار ، فقذف بقواته ضد أوزون حسن وأجبره على الارتداد عند الرها ، وحجز بعثته للحج حتى تم الصلح وسمح له بعد ذلك قايتباى باستئناف السفر للحجاز . ثم لم تلبث العلاقات أن ساءت مرة أخرى بين أوزون حسن وقايتباى ، اذ اختلف مع أحد أبنائه ولجأ هذا الابن الى حلب محتميا بالسلطنة المماليكية ، ووفدت زوجة أوزون حسن الى القاهرة لتوسط السلطان قايتباى فى الصلح بين الأب وابنه . ولم ينقذ الموقف سوى موت أوزون حسن ١٤٧٨ م ، وخلفه ابنه خليل عام ١٤٧٩ م ، ثم يعقوب عام ١٤٩٠ ، ثم بيصنقر عام ١٤٩٥ م ، ورستم عام ١٤٩٦ ، وسادت الفوضى بعد ذلك مملكة الشاه الأبيض حتى ضم أملاكهم الشاه اسماعيل الصفوى . (٤٧)

أما العلاقات بين السلطنة المماليكية والعثمانيين فظلت على حالها من التدهور فى أوائل عهد قايتباى حتى اتفق الطرفان على عدم التدخل فى شئون امارتى دلغادر وقرمان . وبدا أن العداء قد قارب الانتهاء ، وبدأت السفارات مرة أخرى بين القاهرة والقسطنطينية حتى وفاة محمد الثانى العثمانى عام ١٤٨١ م وتولية ابنه بايزيد الثانى ، وذلك

(٤٦) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٦ .

(٤٧) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٠ ـ ١٥٠ و ١٥٩ و ١٦٠ ـ ١٨٤ ـ ٢١٠ ـ ٢١٢ ـ ٢٥١ ـ ٢٧٢ ـ ٢٨٣ ـ ٣١٢ ـ ٣٢٠ .

قرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٣٧ و ٢٣٨ .

زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ـ بحث بمجلة الجمعية التاريخية ، ع ٢ ، مايو ١٩٥١ ص ٢٠٣ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «AK KOYUNLU — UZON HASSAN» pp. 1066, 1067.
— Hammer, Op. Cit., T. III; pp. 81-464-466.

أن الأمير جم ــ صاحب الحق الشرعى فى السلطنة العثمانية ــ فر الى القاهرة ، ورحب به السلطان قايتبــاى وأمده بالمال مما أثار حفيظة السلطان بايزيد الثانى على الدولة المماليكية . (٤٨) ثم التجأ الأمير جم بعد ذلك الى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، فحجزوه ، وساوموا السلطان بايزيد الثانى على الاحتفاظ به رهينة لقاء ٤٥٠٠٠ دوكات يدفعها لهم سنويا ، وفى عام ١٤٨٩ م سلم الفرسان الأمير جم للبابوية، ثم نقل لفرنسا حيث دس له شارل الثانى السم ومات ١٤٩٥ . (٤٩) وقام السلطان قايتباى أثنــاء تلك المأســاة بدور أدى الى تدهــور العلاقات مرة أخرى بين السلطنة المماليكية والعثمانيين ، وزاد هــذه العلاقات تدهورا أن السلطان قايتباى رفض السماح للسلطان بايزيد الثانى باصلاح قنوات المياه فى شوارع مكة ، كما استولى نائب ثغر جــدة على هدايا مرســلة للســلطان العثمانى من بعض ملوك الهند وأرسلها للقاهرة . ولهذا كله نشبت الحرب بين الطرفين عام ١٤٨٦ ، واستطاعت قوات السلطان بايزيد الثــانى الاســتيلاء على طرسوس ومحاصرة ملطية ، وهى كلها أملاك السلطنة المماليكية على الأطراف الشمالية ، وشجع علاء الدولة دلغادر فى ثورته على السلطنة المماليكية وفى عام ١٤٨٩ استطاع امير أزبك المماليكى استرداد ما احتلته القوات العثمانية وأنزل بها هزيمة ســاحقة . ثم ســئم الطرفان القتال وحل السلام بينهما عام ١٤٩٢ . (٥٠)

واستمرت العلاقات ودية بين قبرص والمماليك على عهد السلطان قايتباى ، وتزوج الملك جيمس الثانى من كاترين كونارو ابنه أحــد

(٤٨) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٦ .
— Ziada, Op. Cit., p. 204.
— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 353, 354.

(٤٩) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢٤ ــ ٢٢٧ .
— Ziada, Op. Cit., p. 205.
— Lane Poole, Turkey, pp. 147-150.
— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 357-360.

(٥٠) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢٦ و ٢٢٧ ــ ٣٦٤ .

آعيان البندقية ، واستخدم فى بلاطه عددا كبيرا من البنادقة . ولما مات جيمس الثانى عام ١٤٧٣ حكمت كاترين الجزيرة باشراف البنادقة . وأبدى قايتباى ارتياحه لذلك وحذر البنادقة من تأخير الجزية، فأسرعت كاترين بارسال جزية عامين متأخرين ، وسر السلطان قايتباى بذلك وأرسل يؤيد الملكة . ثم تأخرت الجزية مرة أخرى فهدد قايتباى باستخدام القوة ، فوصلته الجزية عام ١٤٧٩ م . وقدرت البندقية أهمية الجزيرة فى الدفاع عن مصالحها وتجارتها فى شرق البحر المتوسط ، واستطاعت أن تقنع كاترين بالتنازل عن الحكم للبندقية ، وتم ذلك فى عام ١٤٨٩ م ، وانتقلت الملكة لتقضى بقية أيامها فى البندقية . وسافر الحاكم البندقى الجديد للقاهرة ، وأوضح للسلطان المماليكى قايتباى الأمر مؤكدا التبعية وضمان وصول الجزية بانتظام . وفى عام ١٤٩٠ أرسل قايتباى لدوج البندقية رسالة يبلغه فيها موافقته على الوضع الجديد للجزيرة مع مراعاة سكانها وحقوقهم ومعاملتهم معاملة طيبة . (٥١)

وفى عام ١٤٩٠ وصلت للسلطان قايتباى استغاثة من الأمير « أبو عبد الله محمد » صاحب غرناطة يطلب العون لصد هجمات فردناند ملك اسبانيا المسيحية ، وكان السلطان قايتباى مشغولا بحروب التركمان والعثمانيين ، فاكتفى بارسال تهديد لملك اسبانيا والبابا بهدم كنيسة القيامة بالقدس ومنع الحج للأراضى المقدسة بفلسطين . ولكن تهديداته لم تؤد لنتيجة ما ، وسلمت غرناطة للملك فردناند الثانى عام ١٤٩١ بشرط أن يبقى المسلمون بها دون ايذاء فى أموالهم أو أرواحهم

---

(٥١) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٢ ــ ١٨٥ .
سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .
توفيق اسكندر : وثائق تنازل مصر عن حكم قبرص للبندقية ــ انظر المراجع .
— Mas Latrie, Op. Cit. T. II pp. 391 N. 3. & pp. 472-478 481-483.

أو دينهم ، وطويت بـذلك صـفحة رائعـة من تاريخ الاسـلام فى أوربا . (٥٢)

وفى ٢٠ ابريل ١٥٠١ ولى الحكم بالقاهرة السلطان « الأشرف قانصوه الغورى » ، وكان عمره ٦٠ عاما ، غير أنه أثبت للأمراء أنه ليس مطية عجوزا ، ولما كانت الميزانية فى حالة افلاس فقد لجأ الغورى الى الأهالى يجمع المال منهم بوسائل شتى، فأخضع للضرائب السلطانية المباشرة جميع الأراضى والحمامات والسـواقى والطواحين والقوارب ودواب الحمل ، كما فرض على اليهود والمسيحيين أموالا كثيرة ، وطلب دفع الضرائب مقدما لعدة سنوات ، وأنقص وزن العملة . (٥٣) وفى عام ١٤٩٨ نزل البرتغاليون فى قاليقوط بساحل الهند الغربى ، بعـد أن داروا حول افريقية ، وأخذوا يعملون على توجيه تجارة التوابل من الاسكندرية الى لشبونة ، ووصلت رسائل احتجاج من السلطان الغورى الى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال عام ١٥٠٤/١٥٠٧ ، وفيها هدد السلطان بهدم كنيسة القيامة ومنع الحج الى الأراضى المسيحية المقدسـة فى فلسـطين اذا لم يكف البرتغاليون عن تهديد التجارة المماليكية . ولما لم يجد الغورى استجابة لطلباته أرسل حملة بحرية الى الهند ، وتحالف مع ملوكها المعادين للبرتغاليين ، واستطاع الأمير حسين قائد الأسطول المماليكى ــ بمعونة أسطول مملكة «جوجيرات» ــ أن يهزم البرتغاليين عند « شول » حيث قتل القائد البرتغـالى « لورنزو دالميديا » عام ١٥٠٨ . .وبعد ذلك بشـهور قليلة انتقم « فرنسسكو دالميديا » نائب الملك البرتغالى بالهند لموت ابنه لورنزو ، وحطم أسطول

---

(٥٢) سلمت غرناطة فى ديسمبر ١٤٩١ م/صفر ٨٩٧ هـ . انظر :
محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ص ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ الى ٢٣٧ .

(٥٣) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٩ .

المماليك والأسطول المتحالف معه فى وقعه «ديو» ١٥٠٩ . (٥٤) وكان لهزيمة ديو وقع شديد فى القاهرة ، وطلب السلطان الغورى العون العسكرى من البندقية لمواصلة القتال ضد البرتغاليين فى الهند فنصحه البنادقة بأن يتوجه بطلبه الى السلطان بايزيد الثانى العثمانى لحرج موقفهم أمام الدول المسيحية ، واستجاب السلطان بايزيد الثانى وأرسل الأسلحة للسلطان الغورى ، وكذلك الأخشاب عام ١٥١٠ . ولم تكد السفن تبارح الموانىء العثمانية حتى هاجمها فرسان القديس يوحنا وأغرقوا بعضها وأسروا البعض الآخر . (٥٥) فغضب السلطان الغورى وانتقم من الأجانب فى بلاده وخاصة البنادقة ، لظنه أنهم وشوا به لفرسان رودس . وجاء حادث ضبط الرسائل المتبادلة بين قنصل البندقية فى دمشق والشاه اسماعيل الصفوى فى فارس تأكيدا للشكوك التى حامت حول البنادقة ، فقبض على القنصل وأودعه مع بعض مواطنيه سجون القاهرة حتى وصلت بعثة تريفيزانى من الهند عام ١٥١١م وسويت المشكلة فى معاهدة ١٥١٢ م . (٥٦)

ومنذ عام ١٥٠٢ والشاه اسماعيل الصفوى الذى ولى الحكم فى فارس يعمل على توسيع رقعة بلاده غربا ، فضم اليه أملاك قبيلتى الشاه البيضاء والشاه السوداء ، واقترب من أطراف الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى ودولة سلاطين المماليك بشمال الشام والعراق ، وكان الخلاف قد زاد بين الشيعة الصفويين والسنة العثمانيين بصورة واضحة منذ عهد السلطان بايزيد الثانى العثمانى ، ولم تلبث أن قامت الحرب عام ١٥١٤ بين القوتين المتصارعتين على عهد السلطان سليم

---

(٥٤) — Lane Poole, India, pp. 176, 177.
— Lane Poole, A Hist. of Egypt In The Middle Ages ; pp. 350-352.

(٥٥) تاريخ المركة ١٠ اغسطس ١٥١٠ .
— Heyd, Op. Cit., T. II pp. 537, 538.

(٥٦) انظر معاهدة تريفيزانى بالملحق برقم ١٣ أ ومابعدها .
— Heyd, Ibid, p. 539,

الأول العثمانى الذى خلف والده بايزيد الثانى عام ١٥١٢ • (٥٧) وبدت أهمية الدولة المماليكية ، وخاصة أملاكها على الأطراف الشمالية فى الصراع بين الشيعة والسنة ، وحاول كل من الشاه اسماعيل الصفوى والسلطان سليم الأول التحالف مع المماليك على حدة ، ولكن السلطان الغورى فضل الحياد ، مع العلم بأنه راسل الشاه سرا فيما بعد واستقبل قصاده دفعا لعداوته (٥٨) . واستطاع السلطان سليم الأول أن يهزم الصفويين فى موقعة تشالديران عام ١٥١٤ م ودخل العاصمة تبريز وهدمها ونجا الشاه اسماعيل الصفوى من الأسر واكتفى السلطان سليم الأول بهذا النصر ، وعاد بعد أن استولى على كردستان وديار بكر ومرعش وأبلستين وباقى أملاك دلغادر ، وكان الأمير على بك ابن شاه سوار الذى قتل على عهد السلطان قايتباى قد خلف علاء الدولة دلغادر عام ١٥١٥ وصار تابعا للسلطان سليم الأول . وباستيلاء السلطان سليم الأول على هذه الامارة ، أصبح فعلا على مقربة من الأطراف المماليكية الشمالية . (٥٩)

والواقع أن الخلاف بين المماليك والعثمانيين كان لابد أن يصل الى نهايته المحتومة ، فلم تكن المناوشات والحروب منذ أيام السلطان قايتباى وبايزيد الثانى الا تمهيدا للمعركة الفاصلة التى وقعت على عهد السلطان سليم الأول . ولما تجاورت حدود الدولة العثمانية بأطراف الدولة المماليكية الشمالية وضحت نية العثمانيين . (٦٠) فلا عداء الغورى ولا ايواءه الأمراء الفارين ولا معاهداته السرية مع الشاه الصفوى كانت سببا فى النكبة التى حلت بدولة سلاطين المماليك، انما

---

(٥٧) — Lane Poole, Turkey, p. 141.

(٥٨) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٨ (طبعة محمد مصطفى) •
القرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ص ٣٣٨ — ٣٣٩ •

(٥٩) — Lane Poole, Turkey, p. 158.

(٦٠) زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ص ٢١٦ مجلة الجمعية التاريخية مايو ١٩٥٢ •
— Ziada, Op. Cit. p. [illegible]

هى الرغبة فى التوسع وتأمين أطراف الدولة العثمانية (٦١) . فلم يكد ينتهى سليم الأول من الشاه الصفوى حتى دفع بجيوشه الى المعركة فى الشام والتقى بالسلطان الغورى عند مرج دابق ١٥١٦ م وكان أن انهزم المماليك وسقط الغورى صريعا بسبب الخيانة بين صفوف المماليك مما عجل بالهزيمة . ووصلت الأنباء الى القاهرة فأقام الأمراء العادل طومانباى الثانى سلطانا فى ٧ أكتوبر من عام ١٥١٦ . (٦٢) وبذل طومانباى جهودا يائسة لوقف الزحف العثمانى على القاهرة ، ولكنه تقهقر عند الريدانية ١٥١٧ . (٦٣) وفى اليوم التالى أعلن سليم الأول سلطانا على مصر والشام ودعى له على المنابر ، واستمر طومانباى يقاوم فى الجيزة والصعيد والبحيرة حتى سلمه أحد رؤساء القبائل من البدو للعثمانيين وشنق على باب زويلة فى ٥ من أبريل عام ١٥١٧ . (٦٤)

ويقال ان طومانباى طلب المعونة العسكرية من فرسان القديس يوحنا فى رودس وأنهم أرسلوا اليه معدات حربية عن طريق ميناء دمياط ، ولكن ابن اياس المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث يكذب الواقعة (٦٥) . وقد نقل السلطان سليم الأول الخليفة العباسى

(٦١) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٦١ (طبعة محمد مصطفى) .
— Ziada, Ibid, p. 215.

(٦٢) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٥ ص ٦٨ و ٦٩ (طبعة محمد مصطفى) .
ابن زنبل الرمال : كتاب تاريخ السلطان سليم (مخطوطة) ورقة ١٤ وعن تولية طومانباى ورقة ٢٢ .
ابن اياس : المصدر السابق جـ ٥ ص ٧٠ و ٧١ و ١٠١ ــ ١٠٢ .
« لم يقع لملوك بنى عثمان مثل هذه النصرة على أحد الملوك قاطبة كما لم يقع قط لأحد سلاطين مصر مثل هذه الكائنة أو مات تحت صنجقة فى يوم الحرب » .

(٦٣) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤٢ و ١٤٣ ــ ١٤٧ .
ابن زنبل : المصدر السابق ورقة ٢٩ ــ ٣٧ و ٣٨ .

(٦٤) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٠٩ ــ ٣١١ .
زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ .
— Lane Poole, Turkey, pp. 158, 159, 160, 161.

(٦٥) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢٩٣ ــ ٣١٩ .

للقسطنطينية . وجاءه وهو بالقاهرة ابن شريف مكة وسـلمه مفاتيح الكعبة ، وكان هـذا أقصى ما يتمنـاه سـليم الأول ليصـبح خليفة للمسلمين . وفى عودته للقسطنطينية استولى على جزيرة قبرص ونظم جزيتها .

ويعتبر سقوط بلاد الشام ومصر فى يد العثمانيين أهم أحداث أواخر العصور الوسطى بعد فتح القسطنطينية وكشف الطريق البحرى حول افريقية الى الهند .

الفصل الثانى

العلاقات التجارية الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغربه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر

الشرق والغرب من المصطلحات النسبية التى تطبق على أى اقليم. وقد اتبعت فى هذا البحث ما جـرى عليه، معظم المؤرخين الأوربيين والأمريكيين لفترة العصـــور الوسطى ، اذ يطلقون كلمة الشرق على القارة الآسيوية كلها بما فى ذلك شرق البحر المتوسط والبلاد الناطقة بالضاد ، ويضيفون الى ذلك البلقان والبلاد التى كان يحتلها العرب مهما قرب موقعها الجغرافى من الغرب . أما الغرب عندهم فهو الجزء من أوربا الذى يقع غربى البحر الادرياتى ونهر الألب . وعلى هـــذا فالدراسة هنا تتعلق أســاسا بالعلاقات التى قامت فى حوض البحر المتوسط بصفته مركزا للاتصال بين الشرق والغرب ، على أن اسبانيا وصقلية لا تعـــدان من البـــلاد الغربية الا بعد خروج العرب والروم منهمـــا (*) .

وعلى هذا النحو فقد ظلت مصر والشام وموانيهما على البحر المتوسط والبحر الأحمر مراكز للاتصال التجارى بين المحيط الهندى وشرق آسيا، والمحيط الأطلسى وغرب أوربا ، حتى نهاية العصـــــور الوسطى ، فتجمعت فى أسواقهما المتاجر الشرقية والغربية ، ووقع عبء

(*) افاض فى هذا المعنى اروبرت لوبيز (Robert Lopez) فى مقاله «التاثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب المنشور بالمجلة الدولية التى تصدرها اليونسكو باسم Cahier D'Histoire International
المجلد الثالث يناير ١٩٥٤ ــ وقد قام بنقله الى العربية الدكتور توفيق اسكندر فى كتاب « بحوث فى التاريخ الاقتصادى » ــ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦١ ــ البحث الخامس ص ١٤٢ الى ١٨٧ .

نقلها وتوزيعها على عاتق التجار العرب وتجـار المدن والجمهوريات الايطالية والفرنسيين والقطالونيين .

وأدى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ فى يد الأتراك العثمانيين وما صاحب ذلك من عمليات حربية برية وبحرية واسعة ، الى ارتباك التجارة وانهيار طرقها البرية والبحرية من آسـيا وأوربا عبر البحر الأسود والأناضول والمضايق ، اذ أصبح المرور بها أمرا محفوفا بالكثير من المخاطر . هذا الى أن السلطات العثمانية أولت كل اهتمامها للعمليات الحربية فى محاولة منها لتثبيت أقدامها فى أوربا فلم تهتم بالتجارة ، بل انها قبضت على الجاليات الأجنبية التى احتكرت التجارة فى المنطقة منذ أمد بعيد ، وخاصة تجار المدن والجمهوريات الايطالية لمساعدتهم البيزنطيين فى العمليات الحربية ، فأنهت الوكالات والمصارف أعمالها ، وأغلقت الأسواق . ورحل بعض التجار الى بلادهم ، واتجه الآخرون الى فروع وكالاتهم فى بلاد السلطنة المماليكية بمصر وسوريا . (١)

وفى مصر اتخذ السـلطان اينال ١٤٥٣/١٤٦٠ اجراءات أمن مشددة يتطلبها الوضع الجديد الذى نجم عن سقوط القسطنطينية ، فتحفظت السلطات المماليكية على سفن وسلع وكالات التجار الأجانب، ولكن بعد عودة بعثة الشرف المماليكية التى أرسلت لتهنئة السـلطان

---

(١) الملاحظ أنه فى فترة الصراع على القسطنطينية ١٤٥٣ حاولت الجمهوريـات الايطالية ذات المصالح التجارية فى المدينة حماية مصالحها ، فراسلت السلطان محمد الثانى ، فى الوقت الذى كانت تساعد فيه البيزنطيين سرا لتنال من المنتصر مزايا جديدة. كما يلاحظ أيضا أن عدم اهتمام العثمانيين بالتجارة فى ذلك الوقت ليس مرجعه التأخر أو العجز أو الاهمال ، ولكن فى عام ١٤٥٣ كان لدى العثمانيين ماهو أهم من التجارة ، كان لديهم الفتح والتوسع وتأمين الامبراطورية . وقد أثبتت الحوادث ذلك فيما بعد .

— Heyd, Op. Cit. T. II pp. 349 ff. & 428, 429-440.
— Millet, Hist. Des Faites Economiques pp. 110, 111 & 131. ff.
— Pernaud, Les Villes Marchands, pp. 52-56.
— Poston, The Cambridge Economic Hist., P. II pp. 99-102.
— Cioli, Hist. Economique, pp. 106, 107.
— Depping, Hist. Du Commerce, T. I. p. 74. & T. II. pp. 207, 208.

محمد الثانى العثمانى بالفتح العظيم ، اتخذ السـلطان اينال تدابيره لمواجهة تدفق الأعداد الضخمة من هؤلاء التجار الأجانب وما صاحبه من انتعاش ملحوظ فى التجارة الخارجية للدولة المماليكية ، فزاد من الاعفاءات الممنوحة لهم ، وخاصة من يكثر التردد أو تطول مدة اقامته فى مصر وسوريا ، وسمح لهم بتوسيع وكالاتهم وتجديدها ، وانشاء المصـارف والمخازن والفنادق . كمـا أجاز تعيين وكلاء لقناصلهم فى بعض المرافق والموانىء والمراكز التجارية الداخلية للاشراف على عمليات البيع والشراء والمقايضة وتحصيل الرسوم المحلية والجمركية وتسليمها للسـلطات الحاكمة . وقد نشـطت العمليات المصرفية بعد نقل مراكز التجارة الرئيسية من القسطنطينية الى مصر والشـام التى طبقت فى مدنها وموانيها نفس القوانين المعمول بها فى مصر ، فاكتظت بالتجار الأجانب المبعدين من القسطنطينية والذين فضـلوا الموانىء والمدن السورية لقربها من مراكز التجارة فى وسط آسيا ، وآسيا الصغرى والخليج الفارسى ، فحفلت أسـواقها بسلع الصـين والهند وفارس وسلطانية مما لا يتوافر طول العام فى أسواق مصر . وقد تضمنت المعاهدات الجـديدة كل هذه الامتيـازات ، كما أكدت الاتفاقيات السـابقة .

وكانت البابوية قد لمست بنفسها مايعانيه تجار المدن والجمهوريات الايطالية من السلطات العثمانية بعد سقوط الدولة البيزنطية ، وتحت ضغط تجار هذه الجمهوريات وتجار فرنسا وقطالونيا سلكت البابوية مسلكا واقعيا ، فقد لاحظت أن التجار يحترمون قوانين المقاطعة ضد الدول الاسـلامية فى الظـاهر وينقضونها سرا ، فخففت من قيود التحريم ، وأباحت للتجار التعامل مع الدولة المماليكية ، وخاصة فى استيراد البخور والحرير والسلع اللازمة للكنيسة ، تعويضا لهم عن فقد أسواق القسطنطينية ، وان كانوا قد منعوا من تصـدير المواد الحربية والأخشاب لصنع السـفن ، وأصبحت قوانين التحريم المعدلة

تقليدا يقرها كل بابا يلي كرسي روما الديني . (٢)

ومنذ عهد السلطان اينال ، ومن بعده ابنه السلطان أحمد ١٤٦١ ، ووفود الجمهوريات الايطالية تصل الى مصر لتجديد وتدعيم مراكزها التجارية ، ومن بينها وفود جنوة التى طالما انتشر تجارها فى مدن وموانىء مصر والشام ، وكانوا قد نجحوا منذ أواخر القرن الرابع عشر فى تدعيم كيانهم التجارى ببلاد السلطنة المماليكية بسبب ماحدث لجنوة من ارتباكات سياسية ومالية أدت الى تدخل فرنسا فى شئونها الداخلية ، وزاد من مأساتها اصابتها بنكسة شديدة فى تجارتها الشرقية بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، ثم ضياع أملاكها وتجارتها تماما فى امبراطورية طرابيزون على البحر الأسود التى اكتسحها السلطان محمد الثانى العثمانى عام ١٤٦١ . وقد وجد الجنويون أن حياتهم مرتبطة باستئناف التجارة فى بلاد السلطان المماليكى فى ظل النظام الجديد ، فمنعوا تهجم سفن أسطولهم الحربى على سواحل مصر والشام وقبرص ، ومنعوا كذلك غارات قراصنتهم ، ومع ذلك فان هذا النشاط كان صحوة الموت بالنسبة لجنوة كجمهورية لها كيان سياسى ، وكيان اقتصادى مستقل . (٣)

---

(٢) هذا الازدهار العظيم الذى شمل التجارة المماليكية منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ الى ظهور البرتغاليين فى المياه الهندية ١٤٩٨ ، والذى استمر قرابة نصف قرن خبت جذوته فى الربع الأول من القرن ١٦ وبالضبط حتى سقوط مصر فى أيدى ، العثمانيين ١٥١٧ وتحول التجارة تماما الى طريق رأس الرجاء الصالح ، لذا يعتبر عام ١٤٥٣ بداية النهاية للعصر الذهبي لتجارة شرق البحر المتوسط .

— فيشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى القسم الثاني — ترجمة زيادة والعرينى حاشية ص ٤٢٦ .

(٣)
— Poston, Op. Cit., pp. 341, 342.
— Pernaud, Op. Cit., pp. 61, 62 ff.
— Clerget, Le Caire, T. II. p. 303.
— Dopp, l'Egypte Au Gommencement Du 15ème Siécle. p. 59 fr.
— Heyd, Op. Cit., T. II. pp. 440-456-459, 460.
— Depping, Op. Cit., T. II. pp. 170, 171 & T.I. p. 81.
— Ziada, Op. Cit., pp. 218-221.
— Pernaud, Op. Cit. pp. 39, 40.
— Heyd, Op. Cit., pp. 469, 470.

واستقبلت القاهرة كذلك على عهد السلطان اينال بعثة الملك لويس الحادى عشر الفرنسى للتهنئة باعتلائه السلطنة ولتجديد وتأكيد التعاون التجارى ، وقد أبلغت البعثة السلطان أن شركة جاك كير الفرنسية للتجارة الشرقية وفروعها وأملاكها فى أوربا وشرق البحر المتوسط قد آلت الى الحكومة الفرنسية ، وطالبت البعثة السلطان باعتماد موظفى الشركة فى بلاده على وضعهم الجديد ، وتم عقد اتفاقية جديدة عام ١٤٥٦ ، واستأنف وكلاء الشركة وموظفوها أعمالهم فى مصر والشام فى ظل الادارة الجديدة . ولكن أعمال المؤسسة فى نظامها الحكومى أخذت تدب اليها عوامل الانهيار والتفكك لخضوعها لقوانين حكومية فرنسية غير متطورة — ويبدو أن ازدهار الشركة وفروعها كان موقوتا ببقاء مؤسسها التاجر جاك كير فى مركزه الممتاز ببلاط ملك فرنسا وبقدرته على ادارة الشركة وبراعته فى الحصول على الامتيازات والاعفاءات من السلطات المماليكية . وكانت الشركة تعمل على نقل وتسويق المتاجر الشرقية من الاسكندرية ودمشق وبيروت الى فرنسا وسائر الدول الأوربية . بل ان التغييرات الهامة فى تجارة فرنسا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ترجع فى المقدمة الى جهود هذا التاجر الذى خبر أحوال التجارة من خلال فترة تردده الطويلة على مصر والشام وقيامه بانشاء علاقات مباشرة بين فرنسا والسلطنة المماليكية وحصوله من بابا روما وملوك فرنسا وقطالونيا على امتياز احتكار أنواع معينة من السلع ، ينقلها بأسطول ضخم على خطوط ملاحة منتظمة من قاعدة أعماله فى مونتبيليه . وبلغ عدد فروع شركة جاك كير ٣٠٠ فرع توزعت ما بين دول غرب أوربا وشرق البحر المتوسط وساندتها الأنظمة المالية والمصرفية المعروفة اذ ذاك . وبلغ من شدة ثرائه أنه كان يقرض الملوك والحكومات أموالا طائلة بضمانات عينية كما حملت سفنه الى مصر والشام الأصواف والمعادن والفواكه والزيوت والحرير ، وعادت بالتوابل والبهار والقطن والجواهر والعاج والعقاقير

والصبغات وريش النعام ، وكلها مما كان يلقى رواجا كبيرا فى أسواق أوربا . (٤) .

وحتى عهد السلطان اينال كانت شركة التجارة الفرنسية جاك كير تمون أسواق قطالونيا بالسلع الشرقية بدلامن تجار قطالونيا الذين أوقفوا أعمال تجارتهم فى مصر والشام ، فلما قل نشاط الشركة الفرنسية طالبت هيئة التجار القطالنة الملك الفونسو الخامس ١٤١٦/١٤٥٨ أن يستعيد لهم مراكزهم التجارية فى بلاد السلطان المماليكى ، واستجاب

(٤) معظم اتصال فرنسا التجارى مع شرق البحر المتوسط كان مع موانيها الجنوبية فى طولون ومرسيليا ومونتبيبيه Montipiller وقد ازدهر هذا الميناء فى القرن ١٥ على عهد التاجر الفرنسى جاك كير Jacque Coeur الذى اتخذها مركزا ، لاعماله التجارية الى الشرق العربى والغرب الأوربى ومركزا لتجارته ومصارفه كما كان على صلة وثيقة بميناء الاسكندرية ودولة سلاطين المماليك حتى عام ١٥١٧ . وميناؤها كان على استعداد دائما لاستقبال أكبر عدد من السفن فى وقت واحد مما لا يتوافر فى كثير من موانىء فرنسا الأخرى . أما موانىء فرنسا على الاطلنطى. فلم تتصل مباشرة بشرق البحر المتوسط وان ذكر أن فرنسيس الثانى دوق مقاطعة بريتانى عقد معاهدة تجارية مع السلطان قايتباى عام ١٤٧٩ سمح بموجبها لتجار هذه المقاطعة بورود الأسواق المصرية والشامية . راجع
— Ziada, Op. Cit., p. 243.
— Heyd, Op. Cit. pp. 713, 714.

ويرجع قلة اتصال مدن غرب أوربا بشرق البحر المتوسط مباشرة الى انتشار القراصنة الأسبان فى منطقة جبل طارق وخاصة خلال الصراع بين مسلمى الأندلس والقطالنة على عهد الملك فردناند الثانى ، ففضل التجار الغربيون وصول متاجر الشرق اليهم عن طريق مدن وموانىء ايطاليا ، ثم برا الى أوربا .
— Heyd, Op. Cit., pp. 718-720.

أما التاجر جاك كير فقد شغل نشاطه فترة هامة من تجارة الشرق على عهد السلطان جقمق حتى عهد السلطان اينال ١٤٣٨/١٤٥٦ وظهر فى بلاط فرنسا على عهد الملك شارل السابع الذى استدعاه وأسند اليه منصب مدير دار السكة ثم اختاره رئيسا للبلاط الملكى ومنحه لقب نبيل ورفع أفراد أسرته الى مصاف النبلاء . ولم يبخل هذا التاجر بجهوده على بلاده فرفعها الى مصاف الدول العظمى التجارية حتى أصبح مواطنوه من أكثر الجاليات رعاية فى بلاط السلطان المماليكى واصبح لفرنسا قنصلا فى مصر . الا أن شارل السابع ما لبث أن تنير عليه عام ١٤٥٠ لاتهامه بقتل احدى محظيات الملك ، كما اتهم ببيع الأسلحة للمماليك ، وهرب التاجر الفرنسى الى صديقه البابا نيقولا الخامس ، وكان هذا يجهز حملة ضد العثمانيين . وعلى عهد خلفه قاد التاجر الفرنسى أسطولا من ١٦ سفينة حربية لنجدة رودس وفى الطريق مرض وتخلف فى جزيرة خيوس Chios حيث مات عام ١٤٥٦ . راجع
— Camb. Modern Hist., Vol. I p. 504.
— Ziada, Op. Cit. pp. 221 & 240-243.

الملك لهذا الطلب وبدأ بمنع تهجم القراصنة القطالونيين على السفن المماليكية فى البحر المتوسط ، وأرسل البعثات الودية للقاهرة ، ومالبث تجار قطالونيا أن ظهروا فى أسواق الشام ومصر وعادوا الى وكالاتهم وفنادقهم واستأنف قناصلهم أعمالهم الرسمية وحملت سفنهم السلع الشرقية والتوابل والقطن من الاسكندرية وبيروت لمصانع الغزل فى برشلونة . وهكذا يرجع لهيئة التجار القطالنة الفضل فى استئناف واستمرار العلاقات الطيبة بين ملوك قطالونيا والسلاطين المماليك. وتحفل دار المحفوظات ومكتبة الجامعة فى برشلونة بالعديد من المعاهدات والاتفاقيات التجارية وخطابات التوصية المتبادلة بين ملوك قطالونيا والمماليك ، ومن بينها مخطوطة على عهد السلطان اينال منسوبة الى تاجر برشلونى يدعى « بونس » وتحمل تاريخ ١٤٥٥ ــ عدد فيها التاجر السلع المتبادلة مع مصر « كالتوابل والزنجبيل والقرفة وجوزة الطيب والمسك ومواد الصباغة والدباغة والصمغ والدهون والكهرمان والحنظل والحنطة والسكر والقطن محلوجا وغير محلوج والملابس والحرير والعطور والعقاقير » . وكلها من السلع الشرقية التى كانت تحتل المقام الأول فى تجارة أوربا الخارجية . ثم قائمة أخرى بالسلع المصدرة لمصر ومنها « زيت الأندلس والعسل والصابون والجوز والسمك والنبيذ والملح البحرى والقطران وجلود الحيوانات وقشر الأشجار والصودا والزنجفر والمرجان والفواكه المجففة واللوز وأبوفروة والشمع والزعفران والأقمشة المنسوجة القطنية والصوفية والحريرية والجوخ والأطلس والمخمل والخيش الناعم والخشن منسوجا وغير منسوج والأثاث وقلوع السفن وحبالها من الكتان وكذلك المصنوعات الحديدية والقصدير والصفيح والرصاص والنحاس والزئبق والكبريت وأحجار الطواحين .. (٥)

---

(٥) ولى الملك الفونسو الخامس الحكم فى اراجونا عام ١٤١٦ حتى عام ١٤٥٨ ، وقضى أعواما طوالا فى فتح مملكة نابلى حتى توج ملكا عليها وقام بنشاط اقتصادى واسع=

أما تجار البندقية فكانت فترة حكم السلطان اينال بداية طيبة لزيادة نشاطهم التجارى فى مصر والشام وخاصة بعد توتر العلاقات بينهم وبين العثمانيين ، فعملوا على تنمية مراكزهم التجارية وتدعيمها وتثبيت أقدامهم فى بلاد السلطان المماليكى تعويضا لهم عما فقدوه من أسواق القسطنطينية ، وان كانوا قد طمعوا فى استرداد مراكزهم السابقة التى أصبحت تحت سيطرة السلطات العثمانية ، فبعد أن هدأت الأحوال الحربية عاودوا الاتصال بالسلطان محمد الثانى العثمانى وأبرموا معه اتفاقية تجارية عاد بموجبها التجار البنادقة الى استئناف نشاطهم التجارى فى مراكزهم السابقة وفى نفوسهم آمال عريضة بالمتاجرة فى المورة وعلى البحر الأسود . والواقع أن الاتصال بين البنادقة والعثمانيين كان فيه كثير من التساهل بين الجانبين ، ولعب الخيال فى الاتفاقية دورا كبيرا وبرهنت الأيام على صدق هذا القول ، اذ لاحظ البنادقة أن العثمانيين ــ سادة وشعبا ــ بعيدون تماما عن الحضارة والمدنية اللتين كانتا للبيزنطيين ، كما أن اهتمامهم بالتجارة كان

= المدى فى حوض البحر المتوسط الشرقى والغربى وعقد معاهدات سياسية واقتصادية مع الدول الاسلامية ، وكان أهم أهدافه توثيق العلاقات مع مصر بالذات كمحور ، للنشاط الاسلامى وأكبر دولة اسلامية حتى ذلك الوقت فى شرق البحر المتوسط بل وفى غربه أيضا فضلا عن مركزها التجارى وموقعها الجغرافى • راجع : المجلة عدد يناير ١٩٦١ ص ٨٩ ومابعدها ، بحث/الطاهر احمد مكى عن التجارة بين مصر وقطالونيا •

— Heyd, Op. Cit. pp. 482-483.

وقد نقل الطاهر مكى معاهدة بين قطالونيا والسلطات المماليكية عن الأصل العربى المحفوظ بأرشيف برشلونة على عهد الملك الفونسو الخامس عام ١٤١٦/١٤٥٨ والسلطان الأشرف برسباى عام ١٤٢٢/١٤٣٨ وتحمل تاريخ ٧ رمضان ٨٣٣ هـ ، ومع أنها تسبق فترة البحث الا أنها ظلت سارية المفعول ، اذ أن المعاهدات كانت تتجدد كلما تغير حاكم فى مصر أو فى أراجونا عن طريق تبادل السفارات ويصدر بها مراسيم تؤكد المعاهدات السابقة وملاحق بالامتيازات والاعفاءات الجديدة •

راجع : المجلة : عدد سبتمبر ١٩٦٠ من ص ٤٨ ــ ٥٩ ، والتعليق بعدد يناير عام ١٩٦١ ص ٨٨ وما بعدها • وفى التعليق ملحق بالوثيقة جدول بالسلع المتبادلة وتذكر الوثيقة اسم التاجر وهو بونس «Bons»

— Depping, Op. Cit., T.I. p. 260.

بالقدر اللازم للحصول على الأموال فزادوا الضرائب التى قللت من أرباح التجار ، كما أن السلطان العثمانى حصن مداخل المضايق وأخضع السفن التجارية المارة بها للتفتيش الدقيق ، وتحمل البنادقة الكثير من العنت والارهاق من أعمال السلطان العثمانى مما جعلهم يترحمون على الأيام التى مرت فى ظل الحكم البيزنطى ويعملون فى الوقت نفسه على تأكيد وتثبيت كيانهم فى بلاد السلطان المماليكى بمصر والشام . (٦) وانتهزوا فرصة انهيار الشركة الفرنسية « كير » وأرسلوا سفارة الى مصر وصلت أواخر عهد السلطان اينال ، واستمرت فى مفاوضاتها خلال الفترة القصيرة التى حكم فيها ابنه السلطان أحمد وعقدت الاتفاقية عام ١٤٦١ ، تأكدت بها المعاهدات والاتفاقيات السابقة ــ كما زادت فترة المدة الخاصة بهم ليتمكنوا من شراء ما يلزمهم من السلع الشرقية تعويضا عن النقص من أسواق بلاد الدولة العثمانية، وكذلك أعادوا تنظيم رحلات سفنهم التجارية القاصدة موانىء بيروت وصيدا والاسكندرية وشددوا عليها الحراسة لاتساع نطاق الحرب مع العثمانيين فى المياه الاغريقية ، وأمدوا المماليك بالأخشاب والمواد الحربية متحدين بذلك التحريمات البابوية ، وجعلوا سفنا خاصة بالشام تبدأ رحلتها فى الفترة من ٨ ــ ٢٥ من أغسطس وتتكون كل قافلة من ثلاث سفن، ويتردد أفرادها على مدن وموانىء الشام، وتحمل القطن من صور وصيدا وحيفا ــ أما رحلة الخريف فتتجه الى الاسكندرية وتترك بسفنها فراغا لحمل سلع أخرى من ميناء بيروت قبل عودتها الى

---

(٦) أول المعاهدات التجارية بين السلطان محمد الثانى العثمانى والبنادقة بتاريخ ١٨ ابريل عام ١٤٥٤ بعد فتح القسطنطينية (انظر الملحق رقم ١٧) وراجع كذلك شارل ديل: البندقية جمهورية ارستقراطية ترجمة غربال وعزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ص ١٣٧ و ١٣٨ .

— Heyd, Op. Cit., p. 316-320.
— Hammer ; Op. Cit., T. III pp. 30-64 and p. 240.
— Camb. Modern Hist. Vol. I p. 280.
— Depping ; Op. Cit., pp. 227, 228 & N. p. 341.

البندقية . (٧) وأسهمت كثير من بيوتات البندقية التجارية وأسرها فى التجارة الشرقية ، واتخذوا دمشق مركزا رئيسيا لنشاطهم ، وآقاموا بها الوكالات والفنادق والقنصليات والمصارف ، وطبقوا بها الأنظمة المالية والمصرفية المتبعة فى بلادهم ومنحهم السلطان اينال تسهيلات تجارية واسعة وحريات شخصية فسمح لهم بادخال النبيذ فى فنادقهم لحاجتهم الشخصية فقط ، واعتمد قنصلهم كممثل لجمهورية البندقية والمشرف على مواطنيه مدة وجودهم فى بلاده ، كما سمح لهم أحيانا بالوصول الى القاهرة للبيع والشراء ، وأجازت الدولة استمرار التعامل بالدوكات البندقى عملة رسمية لتسهيل الأعمال التجارية مع الحكومات والأهالى . وقد تناول السلطان الدوكات بالخفض والتغيير كلما زادت احتياجاته للمال مع الاحتفاظ بقيمته الاسمية ، وكذلك للضرب على أيدى الزغلية مزيفى النقود الذين زادوا فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر . (٨) وأوصت الحكومة عمالها بمراعاة مصالح البنادقة وراحة تجارهم . الا أن الطرفين اختلفا فى تحديد أسعار بعض السلع ، كعود الند ، وأخشاب الصباغة ، والسجاد ، واليورسلين ، والبلسم ، نظرا لزيادة الطلب عليها مما حدا بالسلطان اينال الى تأكيد احتكاره لها ولبعض السلع الأخرى الشرقية . (٩) فجعل سعر الحمل من توابل الذخيرة الشريفة الخاصة به والمعروفة بالسلطانية مائة دوكات، كما حدد كميات وأسعار ما يعرض منها بالسوق الحر لاجبارهم على شراء التوابل الشريفة أولا . (١٠) ومع هذا لم تضطرب العلاقات على عهد السلطان

(٧) راجع ماكتب عن نظام المدة بفصل « النظم التجارية » : سفن بيروت تحمل اسم Galee Di Baruti وسفن الشام تحمل اسم Galee Di Seria وراجع كذلك — Heyd, Op. Cit. T ; II p. 460, 461.

وقد تحدد شهر اغسطس بالذات لحمل القطن من الشام وشهر سبتمبر لحمله من مصر ــ لتوافق هذا مع مواعيد هبوب الرياح (انظر بعده الفصل الخامس) .

(٨) من هذه الأسر : أسرة Quirini وأسرة Barbarigo وأسرة Storlado والاخوين Marco & Albano Morosini .

اينال وابنه السلطان أحمد الذى حمل البعثة لدى عودتها الى البندقية رسالة ودية لدوق البندقية وأهدى أعضاءها هدايا قيمة (١١) .

ومن المدن والجمهوريات التى أسهمت فى تجارة مصر والشـــام الخارجية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر: بيزا ، وفلورنسا.

وكان لبيزا مع شرق البحر المتوسط تجارة رائعة، بل انها من أولى المدن التجارية التى كان لها وكالات وفنادق فى صور وصيدا وبيروت وبيت المقدس وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والاسكندرية والقاهرة ، وتطبق فى وكالاتها وفنادقها النظم السائدة فى بيزا نفسها، وبقيت كذلك

= راجع :

— walter, J. Fischel, The Spice in The Mameluk Egypt Vol. I Part, II April 1068 p. 286.
— Dopp, Op. Cit., pp. 67,68, Folio 40.
— Heyd, Op. Cit., pp. 482, 483 & 463.

وبخصوص تغيير العملة بالخفض ومحاربة الزغلية مزيفى النقود انظر الفصل الخامس فى موضوع النقد ، وكذلك أنظر :

ـ أبو المحاسن : حوادث الدهور ص ٢٧٨ .

(٩) كانت المتاجر الشرقية شبه احتكار فى يد الكارمية حتى نقلها الى الدولة السلطان الأشرف برسباى ، وأكد السلاطين المتعاقبون هذا الاحتكار حتى نهاية دولة المـــــاليك الجراكسة ، وصار التجار الكارمية موظفين فى الدولة يقومون بجلب التوابل للسلطان ليتولى بعماله بيعها لحسابه . (انظر نظام الاحتكار فى فصل النظم التجارية) .

(١٠) قدرت كمية التوابل الشريفة بحوالى ٢١٠ أحمال ، وفرض على التجار البنادقة شراء هذه الكمية بالسعر الذى يحدده السلطان ، هذا غير توابل السوق الحر . أنظر :

الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧ وما بعدها .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٦٨ (طبعة كاليفورنيا) .

ـ الحمل الاسكندرانى من الفلفل يزن ٥٠٠ رطل فرفورى . أنظر :

ـ توفيق اسكندر نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى ص ٤٢ وانظر كذلك الفصل الخامس بعده .

(١١) كانت السلطات المماليكية على عهد السلطان اينال قد اتخذت بعض الاجراءات الخاصة بالأمن عقب سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، ودققت فى وصول التجار لموانىء مصر والشام . وقد نال التجار الأجانب المستقرين فيهما بعض الأضرار وبخاصة البنادقة ، حتى وصلت ســـفارة بندقية يرأســـها Mefeii Michieli وفاوضت السلطان اينال ثم ابنه السلطان أحمد وبقيت حتى عهد السلطان خشقدم ، وأكدت الاعفاءات السابقة وتعويض البنادقة عن الأضرار التى أصابتهم وتنزيل أسعار التوابل السلطانية والحرة . راجع الخطاب بالملحق برقم (١٥) وكذلك .Depping, Op. Cit., pp. 218 ff —

حتى انضمت الى فلورنسا ، فآلت منشآتها وتجارتها الى الوكالة الفلورنسية فى بلاد السلطان المماليكى (١٢) . وكانت فلورنسا فى فترة تكوينها السياسى قد خاضت غمار حروب عديدة فى ايطاليا ، ولم تستطع منافسة الجمهوريات الايطالية التجارية ، بل انها فشلت فى الاشتراك فى تجارة مصر والشام بصورة فعلية واكتفت بتأجير سفن المدن الأخرى لنقل متاجرها ، وبعد انضمام بيزا لها قامت سفنها برحلتين كل عام لشرق البحر المتوسط ، ولم تلبث أن ازدهرت تجارتها فى وقت بدأت فيه الجمهوريات الايطالية ذات الماضى القديم فى تجارة الشرق تنهار بسبب الصراع العنيف مع القوة النامية فى تركيا (١٣) . ووصلت سفنها عام ١٤٥٣ الى الاسكندرية والى القسطنطينية وبيروت وجهدت لتكوين علاقات طيبة مع حكام المنطقة فلم تتدخل فى الصراع الدموى بين العثمانيين من جانب والبيزنطيين والجمهوريات الايطالية من جانب آخر وبعد سقوط المدينة ، وفى الوقت الذى جهدت فيه البابوية لتأليب القوى المسيحية فى العالم لوقف الزحف العثمانى على شرق أوربا . وصل أسطول فلورنسا التجارى الى ميناء بيرا العثمانى محملا بالذهب والفضة والأصواف والصابون والزيوت ، كما استقبل بعدها حاكم فلورنسا بعثة عثمانية أكدت العلاقات الطيبة بين البلدين فى الوقت الذى كانت تعلق فيه المشانق للأوربيين فى القسطنطينية ، وتوالت

---

(١٢)
— Depping, Ibid, pp. 222 ff.
— Cioli ; Op. Cit., pp. 106, 107.

انظر ما كتب عن الفنادق فى فصل النظم التجارية .

(١٣) تؤرخ اتصالات فلورنسا الفعلية بشرق البحر المتوسط وخاصة مصر والشام، فى ١١ مايو عام ١٤٤٥ حيث حمل المبعوث الفلورنسى Giovenco, Della Stufa رسائل اعتماد وتوصية لسلطان مصر . وكانت الحكومة الفلورنسية قد أصدرت أمرها الى ادارة البحرية بها لعمل الترتيبات اللازمة لارسال سفينتين موسميتين الى الاسكندرية كل عام ومثلهما الى موانىء غرب البحر المتوسط ، ثم زاد حجم التجارة مع شرق البحر المتوسط فتقرر القيام برحلتين سنويا لوانية يتلوهما رحلة السفن الفلورنسية لغرب البحر المتوسط لامكان توزيع السلع الشرقية الواردة من مصر والشام . أنظر :
— Ziada, Op. Cit., p. 245.
— Clive, A Hist. of Commerce T. II p. 990.
— Heyd, Op. Cit., p. II pp. 487-488.

البعثات بين البلدين حرصت فيها السلطات العثمانية على اتخاذ تجار فلورنسا أداة لضرب البنادقة فى صميم مصالحهم التجارية ، حتى انه اتخذ منهم مستشارين فى بلاطه وجواسيس على تجار البندقية مما حدا بالبنادقة الى الاتجاه بكامل ثقلهم الى بلاد السلطان المماليكى (١٤) .

وفى مصر والشام عمل الفلورنسيون على توسيع نطاق تجارتهم ، ولما حاولوا النزول فى فندق بيزا بالاسكندرية بعد انضمامها لفلورنسا، رفضت السلطات المماليكية ، لأن الفندق كان قد أعطى للعثمانيين وأفتى قاضى الاسكندرية بعدم شرعية منحه للأجانب بعد أن آل للمسلمين . ولم يحصل الفلورنسيون بادىء الأمر سوى ما كان لبيزا من امتيازات فى مصر والشام . (١٥) وبقدر ما زاد نفوذ فلورنسا فى بلاد السلطان العثمانى بقدر ما زاد نفوذ البندقية فى بلاد السلطان المماليكى ، وراقبت فلورنسا بعين القلق ازدياد نفوذ البنادقة التجارى فى مصر والشام ، وكانت تحرص دائما على ألا تتفوق أى طائفة عليها فى تجارة شرق البحر المتوسط لاسيما البندقية ، فأولت تحركاتها عناية خاصة، ولما عقد البنادقة معاهدة عام ١٤٦٠/١٤٦١ مع السلطان اينال ، ثم مع ابنه السلطان أحمد، أسرعت فلورنسا فأوفدت سفارة للقاهرة فاوضت السلطان اينال أواخر أيام حكمه ، ثم ابنه السلطان أحمد ، للحصول على نفس الامتيازات التى نالها البنادقة مع تأكيد ماسبق أن منح لبيزا وفلورنسا ، كما وصلت بعثة فلورنسية أخرى على عهد السلطان خشقدم عام ١٤٦٥ يرأسها السفير « برناردو برتولوداى كورسى » للتهنئة ولتأكيد ما لتجارها من امتيازات واعفاءات ، وأبرمت اتفاقية

---

(١٤) — Heyd, Ibid, pp. 337-339.
— Depping, Op. Cit., p. 224.

(١٥) كان يرأس هذه البعثة Mariotto Squarcialupi وقد صار قنصلا لبلاده فى الاسكندرية انظر :

— Heyd, Op. Cit. ; T. II pp. 488, 489.
— Depping, Op. Cit., pp. 222, 223. & 230-232.

جديدة تضمنت نصا جديدا نالت بموجبه حق اعفاء سفنها من الرسوم الجمركية اذا حملت سلعا لبلاد أخرى ولم تفرغها فى موانىء السلطان، ويعتبر هذا أول اعفاء من نوعه لتجار الجمهوريات الايطالية فى مصر والشام ، وكانت السلطات المماليكية تفرض رسوم مرور على مثل هذه السلع (١٦) .

وحتى عهد السلطان اينال ظلت جزيرة قبرص محطا بحريا على الطرق التجارية بين شرق وغرب البحر المتوسط ، بل انها كانت تستخدم فى كثير من الحالات مركزا احتياطيا تبقى فيه السفن التجارية فى فترات النزاع بين الأجانب والسلطات المماليكية فى مصر والشام ، واستمرت منذ عام ١٤٥٣ تتاجر مع موانىء صور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية ، ومع أن الجزيرة كانت تخضع للسلطات المماليكية سياسيا وحربيا وتجاريا الا أن الادارة المالية فيها كانت تخضع لبنك سان جورج الجنوى مما جعل لجنوة شبه اشراف مالى على الجزيرة وبخاصة على ميناء فاما جوستا . وظل هذا الاشراف قائما حتى استطاع الملك جيمس الثانى العودة الى الجزيرة بتأييد من السلطان اينال واسترد الاشراف الفعلى المالى والتجارى على الميناء (١٧) .

---

(١٦) الملاحظ أن هذا الطلب كان جديدا على التجارة فى بلاد السلطان المماليكى وقد استحدثت فلورنسا نظما تجارية جديدة فى تجارتها مع شرق البحر المتوسط نص عليها فى المعاهدات والاتفاقيات مع المماليك فى النصف الثانى من القرن ١٥ الى جانب الامتيازات العادية الممنوحة لسائر الجاليات التى تتاجر فى بلاد السلطان المماليكى .

انظر :

— Clive, Op. Cit., p. 99.
— Ziada, Op. Cit. p. 245.

(١٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (مترجم) ص ١٤١ — ٢٤٢ .

زيادة : المحاولات العربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

— De Mas Latrie, Histoire De L'ile De Chypre T. III pp. 34-57 & 73.
— Dopp, Op. Cit., p. 54.
— Heyd, Op. Cit., p. 407- & ff and 423-426.
— Wiet, Precis De L'Histoire D'Egypte, T. II p. 266.

أما جزيرة رودس فظلت على عهد السلطان اينال . كما كانت من قبل مصدر ازعاج للسلطات المماليكية للصفة الصليبية المتأصلة فى نفوس حكامها من سلالة فرسان القديس يوحنا ، فمارسوا القرصنة فى المياه الشرقية للبحر المتوسـط ، وكان لمقدمهم عمولة على الغنائم وله حق شراء ما يشاء منها بالسعر الذى يحدده (١٨) . وسلك المماليك مسلك الاعتـدال معهم ـ حماية لتجارتهم وسفنهم ـ وسـمحوا لهم بالحج للأراضى المسيحية المقدسة بشروط معتدلة . وكان لهم أحيانا قناصل تجاريون وسياسيون مؤقتون فى الاسكندرية ودمياط وموانىء الشام الهامة(١٩). وابان أزمة العرش فى قبرص على عهد السلطان اينال بين جيمس الثانى وأخته شارلوت زوجة أمير سافوى، تدخل الفرسان لصالح الأميرة ضد جيمس الثانى الذى يؤيده المماليك . ولما فشلوا وتولى جيمس الثانى حكم الجزيرة عمدوا الى الانتقـام فقطعوا الطرق على سفن التجارة المماليكية والسفن القاصدة لمصر والشـام وأسروا ثلاث سفن للبندقية تحمل سلعا من الاسكندرية للمغرب ، وبلغت الخسائر حوالى ٢٤٫٠٠٠ دوكات فى الأصـواف فقط ، غير خسائر التوابل والسلع الأخرى ، مما أثار غضـب السـلطان ، فقبض على تجارهم وقناصلهم وقصادهم ومؤيديهم من التجار الأجانب ، كمـا هاجمت البندقية الجزيرة وهدمت منزل مقدم الفرسان ، وفكت أسر السـفن وطالبت بتعويض مناسب (٢٠) .

وقد حظيت فترة حكم السـلطان الأشرف قايتباى ١٤٦٨/١٤٩٦ بالنشاط السياسى والحربى والتجارى الداخلى والخارجى . ففى محاولة من الدولة المماليكية لتأكيد سلطانها على القبائل التركمانية على الأطراف الشمالية للدولة اصطدمت بالقوات العثمانية فى مواقعها بآسيا الصغرى،

---

(١٨) — Cambridge Medieval History Vol. IV p. 127.

(١٩) — Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 338.

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٥١ (كاليفورنيا) .

ومع أن هذه العمليات الحربية استغرقت معظم فترة حكمه فانه أولى الشئون التجارية أهمية خاصة وعمل على تنشـيطها فى بلاده كمورد رئيسى للثروة ، بل انه سـهل وصـول التجار الأجانب ، وأكد لهم الاعفاءات والامتيازات ليجمع أمراء وملوك أوربا ورؤساء جمهوريات ايطاليا حوله فى محاولة لوقف الخطر العثمانى الذى بدأ بوضوح يهدد الأطراف الشمالية للدولة .

ففى عام ١٤٧٠ استقبل السلطان قايتباى سفير لويس الحادى عشر ملك فرنسـا ، للتهنئة وتجديد الاتفاقيات التجارية السابقة وما تضمنتها من امتيازات على عهد السلاطين السابقين ، وعقدت فعلا معاهدة عام ١٤٧٢ نص فيها على معاملة تجار فرنسا فى بلاد السـلطان المماليكى معـاملة ممتازة ، كما تنبه على عمال السـلطان بعدم التشـدد معهم أو التعرض لهم بالايذاء . وجددت المعاهدة عام ١٤٨٥ بعد أن أضيف اليها ملاحق وامتيازات جديدة (٢١) كما شـملت المحادثات كـذلك موضـوع تجارة جنوة ، فان جماعة تجارها كهيئة مسـتقلة كانوا قد احتجبوا فترة عن أسواق مصر والشـام انشـغلوا فيها باعادة تنظيم تجارتهم فى بلاد السلطان العثمانى بعد سـقوط القسطنطينية عـام ١٤٥٣ (٢٢) ، وسلكوا مسلك التعقل فى معاملتهم للسلطات العثمانية رعاية لمصالحهم مما جعل السلطان العثمانى يرحب بوجودهم وخاصة

---

(٢١) اذا كانت أسواق فرنسا قد ضعف اتصالها بتجارة الشرق الأقصى فى القرن ١٤ الميلادى الا أن القرن ١٥ م شهد احياءها على وجه قوى وحلت الأسواق العامة فى ليون محل الأسواق القديمة وتردد عليها الأسبان والألمان والبرتغاليون والايطاليون والمغاربة وفى عام ١٤٦٨ قرر الملك لويس الحادى عشر أن تقتصر التجارة فى التوابل الشرقية على التجار المحليين وتولت هذه المهمة نقابة التجار الفرنسيين ومع ذلك عقدت معاهدة عام ١٤٧٨ أتاحت لتجار البندقية ممارسة التجارة ثانيا مع مدن فرنسا .

أنظر :

— Heyd, Op. Cit. pp. 717-718.

(٢٢) — Cambridge Modern History, Vol, I. pp. 68-69.

فى ميناء بيزا دون سائر طوائف التجار الأجانب وخاصة لخبرتهم مع آقاليم شرق الامبراطورية فى طرابيزون وعلى البحر الأسود[٢٣] . ولكن منذ ان وجه السلطان محمد الثانى العثمانى عام ١٤٦٠ جهوده الحربية نحو الشرق لاخضاع ما بقى من جيوب تركمانية ومغولية وأوربية مستوطنة على البحر الأسود شعر تجار جنوة — وكانوا أكبر الجاليات عددا فى المنطقة — أن الفترة الزاهية التى عاشوها قاربت الانتهاء فلم ينتظروا النهاية المحتومة وأسرعوا بانهاء أعمالهم المالية والتجارية ، وسلموا أموال الجمارك المتأخرة عليهم الى فرع بنك سان جورج بميناء كافا ، واتجهوا الى بلاد السلطنة المماليكية لتجديد وتأكيد مركزهم وتجارتهم فى مدن وموانىء مصر والشام[٢٤] الا أن العلاقات الودية بينهم وبين المماليك كان قد أصابها الفتور بسبب أعمال القرصنة التى يقوم بها بحارتهم فى مياه قبرص وشرق البحر المتوسط عامة ضد سفن المماليك والسفن الحاملة لسلعهم ، كما أنهم كانوا لا يملكون التحدث باسم مدينتهم منذ انضمت الى فرنسا فى أواخر القرن الرابع عشر ، وانتهز الجنويون فرصة ترحيب السلطان الأشرف قايتباى بالتجار الأجانب وطالبوا الملك لويس الحادى عشر ملك فرنسا بالتوسط لهم لدى السلطان قايتباى ليمنحهم حق استئناف التجارة فى موانىء ومدن بلاده ، وشملت المحادثات الفرنسية المماليكية عام ١٤٧٢ هذا الموضوع ، وأبدى السلطان قايتباى شعورا طيبا نحوهم، ولم يثر موضوع تهجمهم

---

(٢٣) سلم الجنويون حصونهم فى جلاثيا للسلطان محمد الثانى العثمانى لدى تقدمه للقسطنطينية فمنحهم الأمان وحرية المتاجرة . انظر :

— Heyd, Op. Cit., pp. 311-315.
— Depping, Op. Cit. p. 224.
— Gayet, Histoire Du Commerce, T. II. p. 314.
— Poston, Op. Cit., pp. 353 & ff.
— Pernaud, Op. Cit., pp. 69-70.

(٢٤) وصل فعلا عدد من تجار جنوة النازحين من موانىء البحر الاسود الى مصر والشام. انظر :

— Depping, Op. Cit., p. 222.
— Hammer, Op. Cit. pp. 70-71.
— Camb. Medieval Hist. Vol. I. p. 780.

على قبرص وعلى سفنه التجارية وأعمال قراصنتهم فى شرق البحـر المتوسط ورحب بمندوبيهم لاستئناف أعمالهم التجارية فى بلاده. وبعد مفاوضات ناجحة استأنف تجار جنـوة أعمالهم التجـارية فى مصر والشام عام ١٤٧٤ ، وفتحت الوكالة الجنوية أبوابها وأعيدت لهم فنادقهم بالاسكندرية وبيروت ودمشق واعتمدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجـارهم (٢٥) .

أما البنادقة فمع ما نالوه من امتيازات لم تتح للكثير من التجـار الأجانب فى بلاد السلطنة المماليكية ، فانهم كانوا يحنون الى أسواقهم القديمة فى القسطنطينية وعلى البحر الأسـود ، فأعادوا الاتصـال بالسلطات العثمانية ونجحوا فى عقد اتفاقية استأنفوا بموجبها تجارتهم فى المراكز التى حددت لهم والتى سـمح لتجارهم بارتيادها . وقبلت البندقية شرط السلطان العثمانى بتحديد عدد ما يصدر من الرقيق لمصر حتى لا تزداد قوة المماليك ، واطلاق سراح المسـلمين منهم ، كما نال العثمانيون امتيازات مماثلة لرعاياهم وتجارهم فى الندقية (٢٦). الا أن السلطات العثمانية كانت تخشى زيادة نفوذ البنادقة فى بلادها وتفوقهم البحرى فى البحر المتوسط ، فلم تلبث أن اتخذت اجراءات معينة ضد تجار ورعايا البندقية اتسمت أحيانا بالعنف والشدة ، ولم يراع فيهـا تنفيذ الاتفاقيات التجارية المبرمة بين الطرفين . ومع حرص البنادقة على عدم الدخول فى صراع مباشر أو غير مباشر مع العثمانيين وتوطين النفس على تقبل الكثير من عنتهم ، فان الحرب ما لبثت أن نشبت بين الطرفين فى البلوبونيز واستمرت حتى عام ١٤٧٩ . وفى اتفاقية الصـلح تعهد

---

(٢٥)
— Pernaud, Op. Cit. pp. 39,40.
— Heyd, Op. Cit. pp. 469, 470. & 490, 491.
— Thenaud, Voyage D'Outre Mer p. 270.
— Von Harff, The Pilgrimage Of.... p. 95.
— Breydenbach, Les Saints pp. 67, 68.

(٢٦) بالملحق رقم ١٧ ملخص لشروع المعاهدة بين البنادقة والسلطان العثمانى بعد فتح القسطنطينية وهى بتاريخ ١٤ من ابريل ١٤٥٤ . راجع :
— Depping, Op. Cit., pp. 227, 228.
— Heyd, Op. Cit., pp. 316, 317 & N. p. 341.

البنادقة بدفع عشرة آلاف دوكات سنويا نظير اشرافهم على الحكم والتجارة في بعض الجزر اليونانية ، والتي آلت للعثمانيين . ومثل هذا أيضا لحرية تجارتهم في آثينا وجزر الأرخبيل وخفف قيود التفتيش على سفنهم المارة بالمضايق للبحر الأسود . وفي عام ١٤٨٢ أضيفت الى المعاهدة ملاحق باعفاءات جمركية جديدة(٢٧) . ومع هذا لم تعد تجارة البندقية الى ما كانت عليه وبدأت بيوتاتهم التجارية ووكالاتهم ومصارفهم تغلق أبوابها لقلة ايراداتها ، وقل وصول سفنهم الى الموانيء العثمانية ، وأنهى مستغلو مناجم الشب أعمالهم وعادوا الى بلادهم (٢٨) ، واتجه كثير من التجار الى مصر والشام حيث كانوا يلاقون ترحيبا ورعاية أكثر لتجارتهم ومصالحهم بموجب المعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع السلاطين .

وكان وصول أعدادهم الكثيرة هذه المرة على عهد السلطان قايتباي في فترة تأزمت فيها الأمور بين المماليك والعثمانيين ، ونشبت بينهما حروب دامية على الأطراف الشمالية ، مما أدى الى زيادة نفقات الدولة وبرزت حاجة السلطان الملحة للمال ، فأصدر عام ١٤٨٠ قرارا بتأكيد احتكار التجارة في بعض أنواع المتاجر الشرقية وخاصة في التوابل المعروفة بالشريفة أو السلطانية ، وجعل سعر الحمل منها ١١٠ دوكات بندقي ، وطرحها في فترة (المدة) للبيع ، وفي نفس الوقت أطلق حرية البيع والشراء في كميات أخرى من التوابل في السوق الحرة طول العام بسعر لا يزيد على ٥٠ دوكا ، وحتم على هيئة التجار الأجانب شراء كل ما بالسوق من التوابل الشريفة أولا وبالسعر الذي حدده ، مما أدى

---

(٢٧) قدرت البندقية وهي تدفع للسلطان ١٠٫٠٠٠ دوك تعويض ـ أن ايراداتها من تجارة البلوبونيز لا تقل سنويا عن ٣٠٫٠٠٠ دوك . راجع :

— Hammer, Op. Cit., p. 51. & pp. 117, 118.
— Heyd, Op. Cit., p. 327 ;

(٢٨) كان السلطان محمد الثاني العثماني قد منح البنادقة حق الحصول على الشب من مناجم Phocee وحق احتكار صناعة الصابون واستغلال مناجم النحاس ، والاشراف على دار سك العملة . راجع :

— Hammer, Op. Cit., p. 240.

ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ١٧٧ .

الى تأزم الأمور بينه وبين التجار الأجانب ، ولما رفض البنادقة الشراء بهذا السعر حبسهم السـلطان فى فندقهم يومين ، ثم أمر بجرهم الى الجمارك وعدم اطلاق سراحهم الا بعد دفع ١٠٠ دوك للحمل الواحد . ويذكر أحد الحجاج الألمان أنه شاهد بنفسـه هذه الاجراءات ضد البنادقة ، وأنه شاركهم مصيرهم ، وذكر له التجار أنهم يلاقون نفس المعـاملة كل عام ، ويضطر القنصل وهيئة التجار فى نهاية الأمر الى دفع ما يطلبه السلطان (٢٩) . وكانت تتكرر هذه الحوادث كل عـام تقريبا . ففى عام ١٤٩١ وصل السلطان قايتباى الى الاسكندرية وأرسل بعض تجار البندقية الى القاهرة ووضعهم فى سجونها لكى يجبر هيئة التجار على شراء التوابل الشريفة بالسعر الذى سبق تحديده ، ورفض البنادقة ثانيا أن يدفعوا أكثر من ٨٠ دوكا للحمل الواحد ، وذكروا أن هذا السـعر يكلفهم سـنويا حوالى ٣٠٫٠٠٠ دوك زيادة عـلى مايشترونه من توابل السوق الحرة . وبعد مفاوضـات طويلة وافق السلطان على ألا يقل السعر عن ٨٠ دوكا وأصبح هذا السعر رسميا وينص عليه فى المعاهدات (٣٠) . ولم تكن أسعار التوابل وحدها هى مصدر شكوى البنادقة انما ترددت الشكوى من رداءة التوابل وغشها . وفى رسالة من السلطان قايتباى لدوق البندقية أظهر السلطان اهتمامه البالغ بنقاء التوابل ونبه على عمـاله بمراعاة ذلك (٣١) . وفى نفس

---

(٢٩) هو الالمانى Tucher من مدينة نورمبرج قضى أياما فى فندق البنادقة الكبير بالاسكندرية وهو فى طريقه الى بلاده بعد الحج الى بيت المقدس وسانت كاترين راجع :
— Heyd, Op. Cit., pp. 491-493.

(٣٠) — Heyd, Op. Cit., p. 493.

(٣١) فى رسالة من السلطان الأشرف قايتباى لدوج البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ/١٤٨٢ م ذكر السلطان « .. ورسمنا أيضا بان فلفل ذخيرتنا الشريفة الذى يعطى لهم (البنادقة) يكون سالما من التراب والبلل والخلط وكل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوج .. » من مجموعة الأستاذ توفيق اسكندر ونص الكتاب بالملحق رقم ١٦ وراجع :
— Heyd, Ibid, p. 494.

ـ قابل الرحـالة Thenaud فى أثناء وجوده بالقاهرة قنصل البنادقة الذى أخبره انه حضر بناء على توصية من العملاء الألمان الدائمين فى تجارة التوابل بطريق البندقية لكى=

الوقت تكررت شكوى السلطات المماليكية والتجار المصريين من غش البنادقة للمعادن النفيسة ، كالذهب والفضة ، التى تصل الى الاسكندرية وكذلك تكررت الشكوى من غش الأقمشة وخاصة المخمل والجوخ .(٣٢) وفى الشام برزت عدة مشاكل محلية تتعلق بمرور التجارة من موانيها الى مدنها الداخلية ، فالبنادقة يدفعون رسوما معينة للسلطات المحلية على مرور متاجرهم من ميناء بيروت ، ويحصل نائب دمشق على جزء من هذه الرسوم ، ويحدث مثل ذلك فى طرابلس ونيابة حلب ، وسلطات كل ميناء تحرم التعامل مع السفن التى تفرغ حمولتها فى الميناء الآخر ، ففى عام ١٤٧٣ أنزل قنصل البندقية فى دمشق حمولة من الأصواف والأقمشة فى ميناء طرابلس ، فغضب أمير بيروت ونائب دمشق لهذا التصرف ، وحبس حاكم دمشـــق عددا من تجار البندقية ولم يطلق سراحهم الا بعد زيارة سفير بندقى خاص للسلطان قايتباى فى القاهرة وصدور تعليمات السلطان بمنع التعرض للتجار البنادقة بالايذاء والافراج

= يحض السلطان على التنبيه بمراعاة غربلة التوابل وقد وصل وفد هيئة التجار الألمان الى البندقية وشكوا من عدم نقائها . وقال القنصل كذلك انه طلب من السلطان اعطاءه حق فحص التوابل ومراعاة غربلتها بغرابيل معينة .

— Thenaud, Op. Cit., pp. XXXI & ff.

انظر بعده ملاحظة (٥٣) وكذلك الملحق رقم (١٠) .

(٣٢) ذكر السلطان فى رسالته السابقة لدوق البندقية «.. أن الذهب والفضة المرسلة للاسكندرية معظمها مغشوش حتى ان المائة درهم من الفضة اذا صفيت لم تقارب ستين درهما وغالبها من النحاس . أما القماش الذى يصل لأبوابنا الشريفة من المخمل فغالبه مغشوش أيضا . وجرت العادة أن تكون كل قطعة من الجوخ ٥٥ ذراعا ، ولكن مايصل الينا لاتزيد القطعة فى مجموعها على ٣٠ ذراعا ، وفيها ماهو مقطوع من الوسط مما يتضرر منه تجارنا .. وتعجبنا كل العجب من هذه الأمور وكونه يتفق من تجار حضرة الدوق ، ولا يقابل المعتمد لذلك ، لما يليق به من تعنيف وتأديب ، وقد أعلمنا حضرة الدوق بذلك ليصير على خاطره .. » راجع نص الرسالة بالملحق رقم ٢ ، وكذلك :

— Heyd, Op. Cit. p. 495.

أما بخصوص غش العملة والمعادن النفيسة كالذهب والفضة ، فان الغش لم يقتصر على العملة المحلية فقط – بل وردت للقاهرة عملة من البندقية على عهد السلطان قايتباى مغشوشة مما أثار الجدل حولها فى رسالة قايتباى للدوج – أنظر الملحق رقم (٢) ثم انظر بعده الفصل الخامس عن غش العملة المماليكية والعملة الواردة من البندقية .

عمن سجن منهم (٣٣) . وفى فترة الاضطراب والتشاحن حول منصب السلطنة التى أعقبت وفاة السلطان الأشرف قايتباى عام ١٤٩٦ ، حتى تولى السلطان قانصوه الغورى السلطنة وعام ١٥٠١م أعلن الأمير قصروه نائب الشام نفسه سلطانا على الشام واتخذ لقب الملك العادل ثم أصبح فيما بعد آتابكا للعسكر حتى اغتاله السلطان طومانباى الأول . وفى فترة حكمه على الشام وصلت عام ١٤٩٩ بعض السفن من البندقية الى طرابلس ، وأنزل بها سلعا بلغت رسوم جماركها فقط ١٠,٠٠٠ دوك وكان قصروه ينتظر وصولها الى بيروت فأسرع بالقبض على التجار البنادقة فى امارته وفرض عليهم غرامات ضخمة وازت قيمة الرسوم الضائعة وسجن سبعة منهم . وكان هذا الموقف وموقف السلطات العثمانية من البنادقة قد وجه نظرهم للبحث عن مركز مأمون لهم ولتجارتهم فى منطقة شرق البحر المتوسط ، ووجدوا أخيرا ضالتهم فى جزيرة قبرص التى تصلح لتكون محطا لقوافل تجارتهم الى الشام ومصر وبلاد السلطان العثمانى ، وكان الملك جيمس الثانى الذى عاونه المماليك عام ١٤٦٠ على الانفراد بالحكم فى الجزيرة قد خاض غمار حروب عديدة ضد منافسته شارلوت حتى استطاع الانتصار وأتبع جيمس هذا النصر بالتخلص من الحامية المماليكية التى أعانته للوصول للغرض ، ولو أنه لم ينكر التبعية والجزية لمصر ، وكانت البندقية وراء كل هذه الأعمال ، كما أنها ساعدته على توحيد ما بقى من الجزيرة فى أيدى الجنويين ، وبخاصة فماجوستا (٣٤) . مما أتاح لها الفرصة لنشر نفوذها التجارى ، وبخاصة أن زيادة التقارب بين جيمس الثانى والبندقية

---

(٣٣) القنصل هو Giovanni Piriuli

راجع كذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 496.

(٣٤) محمد مصطفى زيادة وزميلاه : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس (مترجم) — مجلة الجيش ١٩٤٦ ص ٢٠٣ .

سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

— Lane Poole, Op. Cit. p. 338.

اقترن بزواجه من سيدة من البندقية هى « كاترين كورنارو » عـام ١٤٧٢ ، وأصبحت هذه المصاهرة مصدر ثراء عظيم للبندقية وقد زاد نفوذ البندقية بعد موت جيمس الثانى عام ١٤٧٣ ثم ابنه الصغير من بعده ، فأضحت كاترينا البندقية الأصل صاحبة السلطة ومن ورائها حكومة الدوج تحكم فعلا وباسمها مدة خمسة عشر عاما . وتدخل البنادقة بصورة واضـحة فى شئون الجزيرة الداخلية والخارجية ، مما جعل السلطان قايتباى يبدى عدم ارتياحه لهذا التصرف خـلال استقباله لقنصل البنـدقية وتجـارها عام ١٤٧٧ (٣٥) . وزاد من تأزم الأمور تأخر الملكة عدة مرات فى ارسال الجزية السنوية لمصر بعـد وفاة زوجها ، حتى ان السلطان فكر فى حملة يسترد بها السلطة كاملة فى الجزيرة (٣٦) . وانتهزت البنـدقية الفرصة وفاوضت الملكة فى التنازل عن حـكم الجزيرة للبندقية . وتم ذلك فعـلا عام ١٤٨٩ . وغادرت كاترينا الجـزيرة الى البنـدقية وبقيت بهـا حتى ماتت عام ١٥١٠ . وأسرعت البنـدقية بارسـال الجـزية بانتظام مع مبعـوث للسلطان قايتباى ، وأوضحت له أن هذا التصرف فى حكم الجزيرة شكلى ولا يمس سيادة السلطان على الجزيرة بشىء ، وانها فعلت ذلك لضمان وصول الجزية فى مواعيدها . وبعد تبادل المزيد من الرسائل والعديد من المبعوثين عقدت البندقية اتفاقية مع السلطان قايتباى فى ١٩ من مارس ١٤٩٠ أقر فيها السلطان اشراف البندقية على حكم الجزيرة محل الملكة كاترينا كورنارو ، وقد نبه السلطان البنادقة بمراعاة حقوق

---

(٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٤٧ .
— Heyd, Op. Cit. p. 423.
— Mas Latris, Op. Cit. p. 391 & R. 3. and pp. 405, 406. T. II and T. III p. 176.

(٣٦) ارسل السلطان قايتباى للملكة كاترين كورنارو عام ١٤٧٧ براءة اعتراف بها ملكة على قبرص بعد ان ارسلت متأخر الجزية .
ابن اياس : بدائع الزهو جـ ٢ ص ١٨٢ ـ ١٨٥ .
— Lane Poole, Op. Cit. p. 337.

ومصالح الأهالى ومعاملتهم معـــاملة طيبة (٣٧) . ومنـــذ ذلك الوقت والبندقية تحاول أن تجعل من ميناء فماجوســـتا مركزا ثابتا لتجارتها وتجارة شرق البحر المتوسط عامة ومستودعا لمتاجرها ومحطا لسفنها بالاضافة الى مراكزها فى الشـــام ومصر وبلاد السلطان العثمانى .

ومن الجاليات الأجنبية التى حرص السلطان قايتباى على التعامل معها ، هيئة تجار فلورنســـا للسمعة الطيبة التى تمتعوا بها منذ عهد السلطانين اينال وخشقدم ، واستغلت فلورنسا هذه الثقة وعملت على ألا تتفوق عليها أى طائفة من التجار فى بلاد السلطان المماليكى ، وعلى الأخص البنادقة لما بينهما من تنافس شديد فى مجال التجارة الشرقية ، فكلما حصل تجار البندقية على امتياز جـــديد ، أو عقـــدوا اتفاقيات جديدة ، أو وصلت سفارة لهم للقـــاهرة ، أسرعت فلورنسا بارســـال سفارة لبلاد السلطان لاضافة امتيازات جديدة حتى أصبح وصـــول سفاراتهم للقاهرة دوريا كل عام . وفى عام ١٤٨١ ، استقبل الســـلطان

---

(٣٧) نشر الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وثائق تنازل السلطان قايتباى عن الجزيرة لحكومة البندقية والخطابات المتبادلة والاتفاقية وذلك فى الجزء الأول من سلسلة وثائق مصر من محفوظات البندقية ١٩٥٦ نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٦ .

ـ خلال وجود الرحالة فيلكس فابرى بالقاهرة (١٤٨٠/١٤٨٣) وصل اليها ابن ملك نابل طالبا مساعدة السلطان قايتباى فى زواجه من ملكة قبرص الأرملة . وشعر البنادقة بخطورة الموقف فاسرعوا بالاســـتيلاء على الجزيرة وحصلوا على تنازل من الملكة وموافقة السلطان مع ملكية الجزيرة لمصر ويحكمها البنادقة باسم السلطان وتنظيم وصول الجزية السنوية : راجع :

— Thenaud, Voyage D'Outre Mer, p. XXXII.

وكان قصد ملك نابل من زواج ابنه من الملكة الأرملة أن يضع يده على الجزيرة ، وكان يستند فى ذلك الى صداقته للسلطان قايتباى الذى كان يستخدم سفن نابل فى رحلات ، جلوده أحيانا الى قبرص : راجع :

— Thenaud, Ibid, p. XXXIII.

كما انه خلال الصراع بين مملكة غرناطة وفردناند ارسل قايتباى راهبا من دير جبل صهيون لملك نابل هذا ليتصل بفردناند ليكف يده عن أذى المسلمين : راجع :

— Mas Latrie, Op. Cit., T. III p. 828.

سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٨٢ ــ ١٨٥ .

قايتباى سفارة فلورنسية لعقد اتفاقية بطلبات جديدة بعد أن شعر الفلورنسيون بالتقارب بين المماليك والبنادقة . وقد رحب السلطان قايتباى بالسفير والبعثة وأبدى استعداده لعقد الاتفاقية المطلوبة فى نطاق خطته الرامية الى كسب أمراء العالم المسيحى فى صفه فى معاهدات ودية ضد السلطان بايزيد الثانى العثمانى بسبب النزاع بينهما على الأطراف الشمالية للدولة ، ولحاجته الملحة للمال . وقد منح الفلورنسيين أقصى امتيازات نالها تجار أجانب ، ولكن الموت عاجل السفير الفلورنسى وهو بالقاهرة فأرسل قايتباى عام ١٤٨٧ مبعوثه « خواجه محمد بن محفوظ المغربى » يرافقه ترجمان صقلى ومعه هدايا لحاكم فلورنسا من أسود وغزلان ومجوهرات . وأبرم المعاهدة بجميع طلباتهم وحملت المعاهدة تاريخ ١٤٨٨ . وكان لهذا التقارب بين الفلورنسيين والمماليك أثره السىء لدى السلطان العثمانى ، ولم تكد تشعر فلورنسا بذلك حتى أسرعت بارسال سفيرها الى القسطنطينية ليؤكد صداقتها وودها وليوضح للسلطان أن وجود السفير المماليكى فى فلورنسا لايحمل فى طياته عداء للقسطنطينية بقدر ما هو اجراء اقتصادى اقتضته ظروف التجارة مع مصر والشام . ومن بين الامتيازات التى تضمنتها المعاهدة ، نصوصا باعتبار عقود البيع المبرمة بين الفلورنسيين والتجار الوطنيين نهائية وملزمة للطرفين وفى حالة المقايضة لا يحق للتاجر الوطنى مطالبة التاجر الفلورنسى بثمن السلعة نقدا وبخاصة بعد الاستلام ، كما أقر السلطان نظام الحساب الجارى فى الجمارك وحق لجوء سفنهم الى الموانىء المماليكية وقت العواصف للاصلاح . وشملت الاتفاقية كذلك بعض الحقوق المدنية فنظمت لهم مسألة التوريث فى حالة وفاة أحد تجارهم فى بلاد السلطان المماليكى ، ومنع غش التوابل ، وحق وصول رعاياهم للقاهرة لاستئناف القضايا أمام السلطان نفسه وتسهيل العيش لهم خلال اقامتهم فى بلاده . ويبدو أن الشكوى كانت عامة من كثرة الغش فى التوابل بقصد الاثراء ، فكما اشتكى البنادقة من رداءة التوابل

وغشها ردد الفلورنسيون نفس الشكوى ، وقد أوصى السلطان أمير الاسكندرية بمراقبة التجار والحمالين والضرب على أيدى من يغش منهم التوابل . وحتى عام ١٤٨٨ عومل الفلورنسيون فى بلاد السلطان المماليكى معاملة التجار الأجانب الأكثر رعاية ، وعقدوا ملحقا للمعاهدة السابقة تقرر فيه أن يكون البيع أمام شهود وتخلى مسئولية البائع فور توقيع العقد بين الطرفين بشهادة الشهود ، ومنع السلطان تكرار تحصيل الرسوم الجمركية والسمسرة فى حالة تغيير موظفى الحكومة أو الجمرك .وأقر كذلك تداول الفرنتى ، عملتهم الذهبية فى مصر والشام (٣٨) . ولم ينصرم عام ١٤٨٨ حتى وصلت سفارة فلورنسية أخرى لتحية السلطان وشكره على رعايته لتجار فلورنسا وعلى هداياه للحاكم ولم تغادر البلاد قبل أن تبرم اتفاقية جديدة نالت فيها حق توسيع تجارتها فى مصر والشام لأقصى طاقتها ، كما أرفقت تعليمات

---

(٣٨) راس هذه السفارة الفلورنسى Paoloda Colle وكان وصوله للقاهرة فى نوفمبر ١٤٨١ — راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 361.
— Amari, I Diplomi Arabi p. 361.

والمبعوث المصرى خواجه محمد بن محفوظ المغربى — ذكره هايد خطأ باسم Malfot — Malfota — Elmalfet — Mazamat.

راجع :

— Heyd, Ibid, p. 489.

يذكر ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٨٥ (بولاق) فى حوادث ذى الحجة ٨٨٣ هـ. (فبراير ١٤٧٩) أن ابن محفوظ هذا زار فلورنسا عدة مرات وكان آخرها عام ٨٨٣ هـ. راجع كذلك :

— Ziada, Op. Cit. p. 246.
— Heyd, Op. Cit., p. 489.

أما المعاهدة التى ابرمها المبعوث المماليكى بتاريخ ١٤٨٨ على عهد لورنزو مبديتشى صدرها ٥ .. مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرنتيين فى مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورئيسها الأفخم لورنزو ميديتشى والمقدمة بواسطة التجار لمنحهم امتيازات مثل ما للبنادقة فى بلادنا . ثم تعليمات لمراعاة هذا لرجال السلطان . انظر الملحق برقم ١٨ — ١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ . وراجع :

— Amari, Op. Cit., pp. 363-369-371.

راجع الحاشية السابقة برقم ٣١ ، ٣٢ عن غش التوابل والعملات والجوخ .

لرجال الادارة المماليكية فى مناطق التجارة الجديدة برعايتهم وعدم التعـرض لهم بسـوء (٣٩) .

وفى عام ١٤٩٦ وصلت بعثة فلورنسية جديدة عقدت اتفاقية أكدت فيها ما سبق من امتيازات وما حصل عليه غيرهم وزيدت بنودا تعطى صـورة حقيقية لنظام التجارة فى مصر المماليكية حتى أواخر القرن الخامس عشر . ومن هذه النصوص اعتبار استلام البائع عربونا لبضاعته عقدا ابتدائيا غير قابل للرجوع فيه ، كما لا يحق لأحـد الطرفين رد البضاعة أو المطالبة برد ثمنها بعد استلامها ، وفى حالة عدم بيع التاجر العربى ما اشتراه من الفلورنسى فلا يحق له رد البضـاعة ولا مطالبة الفلورنسى بثمنها ثانيا وأقر لهم السلطان استمرار العمل بنظام الحساب الجارى فى الجمارك وتسجيله فى دفاتر خاصة تبقى لحين عودتهم فى المرة التالية . وفى حالة استئناف القضايا اشترط وجود طرفى النزاع دون توكيل عنهما مع حضورهما للقاهرة أمام السلطان نفسه . كما تنبه على الخاصكى السلطانى والبريدى تسهيل وصول أصحاب القضايا المستأنفة للقاهرة وأن يكونوا فى حمايتهم فى الحل والترحال . وحصلوا على حق الاقامة فى فندق خاص بهم ووصول تجارهم فى أى وقت من السنة وفى غير مواعيد المدة المقررة لهم . وتضمنت كذلك عدم تحصـيل مواجبات زائدة أو أسعار أزيد من السعر السائد بالسـوق . وأرفق بالمعاهدة خطابان أحدهما موجه الى السـلطان من حاكم فلورنسـا

---

(٣٩) السفير هو Luigi Della Stufa والمعاهدة بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ٨٩٤ هـ = ١٨ نوفمبر ١٤٨٩ م ومنشورة بالملحق رقم ٢١ ، راجع .

— Amari, Op. Cit., pp. 181 ff.

وبالملحق كذلك نص الرسالة والتكليف من السناتو للسفير الفلورنسى دستوفا بتاريخ ١٠ من نوفمبر ١٤٨٨ ليسافر الى ليشكر السلطان على هداياه ورعايته لفلورنسا وتجارها فى بلاده ـ وتعليمات أخرى . بالملحق رقم ٢٠ وراجع كذلك :

— Amari, Ibid, pp. 372, 373.

بالملحق كذلك رقم ٢٢ ملخص للمعاهدة عن :

— Depping, Op. Cit., pp. 480.
— Heyd, Op. Cit., pp. 237, 238.

بالسماح لقنصل الجمهورية بالاقامة بصفة مستمرة بالاسكندرية لمباشرة مصالح مواطنيه ، والآخر لمندوب السلطان الخاصكى « الشمسى بن محفوظ » للسفر لفلورنسا بهذا الخطاب ومعه الهدايا اللازمة للدوق وخطاب ثالث لعمال السلطان فى موانىء مصر والاسكندرية بمراعاة مصالحهم (٤٠) .

ومع أن العلاقات بين السلطان قايتباى والتجار الأجانب من كافة الطوائف ظلت طيبة كما كانت على عهد أسلافه ، فانها لم تعد كذلك مع القطالنة بالرغم مما تمتعت به طائفتهم من رعاية على عهد السلاطين اينال وأحمد وخشقدم ، فقد بدأت العلاقات تتوتر بسبب خطف قراصنتهم لبعض البحارة المسلمين عام ١٤٧٠ من السواحل المصرية ومن بين المخطوفين بعض أعيان التجار ووكلاء السلطان التجاريين . ولم يكن السلطان قايتباى بالرجل الذى يترك هذا الحادث يمر دون اجراء حاسم يرد للمواطنين التجار حقوقهم ويحفظ سمعته وسمعة بلاده ، فأصدر أوامره باعتقال كل التجار الأجانب بالثغر وزج بهم فى سجون القاهرة ، وأبلغ قناصلهم أن حريتهم مرهونة باعادة المخطوفين بواسطة قراصنة القطالنة وبدون فدية مع دفع تعويض مناسب ، وأوفد التجار مندوبين عنهم لحكوماتهم للسعى لدى أمير قطالونيا لاطلاق سراح البحارة والتجار العرب المخطوفين حتى يسترد الأجانب فى بلاد السلطان حريتهم . ومع أن الجهود التى بذلت كانت تكفى لأن يراجع القطالونيون خططهم العدائية التى كانوا يرمون من ورائها منع المماليك من مساعدة أمير غرناطة الذى دأب على طلب العون من السلطان المماليكى ، الا ان

---

(٤٠) هذه المعاهدة بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦/١٨ ذى القعدة ٩٠١ هـ ومنشورة بالملحق رقم ٢٣ راجع :

— Amari, Op. Cit., pp. 184-209. — XL.

وللمعاهدة ملحق بتاريخ ٢٦ من فبراير ١٤٩٦ / ١٠ جمادى الآخرة ٩٠١ هـ موجه لعمال السلطان ونبه لمراعاة الفلورنسيين وبالملحق رقم ٢٤ .

— Heyd. Op. Cit., p. 489.
— Amari, Op. Cit., p. 210-213-XLI.

القطالونيين لم يطلقوا سراح البحارة والتجار العرب الا بعد أن دفعوا فدية ضخمة . ولدى وصولهم للاسكندرية أطلق السلطان سراح الأجانب المحتجزين بعد أن حصل منهم على مقابل ما دفعه المصريون من فدية للقطالونيين . وعاد التجار الأجانب الى سابق عملهم بعد أن أبعدت السلطات المصرية تجار قطالونيا عن مصر والشام وأوقف التعامل معهم ، ونهج كذلك تجار الجاليات الأجنبية نفس المنهج فقاطعوا تجار قطالونيا وسفنها والسفن التى تحمل أعلامها وطاردوا قراصنتهم فى البحر . (٤١) وفشل القطالونيون فى اعادة العلاقات الودية مع المماليك، بل ان اصرار الملك فردناند الخامس الكاثوليكى ملك أراجوانا وزوج ايزابلا ملكة قشتالة على انهاء الحكم الاسلامى فى الأندلس ، وبالأخص موقفه من امارة غرناطة الاسلامية ، زاد من هوة الخلاف بين السلطان قايتباى والقطالنة بصورة عامة . ووصل عام ١٤٨٧ الى القاهرة ميعوث الأمير ابى عبد الله محمد صاحب غرناطة وطلب من السلطان قايتباى عونا عسكريا لمواجهة هجمات الملك فردناند على امارته المنكمشة . ومع أن السلطان كان يدرك تماما مدى النتائج الخطيرة التى تترتب على

---

(٤١) ابن اياس بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٤٦/١٦١/١٦٢/١٦٦/١٨٥ (بولاق) .
— Ziada, Op. Cit., p. 244, 245.

ذكر ابن اياس هذه الحادثة فى حوادث رمضان ٨٨٠ هـ وحوادث المحرم ٨٨١ هـ : « فقد جاءت الأخبار بأن بعض الفرنج قد احتال على تجار الاسكندرية حتى أسرهم وكان منهم تجار السلطان نفسه وهم : ابن عليبة يعقوب ، وعلى الكيزانى ، وعلى التمراوى . فلما أسرهم الفرنجة خرجوا بهم من الاسكندرية فى الوقت والساعة وتوجهوا بهم الى بلاد الفرنجة فاضطربت الحال فى الاسكندرية وكادت أن تخرج — فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر وعين للوقت خاصكيا من خواصه يقال له « قيت الساقى » الذى تولى ولاية القاهرة فيما بعد — وكتب معه مراسيم شريفة لنائب الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الفرنجة بالثغر ، فلما توجه قيت الساقى الى هناك قبض على التجار من الساحل كله وضيق عليهم وأودعهم الحديد وألزمهم بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان بسبب التجار . وقد قام السلطان فى هذا الحادث قياما تاما وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج بمال له صورة حتى أطلقوهم وأتوا بهم الى الاسكندرية .

أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ .
— Heyd, Op. Cit., p. 496.

سقوط الامارة الاسلامية الباقية فى الأندلس الا أنه لم يستطع تقديم العون العسكرى اللازم لانشغاله فى حروب العثمانيين وتأمين الأطراف الشمالية للسلطنة ، ومع ذلك فقد كلف الأسقف « ماوروس » رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس لكى يوفد راهبا مندوبا من لدنه لملك نابلى — لما بينهما من علاقات طيبة — لبذل مساعيه الحميدة لدى الملك فردناند ليكف عن أذى المسلمين ، وقرن ذلك بالتهديد بمنع الحج للأراضى المسيحية المقدسة وفرض قيود شديدة على الأجانب فى بلاده ،

ومع ذلك سقطت غرناطة فى يد الملك فردناند ١٤٩١ (٤٢) . وفرضت السلطات المماليكية بعض القيود فعلا على وصول الأجانب للبلاد ، وبخاصة التجار والحجاج فى تلك الفترة ، لاسيما من له صلة بالقطالنة، لا انتقاما من موقفهم ، ولكن حرصا على سلامة البلاد . ولاحظ الرحالة الألمانى « برايدنباخ » خلال زيارته لمصر فى فترة الصراع على غرناطة أن عدد اليهود الوافدين الى مصر قد زاد الى حوالى ١٥٫٠٠٠ ويعملون جميعا فى التجارة . وعلل هذه الزيادة بهجرتهم الجماعية من أسبانيا بعد أن طردهم منها الملك فردناند ، وأضاف الى ذلك أنهم عملوا على اساءة العلاقات بصورة واضحة بين مصر وقطالونيا وحرضوا السلطان ضد تجارها . ولكن الثابت فعلا أنه لم يكن لليهود أثر يذكر فى سوء العلاقات المماليكية والقطالونية فى تلك الفترة ، اذ أن أشد ما أثار السلطان قايتباى وحرك عاطفته هو ما لاقاه المسلمون من عنت الأسبان ثم تجاهل الملك فردناند لمبعوث السلطان قايتباى ليكف أذاه عن مسلمى

(٤٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة ٨٨١ هـ .
احمد دراج : المماليك والفرنج ص ١٠٨ — ١١٢ .
سقطت غرناطة فى ديسمبر عام ١٤٩١/صفر ٨٩٧ هـ . انظر :
محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ص ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ الى ٢٣٧ .
— Ziada, Op. Cit., p. 366.
كان قايتباى يستخدم سفن نابلى احيانا فى حمل جنوده الى جزيرة قبرص . انظر :
— Mas Latrie, Op. Cit., p. 828 T. III.

غرناطة فى حين أن مواطنيه القطالنة وحجاجه يلقون رعاية ممتازة فى بلاده . وبعد هذا الحادث فرضت بعض القيود على الحجاج المسيحيين للأراضى المقدسة فى فلسطين ، لا انتقاما منهم أو من حكوماتهم التى لم تسمع ليكف فردناند عن ايذاء مسلمى غرناطة ، انما حرصا على سلامة البلاد وأمنها وتجارتها (٤٣) .

واستمرت العلاقات متوترة بين مصر واسبانيا حتى ولى الحكم السلطان الأشرف الغورى فى شوال ٩٠٦ هـ ابريل ١٥٠١ ووصل الى القاهرة وفد أمراء مراكش وتونس وحكام الولايات العربية فى شمال افريقية والمهاجرون من الأندلس بعد سقوط غرناطة ، وطلب المبعوثون عون مصر الحربى والمالى ضد مسيحى اسبانيا لاستعادة الامارة ورد هجماتهم على مدنهم فى شمال افريقية ومنع أذاهم عن المسلمين الباقين بالأندلس ، وطالبوا ـ كاجراء مضـــاد ـ منع حجاج الفرنجة للأراضى المقدسة ، ومنع تجارهم من ورود مصر والشام . ولم تكد تصل هذه الأنباء لبلاط الملك فردناند حتى قرر أن يسلك مسلكا طيبا مع السلطان المماليكى ، واختار لســفارته الى الغورى عام ١٥٠١ الايطالى « بيير مارتير دانجييرا Piere Martyre D'anghiera » الــذى وصـــل الى الاسكندرية على سفن المدة التابعة للبندقية فى ٢٣ ديســمبر ١٥٠١ ، وأرسل فور وصوله القنصل القطالونى ، والذى يمثل فرنسا فى الوقت

---

(٤٣) كان لليهود فى اسبانيا مركز ممتاز فى اقتصادياتها خاصة وان معظمهم يعمل فى التجارة بين الشرق والغرب ، كما سيطروا على الأعمال المالية والمصرفية ولهم مراسلون مصرفيون ومكاتب ووكالات وفروع فى معظم مدن وموانىء شرق البحر المتوسط .
— Depping, Op. Cit., p. 241, 242.

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة ٨٨١ هـ .

وبخصوص الاضطهاد الذى وقع على مسلمى الأندلس بعد سقوط غرناطة ١٤٩١ م . حاول فردناند وايزابلا تحويل المسلمين الى المسيحية وتهديدهم بالقتل على عكس ما أعلنه سفير الملك فردناند وقد اشتد الاضطهاد بعد وصول شحنات هائلة من التوابل الى لشبونة وتحول التجار اليها عن مصر وأهملوا وعودهم للسلطان الغورى . أنظر : محمد عبد الله عنان المصدر السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٣٧ .

نفسه ، الى القاهرة للحصول على اذن بمقابلة السلطان . وانتهز المغاربة المهاجرون واليهود المطرودون الفرصة وعملوا على اثارة حفيظة السلطان ضد الاسبان وسفيرهم . ولكن الغورى حكم العقل وأرسل اذنا بتسهيل وصول سفير الملك فردناند للقاهرة لمقابلته ، فبارح الاسكندرية فى ١٦ يناير ١٥٠٢ ، ولدى وصوله الى القاهرة قابل تغرى بردى كبير تراجمة السلطان ونزل فى داره . وساعده الترجمان مساعدة قيمة خلال محادثاته مع السلطان ، وبعد الاحتفالات الرسمية طلب السفير عقد جلسة سرية يشرح فيها للسلطان سياسة سيده تجاه المسلمين والمغاربة واليهود فى بلاده . وكان مما قاله السفير فى الجلسة ان العرب والمغاربة عنصر هام فى دولته ، وان الملك يحيطهم برعايته لنشاطهم التجارى والثقافى المتجدد ، وهو لا يستغنى عنهم ولا عن جهودهم ؛ أما اليهود فقد طردهم . ويبدو أن السلطان قد اقتنع بهذا الكلام ، فقد هدأت نفسه وتعهد باعادة اصلاح ما تهدم من الأماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس والرملة وبيت لحم ، وقال ان السفير اقترح عليه رصد رسوم الحج لهذه الاصلاحات . ولم تقتصر هذه السفارة على اصلاح ذات البين بين البلدين ، ولكن تضمنت محادثات تجارية خاصة بتسهيل ورود تجار قطالونيا للمتاجرة فى بلاد السلطان مع تمتعهم باعفاءات وتسهيلات مماثلة لما يمنح للتجار الأجانب وتجديد المعاهدات السابق عقدها واقرار ما بها من امتيازات ونص على ذلك فى ملحق أضيف اليه عدم فرض رسم أو ضرائب جديدة على التجارة المتبادلة مع قطالونيا . (٤٤) وبدأ الملك فردناند من جانبه يعمل على تشجيع التجارة

---

(٤٤) السفير القطالونى هو بيير مارتير دانجيرا والقنصل القطالونى الفرنسى فى نفس الوقت فى الاسكندرية هو Philippe De Peredes ، وكانت العادة الا يهتم السلطان الا بسفراء الدول العظمى والذين يصلون الى القاهرة فى موكب فخم ، ويختار السفير من بين كبار رجال دولته ، ويمتاز بحضور البديهة واللباقة وحسن التصرف ، وكان يمكث شهرين فى نظام القديس فرانسوا للتمرين على العادات الشرقية .

— Heyd, Op. Cit., p. 724, 725.
— Depping, Op. Cit., pp. 242-244.

الخارجية وبخاصة مع المماليك ، ففتح ميناء برشلونة للسفن التى تعمل على خطوط الملاحة مع شرق البحر المتوسط وخفف الرسوم الجمركية على السلع الشرقية وأوفد القناصل ووكلاءهم الى موانىء مصر والشام ومدنها . وكانت له سفن سريعة تقطع الطريق الى الشام فى أقل من خمسة أسابيع . ووصلت كذلك المتاجر مع الحجاج المسيحيين العائدين من بيت المقدس والمسلمين العائدين من مكة والمدينة ونافس ميناء برشلونة موانىء ايطاليا فى تجارة الشرق . واهتم فردناند بالميناء حتى جعله مركزا تجاريا من الطراز الأول بالاضافة الى أنه محصن وبه أحواض لبناء وترميم السفن ومخازن ومستودعات عديدة وتشرف على تجارته الخارجية هيئة القناصل البحريين . كما أصدر قانونا ضم فيه هيئة التجار القطالنة الى مجموعة التجار المسموح لهم بالمتاجرة ونقل وتوزيع السلع الشرقية الواردة من مصر والشام (٤٥) .

وجرت الأمور على هذا النحو حتى وصلت الأنباء عن نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند بحرا بطريق رأس الرجاء الصالح ، وأنهم ثبتوا أقدامهم فى موانىء ساحل الهند الغربى. ووصول البرتغاليين الى الهند هو ثانى الأحداث الهامة التى ختمت العصور الوسطى وأكثرها أثرا فى ماجريات السياسة والاقتصاد فى مصر والشام ، ولما أصبحت البرتغال وسيطة التجارة بين الشرق والغرب أغرقت أوربا بالسلع الشرقية

— Thenaud, Op. Cit., pp. 243, 244.
— Ziada, Op. Cit., p. 368.

= وبالرغم من ان المعاهدات كانت توقع بين سلطان مصر وملك أراجون فان هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات لا تشير الى قنصل أراجونا وانما تسميه قنصل الكاتيلان ، «قطالونيا» ، ذلك لان قطالونيا عندما انضمت الى مملكة أراجون فى القرن ١٢ م احتفظت عاصمتها مدينة برشلونة بحق تسمية القناصل لكل رعايا أراجون المقيمين فى موانىء البحر المتوسط الرئيسية التى كان لهم فيها نشاط تجارى • انظر : المجلة : عدد ٤٩ يناير ١٩٦١ ص ٩٠ و ٩١ •

(٤٥)
— Heyd, Op. Cit., pp. 724, 725.
— Depping, Op. Cit., p. 239.
— Ziada, Op. Cit., p. 368.

بأسعار رخيصة ، وطاف البرتغاليون بأســواق أوربا لاستمالة شركاتها وعملائها لأسواق ، لشبونة وتنازلوا عن الكثير من الأرباح والرسوم الجمركية . وفي مصر أصبحت أسعار هذه السلع وخاصة التوابل محلا للنزاع المستمر بين السلطان الغورى والتجار الأجانب بصــفة عامة ، نظرا للمركز الذى كان لهؤلاء التجار فى توزيع هذا النوع من الســلع الشرقية فى أوربا منذ عدة قرون . ففى قطالونيا وجد التجار سهولة ويسرا فى ارتياد أســواق لشبونة وأهملوا اتصــالهم بموانىء مصر والشــام ـ كما أن الملك فردناند لم يحترم ما تعهــد به عام ١٥٠٢ للسلطان الغورى الذى نص على وصول تجاره لمصر ، ونص كذلك على رعايته للمسلمين من عرب ومغاربة في بلاده . ورغم أن السلطان الغورى سلك مسلكا طيبا هادئا مع الملك فردناند الثانى ، الا أن جهوده لم تؤد الى نتيجة ايجابية ، ولم يكف الملك عن اساءته للمســلمين والمغاربة ، كما لم تعد سفنه ترد موانىء مصر والشام (٤٦) . ومن ناحية أخرى أكد السلطان الغورى احتكاره لتجارة التوابل والسلع الشرقية وقصر شحنها على ميناء الاسكندرية دون الموانىء الأخرى بقصد التوحيد والتركيز واحكام الرقابة (٤٧) . وخصص أسواق الشام للسلع الواردة من وسط آسيا بالطريق البرى ومع ذلك بقيت الأسعار مرتفعة ، فبلغ سعر الحمل من التوابل الشرقية ١٠٥ دوكات حين وصل سعره فى السوق الحر أكثر من ١٩٢ دوكا ، مما أدى الى اثارة النزاع بين السلطان وعملائه الدائمين من البنــادقة الذين رفضوا الشراء بهذه الأســعار وحملوا الى فندقهم حوالى ٢٥٠ حملا فقط مما أغضــب الســلطان

---

(٤٦) — Depping, Op. Cit. pp. 260.
— Ziada, Op. Cit., p. 368.
— Heyd, Op. Cit., pp. 473 & 521-523.
— Cioli, Op. Cit., p. 106.
— Pernaud, Op. Cit., p. 410.
— Thenaud, Op. Cit., pp. XLVII, XLVIII.

(٤٧) — Heyd, Op. Cit., p. 493.

وفرض عليهم غرامة قدرها ٢٠٠٫٠٠٠ دوك لتـأثيرهم فى الأسـعار بالخفض لصالحهم والامتناع عن الشراء بسعر السوق المحدد والحر ، وسجن تجارهم وقنصلهم وضاعت مواعيد عودة سفن المدة بعد أن منع السلطان هذه السفن من مبارحة الميناء . الا أن بعض السـفن استطاعت الابحار خفية ، وساء حكومة البندقية هذا التصرف من السـلطات المماليكية تجاه تجارها ، وتبادل الطرفان السفارات وهدد البنادقة بهجر أسواق السلطان والتوجه الى لشبونة مما اضطر السلطان أن يحـدد سعر التوابل الشريفة بثمانين دوكات للحمل الواحد فى المدة التالية . وترك أسواق البيع الحر بدون تدخل ، وأصبح من السياسة الثابتة مراعاة تجار البندقية فى أسواق مصر وموانيها (٤٨) .

الا أن اتساع نشاط البرتغاليين فى الهند ، وسيطرتهم على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية ، حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة الى مصر والشام ، وجعل التجار المماليكية تواجه ظروفا صعبة ، كما كان معناه أيضا أن تجارة البندقية قد آذنت شمسها بالمغيب ، وعادت فى معظم الأحوال كثير من سفنها خالية أو بنصف حمولتها . ففى عام ١٥٠٢ عادت سفن بيروت بأربع بالات من الفلفل ولم تجد سفينتان من خمس فى الاسكندرية ما تحمله الا بمشقة كبيرة ، ولم تعد تشـاهد سفن المدة الا مرة كل عامين ، بعد أن كانت تصل للموانىء عدة مرات فى السنة (٤٩) . وكانت سفن البندقية عند عودتها من مصر تترك فى مخـازنها من المتـاجر الشرقية ما قيمته ٣٠٠٫٠٠٠ دوك ومثلها على الأقل من النقد البندقى كحساب جار لهاولتجارها فى الجمارك، ويبقى بعد رحيل المدة خمسة عشر تاجرا يشرفون بأنفسهم على تسويق التجارة

---

(٤٨) — Heyd, Op. Cit., pp. 519-523.
— Allan, J., The Camb. Shorter Hist. Of India p. 487.

(٤٩) انظر الملحق رقم (٦) عن تعليمات البندقية للسفير سانودو الى السلطان الغورى.
— Heyd, Op. Cit., pp. 520, 521.

حتى المدة التالية . أما الآن فالسفن لا تكاد تترك من المتاجر الا ما قيمته ٨٠٠٠٠ بندقى ، ومن النقد ما يساوى ٢٠٠٠٠ بندقى ، ويبقى من هيئة التجار حوالى ستة ليس بيدهم الموارد الكافية للتسويق للمدة القادمة . وكان من الطبيعى أن ترتفع أسعار المتاجر الشرقية فى أسواق البندقية لقلة الوارد وارتفاع أسعاره مما حدا بعملاء البندقية من التجار الألمان وسكان شمال وغرب أوربا أن يهجروا أسواقها الى لشبونة ، وليس أدل على تأثر أسواق البندقية من أن الألمان كانوا يصدرون لها كل عام حوالى ٤٠٠٠٠ قنطار من النحاس ومثلها من أطنان الزيت ، ويحصلون مقابلها على توابل الهند الواردة طريق مصر والشام ، فهبطت هذه الأرقام الى ٨٠٠ قنطار من النحاس ، و ١٥٠٠ طن من الزيت ، وأعلن تجار فينا أنهم سيتوجهون الى لشبونة اذا لم يجدوا ما يكفيهم من التوابل بأسعار مناسبة فى أسواق البندقية ، كما أن باقى المدن الايطالية التى تاجرت فى هذه السلع هددت بالتوجه الى أسواق لشبونة .

أما البرتغاليون فاستمر طواف مبعوثيهم لأسواق أوربا لاستمالة شركاتها التجارية الى لشبونة ، وتنازلوا عن الكثير من أرباحهم ، وعن الرسوم الجمركية ، تشجيعا لوصول تجار أوربا الى أسواقهم ، وخطوا خطوة أخرى لتدعيم مركزهم التجارى فى شمال أوربا بتوزيع المتاجر الشرقية بأنفسهم ، وخاصة فى بلاد الألمان ، بنفس الأسعار المخفضة امعانا فى هدم تجارة مصر والبندقية (٥٠) . وبينما الأمور تجرى على هذا النحو وصل الى البندقية وفد برتغالى وعرض على حكومة الدوج وهيئة التجار بها تسهيل حصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونة ، على أن يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم

---

(٥٠) ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٥١ وما بعدها .
— Thenaud, Op. Cit., pp. XLV-LVI ff.
— Heyd, Op. Cit., pp. 521, 522.
— Allan, Op. Cit., p. 487.

وبمعرفتهم فى أسواق أوربا، كما كانوا يفعلون ، بدلا من اصرارهم على ارتياد أسواق مصر المرتفعة الأسعار والتى بدأ ينضب معينها (٥١) . ولكن كبرياء البندقية وعظمتها منعاها من الاستجابة لهذا النداء حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تغفل ارسال مبعوثيها الى لشبونة لجمع المعلومات الكافية عن رحلات البرتغاليين للهند ، وعما اذا كان بالامكان وصول سفن البندقية الى الهند مباشرة ثم مراقبة مشروعات البرتغاليين القادمة ومواعيد الرحيل والعودة ومعلومات عن طبيعة الطريق الجديد . كما أوصـت حكومة الدوج مبعوثيها الى لشبونة بأن ينفردوا بالأمراء الهنود الوافدين مع سفن التوابل البرتغالية لتحريضهم على مقاطعة البرتغاليين ومواصلة التعامل مع السلطان المماليكى والبندقية، وأن يوحوا اليهم بأن البرتغال بلاد فقيرة تعجز عن تصريف تجـارة الهند بدون مساعدة البندقية التى كانت وستبقى رغم كل هذا ، العميل الأول لتوابل الهند وأكبر دولة تجارية فى العالم المسيحى (٥٢) .

---

(٥١) طالب الملك عمانويل ملك البرتغال من البنادقة ورود أسواق لشبونة ليحصلوا على طلباتهم من التوابل والسلع الشرقية بدلا من ذهابهم لأسواق الاسكندرية وبيروت .
— Heyd, Op. Cit., p. 524.

(٥٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .
فهم مبعوثو البندقية الى لشبونة أن الملك البرتغالى عمانويل سيعمل تماما على احباط كل مشروع للبنادقة أو للسلطان المماليكى فى مياه الهند وحصل على التأييد الكامل فى ذلك من رعاياه ومستشاريه وكان يتعجل الوقت الذى يستطيع فيه أن يغلق طريق البحر الأحمر الى جزر البهار فى وجه المماليك والبنادقة ويحتكر له ولبلاده هذه السلع الثمينة ويجبر البنادقة على ورود أسواقه ، وبالتالى تتبعه تجاريا وفى الوقت نفسه تنهار مصر تجـاريا وسياسيا وعسكريا ويحدث مثل هذا للبنادقة ويحقق الملك البرتغالى من ذلك ٣ أغراض :
١ ـ الضرب على أيدى التجار العرب والمصريين والاقلال من ثرواتهم لامكان الانتقام منهم سياسيا ودينيا .
٢ ـ نقل السيطرة التجارية من البندقية الى البرتغال .
٣ ـ فتح باب جديد لثراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته .
وليس أدل على ذلك من أن فاسكوداجاما لدى عودته من رحلته الى الهند عام ١٥٠٣ صرح بأن هذه الرحلات موجهة أساسا ضد سلطان مصر . انظر أيضا :
— Heyd Op. Cit., pp. 515, 516.

ورغم أن البندقية ، حتى ذلك الوقت ، لم تكن فى وضع سيء فانها بدأت تشعر بالقلق الشديد منذ بدأت البرتغال تغزو أســواقها القديمة فى أوربا بكميات وفيرة وأسعار رخيصة من السلع الشرقية ، وخشيت أن يتزعزع مركزها الرائد فى توزيع هذه السلع منذ عدة قرون فى أوربا وخاصة أنها وجدت نفسها عاجزة عن مسايرة الأسعار التى تجلب بها البرتغال التوابل من الهند ، فقنطار التوابل من بعض الأنواع الجيدة يساوى فى الهند ما بين ٢ر٥ ـ ٣ دوكات ومن القرفة بالذات حوالى دوكات واحدة ، فى حين أنه فى مصر يصل الى حوالى ١٠٠ دوك ، وفى البندقية أكثر من ذلك . وهو نوع من المضاربة لو نجح لأدى الى اسقاط هيبة البنادقة والمماليك وزعزعة زعامتهم التجارية فى أوربا (٥٣) .

ولدى عودة المبعوثين من لشبونة فهمت البندقية أنه لابد من عمل حاسم يرد لها كيانها ، والا فانها ستضطر لتوجيه تجارها الى لشبونة وتقنع بالمركز الثانى أو الثالث والتبعية التجارية للبرتغال . وانقسـم البنادقة فريقين : فريق يرى التوجه الى لشبونة ويعزز رأيه بما يقاسيه تجاره فى بلاد السلطان وارتفاع أسعار التوابل وقيود الجمارك وعدم امكانهم الوصول بأنفسهم الى مصادر التوابل فى الهند . والفريق الآخر يرى ارسال سفارة قوية لمصر ليتدارك السلطان الأمر للنفع المشترك ، ويضيف هذا الفريق أنه بامكان البنادقة نشر الشائعات المثبطة فى أسواق أوربا حول عجز البرتغال عن الاستمرار فى هذا العمل الخطير ، على أن تقـوم مصر بمثل هذا العمل من جانبها لدى عملائها فى الهند . وصــادف ذلك فترة انتكســت فيها تجارة البرتغال فى الهند وجاءت خسائرها فوق حدود المعقول بسبب أخطار الطريق وشدة مقاومة الأهالى للبرتغاليين لسياستهم القائمة على السلب والنهب أحيانا ، وأكد البعض

---

(٥٣) — Thenaud, Op. Cit., p. XXXI.
— Heyd, Op. Cit., pp. 525, 526.

أنه ليس للملك البرتغالى سفنا أخرى يرسلها لمياه الهند وساد الاعتقاد بأن السلطان المماليكى قد اتصل بالأمراء الهنود وأن جهوده قد أثمرت وأن قوته البحرية ستقضى فعلا على قوة البرتغاليين فى المياه الشرقية وأنه لن يترك الأمور تفلت من يده بهذه السهولة (٥٤) . وبرغم هذه الشائعات التى رفعت من معنويات البنادقة وسمعتهم فى أوربا ، بقدر ما أساءت الى البرتغاليين وانزعج ملك البرتغال وأرسل مبعوثا لدوج البندقية مكذبا هذه الشائعات وشرح المبعوث مقدرة بلاده على مواجهة كل الاحتمالات على طول الطريق وفى مياه الهند نفسها ، وطلب من البندقية التأييد وتوجيه تجارها الى لشبونة ، كما طلب المبعوث من الدوج أن يرسل مندوبه للتأكد من ذلك . وفى ختام المباحثات طلب من حكومة البندقية أن توجه تجارها الى لشبونة الا آن دوج البندقية نصح مبعوث ملك البرتغال بعدم مقاومة السلطات المماليكية وعدم الاستمرار فى هذه المغامرة الخطيرة ، وأضاف الدوج فيما يتعلق بتوجيه تجاره الى لشبونة « إن حكومته تضع موضع الاعتبار ترحيبكم بتجارها فى بلادكم وتمكينهم من الاستمرار فى مراكزهم القديمة فى أسواق أوربا وتوليهم التوزيع بأنفسهم ، ولكننا فى الوقت نفسه نخشى فقد مراكزنا القديمة الممتازة فى شرق البحر المتوسط لو فرض وعجزت سفنكم عن مواصلة رحلاتها الى الهند » . (٥٥) .

---

(٥٤) بلغت الشائعات حدها الاقصى فى بداية القرن ١٦ فى السنوات الاولى لرحلات البرتغاليين ، وكان البنادقة مصدر معظمها ، الا أن ملك البرتغال كان لديه من الامكانات الضخمة ما يمكنه من الاندفاع فى مشروعه بنجاح وهى :

١ ـ مناجم البرتغال من ذهب افريقية تمون باستمرار أسواق التوابل الهندية .

٢ ـ نفقات عودة السفن وأثمان ما تحمله من سلع تسدد باستمرار نفقات تسليحها

٣ ـ أن ملك البرتغال قنع فى البداية بتسديد النفقات وعدم الربح حتى ثبت أقدامه واحتاج فى ذلك الى عمل كل ما فى وسعه لنشر اعمال القرصنة فى البحر المتوسط وفى مياه الهند ومدخل البحر الأحمر لمنع وصول التوابل لمصر والشام . راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 517, 518.

(٥٥) — Heyd, Op. Cit., pp. 518, 519.

وبالرغم من ذلك كله لم تكن البندقية بحاجة لمن يعرفها مدى الخسارة التى تلحقها نتيجة للتوسع البرتغالى فى جلب المتاجر الشرقية وقررت أن تسلك مسلكا ايجابيا فأرسلت فى عام ١٥٠٢ سفارة برياسة « بنديتو سانودو » Benedetto Sanoudo ولهـذا الرجـل تجارب عديدة فى التجارة مع مصر فيما بين عامى ١٤٩٦ ـ ١٥٠٠ وكانت بعثته الى مصر سرية وكان عليه أن يوضح للسلطان الغورى الأخطار التى تعرض لها مصالحه وتجارته وثروته من جراء وصول البرتغاليين للهند واهتمام البندقية بمقاومة مشروعات البرتغال فى الهند وفى أوربا . ووضع سانودو أمام أعين السلطان الحقيقة المزعجة للطرفين ، وصرح له أن التجار الانجليز بدأوا يتوجهون فعلا الى لشبونة لرخص أسـعارها عن الاسكندرية وقلة رسوم جماركها . بل ان التجار البرتغاليين بدءوا يجوبون أسواق أوربا بأنفسهم . واستعان سانودو بالترجمان « تغرى بردى » لحض السلطان على القيام بعمل ايجـابى ومقاومة البرتغاليين فى الهند ومن ناحية أخرى تخفيض أسعار التوابل الشريفة والحرة وخفض رسوم الجمارك لامكان اقناع تجار البندقية بمواصلة ارتياد أسواق مصر والشـام ومواجهة نشاط البرتغاليين فى دول أوربا . ولم يكن هذا هو كل ما تناولته المباحثات بين السلطان وسانودو بل كرر السفير شكوى مواطنيه التجار من تعنت حكام دمشق وبيروت معهم ، فهم يجبرون تجارهم على شراء كميات اضافية من الفلفل بأسعار خيالية فى الوقت الذى تمتلىء فيه أسـواق أوربا بالتوابل الرخيصة النقية من لشبونة . وشكا كذلك من سوء معاملة عمال السـلطان للتجار فى الجمرك ، وأنهم يمنعون لجوء سفنهم ليلا الى الميناء وخلال العواصف ويجبرونها على الرحيل قبل شحن كل ما يشتريه التجار فيبقى معظمه فى الميناء للمدة التالية معرضا للضياع والبوار. وطلب السفير آخر الأمر ترك السفن حتى يتم شحن كل مالديها بدون الحاجة الى تصريح سابق

من السلطات . وعاد السفير الى بلاده فى ٢٠ من سبتمبر ١٥٠٣ (٥٦) .

وكان السلطان الغورى مقتنعا بما جاءت به بعثة سانودو ، كما كان مقتنعا بأن ازدياد نفوذ البرتغاليين فى الهند قد يقضى على مصالحه التجارية وهيبته أمام العالم ، وقد تأكد له هذا بصورة عملية عندما أرسل أسطولا تجاريا الى ساحل مالابار شحن كالمعتاد كميات ضخمة من التوابل والمتاجر الهندية . وفى عودة السفن حملت معها عددا كبيرا من الأمراء الهنود ، وعددا من المسلمين فى طريقهم الى الحج ، ولكن هذه السفن بشحناتها لم تصل كاملة الى ميناء جدة اذ هاجمتها سفن الأسطول البرتغالى فى مياه الهند وصادرت معظم شحناتها من التوابل والمتاجر الهندية . وأثارت هذه الأنباء ثائرة السلطان الغورى، لاسيما أن الأنباء تواترت مرة أخرى عن اجراءات تعسفية ضد العرب فى أسبانيا، فقرر السلطان أن يعمل عملا جديا فأنزل سفنا حربية جديدة فى البحر الأحمر لمواجهة تهجم البرتغاليين على سفنه فى الهند . ويقال انه أشرف بنفسه على ارسال قطعها الى ميناء الطور وفى الوقت نفسه قرر ارسال بعثة برئاسة الأسقف « ماوروس دى سان برنادينو » Maurus Di San Bernadino رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس ومعه راهبان الى ملوك وأمراء أوربا وبابا روما للوقوف على الأحوال السياسية بصفة عامة ، وحث البابا على اقناع البرتغاليين بوقف أعمالهم العدوانية ضد

---

(٥٦) راجع المعاهدة بالملحق رقم (٦) وكذلك

— Heyd, Op. Cit., pp. 519, 520.

— مما دفع البنادقة الى ارسال بعثاتهم المتكررة الى مصر ، أن البرتغاليين أغاروا على سفن التجارة المماليكية وهى فى مياه الهند بعد شحنها وصادروا ما عليها من شحنات التوابل وخلافه وظهر أثر ذلك بوضوح فى « مدة » البندقية ١٥٠٢ م اذ عادت سفنهم من الاسكندرية وبيروت ، وهى لاتكاد تحمل ربع شحنتها وحمولتها العادية ، حتى ان هيئة التجار الألمان الذين وفدوا كالمعتاد لحضور مزادات الأسواق السنوية فى البندقية عادوا بأموالهم بعد أن هددوا السلطات المشرفة على التجارة الخارجية بأنهم سوف يتوجهون الى أسواق لشبونة للحصول على حاجتهم من التوابل . راجع كذلك :

دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٢ و ١٣٣ .

— Thenaud, Op. Cit., pp. XLVII, XLVIII.

مصالح السلطان في الهند . ووصل ماوروس ومرافقاه الى البندقية فى ابريل ١٥٠٤ ومعه خطابا للدوج لطلب مساعدات حربية للسلطان لمقاومة البرتغاليين فى مياه الهند وطلب كذلك منحه خطابات توصية الى ملكى اسبانيا والبرتغال والبابا . وعقد السناتو جلسة خاصة حضرها الأسقف ماوروس ، الذى عرض طلب السلطان المعونة الحربية والتأييد الأدبى لدى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال لوقف تعرض البرتغاليين للمصالح السلطانية فى الهند ، أو ارسال أسلحة للسلطان لمقاومة البرتغاليين فى المياه الهندية فى حالة فشل المفاوضات لوقف اعتداءاتهم. وأعلن ماوروس كذلك استياء السلطان من موقف الملك القطالونى من المسلمين فى الأندلس والمغاربة بشمال افريقية واجبارهم على ترك دينهم أو الموت . وقال ماوروس ان ملكى اسبانيا والبرتغال يسلكان مسلكا صعبا ضد السلطان سواء فى أوربا أو فى الهند وأنه اذا لم تجب كل طلباته بالود والتفاهم فسيجد نفسه مضطرا الى قتل كل أجنبى يصل لبلاده ويهدم ما بها من أديرة وأماكن مسيحية . ورد السناتور على مبعوث السلطان بأن الأضرار التى لحقت بالسلطان قد أصابت البندقية كذلك فى الصميم واعتذر عن الكتابة للبابا وللملكى قطالونيا والبرتغال حتى لا تتهم البندقية بمساعدتها للسلطان عدو المسيحيين ، واكتفى السناتو بأن أعطى للأسقف ماوروس عند سفره معلومات عن الحالة فى أوربا بصفة عامة ليبلغها للسلطان .

وسافر الأسقف الى أوربا واتصل بالبابا يوليوس الثانى الذى انزعج لما سمعه عن تهديدات السلطان للمسيحيين والأماكن المقدسة المسيحية فى بلاده وأسرع بارساله ومرافقيه الى فردناند الخامس ملك قطالونيا وعمانويل ملك البرتغال وهناك أوضح لهما الأسقف جلية الأمر ومضمون مهمته . وليس لدينا ردهما المكتوب ولكن كل مانعرفه أن الملك البرتغالى أرسل يطمئن البابا يوليوس الثانى كما نصحه بألا يقلق أو يلقى بالا لتهديدات السلطان لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ

هذه التهديدات ، كما أنه لا يستطيع القيام بأى عمل تعسفى ضد المسيحيين فى بلاده أو ضد الأماكن المسيحية المقدسة لأنه يجنى من ورائها رسوما طائلة فى مواسم الحج . وأضاف أنه فى حالة تنفيذ السلطان تهديداته فان الأسطول البرتغالى سيدخل البحر الأحمر ويهاجم الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة كاجراء مضاد . وفى نهاية الرسالة طلب من البابا التأييد الدينى والأدبى فى صراعه مع المماليك والاتصال بملوك وأمراء أوربا لنفس الغرض .

وأعطى الملك الخطاب للأسقف مغلقا ليسلمه بنفسه للبابا وهو فى طريقه للشرق (٥٧) .

وفى البندقية لم تكد السلطات تودع الأسقف ماوروس الى روما حتى أسرعت بارسال سفارة جديدة الى القاهرة يرأسها « فرنسسكو تالدى Fransisco Taldi فى ٢٤ من مايو ١٥٠٤ بعد شهر من وصول الأسقف للبندقية . وفى المحادثات نبه السفير تالدى السلطان الغورى الى ازدياد نشاط البرتغاليين فى الهند وأنهم يوزعون التوابل فى أوربا بأسعار تقل كثيرا عن أسعار الاسكندرية وبيروت، بل انهم يوزعونها فى ايطاليا نفسها بالأسعار المنخفضة، وأوضح السفير للسلطان أن حكومته لم تستطع منع تجارها من اللجوء أحيانا الى أسواق لشبونة . كما أنها لم تستطع مقاومة اغراء رسل ملك البرتغال الى البندقية ودعوته تجارها لتولى منصب الصدارة فى توزيع هذه التوابل فى أوربا

---

(٥٧) — Thenaud, Op. Cit., I. pp. XLVII, XLVIII, XLIX.

ـ لكى يسهل السلطان على الاسقف ماوروس مهمته طلب منه نزع قطعة رخام من كنيسة القبر المقدس وهى مجزعة بلون بنفسجى ومقاسها ٣½ شبر مربع ويقسمها الى خمس قطع متساوية تعطى للبابا وللملكة قشتالة ولملك البرتغال وللكردينال Carvajal وكان يحمل لقب Sainte-Croix En Jérusalèm. والخامسة للكردينال D. Francesco Cianerses وقصد من ذلك أن تكون هدايا مقدسة لتسهيل مهمته • انظر كذلك :

— Heyd, Op. Cit., pp. 520-522.
— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, p. 532.
— Muir, W., The Mameluk Or Slave Dynasty, p. 191.
— Charles Roux, J., L'Istheme Et Le Canal De Suez, T.I. p. 42.

بالنظام نفسه الذى يقومون به الآن بشرط قطع الصلة مع السلطان المماليكى . ثم ألمح السفير للسلطان أن بلاده لا تسطيع أن تتغاضى عن ثلاثة قرون من العلاقات الطيبة مع مصر بهذه السهولة ، وصرح بأن الهيئة المشرفة على التجارة الخارجية عارضت سياسة الحكومة الهادئة مع السلطان ، ولكن حكومة الدوج يعز عليها أن تهجر السوق التى طالما ترددت عليه وتأمل أن يتدارك السلطان الأمر . وأضاف السفير الى ما ذكره أنه وصل الى البرتغال ١٤ سفينة تحمل حوالى ٥٠٠ حمل من التوابل أرسلت كلها الى أسواق انجلترا والفلندرز وفرنسا وايطاليا كما يوجد بميناء لشبونة ١٢ سفينة مستعدة للرحيل غير ١٦ رحلت فعلا للهند ونصح السلطان بأن يتخذ اجراء سريعا جديا فيرسل مندوبيه الدبلوماسيين الى ولايات الهند وأمرائها لينصحهم بمقاطعة البرتغاليين أعداء الدين والوطن ويقرن هذا بعمل حربى يضع البرتغاليين عند حدهم وأن يصحب سفن التجارة المماليكية دائما سفنا حربية ويغرق أسواق الاسكندرية وبيروت بالتوابل النقية الجيدة بأسعار رخيصة لاغراء التجار البنادقة وغيرهم بعودتهم الى أسواقهم ، وبذلك يكون قد عمل على تدمير مشروعات البرتغاليين فى الهند ، كما نصحه بألا يتخذ أى اجراء ضد المسيحيين والأماكن المسيحية المقدسة فى بلاده لأن هذا سيثير عليه الشعور الدينى فى أوربا ويكسب البرتغاليين تأييد الدول الأوربية وعطفها على جهودها ضد السلطان (٥٨) . وأوضح تالدى أيضا للسلطان صعوبة كتابة حكومته لملكى قطالونيا والبرتغال والبابا حتى لا يحدث شكا فى موقف البندقية من الدول المسيحية المعادية للسلطان .

---

(٥٨) بعثة السفير البندقى تالدى للقاهرة تمت فى ٢٤ من مايو ١٥٠٤ . انظر نص تعليمات السناتو للسفير بالملحق رقم (٧) وكذلك :

ـ شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٤٧ ـ ١٥١ وكذلك :

— Mas Latrie, Op. Cit., pp. 259-263.
— Charles Roux, Op. Cit., T. I. p. 45.
— Heyd, Op. Cit., pp. 521, 522. 523, 524.
— Thenaud, Op. Cit., pp. XLV-XLVI ff.

وبخصوص المعونة العسكرية التى طلبها السلطان ، فيبدو أن حكومة البندقية أخطأت فى فهم مقاصده فاعتقدت أنه يطالبها بارسال أسطولها الى الهند بالطريق الجديد ليلتقى بأسطوله ويواجها معا البرتغاليين ، وأوضحت البندقية على أساس هذا الفهم أن البرتغال تبعد حوالى ٤٠٠٠ ميل عنها ، وبالطبع ستكون المسافة أضعاف هذا بالنسبة للهند بالطريق الجديد علاوة على أن ملك قطالونيا حليف البرتغال، تقع بلاده على الطريق الى الهند وتجاور كذلك حدود البندقية أملاك لويس الثانى عشر ملك فرنسا الذى استولى على نابلى وهو لن يتحالف معها ضد المسيحية . الا أن السلطان أوضح للسفير أنه يطلب فقط شحنات من الأسلحة والأخشاب الى الاسكندرية . ثم مرض تالدى وانقطعت محادثاته مع السلطان حتى حل محله مبعوث آخر هو « برناردينو جيونا Bernardino Giova . ومع كل الجهود التى بذلتها البندقية لم يقدر لهذه المباحثات النجاح ، واعتقد البنادقة أنه لو نفذ السلطان مشورتهم بالاضافة الى جهوده الخاصة لحسم المشكلة نهائيا (٥٩) .
وفى أثناء ذلك وصل الأسقف ماوروس الى القاهرة فى ٥ من مارس ١٥٠٥ وأطلع السلطان على تفاصيل رحلته وبدأ السلطان يتخذ اجراءات هامة فأنزل أسطولا ضخما فى السويس وجمع تكاليف الحملة من رفع أسعار التوابل وزيادة رسوم الجمارك ، وقبل بعض التجار الأجانب الزيادة ورفضها قبطان « الجاليز البندقى » وهو « سر بولو كاللو Ser Polo Callo » وطالب بتطبيق المعاهدات المعقودة بين السلطان وبلاده ، وانتهز القبطان فرصة انشغال عمال الميناء وأقلع من الاسكندرية دون استئذان السلطات المحلية حسب التعليمات وعاد

---

(٥٩) نصح السفير تالدى السلطان الغورى بصرف النظر عن التهديد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد المسيحيين والحجاج والاماكن المقدسة ببلاده لأن هذا سيثير عليه أوربا ويمنع وصول التجار الى بلاده ويفقده رسوم الحجاج . راجع الفقرة ١٢ من الرسالة فى الملحق برقم (٧) .

للبندقية خاوى الوفاض ، وكان هذا العمـــل منه فى هـذا الوقت الحـرج سببا فى اثارة حفيظة الســلطان ، فألقى القبض على القنصل البنـدقى ووكــلائه وقناصل الدول الأخـرى ورعاياهم ، وأرسلهم مكبلين بالحـديد لسجون القاهرة ومعهم راعى بيعـة الاسـكندرية البندقى ، وصادر السلطان أموالهم ومتاجرهم فى مصر والشام وبيعت بأبخس الأثمان (٦٠) . وزاد من ثورة الســلطان أن فرســان رودس وقراصنتهم صادروا سفنا للسلطان بحمولات ثمينة غربى مياه قبرص ، واعتقد السلطان أن للبنادقة يدا فى ذلك وأنهم أهملوا أو تعمدوا اهمال تنفيذ شروط الاتفاقية المبرمة معهم من عهد الســلطان قايتباى والتى بموجبها تنازلت لهم مصر عن ادارة قبرص لقاء تعهدهم بحماية الجزيرة ودفع الجزية السنوية ومنع القراصنة عن مياهها . وفى ثورة الغضب أغار السلطان على مابقى من ممتلكاتهم (٦١) . واتخذ اجراءات أخرى داخلية فأعلن سيطرته الكاملة واحتكاره للتجارة الشرقية وحذر من بقى من التجار الكارمية من التعامل المباشر مع الأجانب وبخاصة البنادقة واقتصرت أعمالهم على جلب التوابل والسلع من الهند ، بعد أن رأى وضوح التقارب بينهم وبين الأجانب المترددين على بلاده ؛ وظل الكارمية كما كانوا على عهد السلطان قايتباى مجرد موظفين لدى الســلطان بالمرتب والعمولة ، وفى الوقت نفسه رفع بعض تجاره من القائمين ببيع التوابل السلطانية للمركز الذى كان للكارمية من قبل رغم قلة خبرتهم فى التجارة الشرقية مما أدى الى تردد الشكوى من سوء تصرفهم . وتضاءلت شخصية التاجر الكارمى الدولية حتى أصبح تاجرا عاديا (٦٢).

(٦٠) Thenaud, Op. Cit., I. pp. XLVII, XLIX. —

لكثرة ما أعين الاسرى مات القنصل والقس واحد كبار التجار وهو التاجر Ser Alvise Bragadine ; بالطاعون والأمراض الأخرى .

دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٦

(٦١) Thenaud, Ibid, I. p. LX. —

(٦٢) أنظر طوائف التجار فى الفصل الخامس وما كتب عن الكارمية .

— Heyd, Op. Cit., pp. 519-520.

ومع هذه الاحتياطات الشديدة وتحذيرات السلطان فان هذا الاجراء الاحتكارى لم يمنع توثيق الصلة بين التجار الكارمية والأجانب سرا والتعاون على تهريب البضائع أحيانا ـ ولما اشتدت المراقبة عليهم هجروا مصر وتركزوا فى الحجاز والبحر الأحمر ومارسوا تجارة متواضعة نسبيا فى مواسم الحج ، كما هجر عدد من الجاليات التجارية الأجنبية مصر والشام الى لشبونة (٦٣) .

وبدا للبندقية هذا الموقف من أسوأ ما واجهته فى حياتها التجارية بشرق البحر المتوسط . ومع هذا لم تيأس من اصلاح الحال ، ورأى السناتو أن اعادة العلاقات الى حالتها الطبيعية يحتاج لسفارة جديدة يرأسها مندوب فوق العادة من السناتو نفسه تكون له الخبرة الكاملة بمجريات الحوادث على أن تعطى له كل الصلاحيات اللازمة لعقد اتفاق مفيد واختير لهذه البعثة السناتور « الفيز ساجاندينو Alvise Sagandino » لخبرته بشئون الشرق . ووصل السفير فى صيف ١٥٠٥ وعرض على السلطان آخر تطورات الموقف فى أوربا وفى الهند واستفسر منه عما اذا كان بامكانه القيام بعمل ايجابى للمحافظة على مصالح البنادقة فى بلاده ولم يتم السفير سفارته لموته المفاجىء . (٦٤)

ولم يكن الغورى فى حاجة لمن يعرفه بمدى التدهور الذى بلغه الموقف فى الهند وخسائره التجارية وفشل خطته لافساد العلاقات التى نشأت بين البرتغاليين وأمراء كانانور وكوشين ومراكز انتاج البهار ،

---

(٦٣)
— Thenaud, Op. Cit., T.I. pp. XLVII, XLVIII.
— Heyd, Op. Cit., pp. 520, 521.

(٦٤) يحق لنا أن نتساءل عن مدى ما ترمى اليه البندقية من الحاحها فى كل هذه الاجراءات .. الم يكن بامكانها الغاء اتفاقياتها مع مصر وتوجيه سفنها الى لشبونة للحصول على ما تريد من التوابل ، وتنظيم رحلات لها بشروط البرتغاليين الى الهند ؟ الواقع أن الطريق البحرى حول افريقية كان طويلا بالنسبة للبرتغاليين وبالطبع اطول بالنسبة للبندقية ، كما أن البنادقة رفضوا كتجار أن يكونوا تابعين لملك البرتغال بعد أن كانوا دولة من الدرجة الأولى لذلك فضلوا أسواق مصر . راجع :
— Heyd, Ibid ; p. 524.

وتدمير البرتغاليين المستمر لأساطيله التجارية وأساطيل الأمراء الهنود الموالين له وبخاصة فى قاليقوط ، وترصــدهم لسفنه عند مدخل البحر الأحمر ، وفى الوقت نفسه قلة التوابل بصورة مزعجة فىأسواق مصر وسوريا وزيادتها الهائلة فى أسواق لشبونة ، مما أزعج تماما هيئةالتجار والســناتو البنـدقى وبخاصــة لما وصلتهم التوابل والسـلع الشرقية من لشبونة حتى بلادهم بأســعار معتدلة ، كما وصلته أنبــاء عن تدعيم البرتغال لأسطولها فى الهند بسفن حربية للحمــاية وتأكيد السيطرة والاحتكار وافساد كل تدبير للسلطان . بل علم أن البرتغال قررت أن يرافق أسطولها التجارى سفنا حربية اعتبارا من عام ١٥٠٦ وسمحت السلطات البرتغالية للسفن الفلورنســية والجنوية والألمانية بمصاحبة الرحلة على أن يكون ما تشتريه لحسابها باشراف البرتغاليين ويخصهم منه ثلثا الحمولة ــ وذلك نكاية فى البنادقة . وبقدر ما كان هــذا العمل توسعا فى تجارة البرتغاليين والهنود فانه لا شك كان انتكاسا شديدا لتجارة المماليك والبنادقة (٦٥) .

الا أن الغورى لم يدع مصالحه تنهار بهذه السهولة ورأى أن الأمر يحتاج لحملة حربية الى مياه الهند وقرر ارســال بعثة الى الهند للمفاوضة فى طلب المعونة العسكرية من أخشاب وسلاح واعادة التجارة الى ما كانت عليه لا سيما وأن ايراداته انخفضت بصورة مزعجــة ، وأسند هذه السفارة الى ترجمانه الخاص تغرى بردى وســافر المبعوث السلطانى فى٥ من مارس١٥٠٥ على احدى سفن المدةالبندقية الىقبرص ومعه أعضاء سفارته وبقى بها حتى وصــله تصريح مرور الى رودس ليفاوض مقدم اسبتاريتها «أمايرى دامبــواز Ameiry D'Amboise »

---

(٦٥) سمحت البرتغال لبعض تجار فلورنسا وجنوة والألمان بمصاحبة احدى رحلاتها للتأكد من مقدرتها . على أن يسلموا للبرتغاليين ثلثى ما يشترونه بالاسعار العادية . راجع :

— Thenaud, Op. Cit., T. I. p. LI.

فى شأن السفن المأسورة والمصادرة بواسطة فرسانه شرقى البحر المتوسط وغربى قبرص . وانتهى تغرى بردى من مهمته بسهولة ،وحمله مقدم الاسبتارية هدايا للسلطان وأوصله بنفسه للسفينة التى أقلته للبندقية وبالرغم من عدم الشعور بالارتياح فى البندقية لشخصية السفير الترجمان تغرى بردى فان السناتور اضطر أن يخفى هذا الشعور للصفة الرسمية التى للمندوب السلطانى ، بل ان السناتو تحمل نفقات الرحلة اكراما للسلطان . وفى المحادثات طلب السفير السلطانى معونة عسكرية لمواجهة الموقف فى الهند ، كما طالب بعودة تجار البندقية لموانىء مصر والشام . أما البندقية فان طلباتها تلخصت فى تسهيل مهمة تجارها فى موانى مصر والشام وأسواقهما ، وفك أسر المسجونين منهم ، وتحديد سعر التوابل الشريفة ، ورفع القيود على السوق الحرة وتخفيض الجمارك وفى الحق أن البندقية لم تشأ أن تعطى رأيها بصراحة فى طلبات السلطان ، كما أن تغرى بردى لم يوافق على طلباتها بسرعة واقترح ارسال خاصكيا من عنده للقاهرة بسرعة لعرض الموقف وطلبات البندقية ورأيها على السلطان . ووافقت البندقية ، وحملت الخاصكى السلطانى وعدا سريا برغبتها فى المساعدة الحربية ، بل انها ستعمل على ذلك بكل طاقاتها سرا حتى لا تثير عليها وعلى السلطان الدول الأوربية المسيحية، وفى الوقت نفسه طلب تغرى بردى أن يبلغ سيده جهارا بأن يتوجه بطلباته من السلاح والسفن الى السلطان العثمانى بايزيد الثانى . ويبدو أن السلطان الغورى كان فى موقف دقيق فعلا فقبل شروط البندقية وأقرها على مطالبها . وما لبث أن وصلت سفن المدة التابعة لهم الى الموانىء السلطانية ، وفى الوقت نفسه أنفذ رسله الى السلطان بايزيد الثانى لطلب السلاح [٦٦] الا أن الآمال لم تتحقق وفق ما يرجوه

---

(٦٦) راجع الملحق برقم (٨) عن مناقشات السناتو بخصوص سفارة تغرى بردى ١٥٠٦ ورقم (٩) بشأن المباحثات بين تغرى بردى وحكومة البندقية وما اتفق عليه فى هذا الموضوع . راجع كذلك :

الطرفان لاستمرار اعتداء البرتغاليين على سفن التوابل المماليكية فى الهند ، واستأنف تغرى بردى رحلته الى روما وأوربا فى يوليو ١٥٠٧ دون أن يحقق غرضا ايجابيا سوى اسماع صوت سيده السلطان للمسئولين فى روما وأوربا . وقد عزا تغرى بردى فشل مهمته الى موقف البنادقة المائع من طلبات السلطان مما جعله يوغر صدر سيده عليهم فيتخذ هذا اجراءات أشد عنفا ثم لا يلبث تغرى بردى أن يتصل بهم فى سجونهم ويعرض عليهم الحرية والحياة الكريمة اذا ماحضوا حكومة الدوج على اعطاء السلطان طلباته من السلاح والسفن . وبرغم كل ما قيل وما جاء على لسان تغرى بردى وحكومة الدوج فان الوثائق لاتشير بصراحة عن طبيعة المعونة المطلوبة : أهى مال .. أم سلاح .. أم سفن أم كل أولئك معا .. وهل وعد البندقية بالمساعدة السرية كان وعدا صادقا أم مسايرة للظروف .. والواقع أن توالى الأحداث بعد ذلك أكد تهرب البندقية من تنفيذ وعدها للسلطان متعللة بحرج مركزها أمام العالم المسيحى (٦٧) .

واذا كانت العلاقات المماليكية البندقية قد استغرقت معظم سنى حكم السلطان الغورى الا أنه لم يبخل رعاية غيرهم من التجار الأجانب وخاصة من الفلورنسيين . ففى زحمة المشكلات التى اقترنت باتساع نشاط البرتغاليين فى الهند ومحاولتهم تدمير تجارة السلطان ، وفى

= ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٢٦ (طبعة كالة)
— Heyd, Op. Cit., p. 525.
— Depping, Op. Cit., p. 270.
— Thenaud, Op. Cit., T.I. p. LII.

وكانت البندقية قد أرسلت سفارة للسلطان الغورى بشأن نصيحتها له بطلب السلاح من بايزيد الثانى العثمانى والأخشاب من خليج اياس وبالفعل أرسل السلطان الى ادرنة سفيرا من لدنه يوضح الموقف للسلطان العثمانى .

دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٠ و ١٤١ .

(٦٧) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٩١ ـ ١٢٠ .
— Thenaud, Op. Cit., pp. L-LI.
— Heyd, Op. Cit., p. 493.

السفارات والبعثات الدبلوماسية لبحث هذه المشكلة وصل الى القاهرة عام ١٥٠٦ مبعوثا فلورنسيا لتحية السلطان وللحصول على تأكيدات لمواطنيه التجار من مصالح وامتيازات فى بلاد السلطان المماليكى . وكانت حكومة فلورنسا قد قلقت لقلة ما بأسواق السلطان من توابل وارتفاع أسعارها وما اتخذه السلطان من اجراءات تعسفية ضد التجار الأجانب ، وأقلقها كذلك كثرة السفارات المتبادلة بين مصر والبندقية وخشيت أن يكون فى الأمر ما يضر بمصالحها فى مصر والشام فعقدت اتفاقية فى ١٢ من ابريل ١٥٠٦ آكد فيها الغورى رعاية حكومته لتجار فلورنسا وتأكيد ما لهم من حقوق وامتيازات ، وطلب من السفير أن يبلغ حكومته اهتمام السلطان بوصول التوابل والسلع الشرقية بصورة دائمة لبلاده وأنه لا صحة لما يشاع عن قصور تجاره عن جلب السلع الشرقية من الهند . ثم أصدر له السلطان مرسوما شريفا موجها الى « كل واقف عليه وناظر اليه من الجنايات العالية والمجالس السامية، النواب، والحجاب ، والمباشرين ، والنظار ، والمتكلمين ، وأرباب الادراك ؛ وأصحاب الوظائف بالثغر الاسكندرى المحروس وغيره من الثغور الاسلامية والسواحل بممالكنا الشريفة .. بالأمان والاطمئنان لطائفة الفرنتيين ورعاية مصالحهم ومصالح تجارهم » . ـ كما تضمن الخطاب تعليمات السلطان لعماله فى حالة موت أحد تجار الفلورنسيين أو انكسار احدى سفنهم وحماية ملكياتهم الخاصة هذا مع اقرار كل ما منح لهم من امتيازات نالوها فى المعاهدات السابقة من عهد السلطان اينال والسلطان قايتباى ، وبخاصة المعاهدة الشاملة التى عقدها السلطان قايتباى مع سفيرهم « دلا ستوفا Della Stufa» عام ١٤٨٩ (أصبح قنصلهم هو الشخص ، المسئول رسميا عن طائفتهم وفى المحادثات كرر السلطان نفى الشائعات التى يرويها أعداءه البرتغاليين عن انهيار

تجارته فى الهند (٦٨) . والواقع أن تجار فلورنسا لقوا رعاية خاصة فى بلاد السلطان لبعدهم عن المشكلات العامة والخاصة وعدم اعتراضهم على تعليمات حكومة السلطان . ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات بين البلدين حتى ان السلطان كلف مبعوثه تغرى بردى بأن يعـــرج على فلورنسا بعد انتهاء مهمته فى البندقية وحمله لحاكمها الهدايا والتحيات ومشروع اتفاقية جديدة بامتيازات أوسع فى مصر والشام . وقد وجـه حاكم فلورنسا خطاب شكر للسلطان الغـــورى على هداياه ومنحه لتجارها (٦٩) . وحمل تغرى بردى خطاب الشكر للسلطان الذى أعد مرسوما آخر لعماله بمراعاة طائفة الفلورنسيين فى بلاده وألا يؤخذ أحد بجزيرة خطأ ارتكبه آخر ، وألا يمس أحدهم مصالحهم بســوء (٧٠)، ومع أنه لم يحدث ما يعكر الصفو بين الفلورنسيين والسلطان الغورى فى تلك الفترة فانه عند حدوث أى نزاع بين السلطان والتجار الأجانب فى بلاده كان غضب السلطان يجمع الكل بما فى ذلك الفلورنسيين أنفسهم فيخضعون لشتى أنواع الضغوط والمصادرة لسلعهم وأموالهم

(٦٨) داب الفلورنسيون على زيادة اتصالهم ومواصلة هذا الاتصال بالسلطان المماليكى فكانت القاهرة تستقبل كل عام سفيرا فلورنسيا لتأييد الصداقة وتجديد الامتيازات الممنوحة لتجارهم

— Ziada, Op. Cit., p. 246.

راجع الملحق رقم (٢٥) والاتفاقية بتاريخ ٨ ذو القعدة ٩١١ هـ/١٢ من ابريل ١٥٠٦ أما الاتفاقية التى ذكرها السلطان الغورى من عهد السلطان قايتباى فهى بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ٨٩٤ هـ/١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ ومنشورة بالملحق رقم (٢٠) و (٢١) وهى من اهم اتفاقيات أواخر القرن ١٥ م .

— Amari, Op. Cit., pp. 215 ff.
— Amari, Ibid, pp. 181-272-273.

(٦٩) خطاب حاكم فلورنسا للسلطان الغورى للشكر على الهدية المرسلة مع الترجمان تغرى بردى عام ١٥٠٧ منشورة بالملحق رقم (٢٦) انظر كذلك :

— Amari, Ibid, p. XLIX.

(٧٠) خطاب ومرسوم السلطان الغورى الذى حمله تغرى بردى لفلورنسا منشور بالملحق رقم ٢٧ وفيه يؤكد السلطان للحاكم تامين مصالح رعاياه فى مصر والشام ويوجه نداء للتجار الفلورنسيين لارتياد موانى بلاده للمتاجرة وكذلك صورة الأمر الذى أصدره لعمال موانيه لمراعاة هذه الطائفة . انظر كذلك :

— Amari, Ibid ; pp. XVII-218-220.

بالرغم من قلة عددهم (٧١) على أنه بعد هذه الاتفاقيات زادت وكالاتهم التجارية وسمح لهم بانشاء فروع لقنصلياتهم العامة فى مصر والشـــام وسارت عملياتهم التجارية على نسق ما هو معمول به فى فلورنسا نفسها وسمح الغورى باتخاذ عملتهم الذهبية الفرنتى عملة رسمية فى مصر والشـــام (٧٢) .

الا أن الموقف أخذ يتدهور بسرعة زائدة ، فلدى عودة الترجمان تغرى بردى من رحلته الى أوربا قدم للسلطان تقريرا وافيا ولم ينتظر السلطان أن تفى البندقية بوعودها الحربية بل أنزل أسطولا حربيا فى ميناء الطور وجعل عليه الأمير « حسين كردى » بعد أن زوده بالأسلحة والعتاد، وكان قد تحالف مع أمراء الهند وبخاصة أمراء جوجيرات لوضع حد لتصرفات البرتغاليين فى مياه الهند . وتجمعت وحدات الأســطول المماليكى المكون من خمسين سفينة فى ميناء جدة ، ثم واصل الســير الى سورات فى مقاطعة جوجيرات عام ١٥٠٧ حيث انضم اليه الأسطول المتحالف من الهنود ، وفاجآ أسطول البرتغاليين بقيادة الميديا الصغير وأوقعا به الهزيمة عند شول «Chaul» عام ١٥٠٨ وقتل القائد البرتغالى فى المعركة (٧٣) ولدى وصول أنباء هذه الهزيمة الى أوربا أثير موضوع

---

(٧١)
— Heyd, Op. Cit., p. 490.
— Amari, Op. Cit., p. 75.

(٧٢) يرجع ازدهار تجارة فلورنسا منذ النصف الثانى من القرن ١٥ الى ماليتها المستقرة التى ارتكزت على أنظمة مصرفية راقية كانت تمول بموجبها العمليات التجارية فى الشرق والغرب ومن أهم مصارفهم وبيوتاتهم التجارية والمالية بيت آل ميديتشى وآل Pazzi وآل Capponi وآل Corsini وآل Falconierie راجع :
— Heyd, Op. Cit., pp. 483, 484.
— Depping, Op. Cit., pp. 232, 237.
— Clive, Op. Cit., p. 99.

(٧٣) دراج : المماليك والفرنج : ص ١٣٧ .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٣٠ — ١٤٢ (بولاق) حوادث المحرم وشعبان ٩١٤ هـ . انظر كذلك :
— Heyd, Op. Cit., p. 536.
— Lane Poole, Egypt.... p. 352.
— Lane Poole, Medieval India Under Mohammedan Rule pp. 176, 177.
— Cattaui, Joseph, Coup D'Oeil Sur La Chronologie De La Nation Egyptienne, p. 303.

مساعدة البنادقة للسلطان المماليكى بالسلاح والمال والأخشاب وكان ملك البرتغال من أكثر المتحمسين لاتهام البندقية ، اذ وصلته أنباء متضاربة عن شحن البنادقة لسفينتين بالمدافع لتكونا تحت تصرف السلطان الغورى فى صراعه مع البرتغاليين فى الهند وأرسل الملك البرتغالى عمانويل احتجاجا شديدا وتهديدا للبندقية لمعاونتها أعداء المسيحية وأعداء البرتغال (٧٤) .

واقع الأمر أن البنادقة كان يسرهم فعلا مساعدة السلطان لوقف نشاط البرتغاليين فى المياه الشرقية ، وتمنوا لو أنه استجاب لدعوتهم فى السنوات الأولى لوجود البرتغاليين فى الهند ، حيث كان بالامكان القضاء على قواتهم بسهولة . ولكن مماطلة السلطان وانصرافه الى الاحتجاج السلمى والبعثات الدبلوماسية لدى ملوك وأمراء أوربا وبابا روما جعل البنادقة يشعرون بخيبة أمل ويحجمون عن المساعدة الحربية . واستندوا فى ذلك الى حرج موقفهم أمام العالم المسيحى . والثابت فعلا أن البنادقة لم يكن لهم ضلع فى حملات السلطان ضد البرتغاليين فى الهند ، بل انهم فى هذه الفترة كانوا فى شغل شاغل بمؤتمرات حلف كامبرى . ومع نجاح العمليات الحربية المماليكية فى مياه الهند الا أن سفنهم التجارية لم تعد تمارس نشاطها السابق، وذلك لتجمع سفن الأسطول البرتغالى عند مدخل البحر الأحمر وفى الهند وترصدها السفن المماليكية. وفى الوقت نفسه أحجم التجار الأجانب عن الوصول لمصر والشام بعد هزيمة شول ١٥٠٨ حتى لا يتهموا فى العالم المسيحى بمساعدة السلطان ماديا ضد البرتغال ، وأدى ذلك الى نقص

---

(٧٤) ارسلت البرتغال احتجاجها الذى وصل الى البندقية عام ١٥٠٩ كما وصل احتجاج ملك فرنسا عام ١٥١٠ واتهما البندقية بتدبير هزيمة البرتغاليين وقتل قائد أسطولهم فى مياه الهند . واستندت البندقية على هذا الاحتجاج فى تبرئة نفسها من حوادث فرسان رودس والسلطان التى تلت ذلك وأبلغت السلطان أن عدوهما المشترك هو الفرنسيون مدبرو هذه الحوادث . راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

واضح فى التوابل ، وفى المبيعات ، وفى الجمارك فلجأ السلطان الى تسهيلات واعفاءات أكثر ، وبخاصة طائفة الفلورنسيين . ففى عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م أصدر مرسوما بالترخيص لهم بدخول جميع موانيه بما فى ذلك موانى البرلس ودمياط ورشيد ، وكان هذا الأخير لا يزال حتى ذلك الوقت محظورا الدخول فيه على جميع الأجانب لصفته الحربية (٧٥) ومنحهم كذلك حمايته ورعايته « ... فلا يعترض عليكم أحد ، ولا يزعجكم أحد .. ولا يطالبونكم بأى شىء لأى سبب فى الحال والاستقبال (٧٦) » وفى الهند بعد هزيمة البرتغاليين عام ١٥٠٨ م أقسم « فرنسسكو دالميديا Francesco D'almedia » الكبير أن ينتقم انتقاما شديدا فانتهز فرصة لجوء الأسطول المماليكى والأسطول المتحالف معه من أمراء الهند الى جزيرة ديو للتموين والاصلاح ، وفاجأه وأوقع به الهزيمة فى معركة رهيبة فى ٣ من فبراير ١٥٠٩م دمر فيها معظم السفن المماليكية والهندية ، وانسحب الأمير حسين كردى بعد ذلك الى جدة (٧٧) أما السلطان الغورى فقد هزته الهزيمة ورأى أن احتياطيه من الأموال والسلاح يتناقص بالتدريج ، فى الوقت الذى تزداد فيه قوة البرتغاليين فى الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم . وكرر طلب السلاح من السلطان بايزيد الثانى العثمانى الذى وعد بارسال مطلوبه هدية لانقاذ

---

(٧٥) لميناء رشيد صفة حربية منذ عهد الأيوبيين ، وكان منع وصول الأجانب اليه للشك الذى كان يحيط بهم دائما من محاولتهم غزو مصر من الشمال ثم بطريق النيل . راجع كذلك فصل الطرق والمحطات التجارية وكذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 428.

(٧٦) بالملحق رقم (٢٨) مرسوم السلطان الغورى بتاريخ نوفمبر ٩١٤/١٥٠٨ هـ. بعد عودة السفير تغرى بردى الى القاهرة وفيه يؤكد امتيازات السلطان للفلورنسيين فى بلاده وأمر لعماله بمراعاة مصالحهم . راجع :

— Amari, Op. Cit., p. L. & p. 388.

(٧٧) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٨ — ١٧٩

دراج : المماليك والفرنج ص ١٣٧ — ١٣٨ .

— Heyd, Op. Cit., p. 536.
— Depping, Op. Cit., p. 269.
— Lane Poole, Med. India, pp. 176, 177.
— George Dunbar, A Hist. Of India, Vol. I. p. 152.

الأماكن الاسلامية المقدسة ، اذ اعتقد كلاهما أن البرتغاليين لن يهدأ لهم بال حتى يصلوا الى مكة والمدينة . ووصلت السفن المماليكية الى ميناء الاسكندرية لتحميل المعونة التركية (٧٨) . وفى نفس الوقت قبض السلطان على عدد كبير من تجار البندقية وأرسلهم الى سجون القاهرة وأوصى الحراس بأن يوجوا اليهم بأن حريتهم مرهونة بدعوة جمهوريتهم لمساعدة السلطان حربيا فى الهند . ولما بلغ البندقية ما حدث أرسلت تبدي استعدادها لمعونة السلطان حربيا ، بل ومد الهنود كذلك بالسلاح لطرد البرتغاليين ، ولكن موقفها الحرج فى العالم المسيحى يمنعها الآن من تقديم هذه المعونة سرا أو علنا (٧٩) .

أما باقى الجمهوريات والمدن الايطالية فكان لأنباء هزيمة ديو ١٥٠٩ أثره السيء فيها ، ففى فلورنسا بدا القلق واضحا على مصالحها وأسرعت بارسال سفارة الى القاهرة يرأسها « برناردو بيروشوا Bernardo Pirochowa » ، ووافقه السلطان على كل طلباته ومنح تجاره موسما تجاريا بالاسكندرية وقنصلية دائمة بها ، وأمر عماله بمراعاة هذه الطائفة ، وضمن ذلك اتفاقية بتاريخ ٩ يوليو ١٥٠٩ ، وهى لاتخرج عما سبق أن عقد فى السنوات السابقة (٨٠) .

---

(٧٨) — Thenaud, Op. Cit., p. LIV.

يذكر ابن اياس جـ ٤ أن البنادقة نصحوا السلطان الغورى بطلب السلاح من السلطان بايزيد العثمانى ويذكرها فى حوادث رجب ٩١٦ هـ « .. وفيه حضر يونس العادل وكان السلطان قد أرسل الى بلاد ابن عثمان ليشترى له أخشابا وحديدا وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المبلغ الذى كان مع يونس العادل وقال له انما أجهز من عندى زردخانة للسلطان فحضرت فيما بعد .. »

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٩٦ (طبعة محمد مصطفى) .

(٧٩) — Heyd, Op. Cit., p. 537.

(٨٠) الواقع انه فى فترة حكم الغورى لم يحظ من التجار الأجانب مثل ما حظى به تجار فلورنسا من رعاية ، فلم تنقطع سفنهم مدة طويلة مثل ما حدث للبنادقة وتجارهم وكذلك فرنسا وقطالونيا ، بل انه من دواعى فخر فلورنسا أن البندقية استخدمت سفنها فى كثير من الأحيان فى نقل متاجرها من شرق البحر المتوسط =

وفى أثناء ذلك حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد وصلت الى الاسكندرية خمس سفن فرنسية محملة بأثواب الحرير والصوف والسلع الأوربية الأخرى ، وبعد أن انتهى التجار من بيع ما معهم من سلع أقفلت السفن عائدة وعلى ظهرها بعض المغاربة وأسرهم وأمتعتهم فى طريقهم الى بلادهم ، فترصد لها فرسان رودس عند « كاسل روسو Castle Rossou » وأسروها واقتادوها الى الجزيرة وجردوها من حمولتها وأسروا ركابها ثم أطلقوا سراح السفن وبحارتها الفرنسيين لتواصل السير لفرنسا . وكان من جملة ما غنمه الفرسان ما يساوى أربعين ألف فوكات (٨١) ولما بلغ السلطان الغورى ذلك اعتقد أن قباطنة السفن الفرنسية دبروا هذه المؤامرة بالاتفاق مع الفرسان وأعطوهم مواعيد العودة من الاسكندرية . وفى ثورة الغضب قبض السلطان على « فيليب ده بيريتاس Philip De Peretas قنصل فرنسا الذى يمثل قطالونيا كذلك ، وأمر بالقبض على جميع رعايا فرنسا ووضعهم فى سجون القاهرة ومصادرة أموالهم وأملاكهم . واقترنت هذه الاجراءات باشاعة عن خيانة ترجمانه تغرى بردى واشتراكه فى المؤامرة مع الفرسان فقبض عليه السلطان وسجنه بعد أن جرده من ألقابه ومماليكه ، وأحل

= الى أوربا فى فترة انقطاع العلاقات البندقية المماليكية أواخر عهد الغورى ، وذلك للاحترام والحماية اللتين حازتهما فلورنسا وتجارها فى مصر والشام .

راجع :

— Heyd, Ibid, p. 484.
— Depping, Op. Cit., pp. 236, 237.
— Thenaud, Op. Cit., p. LV, LVI.

(٨١)

دراج المماليك والفرنج ص ١٤١ — ١٤٢ .

هاجم فرسان رودس السفن الفرنسية العائدة من الاسكندرية انتقاما لما فعله المماليك فى مارس ١٥٠٩ عندما هاجم الفرنج ميناء الطينة شرقى دمياط ، اذ أسروا سفينة لهم ومن عليها وأرسلوهم الى القاهرة . أنظر كذلك :

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٤٦ .

محله الترجمان يونس ، وهو مملوك أوربى اعتنق الاسلام (٨٢) . ولم يكد يفرغ السلطان من هذه الاجراءات حتى فوجىء بكارثة أشد وأنكى؛ فلدى عودة سفن السلاح الثمانى عشرة، والمرسلة من السلطان بايزيد الثانى العثمانى من الاسكندرونة الى مصر، أحاطت بها سفن الفرسان ودارت بين الطرفين فى ١٠ من أغسطس ١٥١٠ معركة غير متكافئة ، استغرقت عدة ساعات غرقت فيها بعض السفن المصرية، وأسر الفرسان البعض الآخر وتاهت سفينتان فى العاصفة ولم يصل للاسكندرية سوى ست سفن خاوية(٨٣). وكانت هذه الكارثة تفوق طاقة السلطان الغورى،

---

(٨٢)
— Thenaud, Ibid, p. LVI.
— Heyd, Op. Cit., p. 537, 538.

ـ نما الى علم السلطان تواطؤ تغرى بردى كبير التراجمة السلطانية مع الفرنج وانه كاتبهم باحوال المملكة عن عجز السلطان على تجهيز حملة بحرية وخلو السواحل من التحصينات الحربية ـ فأمر بالقبض عليه والترسيم على بيته وأمواله ..

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٦١ (كالة) حوادث المحرم ١١ محرم ٩١٧ هـ/ابريل ١٥١١ ثم حل محله أواخر المحرم ٩٢٠ هـ الترجمان يونس وهو مملوك اجنبى كان من Verona واعتنق الاسلام وتسمى باسم يونس .

دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٨٣) تحصل مصر على حاجتها من الأخشاب اللازمة لبناء السفن من آسيا الصغرى وتصدر لها عن طريق ميناء الاسكندرونة ، ولما علم الفرسان بذلك ترصدوا سفنها فى ١٠ من اغسطس ١٥١٠ وصادروا شحناتها لصالحهم ، وقام بهذا العمل قائد أسطولهم المدعو André Di Amaral ، وهو برتغالى الأصل ، بعد أن تأكد من أن هذه الشحنة من السلاح والخشب معدة للحرب ضد البرتغاليين .

راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 537-539.
— Depping, Op. Cit., p. 270.
— Thenaud, Op. Cit., p. LIV.
— Darnes, The Book Of Durate Barbosa, Vol. I. p. 133 — R.I.

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٢٨ حوادث رجب ٩١٣ هـ وكذلك جـ ٤ ص ٢٠١ حوادث شوال ٩١٦ هـ حيث ذكر .

وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم، وفيها زردخانة للسلطان، فوصلت الى بولاق عند الرصيف ، وشرعوا يحولون ما فيها الى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل سيسقيات العدة ثلاثمائة ونشاب ثلاثين الف سهم ، وبارود أربعون قنطارا ومقاذيف خشب .. وسلب وحبال مراسى حديد وغير ذلك مما تحتاج اليه المراكب . فشكره السلطان=

فأمر بالتحفظ على جميع السفن الأجنبية فى موانىء مصر والشـام، ونكل بالأجانب فى بلاده ، وخاصة البنادقة ، لظنه أنهم وشوا بأمر هذه السفن للفرسان ، وأرسلهم الى سجون القاهرة بعد أن صادر أموالهم وأملاكهم ، وطرد رجال الدين من أديرتهم ، وأجبر مطران دير جبـل صهيون على دفع غرامة قدرها أربعة آلاف دوكات فورا ، وصادر الحلى والأوانى المستعملة فى الطقوس الدينية فى الكنائس ، واشـترط لردها أن تدفع عنها غرامة قدرها خمسة آلاف دوكات . وفى الشـام قاسى البنادقة نفس المصير وأغلقت خاناتهم وفنادقهم وقبض على تجـارهم وقناصلهم (٨٤) .

ويبدو أن الظروف كلها كانت تقف موقف العداء من البنادقة ، ففى مايو ١٥١١ قبض حاكم مدينة البيرة على الفرات، على قبرصى من فماجوستا يدعى « نيقولين سوربير » يرافقه فارس ويحملان خطـابا من الشاه الصفوى موجها الى دوج البنـــدقية وقنصلها فى دمشـــق « توماسو كوتتارينى » وخطابا آخر الى قنصلها فى الاسكندرية « بيترو زين » . وكان الرجلان ـ بمساعدة قناصل البندقية فى مصر والشام ـ

= على ذلك ، وكان السلطان قد أرسل مالا على يد يونس العادلى الى بلاد ابن عثمان لشراء الأخشاب والنحاس والحديد .. فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمة للسلطان .

(٨٤) — Heyd. Op. Cit., pp. 538-539 & 540.
— Depping, Op. Cit., p. 329.
— Charles Roux, Op. Cit., Vol. I. p. 42.

يتجنى المؤرخون الأجانب على اجراءات السلطات المماليكية ضد التجار الأجانب عقب حوادث تهجم دولهم وقراصنتهم على مصالح العرب ويتهمون السلاطين بالاعتداء على الكنائس والأماكن المقدسة المسيحية والواقع أن هذه الاجراءات تتصف بالصفة المالية البحتة ، فهى تاخذ شكل تعويضات للخسائر التى تصيب المماليك . ولعل أبلغ رد على هذا التجنى ما نعلمه من رعاية السلاطين حتى الغورى بتعمير كنائس بيت المقدس ودير جبل صهيون ، بل وتزايد اعداد التجار والحجاج الأجانب فى معظم الأحيان .

دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٣ و ١٤٤ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ طبعة كالة ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦٩ .

راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٤٥ عن فئات القراصنة فى البحر المتوسط .

قد استطاعا تهريب رسائل من دوج البندقية الى شاه فارس ، وفى عودتهما حملا الرد ، ولكن شاء سوء حظهما أن يقعا فى يد السلطات المماليكية (٨٥) . وأرسلا الى حاكم حلب خاير بك ، ومن ثم الى القاهرة بتقرير من الحاكم الى السلطان آبان فيه خطورة ما قام به الرجلان والقناصل ، وخاصة أن الحرب بين الصفويين الشيعيين والعثمانيين السنيين كانت وشيكة الوقوع ، وأملاك السلطان الغورى فى شمال الشام تقع بين القوتين المتصارعتين ، وهو لايريد أن يجر نفسه الى مثل هذه المتاعب . وكان هذا العمل من البنادقة محكا لاثارة السلطان الغورى ، بالاضافة الى الحادثتين السابقتين ، واعتبر السلطان أن عمل القنصلين خيانة عظمى موجهة لشخصه وبلاده . ووصل المتهمون للقاهرة حيث استجوبوا دون نتيجة هامة ثم ألقوا فى السجن (٨٦) وكان لهذه الأنباء أسوأ الأثر فى البندقية ومستعمراتها ، وكان لابد من اتخاذ اجراء سريع لاعادة العلاقات واطلاق سراح الأسرى ، ولكنها كانت حتى ذلك الوقت فى شغل شاغل بمشكلات اتحاد كامبرى Cambri ، كما أن

---

(٨٥) كان القنصل Pietro Zen سفيرا للبندقية فى تبريز قبل أن يمثل بلاده فى بلاط السلطان المماليكى أما Contarini فهو واسرته كانوا على علاقة ودية مع أوزون حسن التركمانى فقد كان قريبهم Ambroiso Contarini سفيرا للبندقية فى بلاط التركمان فى تبريز عام ١٤٨٧ .

— Thenaud, Op. Cit., T. II. p. LXIII.

وكان Caloyani امبراطور طرابيزون قد زوج ابنته Despina لاوزون حسن وتزوجت بناته الثلاث الأخريات من قبرص والبندقية .

— Heyd, Op. Cit., p. 539.
— Thenaud, Op. Cit., T. II. pp. LXIII — LXIV.

(٨٦) ترجع خطورة هذا الحادث الذى أثار مخاوف السلطان الى صلة القنصلين بفارس والشاه اسماعيل الصفوى ، راجع ملاحظة ٨٥ ، وخاصة صلة بييتروزين بحسن الطويل الذى يمتد نسب الشاه اسماعيل الصفوى اليه . وكان الخلاف قد بدأ واضحا بين المماليك والصفويين منذ عهد السلطان الغورى الذى تقع أملاكه فى الشمال بين القوتين المتصارعتين العثمانيين والصفويين ، والسلطان الغورى لا يرغب فى اقحام نفسه فى خلافاتهما . أنظر : دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٥ .

— Heyd, Op. Cit., p. 539.
— Thenaud, Op. Cit., T. II pp. LXIII, LXIV.

لها فى بلاط مصر أعداء ألداء لم يهملوا الفـــرصة للايقاع بينها وبين السلطان .

ومن خلال المشكلات العديدة التى واجهت السلطان الغـــورى أبدى بعد نظر وتفهم للمشكلة، فقد وجد أن الفرسان هم أعداؤه فعلا، والمناوئون له فى شرق البحر المتوسط ، وأن باستطاعتهم التعرض لكل معونة عسكرية ترسلها له تركيا أو البندقية . فرغب فى تصفية المشكلات معهم ، ورأى أن الأمر يحتاج لتوسط فرنسا ، ولها اذ ذاك ظل من السيادة عليهم وللفرسان نوع من التبعية لفرنسا . وظهر بجلاء أهميـــة القنصل الفرنسى والقطالونى المحبوس ، وكذلك أهمية ترجمانه السابق تغرى بردى (٨٧) . واتصل القنصل الفرنسى بلويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وفى الوقت نفسه أرسل الغـــورى تاجرا راجوزيا مقيما فى الاسكندرية ليدعم محادثات السفير مع الملك الفرنسى ويعرض صداقة السلطان واعادة ما لفرنسا من امتيازات وحقوق فى تجـــارة الشرق وتسهيلات جمركية والســـماح للحجاج بالوصول للأماكن المقدســة المسيحية فى فلسطين بحرية كاملة ، وأعلن لويس الثانى عشر هــذا كله فى أسواق مدينة ليون خلال الاحتفالات بعيد الفصح عام ١٥١١ وشجع التجار لارتياد أسواق مصر والشام ، وأضاف أنه أرسل سفيرا

---

(٨٧) كان لفرنسا ظل من السيادة على فرسان رودس ، فقد كان وزير البلاط الملكى الفرنسى وكاردينال نابلى فيما بعد شقيق مقدم الاسبتارية فى رودس Aimery D'Amboise وفى وسعه ومقدوره أن يضغط عليه لاعادة سفن السلطان التى استولى عليها فى خليج اياس وأن يحمله على الكف عن أعمال القرصنة ضد الدولة المماليكية . انظر :

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ (كالة) ص ١٩٦ ـ ٢٥٥ ـ ٢٥٩ ـ ٢٦٩ .

— Heyd, Op. Cit., pp. 539. 540.

— Thenaud, Op. Cit., pp. LVIII, LIX & R.I. p. LIX.

قنصل فرنسا هو Phillipe De Perertas وكان يمثل كذلك قطالونيا ونابلى وكان على عداء مع البنادقة ، وبالرغم من انه قاسى نفس المصير الذى قاساه الأجانب وقناصلهم الا أنه لم يبق فى السجن أكثر من شهور بسبب رغبة السلطان فى الاستعانة به فى تحسين العلاقات مع فرنسا .

— Thenaud, Op. Cit., pp. LV, LVI.

لمصر لاتمام الاتفاقية التى اقترحها السلطان الغورى . أما الترجمان تغرى بردى فقد وصل الى رودس بعد أن مهد له السفير الفرنسى مقابلة مقدم فرسانها بمساعدة الرهبان الفرنسسكان فى بيت المقدس وأبدى كبيرهم الرغبة فى اصلاح الأمور مع السلطان ، اذ كانت الأنباء توحى بقرب هجوم عثمانى على جزرهم، ولكنه اعترض على رد الغنائم والأسلاب(٨٨) ووصل فى ٢٥ من مارس ١٥١٢ الفارس « اندريه لوروا Andre le Roi سفير ملك فرنسا ، وذكرها ابن اياس فى حـوادث المحرم ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م ... وأشـاعوا أن قاصد ملك الفرنج قـد جاء يسعى لدى السلطان فى عقد معاهدة للتجارة ومساعدة السلطان فى المحيط الهندى وفتح القيامة (كنيسة القيامة) التى بالقدس (٨٩). ووصل السفير الفرنسى

---

(٨٨) تأكد السلطان الغورى أن فرسان رودس هم العقبة فى سبيل الوصول الى حل لمشكلة البرتغاليين فى الهند وهم العقبة فى سبيل وصول المواد الحربية الى مصر من تركيا لقصد تحسين العلاقات معهم بمنحهم تسهيلات تجارية ببلاده والسماح لهم بالوصول لبيت المقدس للحج وكذلك ارضاء ملك فرنسا لويس ١٢ بمثل ذلك ليضمن عدم تهجمهم على سفنه . أنظر :

— Thenaud, Op. Cit., p. LXI & N.p. 5.

ـ بالملحق ترجمة للجزء الخاص بالحج الى بيت المقدس وسينا . وبخصوص المعاهدة بين السلطان الغورى ولويس ١٢ أنظر النص فى

— Heyd, Op. Cit, p. 540.

ـ ذكر Thenaud كذلك ان وصول سفير السلطان الغورى بخطابات الى ملك فرنسا كان بداية طيبة للعلاقات بينهما . وقد ذكر ذلك ملك فرنسا خلال زيارته لمدينة ليون فى عيد الفصح عام ١٥١٢ وقال أنه وردت اليه خطابات من السلطان العظيم الذى يحكم مصر والشام وجزءا كبيرا من بلاد العرب . وهى مكتوبة باللغة العربية ويعرض صداقته حتى يعيد لفرنسا مكانتها الدينية -التى كانت تتمتع بها منذ الحروب الصليبية بوصفها الدولة التى قامت بالدور الأكبر فى الحروب الصليبية ، كما يمكنها من أن تنتزع من البنادقة والجنويين حق حماية المسيحيين الذين بالاراضى المقدسة . انظر :

دراج : المماليك والفرنج ص ١٥٠ وكذلك :

— Thenaud, Op. Cit., pp. LX, LXI — LXVII.

(٨٩) عين لويس ١٢ Guillebert Chauveau سفيرا الى السلطان الغورى ولكنـه مالبث أن نحاه بعد أن علم بسابق فشله . فى محادثات مماثلة مع السـلطان العثمانى بايزيد الثانى عام ١٤٩٨/١٤٩٩ لوقف الحرب بين العثمـانيين والبنادقة ، وعين بدله André Le Roi لعقد معاهدة مع الغورى وكان السفير يشغل وظيفة سكرتير الملك لويس١٢ وموثق عقوده ، ثم رقاه بعد ذلك أمينا لخزائنه وأرسله الى نابل فى ٢٠ ابريل ١٥٠٢ ليعاون=

للقاهرة ، وتفاوض مع السلطان ، وكان محور المحادثات وقف هجمات الفرسان ومنح الفرنسيين تسهيلات فى بلاد السلطان . وأرسل السلطان مندوبا عنه الى الفرسان فى رودس لأخذ موافقتهم على طلبات السلطان الخاصة باحلال السلام بين الطرفين ، وحرية الملاحة فى شرق البحر المتوسط ، مع منحهم حرية التجارة فى بلاده والحج بالقدس ، وطال انتظار السفير بالقاهرة ، ولم يصل رد الفرسان ، واضطر السفير الى مبارحة القاهرة الى رودس وترك ابنه بالقاهرة . أما أعضاء البعثة الفرنسية فقد سافر بعضهم الى بيت المقدس ، وأبحر بعضهم الى رودس نفسها (٩٠) .

ومع الجهود الهائلة التى بذلها السفير والترجمان تغرى بردى فى بلاط السلطان الغورى وملك فرنسا ولدى فرسان رودس ، الا أن هذه الجهود لم يقدر لها النجاح ، فلا السفير أندريه ، ولا مندوبه « بارليه » الى رودس ، استطاعا أن يكبحا جماح فرسان رودس فى عدائهم للسلطان ، والسفن التى أسرت لن تعود ، وهجمات الفرسان لم تنقطع ، والبعثة الفرنسية لم تصل الى نتائج حاسمة مع السلطان ، ولم

= الكاردينال حاكم المقاطعة كما أرسله سفيرا الى بابا روما عام ١٥٠٣ ثم الى سويسرا وبقى بها حتى استدعاه ، لسفارة القاهرة ١٥١٢/١٥١١ وظل يخدم بلاده فى سفارات عديدة • راجع :

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٥٥ حوادث المحرم ٩١٨ هـ/١٥١٢ م (كالة)
— Heyd, Op. Cit., p. 537.
— Thenaud, Op. Cit., pp. LX, LXI, — LXVIII. & ff.
— Charkles Roux, Op, Cit., T.I. p. 42.

(٩٠) يذكر Marc Trivizani حاكم كريت وشقيق السفير البندقى دمنكو تريفزانى الذى سافر للقاهرة لتصفية مشاكل البندقية والسلطان عام ١٥١١/١٥١٠ « ان عدم وصول رد الفرسان فى الوقت المناسب أعطى لشقيقه دومنكو فرصة سانحة ليقوى مركزه أمام السلطان الغورى واستجاب هذا لطلباته وان كان السفير يود تحقيق كل ماجاء من أجله ولكنه اكتفى بما ناله • راجع :
— Heyd, Op. Cit., pp. 484-530.
— Thenaud, Op. Cit. p. LXXIX.

تستعد ما كان لها على عهد السلاطين العظام منذ منتصف القرن ١٥ م (٩١) .

كانت البندقية ترقب تدهور علاقاتها بالسلطان وازدياد نفوذ الفرنسيين والفلورنسيين بكثير من القلق فى الوقت الذى كان فيه تجارها نزلاء سجون القاهرة ، فصممت على معاودة الاتصال بالسلطان لاصلاح ذات البين ، وألح وفد تجارها على حكومتهم أن تعنى بارسال بعثة يرأسها مندوب يعلو مركزا على سفير فلورنسا وسفير فرنسا . ففى ٢٠ من يناير ١٥١١ تقرر ارسال رسالة خاصة مع مبعوث الى السلطان للتمهيد لمفاوضات شاملة لكل الأمور المتعلقة بين الطرفين حتى اذا سنحت الفرصة أرسلت سفيرا لعقد الاتفاق وأثارت حكومة البندقية فى الرسالة دهشتها وتضايقها مما حدث لقنصليها فى دمشق والاسكندرية ولهيئة تجارها فى بلاد السلطان ، ومعاملتهم معاملة الأعداء ، وعزت ما حدث الى تحريض من أعداء السلطان وأعدائها ، وقصدت بذلك أن توغر صدره على الفرنسيين وفرسان رودس ومن ورائهم البرتغاليين وأوضحت حكومة البندقية مشكلة ضبط الرسائل مع القنصلين ، فقالت ان مبعوثى الشاه الصفوى قصدا فرنسا لوجود علاقات بين البلدين ، ولدى عودتهما مرا بالبندقية وطلبا باسم سيدهما الشاه اسماعيل تجديد صداقته مع حكومة الدوج ، ولبساطة الأمر لم تبلغه البندقية للسلطان كسابق اتفاقهما ، وأضافت فى الرسالة أنها لم تعط اجابات شافية للميعوثين ، ولم يكن دور القنصلين البندقيين أكثر من علمهما بمرور المبعوثين على البندقية بعد عودتهما من فرنسا. وعلى أى حال فان حكومة الدوج ستقطع تماما كل صلة لها بالشاه الصفوى . وقصدت البندقية من هذا كله الصاق التهم بفرنسا ورودس والبرتغال ، وفى نفس الوقت لا تمكن فرنسا من التوسع فى تجارة

---

(٩١) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ـ ٢٦٨ .
— Heyd, Op. Cit., p. 541.

مصر والشام . وكعادة البدقية لم تترك الفرصة تمر دون أن تذكر متاعب تجارها وقناصلها ونوابهم وتطلب المزيد من التسهيلات ، ووعدت فى الرسالة بمواصلة العمل على خطوط الملاحة لمصر والشام بصفة دائمة ، وفى ختام الرسالة أبلغت أن سفيرها للقاهرة يتجهز للسفر وسيصل فى موعد قريب .

وفى دورة السـناتو فى ١١ نوفمبر ١٥١١ اختـار المجلس « دومنكو تريفيزانى Dominico Trivizani سفيرا ومندوبا فـوق العادة للتفاوض مع حكومة السلطان وتكونت هيئة مستشاريه من الخبـراء الموسميين المجربين فى شئون الشرق وتجارته ومع البعثة تعليمات بعقد اتفاق اقتصادى جديد وتعليمـات باعادة فتح طـريق الحج للأراضى المقدسة ورد كنوز كنائسها . ووصلت السفارة فى ٩ من مايو ١٥١٢ وفى نفوس أفرادها آمال كبار لتحقيق أهداف بعثتهم، وأعطت البندقية تعليمات لسفيرها الى القاهرة بالتزام القواعد الدبلوماسية، وتقديم الهدايا المناسبة للسلطان ورجاله ، والثناء على سياسته ، وأن يكرر للسلطان ماسبق أن ذكر فى خطاب ٢٠ من يناير ١٥١١ عن خيانة ملك فرنسا وعداوته له ومؤازرته للفرسان أعداء المسلمين من مئات السنين ، كما أن ملك فرنسا والفرسان لا يداومون الحضور لموانيه الا مرة كل ثلاث سنوات، فى حين أن البنادقة عملاء دائمون يداومون الحضور مرتين أو أكثر فى العام الواحد . وبخصوص موضوع القنصلين فعليه أن يثبت للسلطان حسن نياتهما وأنهما أخذا علما فقط بمرور ميعوثا الصوفى على البندقية بعد عودتهما من فرنسا ، فى مقابلة ودية . ثم عليه أن ينتقل بعد ذلك الى الأهم وهو الشئون التجارية : ويحدد مع السلطان أسعار التوابل الشريفة والحرة حتى لا يمتنع تجارهم عن الشراء ويتوجهـون الى لشبونة ، وأعطيت للسفير رءوس موضوعات أخرى هامة خاصـة بحجز السفن أكثر من اللازم بعد المدة ، أو اعطائها أوامر بالرحيل قبل تشوين كل مشترياتها وبعدم تغيير ديوان القبان ، وهـو من أهم

المصالح الحكومية المتعلقة بتجارة البندقية وأن يحصل على معـــاهدة بكل طلباتهم فى أمر « مربع » واجب الاحترام والتنفيذ (٩٢) وفى المقابلة الأولى مع السلطان ثار السلطان الغورى على تريفزانى لمحاولة تبرير فعل القنصلين ، وكادت تنقطع المفاوضات وتفشل السفارة ، حتى أن تريفزانى أمر بحزم حقائبه للعودة ، الا أنه عاد ورجح العقل وعمل على تهـدئة خاطر السلطان ، وذكر أنه يجهل تماما ما فعله القنصلان، وانه وحكومته يلتمسان الصـــفح عنهما واطـــلاق سراحهما وترحيلهما الى البندقية لمحاكمتهما طبقا للقانون ليلقيا الجزاء الحق (٩٣) والواقع أن هذا المسلك

---

(٩٢) بالملحق برقم ١١ خطاب البندقية فى ٢٠ يناير ١٥١١ للسلطان الغورى تشكو فيه من الاجراءات الانتقامية ضد البنادقة بسبب التجسس . وبالملحق كذلك نص تعليمات السناتو للسفير دومنكو تريفيزانى برقم (١٢) وبتاريخ ٣١ ديسمبر ١٥١١ يقصد بالأمر المربع نوع من الوثائق يحق لمن يحمله أن يلاقى التسهيلات فى تنفيذ مطالبه وما جاء به من بنود واجبة التنفيذ ــ أما الأمر الطويل فليس له نفس الصفة كما أنه يكلف أوراقا كثيرة .

وصل السفير البندقى للقاهرة فى ٢٣ صفر ٩١٨ هـ/١٥ من مايو ١٥١٢ م .

راجع : ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٥٩ (كالة) .

— Thenaud, Op. Cit., pp. LXV, LXVI.

(٩٣) يذكر مارك انطونيو حاكم كريت وشقيق السفير البندقى الى القاهرة وصفا للقاء بين السفير والسلطان فيقول : « ان الزيارة الاولى استغرقت حوالى ٣ ساعات ظل السفير خلالها واقفا وقبعته فى يده ودار الحديث فى هذه الجلسة بخصوص القنصلين المتهمين بالتجسس لحساب الشاه الصفوى الذى يعرض السلطان وبلاده للخطر . وكان السلطان يتحدث وهو ثائر ، وبذل السفير جهودا جبـــارة لكى يهـــدىء من ثورته ، ولكى يبدد كل ظنونه وشكوكه ، وشرح له ماهية الموضوع ، وانه ليست هناك أية خيانة من جانب حكومة البندقية أو قنصليها انما هو سوء تصرف منهما . وأكد السفير أن هذه الأمور مما يعنى بها رجال حكومته بكل امانة . وبدا أن السلطان قد اقتنع بكلام السفير الا أنه ما لبث أن صاح قائلا : « .. انى فعلا مقتنع من براءة حكومة الدوج ، ولكن ذلك القنصل زينو قد أساء الى بخيانته اساءة لا تحتمل ! » وكان السلطان يتكلم ووجهه مكتس بالغضب الشديد والسفير يحاول اثبات حسن نية القنصل وبراءة حكومة البندقية . ثم هب السلطان، وقال « .. أيها السفير .. هل تعرف كيف تسير الأمور الآن ؟ اذا كنت موفدا من قبل دوج البندقية سفيرا للتحية أو للاتفاق التجارى فمرحبا بك ، أما اذا كنت قد أتيت لحماية لصوص والدفاع عن خونة فليس لك مكان هنا فى قصرى . اذهب فى رعاية الله ومعك تجارك فليس لى بك ولا بهم حاجة » . راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 541.
— Thenaud, Op. Cit., pp. LXXX, LXXXI.

من تريفيزانى كان له رد فعل طيب فى نفس السلطان الذى ما لبث أن هدأت نفسه وأخذ برأى السفير ، وطلب منه أن تقوم حكومة البندقية بمحاكمتهما بشدة وأن يشنقا فى الميادين العامة أو يسجنا مدى الحياة. وأطلق سراح القنصلين وسيقا « كونتارينى Centarini » الى دمشق لتصفية أعماله هناك ، ومنها رحل الى البندقية ، وتم مثل ذلك بالنسبة لقنصل الاسكندرية ، وفى نفس الوقت أطلق سراح التجار المأسورين وردت اليهم ودائعهم ، وهكذا تحقق الهدف الأول من البعثة بنجاح (٩٤)

أما الهدف الثانى وهو الأهم والأشق فكان على تريفزانى أن

---

(٩٤) — Thenaud, Ibid, pp. LXXXII, LXXXIII.
— Heyd, Op. Cit. p. 542.

أ ـ العلاقة بين البندقية وفارس ليست بالأمر الجديد فى تاريخهما الدبلوماسى ، فقد تحالفت البندقية وحسن الطويل لمواجهة عدوهما المشترك السلطان محمد الثانى العثمانى. كما أن الصفويين خلفاء حسن الطويل كانوا يودون الوصول الى البحر المتوسط عبر أملاك السلطان المماليكى ، وفى نفس الوقت شعر البنادقة بتدهور أحوال الدولة المماليكية فرغبوا فى احياء الطريق التجارى عبر العراق والخليج الفارسى وهو يمر بأملاك الصفويين . واحياء هذا الطريق لايتم الا اذا أصبح للصفويين منفذ على البحر المتوسط الذى تطل عليه أملاك الدولة المماليكية والعثمانية . فقصد البنادقة والصفويين من تحالفهما تبادل المصالح العسكرية والاقتصادية . انظر :

دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٦ .

ب ـ وهناك رأى آخر يقول ان انهيار تجارة مصر بعد وصول البرتغاليين الى الهند جعل البندقية تفكر فى الاستيلاء على مصر وتصل بنفسها الى المياه الهندية ، وهى تحتاج فى ذلك الى حليف ضد القوة الشمالية « العثمانيين » ، فوجدت فى الصفويين الحليف المنشود . ويؤكد ذلك ما عرضه البنادقة على السلطات المماليكية بحفر قناة تصل البحر الأحمر بالمتوسط . أنظر :

دراج : المماليك والفرنج ص ١٤٧ . وبالملحق رقم ٦٠ مشروع حفر القناة (والوثيقة مترجمة عن الايطالية من :

— Ettore Anchieri, Suez Il Mondo D'Oggi, pp. 7,8.
— Thenaud, Op. Cit., p. 63.

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٩١ ـ ٢٠٥ .

جـ ـ وقد تلاشى هذا الأمل بعد استيلاء البرتغاليين على هرمز عام ١٥١٢ وسدهم منفذ التجارة الى الخليج العربى . أنظر :

— Hammer, Op. Cit., T. II pp. 141, 142-168-172 & ff.

يهدم المركز الذى يحتله الفرنسيون لدى السلطان (٩٥) . وقد أوضح السفير للسلطان بطلان الشائعات حول مركز البندقية التجارى وأن البندقية جديرة بأن ترفع رأسها بين أعدائها . بزهو وخيلاء . وأوضح له بأن سفن البندقية كان بامكانها الحصول على التوابل والمتاجر الشرقية من لشبونة بسهولة وأمان وسعر منخفض ، وأن تتولى بنفسها توزيعها فى أوربا بنفس الصورة التى كانت لها قبل وصول البرتغاليين للهند ، ولكنها فضلت أسواق السلطان ، وفضلت أن تستأنف العلاقات الطيبة مع مصر ، وتتعهد بأن ترد سفنها موانىء السلطان كما كانت فى السنوات الخالية محملة بالسلع الغربية والذهب والفضة والأنسجة الصوفية والحريرية والخامات اللازمة للصناعات المحلية والرصاص والزيوت ، وامعانا فى الحيطة والحذر صرح السفير للسلطان بأن بلاده لا تمانع أبدا فى أن تكون هناك علاقات بين السلطان وملك فرنسا والابقاء على المعاهدة المعقودة بين الطرفين على يد الترجمان تغرى بردى (٩٦).

واقع الأمر أن السلطان والسفير كانا يودان انهاء المشكلة بسرعة لامكان استئناف التجارة ، فدارت بين الطرفين مفاوضات طويلة وضعا

---

(٩٥) يذكر حاكم كريت مارك انطونيو تريفزانى أن عدم وصول رد فرسان رودس فى الوقت المناسب أعطى صلاحية لنجاح سفارة أخيه دومنكو الى السلطان الغورى • وحتى باقى أعضاء السفارة والبعثة لما طال عليهم الوقت تركوا القاهرة الى رودس ووصل بعضهم الى بيت المقدس ، كما يذكر أن من عوامل نجاح سفارة تريفزانى ، وصول السفير البندقى بعد انتهاء السفير الفرنسى من بعثته التى لم تحقق شيئا وكذلك من عوامل النجاح وصول مبعوث الشاه الصفوى الى القاهرة لتبرئة سيدة من تهمة تحالفه مع البندقية ضد السلطان الغورى • انظر ملاحظة ٩٠ قبله وكذلك •
— Thenaud, Op. Cit., pp. XLVIII-LXXIX-LXXXIII and p. 180.
— Heyd, Op. Cit., p. 484-530.

(٩٦) الواقع ان السفير تريفزانى كان بارعا حين تحول عن التعليمات المعطاة له باساءة العلاقات بين السلطان وفرنسا ، فقد لاحظ أن من الأفضل الظهور بمظهر الحياد والبراءة حتى لا يظن السلطان بالبنادقة السوء ويعلم أنهم دعاة سلم • وفى الوقت نفسه تشعر دول أوربا المسيحية أن البندقية لا تعاديهم ولا توغر عليهم صدر السلطان فتحتفظ بصداقتها للطرفين • انظر :
— Heyd, Ibid, p. 542.

أساسها وتركا الباقي لهيئة المتفاوضين . وتعتبر المعاهدة التى أبرمت عام ١٥١٢ من أهم المعاهدات التى عقدت بين البنادقة والمماليك وتعرف بالمعاهدة الشاملة . وبعد مفاوضات طويلة اتفق فى المعـــاهدة التى أبرمت بتاريخ ٥ يونيو ١٥١٢ على أربعة عشر سؤالا وأربع عشرة اجابة صيغت فيها تماما كل المشكلات الاقتصادية بين مصر والبندقية ، وساد جو المفاوضات الصراحة التامة (٩٧) وذكر فى الردود أنه بعد تحـديد سعر التوابل السلطانية بثمانين دوكات للحمل الواحد وتحديد سـعر التوابل الحرة كذلك فليس هناك داع لبقاء هيئة من التجار البنادقة للاشراف على تسـعير وتثمين السـلع (٩٨) . وبخصوص تأجير سفن البندقية للتجار العرب فان الاضطرابات التى شملت البحر المتوسـط شرقا وغربا منعت تأجير هذه السفن للوطنيين للمتاجرة مع المغرب . وذكر المتفاوضون من البنادقة أن توابل الشرق فى لشـبونة تقل كثيرا عن أسعارها فى مصر ، وتفاوت الأسعار على هذا النحو يجعل كثيرا من سفن البندقية تعود دون شراء حاجتها . وتحدد فى المعاهدة كذلك أنواع المتاجر الأوربية المطلوب من البنادقة الوصول بها الى الاسكندرية وبيروت ، وكذلك النقد المتداول ، وأضحت المفاوضـات أن تجـار البندقية الوافدين الى بلاد السلطان يمثل بعضهم شركات كبرى . ولذلك فهم مقيدون باتباع ما تمليه عليهم شركاتهم ، فلا غرابة أن بعض هذه السفن تبارح الموانىء دون شراء حاجياتها تجنبا للخســارة المترتبة ، على ارتفاع الأسعار . وندد السلطان باهمال البندقية فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع حد لتهجمات قراصنة رودس وابعادهم عن قبرص وشرق البحر المتوسط ، ووعد السفير بابلاغ حكومته احتجاجات وملاحظات

---

(٩٧) راجع المعاهدة بالملحق رقم ١٣ . غادر سفير البندقية القاهرة الى بيت المقدس فى ٢ من أغسطس ١٥١٢ انظر :

دراج : المماليك والفرنج ص ١٥٢ و ١٥٣ .

(٩٨) راجع النص بالملحق رقم (١٣) وكذلك برقم (١٣ب) .

السلطان . وقد ألحق بالمعاهدة ملاحق خاصة بالتعامل النقدى والبيع بالمقايضة . (٩٩) وحصلت البندقية لتجارها على أوامر وتعليمات لعمال السلطان فى الموانىء والمدن الكبرى لراحة تجارها . (١٠٠) كما حصلوا على اتفاقية بالتجارة فى طرابلس وحلب (١٠١) وبيروت ودمشق(١٠٢) وفى ميناء الاسكندرية كذلك . (١٠٣) وقد أثار السفير تريفزانى مسألة توحيد الأسعار ومنع التقلبات التى كانت تسود السوق من حين لآخر ، واتفق فى هذه المقابلة على أن يدفع البنادقة سعرا موحدا لما مقداره ٢١٠ أحمال من البهار سنويا ، و ١٥٠٠٠ دوكات لمدة ٣ سنوات مقدما . (١٠٤) وعاد تريفزانى للبندقية فى ٢٣ أكتوبر ١٥١٢ بعد أن ترك

---

(٩٩) راجع النص بالملحق رقم (١٣) ثم انظر الفصل الخامس عن تجارة النقد والمقايضة وكذلك انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر أواخر العصور الوسطى .

(١٠٠) النص بالملحق رقم (١٣) .

(١٠١) النص بالملحق رقم ١٤ — وقد أثار البنادقة ما يلاقيه تجارهم فى موانىء بيروت وطرابلس ومدن دمشق وحلب اذا اتجهت السفن الى أى الميناءين دون الآخر ، وكان هذا موضع خلاف سابق ولم يتم انهاؤه الا فى بعثة تريفزانى ١٥١٢ ، راجع شكوى البندقية من هذا الموضوع فى الصفحات السابقة على عهد قايتباى .

بخصوص تجارة البندقية فى ميناء طرابلس أنظر الملحق برقم ١٤ أ .

وبخصوص تجارة البندقية فى حلب انظر الملحق رقم ١٤ جـ .

(١٠٢) بخصوص دمشق انظر النص بالملحق رقم ١٤ ب . وراجع هنا أيضا ما ذكر فى معاهدة سانودو عام ١٥٠٢ فقرة ١٣ ومنشورة بالملحق رقم ٦ .

(١٠٣) راجع النص بالملحق رقم ١٣ د وكذلك :

— Heyd, Op. Cit., pp. 544, 545.

(١٠٤) كانت حكومة البندقية قد شكت فى خطاب للسلطان الغورى فى ١٦ من ديسمبر ١٥١٠ من عدم مراعاة عماله لتجارها فى موانىء مصر والشام .. وانهم يجبرون التاجر على أخذ كمية من التراب عنوة مع السلع وخاصة التوابل ، لأن المغربلين صمغوا الغرابيل لكى لا ينزل التراب من ثقوبها ، وفى هذا خسارة كبيرة لنا ، وهو عمل غير أمين اطلاقا ولم نتعوده من قبل » . راجع النص بالملحق رقم ١٠ . كما شكا البنادقة من حجز سفنهم بعد مواعيد المدة مما يؤخر وصول البضائع الشرقية فى مواعيد الأسواق السنوية فى أوربا . ومع ذلك جاء فى حاشية لهذه الرسالة أسف البندقية من أن عمال السلطان لا يزالون يمارسون تعطيل السفن فى موانى مصر والشام . كما نص فى الاتفاقية على نظام بيع التوابل الشريفة واستحدث فيها نظام الحساب الجارى لسنوات قادمة (أنظر الملحق رقم (١٣ أ) — وقد شكا السلطان من غش الجوخ وعدم تنديته قبل لفه مما يؤدى =

بعض مواطنيه الذين ردت اليهم حريتهم مؤخرا فى حماية السلطان (١٠٥) ولم يحدث بعد ذلك ما يهدد العلاقات بين البندقية والسلطان ، وكان آخر اتصال بين الطرفين فى ٣ من مايو ١٥١٤ عندما طلب قاصدهم من السلطان الغورى المزيد من التسهيلات والاعفاءات . (١٠٦)

وكان استئناف العلاقات على هذا النحو بين البنادقة والسلطان الغورى عام ١٥١٢ قد جعل السلطان لا يلح فى توثيق العلاقات التجارية مع فرنسا ، وان رغب فى توثيق العلاقات السياسية لوضع حد لقرصنة فرسان رودس فى شرق البحر المتوسط . ولم يقدر لتجارة فرنسا الازدهار الذى كان لها من قبل ، وان وصلت بعض سفن المدة الفرنسية فى فترات متباعدت الى موانيء مصر والشام. ولكن لم يستطع الفرنسيون الاستمرار فى التجارة مع السوق المصرية على نطاق واسع بعد آن أغرق البرتغاليون أوربا بالتوابل النفيسة وبأسعار رخيصة ، ولم يعد هناك داع لوصول تجار فرنسا لمصر (١٠٧) .

أما فى الهند فقد شدد البرتغاليون قبضتهم على تجارتها وترصدوا السفن العربية والمماليكية عند مدخل الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، وصادروا حمولتها ، وجنح أمراء جوجيرات وحلفائهم الى مهادنة

=الى انكماشه بعد أن يفصله المصرى وينسله مع وجود عيوب كثيرة به أنظر الملحق رقم ١٣ جـ .

(١٠٥) نص خطاب التعليمات المعطاه للسفير تريفزانى بالملحق رقم ١٢ من مجموعة الدكتور توفيق اسكندر ـ أما نص الاتفاقية المبرمة بين السلطان الغورى والسفير فقد نقلها للفرنسية :

— M. Reinaud, Journal Asiatique, Noveau Traites Du Commerce, T. IV. pp. 22-51.

وهى تشتمل على ١٤ سؤالا واجابتها واتفاقية التوابل الشريفة واتفاقيات خاصة بميناء طرابلس ودمشق وحلب . راجع الملحق رقم ١٣ وما بعده .

(١٠٦) راجع — Heyd, Op. Cit., p. 545.

— Heyd, Ibid, pp. 483, 484.

ظل قنصل فرنسا يعمل فى الاسكندرية حتى وصول السلطان سليم الأول العثمانى ١٥١٧ .

البرتغاليين ، وأصبح السلطان وحده فى الميدان يواجه قوات تفــوق قواته ، وقل بصورة واضحة وصول السلع الشرقية لمصر والشــام ، وبالتالى وصول التجار الأجانب . ومع ذلك استقبل السلطان الغورى سفير فرنسا برناردو بيروشوا Bernardo Pirochawa ووافق على كل طلباته ، ومنح تجار فلورنســا موســما تجاريا ثابتا وقنصــلا فى الاسكندرية . (١٠٨)

أما الأمير حسين كردى فبعد هزيمة ديو ١٥٠٩ اتجه الى جدة بما بقى معه من سفن ، وعمل على بناء سور ضخم محصن حولها بعد أن تواترت الأنباء عن محاولة دخول البرتغاليين للبحر الأحمر ، واستغرق بناء السور عامين ١٥٠٩ ـــ ١٥١١ . (١٠٩) ولم يحاول الأمير حســين كردى العودة الى مصر ليواجه السلطان وأمراء المماليك قبل أن يقوم بعمل عسكرى ناجح ضد البرتغاليين ، وطلب من حلفائه الباقين أمراء الهنود المسلمين معونة مالية لبناء السور ، فاستجاب له الســلطان محمد محمود شاه ١٤٥٨/١٥١١ ملك جوجيرات وأمراء آخرون ، وذكر لهم فى تبرير هذا الطلب أنه مادام البرتغاليون أقوياء وباستطاعتهم دخــول البحر الأحمر والوصول الى جــدة ، فمعنى ذلك أن بامكانهم تدمير الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة . (١١٠) وقد اعتقد أمراء

---

(١٠٨) هذه المعاهدة بتاريخ ١٠ ربيع ٩١٥ هـ/٥ يوليو ١٥٠٩ وبالملحق رقم ٢٩ راجع الترجمة الفرنسية من

— Amari, Op. Cit., p. XVIV. pp. 221-223.

والترجمة الأيطالية كذلك من :

— Amari, Ibid, pp. 389-390. L. I.

وأمر السلطان لعماله بالايطالية من :

— Amari, Ibid, pp. 391-392 L. II.

وبالعربى من :

— Amari, Ibid, pp. 226-229, XLV.

وبالملحق رقم (٣٠)

(١٠٩) — Darnes, The Book Of Duarte Barbosa, T.I. pp. 46-47. Hakluyt Society.

(١١٠) — Darmes, Ibid, pp. 47.

الهند المسلمون أن البرتغاليين لا شك فاعلون هذا وأكثر منه ، لذلك منحوا الأمير حسين طلبه وهدايا قيمة بلغت فى مجموعها حمولة ثلاث سفن من التوابل والبهار • وقد أسهمت هذه الهدايا فى تكاليف بناء السور حول جدة . وفى نفس الوقت كان البرتغاليون ـ بموافقة ملك قاليقوط ـ يشيدون حصونا وأسوارا مماثلة داخل المدينة وحولها . ولما طلب ملك قاليقوط من السلطات البرتغالية تأمين وصول سفينة توابل لجدة وافق البرتغاليون على ذلك ، وجعلوا قيادتها لملاح عربى معروف يدعى خليفة ، ووصل الى جدة والعمل قائم فى السور ، وأبلغ الأمير حسين بموقف البرتغاليين وأحوالهم العسكرية فى مياه الهند وتحصيناتهم الجديدة ، وأن خروجه كان بترخيص من قائد الأسطول البرتغالى ، مما جعل الأمير حسين يتوجس خيفة من الملاح ويعتقد أنه جاء للتجسس عليه لحساب البرتغاليين ، ولكى يقطع الشك باليقين حجزه وبحارته وأشركهم فى بناء السور . (١١١)

ومن ناحية أخرى لم يكف الغورى عن مناوأة البرتغاليين فى الهند فأرسل فى عام ٩٢٠ هـ أسطولا عهد بقيادته للأمير حسين كردى نفسه وضم اليه عسكرا من الترك والمغاربة ، ووصل الى جوجيرات. واجتمع بسلطانها خليل شاه ، ثم وصل مدد آخر بقيادة سلمان وتعاونا على هزيمة البرتغاليين وطردهم من بعض موانىء الهند ، ثم اتجه الأسطول بعد ذلك الى اليمن واستولى عليها من بنى طاهر وجعل عليها نائبا مماليكيا هو الأمير برسباى الجركسى واستمر بعد ذلك فى طريقه الى جدة . (١١٢)

---

(١١١)
— Darnes, Op. Cit., pp. 48-49.
— Synge, A Book Of Discovery. p. 177.
— Dunbar, A History Of India Vol. I. p. 152.
— Heyd, Op. Cit., p. 536.
— Depping, Op. Cit., p. 219. Vol. II.

(١١٢) زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين ص ٤٠ ـ ٤٦ .

وفى ذلك الوقت حدث الصدام بين السلطان الغورى والسلطان سليم الأول العثمانى ، وهو الحادث الثالث الهام فى سلسلة الحوادث التى ختمت العصور الوسطى . ووصل الأمير حسين كردى الى جدة وسلمان الى القاهرة فى الوقت الذى قتل فيه الغورى فى مرج دابق ١٥١٦ وقبض شريف مكة على الأمير حسين وأغرقه فى البحر .

وغداة الفتح العثمانى لمصر وقع ممثل البندقية فى حيرة شديدة حين أراد أن يجمع حوله اثنى عشر رجلا من التجار بالثغر ليؤلف منهم مجلسه الذى سيقابل السلطان فلم يجد هذا العدد ، وهذا يدل على ما وصلت اليه التجارة فى فترة سقوط مصر فى أيدى العثمانيين ، وتمت المقابلة فى الاسكندرية بين قنصليها فى مصر والشام والسلطان سليم الأول العثمانى ، وقدما له فروض الطاعة والولاء مشفوعة بطلبات ومعاهدات جديدة لاقرار الامتيازات التى كانت للبنادقة فى عهد المماليك . وخلال المقابلة أثار السلطان موضوع مساعدة البنادقة للمماليك ضده ووصول سفنهم خلال الحرب الى الاسكندرية حاملة الفضة والذهب ثمنا للتوابل والسلع الشرقية زيادة عما كان مفروضا عليهم طبقا للمعاهدات . وكان على القنصلين أن يفندا هذه التهمة فأفهما السلطان بأنهما يعملان دائما على توسيع نطاق تجارتهم من السلع الشرقية للوقوف أمام فيض السلع الواردة عن طريق البرتغاليين . ويبدو أن السلطان العثمانى قد اقتنع بهذا الاعتذار فلم يعارض طلباتهم وأقر معاهداتهم السابقة وضمن ذلك كله فى معاهدة جديدة بتاريخ ٨ من سبتمبر ١٥٠٧ . (١١٣) وقد سلمت المعاهدة لمندوبهم « نيقولوموسينيو

---

(١١٣) قنصل البندقية فى مصر هو Bartholomeo Contarini وفى دمشق هو Alvise Mocenigo

— Heyd, Op. Cit., pp. 545, 546.
— Comb, Preçis De L'Hist. D'Egypte, T. III. p. 6.

يذكر كومب أن السلطان سليم الأول العثمانى بعد انتصاره فى تبريز على الصفويين ١٥١٤ قابله قنصل البندقية فى استامبول وحثه على محاربة المماليك وأفاد أن البندقية على استعداد لمؤازرته باسطولها البحرى وفى نفس الوقت أرسلت البندقية رسولا الى القاهرة=

Nicolo Mocenigo » الذى سـافر الى القسطنطينية على ظهر احـدى سفن الأسطول العثمانى حين قصد القنصل كوتارينى قبرص لتنظيم دفع الجزية المفروضة عليها بعد أن آلت للسلطان العثمانى . وقضت الاتفاقية بأن تدفع الجزية ذهبا ومقدما لخمس سنوات ، وعدل النص بعد ذلك لتصير سنويا ، وعينا من السكر والحبوب . (١١٤) واستقبل السلطان كذلك قنصـل الفرنسيين والقطالنة فى الاسـكندرية وطلب تجـديد اتفاقيتهم التى كانت أيام السلاطين ، فمنحهم السلطان حمايته وأصدر أوامره بمراعاتهم فى مصر والشام ، وبعدها فتحت الموانىء المصرية والشامية أمام السفن البندقية . ولم تتغير هيئة القناصل الا عام ١٥٢٥م حيث نقلت قنصلية البندقية من الاسكندرية الى القاهرة ، وصـار بالاسكندرية نائب قنصل فقط . ولعل هذا دليل واضح على فقدان الثغر أهميته التجارية التى كانت أيام المماليك . ومما هو جدير بالذكر أنه لا تجارة مصر ولا الشـام قد جنتا أى ربح من التغيير الذى حدث فقد أصدر السلطان العثمانى قانونا يضم تجـار الحرير الوارد من فارس الى هيئة تجار القسطنطينية فى محاولة منه لرفع شـأن المدينة

= يعرض على السلطان المماليكى المعونة ضد السلطان سليم الأول راجع

— Heyd, Op. Cit., p. 546.

وارسلت قنصلها فى دمشق الى الشاه اسماعيل الصفوى يعرض المساعدة ضد السلطات المماليكية راجع. Heyd, Ibid, p. 537 ـ وقصدت البندقية من ذلك ممالاة السـلطات الثلاث المتصارعة ، حتى اذا ما فازت أحداها استطاعت أن تعيش بتجارتها فى ظل حكمها . والواقع أن البندقية كانت تبحث لها عن حليف للوصول لوسط آسيا برا ، أو عن طريق الخليج الفارسى للهند وزادت هذه الرغبة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وفشل السلطات المماليكية فى وضع حد لتوسع البرتغال فى الهند ، وسياستها هذه تتسم بالأنانية وايثار المصلحة الخاصة أو كما يقال سياسة الوجهين وهى الصفة التى اصطبغت بها الجمهوريات الايطالية التجارية فى العصـور الوسـطى . وكانوا قد فعلوا مثل ذلك مع البيزنطيين والعثمانيين . انظر

— Heyd, Ibid, pp. 305, 306, 307.

(١١٤) المعاهدة بين البنادقة والسلطان سليم الأول بالاسكندرية بالملحق رقم ١٥

وانظر كذلك :

— Wiet, Preçis De L'Hist. D'Egypte, T. III. p. 96 ff.
— Heyd, Op. Cit., pp. 545, 546.

واحياء مجدها الذى كان أيام البيزنطيين ، وتم ذلك بالطبع على حساب مصر والشام ، البلدين اللذين ولى مجدهما منــذ الفتح العثمــانى ١٥١٦/١٥١٧ . (١١٥)

أما فرســان رودس فقد ترددت الشائعات عن وصول بعض قطع أسطولهم حاملة الأسلحة من بارود ومدافع وألفا من قناصتهم لمساعدة السلطان العادل طومنباى الثانى فى صراعه مع السلطان سليم الأول ، وأن سفنهم وصلت لميناء دمياط . ومع ثبوت زيف هذه الشائعة الا أن الفرسان كانوا على استعداد دائما لمســاعدة كل من يعادى العثمانيين ولو كانوا من المماليك أنفسهم . وابن اياس المؤرخ المصرى المعــاصر لهذه الأحداث يكذب الواقعة (١١٦) .

وعلى أى حال فانه بعد سقوط مصر عام ١٥١٧ قدر السلطان سليم أهمية جزيرة رودس فى الصلة بين تركيا والاسكندرية وباقى مدن وموانىء مصر والشام ، فهاجم الجزيرة واحتلها فى ديسمبر ١٥٢٢ ورحل عنها الفرســان الى مالطة .

أما دول شمال غرب أوربا فان اتصالها بشرق البحر المتوســط لم يكن مباشرا ، فلم يدلوا بدلوهم فى التجارة الشرقية الا فى فترة متأخرة ، واكتفوا حتى أواخر العصور الوسطى بانتظار وصول السفن الايطالية اليهم محملة بالسلع الشرقية من مصر والشام ، ونظم الايطاليون مع عملائهم الألمان رحلات تجارية ومنتظمة تمر بانجلترا حاملة السكر والكروم والتوابل والحرير وتعود محملة بالقصــدير والجلود . ومنذ وصول البرتغاليين للهند وهم يقومون بهذه العملية بمساعدة الهولنديين

---

(١١٥) — Depping, Op. Cit., pp. 242-245. T. II.
— Heyd, Op. Cit., pp. 438, 484.

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧١ الى ٧٨ .
— Ziada, Op. Cit., pp. 206, 207.

حتى تخلصت انجلترا من هذا النوع من الوساطة وباشرت اتصالها بالهند بنفسها (١١٧) .

أما الأراضى المنخفضة فوصلتها السلع أولا من مصر والشام وبلاد السلطان العثمانى بطريق الايطاليين الذين كان لهم وكالات وفنادق ومنحوا اعفاءات جمركية وتسهيلات ، ثم تحولوا الى لشبونة بعد وصول البرتغاليين للهند ، ولا سيما وأن القرصنة اشتدت على السفن فى غرب البحر المتوسط والمارة بجبل طارق . وحصلوا على حاجتهم من السلع الشرقية من لشبونة ، ثم نالوا اذنا من ملك البرتغال بورود أسواق الهند بأنفسهم ، وضاعت هذه الأسواق من البنادقة (١١٨) .

---

(١١٧) — Heyd, Op. Cit., pp. 725, 726.

(١١٨) — Heyd, Ibid, pp. 720, 721, 722.

الفصل الثالث

الطرق والمحطات التجارية

منذ فقد الأوربيون حرية الاتصال التجارى المباشر باقليم وسط آسيا بعد انهيار القوى الصليبية فى شرق البحر المتوسط عام ١٢٩١ م ، وهم يحاولون تدعيم الطريق البرى من أوربا الى فارس والهند المار ببلاد الدولة البيزنطية ، متحاشين المرور بالأراضى العربية والمماليكية. ومع ذلك فان أكثر القوى نشاطا واهتماما بالتجارة كالبنادقةوالجنويين فضلت الطريق البحرى الى شرق البحر المتوسط الا فى حالات اشتداد الهجمات من القراصنة ، فكانوا يلجأون الى الطريق البرى المذكور من ساحل دلماشيا حتى القسطنطينية ، ومنها الى آسيا الصغرى فوسط آسيا . ولهم مع ملوك وأمراء الأراضى المارين بها معاهدات واتفاقيات خاصة بحرية المرور والمتاجرة . وما لبث أن فقد هؤلاء التجار هذا الطريق أيضا بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وتقدم العثمانيون فى شرق ووسط أوربا حتى ايطاليا . واضطر التجار الى العودة الى الطريق البحرى القديم الذى ينتهى عند موانىء مصر والشام حيث تتجمع السلع الشرقية من الصين والهند وعقدوا مع حكام مصر والشام اتفاقيات تجارية ظلت سارية المفعول حتى الفتح العثمانى للمنطقة عامى ١٥١٦/١٥١٧ (١) .

الطريق الأول :

ومع تعدد الطرق البرية والبحرية الرئيسية والفرعية من أوربا

(١) — Depping, Histoire Du Commerce, T.I. p. 194.

وآسيا وشرق البحر المتوسط حتى أواخر العصور الوسطى فانه بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بقى منها أربع طرق رئيسية برية وبحرية : أظهرها وأقدمها هو طريق الصين ــ الهند ــ الخليج الفارسى، وهو طريق بحرى حتى رأس الخليج الفارسى ، ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة الى بغداد حيث يتفرع فرعين : يتجه الأول شمالا الى ديار بكر ، ويتجه الثانى غربا الى دمشق ومنها تخرج فروع الى موانىء ساحل البحر المتوسط ، ثم جنوبا الى مصر بحذاء الساحل الى غزة ، ثم عبر الصحراء الى القاهرة ، وفرع يتجه شمالا بغرب الى حلب ، ثم الى آسيا الصغرى ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا برا ويتحد معها الى القسطنطينية ثم أوربا . وقد فقد هذا الطريق اتصاله بالطرق القادمة من وسط آسيا خلال غزوات المغول فى القرن الثالث عشر ، ثم عاد الاتصال بعد ذلك عندما سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى وأمنوا الطرق المارة بها ، حتى انه أصبح يمثل الطريق الاحتياطى للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أصابتها كوارث القراصنة وقطاع الطرق . ويخدم هذا الطريق فى جزئه الرئيسى بالخليج الفارسى موانىء ومدن : هرمز ، وسيراف ، وقيس ، والبصرة ، والأبلة .

أما هرمز فظلت المركز الرئيسى لتجارة الخليج الفارسى طوال العصور الوسطى وهى « فرضه اقليم كرمان ومركز تجارته وتجارة اقليم سستان وسوقهما الطبيعى وتبعد عن الساحل بحوالى ١٢ ميلا » . وهرمز فى الأصل مدينتان : القديمة ميناء على الساحل ، والجديدة تقابلها فى البحر على مجموعة من الجزر . وانشأ المدينة القديمة «ادرشير بابيكان» فى منطقة مرجستان وترسو بها سفن الهند التى تحمل التجارة لكرمان وسجستان وخورستان ثم تركها أهلها لكثرة تعرضها لهجمات قطاع الطرق وانتقلوا منذ القرن ١٤ م الى مجموعة الجزر التى

عرفت باسم هرمز الجديدة ، ويسميها العرب جرون وأحيانا هرموز(٢). ويصلها تجار الشام عن طريق مصب نهر دجلة والفرات للحصول على متاجر الهند والصين وبيع متاجرهم ومتاجر أوربا الواردة اليهم ، اذ كانت هرمز فى الواقع تمثل الى حد ما مركزا لتبادل السلع الشرقيـة والغربية . وأحيانا يتقدم تجارها حتى يصلوا الى موقع قاليقوط بالهند على سفنهم الخاصة أو سـفن الهنـود والصـينيين . كما أنهم كانوا يصعدون فى دجلة والفرات حتى البصرة حيث يتجمع فيها أحيانا تجار العراق والشام حاملين معهم سـلع العراق والشـام وآسـيا الصغرى وأوربا (٣) . ويفضلها تجار الشرق والغرب على غيرها لقلة الرسـوم المفروضة على التجارة وللتسهيلات التى تبذل لترغيب التجار . ومن أهم السلع المتداولة هنا القرفة والفلفل والزنجبيل وخشب البخور وعود الند وخشب الصندل وخشب البرازيل الأحمر والتمرهندى والزعفران والشمع والحديد والسكر والأرز وجوز الهند والبورسلين والأحجار الكريمة واللبان والجاوى والأنسجة الحريرية والقطنية . ولهذه الانسجة عند الأهالى سمعة طيبة فيصنعون منها عماماتهم وشيلانهم ، كما يصلها من عدن النحاس والزئبق ، ومن فارس ماء الورد والأنسجة المطرزة والتافتاه ، ومن البحرين اللآلىء الصغيرة والكبيرة ، ومن بلاد العرب الخيول التى تصدر للهند . ولا يقل عدد تجارها كل موسم عن ٤٠٠

---

(٢) سياهى : أوضح المسالك فى معرفة البلدان والممالك . مخطوطة ٢٦٨ ب
— Varthema, La Viateur En Orient, pp. 102-104-109 & N.I. p. 102, N. II. p. 104.

ـ بخصوص تعطل التجارة على هذا الطريق خلال غزو المغول لغرب آسيا فى النصف الثانى من القرن ١٣ م أنظر :
— Marco Polo, Travels, Vol. I. p. 107-108.

(٣) — Darnes, Manuel Longworth, The Book Of Duarte Barbosa, Vol. I. pp. 68-82 & p. 90, R. II. p. 68 & R.I.

تبدو أهمية ملاحظات وكتابات باربوزا فى كونه شاهد عيان لما يتحدث عنه بل انه صاحب البرتغاليين فى غزواتهم للخليج الفارسى وبقى معهم حتى ١٥١٨م

ـ ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك (طبعة ليدن) ١٨٧٢ ص ٤٠ .

ـ الجزرى : تحفة العجائب مخطوطة ورقة رقم ٢٣١ أ .

تاجر . وتباع السلع هنا بالميزان ، وأسعارهم وموازينهم محددة، كما أنهم يستخدمون عملة من الذهب والفضة عليها كتابات عربية من الوجهين تعرف باسم الأشرفى ، ولها عملات أنصاف ، وتلقى هذه العملة رواجا فى الهند لنقائها وحسن وزنها (٤) . وحتى وصـــول البرتغاليين للهند كانت المدينة لا تزال مزدهرة بالتجارة . وقد حاول القائد البرتغالى البوكرك عقد معاهدة مع حكامها عام ١٥٠٧ ، ولما رفضوا هاجمها فى العام التالى واستولى عليها ونكل بمن فيها من التجار العرب ، وأجبر أهلها على دفع جزية ١٥ ألف أشرفى ذهب سنويا (٥) . ومنذ وصول الشاه اسماعيل الصفوى الى العراق العجمى عام ١٥٠٨ ، وهرمز مجال صراع بين البرتغاليين والصفويين حتى خلصت تماما للبرتغاليين حين اتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية فى الخليج الفارسى ضد العـــرب ومصر وفقدت المدينة أهميتها التجارية ، وأصبحت مدينة خربة بعـــد الغزو البرتغالى على أساس أنها محطة تجارة العـــــرب ومصر لتدمير تجارتهم واعلاء لشأن تجارة البرتغاليين (٦) .

ومن هذه المحطات أيضا سيراف على ساحل ايران جنوبى شيراز

– ابن أيوب : المصدر السابق ذكره ص ٣٣٩ .
— Wilson, The Persian Gulf, p. 102.
— Sonia, In Quest Of Spices, p. 102.
— Heyd, Op. Cit., p. 457.

(٤) يبلغ سعر الحصان الواحد بما يوازى الآن ٢٠٠ جنيه ، حسب أصالته ونوعه وتنقل الخيل الى قيس وهرمز القديمة حيث ينتظرها الهنود بسفنهم . وســـفن الخيل مقسمة الى حجرات صغيرة منفصلة .

Sonia, Op. Cit. p. 102.
Darnes, (Barbosa), Vol. I. pp. 90-93, 94-100, 101-105.
Varthema, Op. Cit. p. 109. and 107 R. 5.
Depping, Op. Cit. T.I. pp. 46, 47.

– بخصوص البحرين وتجارتها مع هرمز انظر : النجدى : أرجوزة العرب جـ ٣

(٥) Darnes, Op. Cit. pp. 101-106, 107.
Wilson, Op. Cit. pp. 105-108.
Varthema, Op. Cit. p. 109.

(٦) ابن اياس : نشق الأزهار (مخطوطة) ورقة رقم ٦ أ
Heyd, Op. Cit. pp. 500-504.
Charles Roux, Op. Cit. T.I. pp. 27, 28.

التى ظلت حتى أواخر العصور الوسطى من أكبر أسـواق الخليج الفارسى وهى لا تقل أهمية عن هرمز وان كانت تفضلها لقربها من أسواق البلاد العربية ، فتركزت فيها لذلك السلع الغربية أكثر من أى مركز تجارى آخر على الخليج الفارسى وتصلها سفن التجارة من الصين والهند واليمن ومسقط كما يصلها تجار شرق البحر المتوسط والعراق وايران ، لذا كانت مركزا لتبادل السلع الشرقية والغربية . وتجنى السلطات كل عام حوالى ربع مليون دينار مكوسا تجارية على السفن الداخلة اليها . ومما أسهم فى نمو هذا الميناء صعوبة الملاحة عند مصب دجلة والفرات ، فاتجهت السفن الى سـيراف بدلا من مدخل النهرين . وقد استولى على سيراف أمير قيس وحول عنهـا التجارة الى بلاده فأخذت فى الانهيار تماما أواخر القرن الخامس عشر حتى « صارت سبخة لا ينبت بها زرع وانصرف عنها أهلها الى محطات أخرى ... حتى ان الواحد منهم يسافر عشرين عاما ولا يلتفت الى أهله وولده » (٧) .

أما قيس أو قيش فهى جزيرة قرب الساحل الشرقى للخليج وبينها وبين الساحل ممر بحرى عرضه حوالى تسعة أميال بحرية ويحتكر حاكمها التجارة لحسابه وأسطوله حوالى ٥٠ سفينة وكل سـفينة من قطعة واحدة وأسواقها من أكثر أسواق الخليج ازدحاما بالتجارة من

---

(٧) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٩ و ٤٠ .
ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٢٧ .
السيرافى : أبو زيد حسن : وسليمان التاجر : سلسلة التواريخ ص ١٥ ـ ١٨ .
حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .
سياهى : المصدر السابق ورقة ١٦٧ أوب .
المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٣١ .
بزرك بن شهريار الناخوزاه : عجائب الهند بره وبحره ص ٢٢ و ٢٣ .
ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٦٠ .
وتعرف سيراف الآن باسم طاهرى على الطريق من بوشير الى قيس وكان انهيارها قد أدى الى زيادة نمو قيس وهرمز .
Darnes, (Barbosa) Vol. I. p. 81 & R. I. p. 79-81.

الهند والصين وفارس والعراق والشام لسهولة العيش فيها ، اذ أن أرضها خصبة ، وماءها وفير ، وتفوق باقى المدن والموانىء فى تجارة العبيد المستوردين من شرق افريقية . ومنذ تحول سيل التجارة الى البحر الأحمر بدأت تجارتها فى التـــأخر الى أن وصلها البرتغاليون وحولوا عنها التجارة فى محاولاتهم القضاء على الطرق التجارية الى البلاد العربية واتخذوها مركزا لتموين سفنهم بالماء والخضر ، وتحولت تجارتها وتجارة الخليج كله الى ساحل الهند الغربى (٨) .

وظلت البصرة بموقعها الممتاز عند التقاء دجلة بالفرات على رأس الخليج الفارسى من أهم المحطات للتجارة الشرقية . وتتصل المدينـــة بالنهر بقناتين يصـــلانها ببغداد والخليج الفارسى . وبالمدينة ســـوق ضخم وجمرك بلغ ايراده منذ منتصف القرن الخامس عشر حـــوالى ٤٤١٫٠٠٠ دينار سنويا ، كما أن بها مخازن ومســـتودعات للمتاجر الشرقية والغربية وتنتهى عنـــدها بعض طرق القوافل وشـــهدت المدينة أزهى عصورها طوال العصور الوسطى ، فهى مخرج تجارة العراق وتتصل بالصين والهند برا وبحرا كما تتصل بالشام وآسيا الصغرى . الا أنها منذ أواخر العصور الوسطى بدأت تتأخر حتى أصبحت ميناء مساعدا لسيراف ، وكافح الميناء للوقوف أمام منافسة الطريق الثانى فى البحر الأحمر حتى انهارت قيمتهما بعد وصول البرتغاليين الى الهند ودخولهم الخليج الفارسى ولم تعد أكثر من قرية جرداء . وفى فترة احتلال البرتغاليين لهرمز لفتت أنظارهم أهمية البصرة كمركز ومدخل لتجارة الخليج الفارسى الى العراق والشام بالنسبة للعرب فعملوا على تحويل التجـــارة عنها حتى لا يلجأ العرب الى أحيائها مرة أخرى ،

---

(٨) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٢٣ .

Darnes, Ibid, pp. 80, 81.
Wilson, Op. Cit. pp. 97,98.

وسدوا المواصلات البحرية اليها (٩) .

والى الشمال من رأس الخليج الفارسي عند مصب دجلة والفرات تقع مدينة الابلة وقد شيدت قبل البصرة وتبدو أهميتها فى أنها مخرج تجارة العراق الى الخليج الفارسى كما أنها حاضرة ميناء البصرة ، وتقع عند ملتقى أهم طرق التجارة من ايران والعراق وبلاد العرب ، بل انها اعتبرت فى وقت ما ميناء العراق الرئيسى الى الخليج الفارسى بسبب صعوبة الملاحة عند مصب الرافدين . ولليهود بها جالية تجارية كبيرة ، كما أن بها فنارات لهداية السفن ليلا ، وهى الآتية من عمان وسيراف ويوجد بها للتجار وكالات وفنادق . ومنذ تحولت التجارة بصفة عامة من موانىء الخليج الفارسى الى البحر الأحمر ومصر بدأت الأبلة فى التأخر ، وانكمشت فى النصف الثانى من القرن ١٥ م لتصير نجعا صغيرا ، ثم أقفرت تماما بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح فى مطلع القرن السادس عشر (١٠) .

على أنه منذ أواخر القرن ١٥ م وأوائل القرن ١٦ م بدأ هذا

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية مادة Basra

يجب ألا يغرب عن البال أن جغرافية العراق الآن تختلف عن جغرافيتها فى العصور الوسطى فيما يختص بنهرى دجلة والفرات ، فالنهران فى الوقت الحاضر يتصلان ببعضهما شمالى مدينة البصرة ويتجهان نحو الخليج الفارسى مسافة ٢٥٠ ميلا من بغداد الى شط العرب . أما فى القرن ١٥م فكان دجلة يسير فى خط مستقيم حوالى ١٠٠ ميل جنوبى بغداد ثم يدخل فى مجرى قناة تعرف الآن باسم شط الحى ويمر بواسط ويتوه مرة أخرى فى مستنقعات المصب الجنوبى للبصرة وبهذا الطريق المائى تتقدم قوارب النقل بسهولة من بغداد الى البصرة انظر : Wilson, Op. Cit. pp. 65, 66, 67, 68.
Darnes, Op. Cit. pp. 88, 89. & R.p. 90.

متز : الحضارة الاسلامية (مترجم) جـ٢ ص ٢٣٠ .

المقدسى : المصدر السابق ص ١٢ .

الاسطخرى : المسالك والممالك ص ٣٢ .

ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣١ — ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٠٩ .

ظلت البصرة تابعة للصفويين حتى احتلها الترك عام ١٥٣٤ على عهد السلطان سليمان القانونى بعد سقوط بغداد .

Wilson, Op. Cit. p. 66.

(١٠) Wilson, Op. Cit. pp. 62-64.
Darnes, Op. Cit. p. 88 R.I.

الطريق يفقد أهميته فى خدمة التجارة وبخاصة فى فروعه من الخليج الفارسى عبر العراق الى ديار بكر وسلطانية . فقد أغلقته الحروب التى نشبت بين الصفويين والعثمانيين فى العراق العربى وآسيا الصغرى . وبعد أن استولى الشاه اسماعيل الصفوى على العراق العجمى منذ عام ١٥٠٨ ، منع تجار الشام من الوصول الى بغداد والبصرة لحمل المتاجر الشرقية ، فامتنعت بالتالى السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج الفارسى وهرمز والبصرة. هذا بالاضافة الى زيادة انتشار قطاع الطرق فى أجزائه البرية فأحجم معظم التجار عن ارتياده وفقدت مدنه وموانيه ومراكزه التجارية أهميتها حتى بطل استخدامه تماما فى الربع الأول من القرن السادس عشر منذ دخول البرتغاليين بأسطولهم الحربى فى الخليج الفارسى واحتلالهم لأهم موانيه وسيطرتهم على تجارته امعانا فى تحطيم التجارة العربية والمماليكية . وتأكد هذا الانهيار تماما منذ الفتح العثمانى للشام ومصر ١٥١٦/١٥١٧ (١١) .

الطريق الثانى :

هو طريق بحرى من الشرق الأقصى الى البحر الأحمر ، وله فرعان : يتجه أحدهما شمالا بعد أن يترك البحر الأحمر عبر سيناء الى دمشق ثم موانىء ساحل البحر المتوسط ، ويتجه الآخر عبر الصحراء الى النيل فالقاهرة ومنها بالنيل أيضا الى الاسكندرية فأوربا . الا أن هذا الطريق تعترضه صعوبتان :

أولاهما : المساحة البحرية الواسعة من الصين الى الهند الىالبحر الأحمر وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة . وثانيهما : كثرة الشعاب المرجانية التى تعترض الملاحة فى البحر الأحمر.

---

(١١) Clive, A Hist. Of Commerce, pp. 84, 85.
Clerget, Le Caire, p. 180 & pp. 189, 190.
Wilson, Op. Cit. pp. 10-13.

وقد ذللت الصعوبة الأولى بعد وصـــول السفن العربية الى المحيط الهندى فى وقت نضجت فيه المعلومات الجغرافية عن الملاحة فى البحار الشرقية وقـــد لاءم البحـارة أوقاتهم في مواعيـد هبوب الرياح الموسمية (١٢) .

أما الصعوبة الثانية فقد تم تذليلها بالابحار فى البحر الأحمـر بعيدا عن الشعاب ، المرجانية والتيارات المتعارضة وبعد بناء سـفن ضخمة تتحمل الابحار وسط هذا البحر (١٣) .

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد غزو المغول لغرب آسيا وتعطل الطريق التجارى البرى من وسط آسيا ، وطريق البحر الأحمر من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب ، فهو بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والمماليك ، وفيما بعد بين العثمـانيين والأوربيين ، ثم بينهم وبين التركمان وامارات آسيا الصغرى ، وبينهم وبين المماليك ثم الصـفويين فى مطلع القرن ١٦ م ، فكانت هـذه الاضطرابات السياسية والحربية سببا فى قطع الصلات التجارية وسد الطرق البرية القديمة بين الشرق والغرب واضطر التجار الى اللجوء لهذا الطريق المار بأملاك السلطنة المماليكية اذ كان أكثر الطرق أمنا ، وان كانت مرحلة البر فيه تكلف كثيرا من الجهد والمال والحراسة (١٤).
ولعل أشد ما كانت تحرص عليه السلطات المماليكية عند تحول التجارة

---

(١٢) ظل طريق عيـذاب ــ قوص ــ النيل ــ القـاهرة الطريق الاول لتجارة مصر الشرقية من الصين والهند واليمن حتى أواخر القرن ١٣ ثم استخدم طريق البحر الأحمر الى السويس بحرا ثم برا للقاهرة . أما الاسكندرية ودمياط فكانتا أهم أبواب مصر فى تجارة أوربا .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .
Charles Roux, Op. Cit. T.I. pp. 27, 28.
Depping, Op. Cit. p. 47, T.I.

(١٣) Gayet, Le Cours, The Camb. Shorter Hist. Of India, Vol. II. p. 315.
Clive, Op. Cit. p. 85.

(١٤) Clerget. Op. Cit. pp. 299-300.

الى هذا الطريق ، هو ضبط الطرق التجارية وحماية التجارة ، والتجار من عبث قطاع الطرق ، وكتب الرحالة المنصفين عن هذه الفترة تزخر بالاشادة بهذا العمل من جانب السلطات المماليكية (١٥) .

وقد أثرى سلاطين المماليك من التجارة على هذا الطريق ، فعملوا أولا وسطاء بين تجار الشرق والغرب ، ثم تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذا النوع من التجارة بعد أن انتزعوها من « التجار الكارمية » ، وغالوا فى احتكارهم لها وخاصة فى السلع النادرة ، الا أن هذا الاحتكار لم يؤد الى زيادة تداولها ، فارتفعت أسعار التوابل والسلع الشرقية عامة فى أوربا الى أربعة وخمسة أضعاف أسعارها فى الهند ، أضف الى ذلك أن المماليك فرضوا رسوما جمركية عالية على كل بالة تجارية تمر من البحر الأحمر الى مصر ودول أوربا . فالبضائع التى كان ثمنها ٢٠٫٠٠٠ جنيه كان يدفع عنها فى الجمارك رسوما تبلغ

---

(١٥) بخصوص جهود السلاطين لتامين هذا الطريق منذ منتصف القرن ١٣ م انظر :
المقريزى : السلوك جـ١ ص ٧٠٠ ــ ٧٠٢ .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٣٤٠ ــ ٣٤١ .
خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .
أنظر بعده الفصل الخامس عن طوائف التجار الوافدين لمصر والنص فى المعاهدات والاتفاقيات على رعايتهم وحماية مصالحهم .
Felix Fabri, The Wanderings Of Felix Fabri, Vol. I, II. 1480-1483. From The Library of Palestine Pilgrims' Text Society, Vol. VII.

يذكر الرحالة فابرى « أنه من دواعى سرورى خلال رحلتى للأراضى المقدسة أنه لم تسأ معاملتى بأى حال ، لا من الاعراب ، ولا من البدو ، ولا من السلطات الحاكمة . » ويذكر فى موضع آخر أنه بعد زيارته لدير سانت كاترين توجه مع القافلة الى البحر الأحمر ليركب السفينة من الطور الى الشاطىء الغربى فى طريقه الى القاهرة وهناك كما يقول : « لاحظنا قافلة قادمة نحونا بسرعة فظننا أنهم لصوص ثم لم تلبث أن توقفت أمامنا تماما وقائدها رجل ضخم الجثة استدعى قائد قافلتنا وسأله : كيف وأنت عربى تقود جماعة من الفرنج بسلاحهم كما لو كانوا فرقة حربية ؟ فأجاب الدليل : انهم حجاج ، ولما كانوا يخشون قطاع الطرق فقد استأذنوا حاكم بيت المقدس فى حمل السلاح للدفاع على أن يسلموا أسلحتهم فى القاهرة . فحمد القائد لنا هذا وقال لرجاله انه لو اتبع الحجاج ذلك لقضوا على قطاع الطرق تماما .
Fabri, Vol. I. Part II, p. 243 & Vol. II. Part II, pp. 642-646.

٤٠٠٠ جنيه وفى ميناء بولاق النهرى كانت البضائع التى تساوى ٣٠٠٠ر٣٠ جنيه يدفع عنها رسوما تبلغ حوالى ٥٠٠٠ جنيه — هذا غير الهدايا التى كانت تدفع لرجال السلطان وعمال الميناء لتسهيل الشحن وحماية البضائع . ومع كل ذلك تركزت التجارة على هذا الطريق ومدنه وموانيه وفتحت مصر والشام أبواب مدنها ، وموانيها وامتلأت الأسواق بالأجانب رغم « التحريمات البابوية » والمتكررة وخاصة بعد توغل العثمانيين فى شرق أوربا ، وأصبحت بلاد السلطان المماليكى مقصد تجار البندقية وجنوة وفلورنسا وقطالونيا وفرنسا ولهم وكالات وفنادق ومعاملات وحسابات جارية مصرفية مع السلطات والأهالى . ومن أهم المدن التى خدمت التجارة على هذا الطريق : القاهرة والاسكندرية ، وعلى البحر الأحمر : القلزم والسويس والطور وجدة ثم عدن ، وفى الشام : دمشق وبيروت وحلب (١٦) .

وحتى نهاية العصور الوسطى كان التنافس شديدا بين القاهرة والاسكندرية فى بيع وتوزيع سلع الشرق وسلع الغرب ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجميع السلع ،ومركز توزيعها شرقا للسلع الغربية وغربا للسلع الشرقية والمحلية نظرا لتوسط مركزها كما كانت أقصى ما يصل اليه التجار الأجانب الوافدين لمصر ، ونص على ذلك فى المعاهدات التجاريةبين مصر والدول الأوربية (١٧): وبالمدينة أحياء معينة خصصت لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكالات وفنادق وأماكن خاصة لدوابهم ، لا سيما الوافدين

---

(١٦) انظر ملحق الخرايط ، وعن ثراء المماليك انظر :
Atiya, The Grusades In Later Middle Ages pp. 115-174, 175.
Heyd, Op. Cit. p. 448.
Maurice, Le Çaire, pp. 186, 187.
Clerget, Op. Cit. p. 300.

(١٧) Clerget, Op. Cit. p. 301.
Heyd, Op. Cit. pp. 434, 4351697, 698.

من الشام أو بلاد العرب أو السودان وأحيانا من فارس [١٨] . وزار القاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر عديد من الرحالة الأجانب ويصفون مدى الازدهار التجارى الذى عاشته المدينة فى فترة تحول التجارة عبر البحر الأحمر وبلاد السلطنة المماليكية حتى بداية القرن السادس عشر [١٩] . ويقترن بذكر القاهرة ميناؤها الهام على النيل

---

(١٨) بخصوص مدينة القاهرة فان لشوارعها ودروبها بوابات تغلق عليها ليلا ، ولها حراس ، وبكل شارع سوق لسد حاجات السكان من السلع اليومية ، كما أنها تضاء ليلا بالمصابيح ، ويمر جماعة من الطواف ليلا كذلك لتفقد الأمن والحراسة وعقاب المخالفين . وتعنى الحكومة بنظافة الشوارع ورشها وأمام كل حانوت اناء به ماء لاطفاء ما قد ينشب من حرائق ، كما أن بالمدينة وكالات وفنادق وخانات وأسواقا متخصصة . انظر :

سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ و ٨٣ .

Dopp, P.H., L'Egypte Au Commençement Du 15 ème Sieçle, pp. 50-53 & FOLIO 30-32.

ـ فييت : المواصلات فى العصور الوسطى ص ٢٦ .

Clerget, Op. Cit. pp. 180, 181.
Lewis, Robert, The Merchants' (Moppe) = Map Of Commerce, pp. 93-97.

انظر ملحق الخرايط .

(١٩) مصطفى الحفناوى : قناة السويس جـ ١ ص ١٩ و ٢٠ .

Ziada, Op. Cit. pp. 215, 216.
Breyndenbach, Bernard De, Les Saints Peregrinations (1483) pp. 47, 48-50-53-56.

زار الرحالة برايدنباخ القاهرة عام ١٤٨٣ م وذكر أنها (مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان وبها حوالى ١٥٠٠٠ تاجر ، ولهم أحياء وشوارع خاصة بهم حيث اشترينا منها الأسلحة والعطور والتوابل) . وزارها كذلك الرحالة هارف ضمن رحلاته

Arnold Von Harff, The Pilgrimage Of... (1496-1499).

فى ايطاليا والشام والحبشة وبلاد العرب ومصر والنوبة وفلسطين وتركيا وفرنسا واسبانيا، ويقول انه بقى خارج القاهرة فترة قبل السماح له بدخولها « اذ لا تسمح السلطات الحاكمة للاجانب بدخول المدينة الا بعد الحصول على اذن خاص يذكر فيه هويتهم وسبب حضورهم .. » ويعطينا هارف صورة صادقة عن المدينة عام ١٤٩٧ فهى « .. مدينة ضخمة تغلق شوارعها وحواريها بوابات كبيرة ليلا ولكل حارة فرن ومطبخ وحمام مياه ويوقد الأهالى الأفران بالأخشاب المحلية . أما الأخشاب الثمينة فتاتيهم من أوربا خفية لأن البابوية تحرم التعامل مع المماليك فى المواد الحربية .. وبالمدينة كذلك عدد كبير من المسيحيين وأهل الشام واليهود ومعظمهم تجار ، ويدفعون جزية سنوية للسلطان . وخلال الأزمات السياسية تقف الحياة فى البلاد تماما وتمتنع التجارة . وقد شاهدت بنفسى احداها خلال الصراع بين السلطان ومنافسيه ، فتوقفت التجارة ، وفقد التجار الأجانب الموجودون سلعهم ومتاجرهم ، وفقدت خلال ذلك كل أمتعتى وأخذت سجينا » . أما عن =

بولاق ــ والذى ظل الميناء الرئيسى للقاهرة على النيــل حتى أواخر العصور الوسطى . وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله السلع من الاسكندرية طريق فرع رشيد. ومن موانىء الشام وتركيا طريق فرع دمياط ، ومن الجنوب ســلع الحبشة والنوبة ، وأحيانا البحر الأحمر طريق النيل وموانيه الجنوبية. وبالميناء مخازن ومتاجر ووكالات واسعة ، كما يوجد بها رجال الحكومة وعمال الجمرك بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار . ولجمركها باب خاص بالمسافرين تفحص فيه حقائبهم ويدفعون حينئذ ١٠٪ عما فى حقائبهم ، ودوكين للمسافر العادى ، وخمسة للحاج ، مع دقة مراقبتهم (٢٠) .

= التجار الوطنيين فيذكر هارف أن بها تجارا أثرياء يتاجر الفرد منهم فى حوالى ١٠٠،٠٠٠ دينار (ويصلهم من أوربا المعادن الغفل والمسكوكة بما لا تقل قيمته عن ٣٠٠،٠٠٠ دوك سنويا فى مقابل ما يحمله الأجانب من سلع الشرق) .

Harff, Ibid, p. 109-111 & 114 + R.I.

(حادث الصراع الذى يذكره هارف كان بين السلطان محمد بن قايتباى ، ومنافسيه على الحكم بعد وفاة أبيه السلطان الأشرف قايتباى ١٤٩٦/١٤٩٧) أما العملة المسكوكة والغفل التى يذكرها هارف فقد وصلت مع سفن البندقية عام ١٤٩٨ .

Heyd, Op. Cit. p. 440.

ومن هلاء الرحالة المعاصرين كذلك Thenaud الذى زار القاهرة عام ١٥١٢ مع السفير الفرنسى أندريه لوروى بعد أن زارا الاسكندرية انظر

Thenaud, Voyage D'Outre Mer, pp. 48-51. & J.I. p. 50.

ويذكر أن بالقاهرة أسواقا متخصصة ، فهذا سوق العطارين ، وهذا سوق النحاسين وخلافه . وبالأسواق وكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحرير والأحجار الكريمة، ولكل طائفة وكالة ، كما للأجانب من التجار وكالات منها : وكالات الأتراك ، واليمنيين، والفرس ، والمغاربة ، والهنود . وبالقاهرة تجار أثرياء لا يقل ما بيدهم عن مليونى قطعة ذهبية وايرادات السلطان من أملاكه فى مصر والشام لا تقل عن تسعة ملايين قطعة .

ومن زاروا القاهرة كذلك أواخر القرن ١٥ م وبايفا وكوفلهام Paiva & Covilham مبعوثا ملك البرتغال الى القس يوحنا للاتصال به فى الحبشة أو الهند حيث كان يظن أنه يحكم وقد وصفا القاهرة والطريق من الاسكندرية اليها وهو لايزيد على خمسة أيام بالنيل ، وهى مدينة كبيرة ، تبهر العيون ، ومزدحمة فقطارات الابل لا تنتهى ، وتموج بالعديد من الأجانب .

Sonia, Op. Cit. p. 99.
Clerget, Op. Cit. pp. 169, 170.

(٢٠) Clerget, Ibid; pp. 169, 170.

أما الاسكندرية فبحكم موقعها على البحر المتوسط فانها كانت تفوق القاهرة فى اتصالها بأوربا مباشرة ، والمدينة تزدحم طول العام بالأجانب الوافدين اليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة فى سيناء وفلسطين ، ولدول أوربا والبحر المتوسط بالمدينة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق يمارسون فيها حياتهم الخاصة فى حرية . وكان السلاطين المماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن ١٤ م بعد دفع رسم سنوى للسلطان . ومن أشهر الفنادق التى كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق مدينة ناربون وفندق البنادقة وفندق القطالونيين (٢١) . وشهدت المدينة أروع أيامها فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ حتى ان ايرادات الحكومة كان معظمها من جمرك الاسكندرية التى كانت تتراوح يوميا فى فترات « المدة التجارية » ما بين « ألف وألفى دينار » عدا رسوم السفن والسياح والحجاج (٢٢) . والمدينة لا تقل اتساعا وأهمية عن أكبر مدن العالم التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسيليا ولشبونة وكلكتا وزيتون بالصين وكولونيا بألمانيا ، ولها

Lewis, Op. Cit. pp. 98-100.
Thenaud, Op. Cit. p. 121.
Harff, Op. Cit. p. 101.

(٢١) خلفت مدينة الاسكندرية دمياط كميناء مصر الاول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءا من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوربى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الاوربية الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء .

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٠٤ .

انظر ملحق الخرايط .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .
Ziada, Op. Cit. p. 292.

(٢٢) فييت : مصر الاسلامية (المواصلات) ص ٣٩ .
Depping, Op. Cit. T. II. p. 307.
Heyd, Op. Cit. T. II. p. 125.

عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوربا ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقية وتقل فيـه رسوم الجمارك عن المرسى الأول (٢٣) . والى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء أبو قير عند بحيرة باسم « رأس المعدية » ويتصل الميناء بالنيل بقناة تصل للبحيرة . ويبعد الميناء حوالى ثلاثة أميال جرمانية عن الاسكندرية « ثمانية أميال » ، وهو مرفأ للسفن السـورية الواردة للاسكندرية وتدخله السـفن الصغيرة أما الكبيرة فتتصل به من البحر بالقوارب (٢٤) .

ومن هذه الموانىء أيضا ميناء رشيد النيلى وتحرم السـلطات المماليكية دخوله من البحر المتوسط لصفته الحربية ، ونقلت نشـاطه التجارى الى ميناء بلدة فوة جنوبه وهى تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر (٢٥) .

---

(٢٣) Harff, Op. Cit. pp. 93-95 & R.I. p. 93.
Depping, Op. Cit. I. pp. 62-63.
Leo Africanus, The History And Description Of Africa, Vol. III. pp. 861-862.

٢٤) عن ميناء أبو قير يذكره المؤرخين أواخر العصور الوسطى باسم :
(Campus De Bucher = Aboqir)
Thenaud, Op. Cit. p. 28. R. 2.
Etienne, Combe, Alex. Musuimane, pp. 49-50.

(٢٥) عن ميناء رشيد
Harff, Op. Cit. p. XXIII.
Heyd, Op. Cit. II. pp. 437-438-439.
بالملحق رقم (٢٧) مرسوم سلطانى لجماعة الفلورنسيين ولتجارهم بمنحهم اعفاءات وامتيازات فى موانيه ما عدا ميناء رشيد .
Combe, Op. Cit. pp. 50-51-52-53.
راجع كذلك الملحق رقم (٢٨) ثم
Heyd, Op. Cit. II. pp. 428-435.
سياهى : المصدر السابق ١٤٣ أ
ابن أيوب : المصدر السابق ص ١١٧
وانظر كذلك خريطة مصورة عن الاسكندرية من كتاب :
Atia, The Crusades, Op. Cit. face to page 352.
بين الاسكندرية ورشيد حوالى ٣٦ ميلا : انظر
شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (مترجم) ص ٥٨/٥٩
Lewis, Op. Cit. pp. 92-93.

ومن جنوبى رشيد تخرج قناة تصل الى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح طول العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية، والغربى للسفن الاسلامية من المغرب . وتتبع الموانىء نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد ذكرت البرلس فى وثائق البندقية وفلورنسا من العصور الوسطى وان كانت لا تظهر على الخرائط ، وكان بها قنصلية للبندقية وفندق لمواطنيهم (٢٦) .

ميناء دمياط :

ومن أشهر موانىء مصر كذلك ميناء دمياط النهرى البحرى، وهو مخرج تجارة مصر لمدن وموانىء الساحل الشرقى للبحر المتوسط وكريت وتركيا وقبرص — كما يتصل بالقوافل البرية الى موانىء البحر الأحمر، ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل، وكذلك لردم جزء من فم البحر عندها . انما يخرج من دمياط قناة الى بحيرة المنزلة حيث تدخل اليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين[١] ميلا من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة الى دمياط والصادرة منها . وبالمدينة عدد كبير من الأجانب من اغريق وبنادقة وجنويين وفلورنسيين وبها قنصلية خاصة بفرسان القديس يوحنا فى رودس ، وظلت هذه القنصلية قائمة حتى الغزو العثمانى لمصر ١٥١٧ م ويقال، ان الأسلحة كانت تصل للماليك عن طريق قنصلية الفرسان بالمدينة ،

Depping, Op. Cit. I. p. 74.
Heyd, Op. Cit. II pp. 440-448.
Gioli, Lioneiie, Histoire Economique, pp. 196-107.

عن قوة

Thenaud, Op. Cit. p. 29. N. 2, pp. 32-33, No. 5.
Harff, Op. Cit. pp. 97-100.
Heyd, Op. Cit. I. pp. 100 & II. pp. 438-439.

(٢٦) انظر ملحق الخرايط .

Heyd, Ibid, II. pp. 428-429.

ولكن ابن اياس المعاصر للأحداث يكذب هذه الواقعة (٢٧) .

الطـــرق الداخلية :

واتصال التجار بالهند والصين عن طريق مصر كان يتم بوسيلتين: فهناك طريق القاهرة/ القلزم ثم السويس والطور ومنها الى البحـــر الأحمر ، والآخر طريق بولاق/القــاهرة بالنيل جنوبا الى قوص ، ومنها شرقا الى عيذاب على البحر الأحمر ، وهذا الطريق بطل استعماله منذ أوائل القرن الخامس عشر تقريبا لطوله وكثرة تكاليفه وصعوبة التفاهم مع أهل الصعيد أحيانا ، وان كانت موانيه مفتوحة طول العام وأقل خطورة من الطريق الأول ، وفضل التجار عنه طريق القــاهرة القلزم .

ومنذ القرن الخامس عشر وهذا الطريق هو طريق التجارة الرئيسى وزادت أهميته بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واهتمت به وبموانيه السلطات المماليكية (٢٨) .

---

(٢٧) Depping ; Op. Cit. I. p. 64.
Lewis, Op. Cit. p. 92.
Thenaud, Op. Cit. pp. 121, 122- N. 2 p. 121.

ابن أيوب : المصدر السابق ص ١١٧٧ .

الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣٥ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ٨١ .

يوسف نقولا : دمياط ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ .

ابن اياس : نشق الأزهار : مخطوطة ورقة ٣٧ ب .

ابن اياس : بدائع الزهور فى وقايع الدهور جـ ٣ ص ٩٢ أخبار سنة ٩٢٢ هـ (بولاق)

عن قنصليات الفلونسيين فى دمياط راجع الملحق رقم ٢٧ ـ ٢٨ .

لاحظ أن دمياط كميناء فقدت أهميتها البحرية منذ أواخر القرن ١٣ م وانتقل مركز الثقل والأهمية الى ميناء الاسكندرية واتخذت اجراءات معينة فى الميناء لمنع أى غزو بحرى لمصر من فرع دمياط . انظر قبله ملاحظة ٢١ وكذلك :

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ .

وحتى أواخر العصور الوسطى ظل الاتصال بها عن طريق القوارب النيلية وعن طريق قناة تصل الى بحيرة المنزلة .

(٢٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٢ ملاحظة عن القلزم والسويس وطريق البحر الاحمر التجارى طبعة دار الكتب .

وكانت السويس قد حلت محل القلزم منذ القرن ١٢ م ، وتصلها سفن التجارة الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة ، ثم بالنيل الى الاسكندرية . على أن هذا الميناء التجارى لم يلبث أن هجر وأصبح ميناء مصر الحربى على البحر الأحمر وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه قام أسطول مصر الحربى فى مطلع القرن السادس عشر الى الهند (٢٩) . ولما صارت السويس مرفأ مصر الحربى على البحر الأحمر استقر رأى السلطات المماليكية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة . والواقع أن كثيرا من التجار كانوا يطرقون هذا الميناء متجنبين موانىء الساحل الغربى للبحر الأحمر بسبب ما به من شعاب مرجانية وصخور تتحطم عليها السفن، لذا لم يكن الميناء جديدا يوم تقرر جعله ميناء مصر التجارى على البحر الأحمر ، بل صار بمرور الزمن ميناء التجار المفضل . وميناء الطور يقع جنوب غربى شبه جزيرة سيناء بين فرعى بحر القلزم وعليه أمير مملوكى من القاهرة وتحيط به عدة قرى وهو بالقرب من جبل فاران (فيران) ، وأطلق عليه الأجانب خطأ اسم رايتو التى يسميها العرب الراية وهى غير الطور وبالميناء مخازن ضخمة وجمرك خاص بواردات الهند واتبع به نفس النظام الذى كان لميناء السويس فسفن الهند لا تصله انما

---

(٢٩) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٨ .

سياحى : المصدر السابق ورقة ٢١٩ أ .

يذكر (بربوزا) أن تجارة السويس فى بداية القرن ١٦ م دمرت وهجرت المدينة نفسها ولكن ناشر كتاب بربوزا يذكر فى الملاحظة (١) ص ٤٣ أن تجارة مصر فى البحر الأحمر التى كانت تنتهى عند السويس لم تدمر نهائيا وأن هجر المدينة كان مؤقتا .
Darnes, Op. Cit. I. pp. 42-45 & R.I. p. 43.

راجع كذلك : ثينود : حيث يقول : انه خلال زيارته لها عام ١٥١٢ كانت قاحلة وليس بها سوى بعض الاعراب بجمالهم وبعض المسيحيين من اليعاقبة .
Thenaud, Op. Cit. p. 63 & N.I.

ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٨ .

تفرغ حمولتها فى عدن وفيما بعد فى جدة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل للقاهرة ، وتصل سفن التجارة الهندية الى جدة مرتين فى العام ، وفى كل مرة ينشط العمل فى ميناء الطور (٣٠) . وعلاوة على أهمية الميناء التجارية فهو المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاترين ، والحجاج المسلمين الذاهبين لمكة والمدينة . ويهتم الحجاج المسيحيون خاصة بمواعيد وصول سفن التجارة الى الطور ، لأن البندقية توقت (مدة) سفنها التجارية ، للاسكندرية مع مواعيد هذه السفن مع حساب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم الاسكندرية ، فيستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوربا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوربا على سفن البندقية المنتظرة المتاجر بالاسكندرية . وسفن البندقية لا ترتبط بمواعيد سفن الحج الى مكة والمدينة بسبب اختلاف مواعيد الحج على مدار السنين (٣١) . ووثائق البندقية أواخر العصور الوسطى تؤيد ذلك وتحدد الفترة من ٨ — ٢٣ سبتمبر من كل عام موعدا لرحيل سفنها للاسكندرية وتكون على استعداد للعودة محملة بالتوابل فى منتصف أكتوبر أو بداية شهر نوفمبر على أكثر تقدير قبل حلول فصل الشتاء، كما أن لها رحلة أخرى فى مارس لتصل الى الاسكندرية وتغادرها فى ابريل . وعلى هذا فان وصول التوابل للطور كان فى أوائل سبتمبر

---

(٣٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٨ ص ١٥٢ .
سيامى : المصدر السابق ورقة ٢١٩ أ .
ابن أيوب : المصدر السابق ص ١٠٧ .
انظر ملحق الخرايط . وراجع كذلك :
Heyd, Op. Cit. pp. 440-443 ff.
Harff, Op. Cit. T. II. pp. 136, 137-149, 150-154.
Thenaud, Op. Cit. pp. 157, 158.

(٣١)
Heyd, Op. Cit. pp. 446, 447.
Harff, Op. Cit. p. 154.
Darnes, Op. Cit. T. I. p. 45.

من كل عام . وتصلها كذلك سفن الهند فى أوائل مارس بعد خروجها من موانىء الهند فى فبراير من كل عام .

وظلت الطور على هذا النحو من الأهمية والازدهار حتى نهاية العصور الوسطى حين انتشر الأسطول البرتغالى فى مياه الهند وسد مدخل البحر الأحمر ، بالاستيلاء على جزيرة سقطرى وبدأت الطور تنهار فى نهاية السنوات الأولى من القرن السادس عشر . وفى عام ١٥١٧ أصبحت قرية صغيرة مهجورة وقلت القوافل الوافدة اليهـا برا وبحـرا (٣٢) .

ميناء عـدن :

واذا كانت القلزم والسويس والطور هى مدخل البحر الأحمـر من طرفه الشمالى فان عدن مدخله الجنوبى واعتبرت من أكبر محطات تبادل المتاجر والسلع بين الشرق ومصر (طريق البحر الأحمر) وظلت فترة طويلة لايتعداها تجار الصين والهند الى البحر الأحمر ، بل تنقل

---

(٣٢) يوضح فيلكس فابرى فى رحلته من بيت المقدس الى سانت كاترين بسيناء ثم الى القاهرة بالقوافل والاسكندرية بالنيل « أن سفن الهندتفرغ حمولتها وتحملها قوارب صغيرة الى الطور ثم تنقل الى القاهرة بالقوافل والاسكندرية بالنيل ، ولهذه السفن مواعيد معينة فهى تتبع فى سيرها الرياح الموسمية فى المحيط الهندى وتتبع فى بعض السنوات مواعيد مواسم الحج الى مكة والمدينة . وعلى هذا تنظم البندقية وجاليات التجار الأجانب مواعيد مدة تجارتهم حسب ذلك . كما يرتب حجاج سيناء رحيلهم من الطور الى القاهرة فى مواعيد تحرك القوافل بعد وصول السفن لامكان مصاحبتها للاسكندرية وضمان العودة لأوربا على سفن البندقية .. ولدى وصولنا الى الطور سالنا دورية الحراس المالكية عن مواعيد وصول سفن التوابل الهندية الى الطور حتى تستطيع مصاحبة القوافل للقاهرةللحاق بسفن البندقيه رفهمنا من القائد أن سفن الهند وصلت منذ أيام ومضت القوافل للقاهرة وانزعجنا لهذا الخبر لأن معناه أننا سنفقد مواعيد المدة ونمضى الشتاء بالاسكندرية فاخذنا نحث القائد للاسراع لتلحق بالسفن فى الوقت المناسب .

Fabri, Op. Cit. T. II. pp. 642, 643.
Heyd, Op. Cit. pp. 447, 448.

راجع كذلك : ابن اياس : نشق الازهار ورقة ٦٨ .

شاهد الرحالة ثينود السويس على النحو المذكور خلال رحلته عام ١٥١٢ .
Theriaud, Op. Cit. pp. 80-82.

سلعهم على سفن مماليكية الى جدة ثم الى القلزم والسويس والطور ..
وفى عدن تتجمع متاجر الشرق والغرب للتبادل فتنقل الأولى الى مصر
فأوربا ــ وتنقل الثانية الى الهند فالصين . وترسو بعدن علاوة على
سفن الصين والهند سفن الحبشة والخليج الفارسى وشرق افريقيـة
وتعقد أسواقها ليلا بسبب شدة الحرارة ، وتجار عدن يسافرون الى
الشام ومصر وأثيوبيا والهند والصومال ، ومـدن وموانىء الخليج
الفارسى ، ويتوافر فى أسواقها الحديد والنحاس والزئبق والمرجـان
والملابس الصوفية والقطنيةوالحريرية والعقاقير والتوابلوالسكروالأرز
وجوزالهند واللبانوالجاوى وخشبالسند وعودالند والراوند والمسك،
ويسكنها عدد كبير من العرب واليهود والزنوج ، ويخضعون لملكها
العربى الذى يحصل على مبالغ ضخمة من رسوم الجمارك . ولتجار
مصر الكارمية بعدن مركز ممتاز ولهم مؤسـسات ومصـارف مالية
وتجارية (٣٣) . على أن ملوك اليمن التابعة لهم عدن كانوا يظهـرون
التعسف مع سفن التجار أحيانا فلم يكتفوا بما يفرضونه من ضرائب
عالية ، بل استعملوا معهم القسوة ، وصار من التقاليد المرعية عنـد
وصول احدى السفن الى عدن أن يصعد اليها عمال الميناء وينزعوا
قلاعها ودفتها ومرسـاتها حتى لا يمكنوها من الابحار قبل أن تدفع
الأموال والضرائب المستحقة . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشـون
تفتيشا دقيقا قبل نزولهم الميناء وكذلك وجدت عجوز تفتش النساء ...
فاذا أتم التاجر انزال بضاعته ودفع ما عليه من ضرائب وباعها وتأهب
للعودة طاف مناد فى طرقات عدن معلنا أن التاجر الفلانى ، يغادر الميناء.

---

(٣٣) سياحى : المصدر السابق ص ١٩١ أ .
ابن أيوب : المصدر السابق ص ٩٣ .
متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ .
Darnes, Op. Cit. pp. 53-54-55 (56-57 & R. 2, 4. p. 56; R. 5. p. 56.
Varthema, Op. Cit. pp. 65-66 & R.I. p. 65-66-67.
Heyd, Op. Cit. II. p. 444.
Depping, Op. Cti. I. p. 47.

فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، واذا لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل (٣٤) .

ومنذ ازدهار طريق البحر الأحمر التجارى فى القرن الخامس عشر ، وخاصة بعد عام ١٤٥٣ ، وسياسة الدولة المماليكية قائمة على تحطيم المركز التجارى لعدن واحلال جدة محله . لذلك حذروا السفن التجارية من الرسو فى عدن وحرموا على تجار مصر والشـــام دخول الميناء . كما خفضوا الرسوم الجمركية فى موانىء جدة وينبع وفرضوا رسوما عالية على السفن التى يثبت أنها تمر بعدن أو ترسو بهـــا ، فالضريبة على السلع الواردة من الشرق لجدة رأســا كانت ١٠٪ ، وضعفها اذا مرت بعدن أولا ، بل انهم كانوا يصادرونها أحيانا ، ولدى عودة الحجاج اليمنيين من مكة يدفعون ضرائب عالية فى بلادهم على ما يحملونه من الحجاز وموانيه الى اليمن وعدن (٣٥) . وكانت تستخدم من عدن أحيانا الطرق البرية عبر بلاد العرب المارة بمكة والمدينة ، ومعظم ذلك كان فى مواسم الحج ، وهى تتصـــل بسيناء وموانىء الشام (٣٦) .

وحتى نهاية العصور الوسطى ظلت مكة مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق والواردة بطريق البر من عدن ومن الشام . ومنفذها الى البحر ميناء جدة . والطريق البرى المار بها مأمون ، تحرسه الدوريات لوقوع معظمه فى نطاق سلطنة المماليك (٣٧) . وتنقل على هذا الطريق السلع الخفيفة ، أما السلع الثقيلة فتأخذ الطريق البحرى الى جـــدة

---

(٣٤) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٥٨ ، ٦٧ ـ ٦٨ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

(٣٥) Lane Poole, Hist. Of Egypt In The Middle Ages, p. 340.

(٣٦) Depping, Op. Cit. I. p. 51.
انظر ملحق الخرايط .

(٣٧) راجع ما كتبه الرحالة فيلكس فابرى فى هذا الموضوع ص ١٠١ ملاحظة (١٥) من هذا الفصل .

فالطور (٣٨) . ويصل اليها علاوة على سلع الهند سلع من أثيوبيا وشرق افريقية وبلاد الزنج كما تصلها سلع أوربا من مصر ودمشق . ويصل مكة فى مواسم وصول سفن الهند الى عدن مالا يقل عن ٨٠،٠٠٠ جمل وتوقت وصولها فى معظم السنوات فى مواسم الحج وتستمر الى دمشق وتعود بسلع الشام والغرب الأوربى الى عدن لتنقل بدورها الى الهند وتستغرق الرحلة حوالى ٥٠ يوما (٣٩) .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت مكة وميناؤها جده نهاية سفن الهند والصين الى البحر الأحمر ، ولعبت هى وجده دورا هاما فى تحول التجارة من عدن ، مما أدى الى ازدهار تجارة المماليك بصورة رائعة (٤٠) . ومن اجراءاتهم فى ذلك فرض رسوم عالية على السفن التى تمر بميناء عدن قبل وصولها الى جدة وخفضها بالنسبة للسفن القاصدة جدة رأسا ونفذوا هذا الحظر والضرائب بكل دقة ، وبمرور الوقت أصبحت جدة المستودع العظيم لمتاجر الهند ، وكان هذا مبعث سرور ورضى السلطات المماليكية . وحاول أمراء اليمن من آل طاهر الرسوليين تعويق مرور السفن الداخلية الى البحر الأحمر ، فاتجه التجار الى موانىء شرق افريقية ومنها الى جدة بعيدا عن طريق عدن ، وصدر قرار من السلطات المماليكية بجعل الرسوم ١٠٪ فقط مهما كانت جنسية السفينة . ومنذ ذلك الوقت وميناء جدة حتى نهاية القرن الخامس عشر المركز الرئيسى للحجاج والتجار الشرقيين (٤١) . أما التجار الأجانب فممنوعون من دخول ميناء جدة سواء أكانوا غربيين

---

(٣٨) Heyd, Op. Cit. II ; p. 446.

(٣٩) Varthema, Op. Cit. p. 44.
Thenaud, Op. Cit. p. 37.

(٤٠) Ziada, Op. Cit. p. 225.

(٤١) Dopp, Op. Cit. pp. 41-42. Fol, 28 & p. 50, p. 52 Fol. 30.
Ziada, Op. Cit. pp. 222, 225.
Heyd, Op. Cit. II ; pp. 445-446.

أم شرقيين الا باذن خاص من السلطان نفسه (٤٢) . وعنـد وصـول السفن الى جدة تفرغ حمولتها لتقدير رسوم الجمارك عليها ثم تنقل على سـفن صغيرة الى ميـناء الطور ومنها برا الى دمشـق أو الى القاهرة (٤٣) . ويصل الميناء كل عام حوالى ١٠٠ مركب منها مراكب بسبعة أشرعة وتؤخذ منها الموجبات والرسـوم وتحمل لصاحب مكة ولا تقل سنويا عن ٢٠٠٠٠٠ دينار وحاكمها أواخر القرن الخـامس عشر شقيق بركات شريف مكة ونائب السلطان بها (٤٤) .

ميـناء ينبع :

ومن الموانىء الأخرى التى أسهمت فى تجارة البحر الأحمر فى هذه الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، ميناء الينبوع (ينبـع) وهو « ميناء كبير كثير العمائر والأسواق وله بنـدر ترد اليه السفن بالغلال كل سنة وتقدر قيمة تجارته كل عام بحوالى ٣٠٠٠٠ دينار ، وله أمير يتبع السلطان » (٤٥) .

---

(٤٢) حصل هارف على تصريح شخصى من السلطان محمد بن قايتباى .

(٤٣) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣١ — ابن أيوب : المصدر السابق ص ٩٣
سياحى : المصدر السابق ورقة ١١٠ ب .
Depping, Op. Cit. I. p. 51.

(٤٤) الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٣ و ١٤ .
ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٣ .
• ليست لدينا احصائيات دقيقة عن نظام الضرائب التى فرضها السلاطين المماليك بعد برسباى حتى نهاية دولتهم عام ١٥١٧ أكثر مما كان معلوما من عهده الا أنه كان لسقوط القسطنطينية ١٤٥٣ أثره فى تشديد المماليك فى تحصيل الضرائب والرسـوم الجمركية على السلع فى موانىء الاستيراد بالبحر الأحمر كما احتكروا أنواعا معينة من السلع واقصوا عنها الكارمية ورفعوا اسعارها واحتج البنادقة نيابة عن التجار الأجانب وهددوا بالامتناع عن الشراء مما أدى الى اضطرار السلطان الى تعديل قيود التجارة وتخفيض اسعار التوابل الشريفة وكذلك تخفيض الضريبة .
Depping, Op. Cit. T. II. p. 50.
Heyd, Op. Cit. T.I. pp. 380, 381 & T. II. p. 444.
Lane poole, A Hist. Of Egypt In The Middle Ages p. 340.
Varthema, Op. Cit. p. 39.
Darnes, Op. Cit. pp. 46, 47.

(٤٥) ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٦ .

وازاء تركز التجارة فى البحر الأحمر بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ فقد خصصت السلطات المماليكية ميناء أيلة لمرور السلع القاصدة الى الشام واقتصر ميناء الطور على سلع القاهرة ، وأيلة على الطرف الشرقى للبحر الأحمر فى مقابلة القلزم، ورغم صغرها ـ كمدينة وميناء ـ فانها خدمت التجارة فترة طويلة، ويسكنها تجار كثيرون وجمركها يتبع السلطان فى مصر . كما يوجد بها قباض المكوس ، وتبعد عن الطور يوما وليلة (٤٦) .

ومن هذه الموانىء التى أسهمت أيضا فى تجارة البحر الأحمرميناء زبيد الذى اختص بتجارة العبور « المناولات أو الترانزيت » فيجتمع فيه التجـار من الحبشـة والحجـاز والعـراق ومصر ، للمتـاجرة والمبـادلة (٤٧) .

أما موانىء مصوع وسواكن فتختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة وتصلها بحرا سفن الحبشة وبرا قوافل النوبة محملة بالرقيق والشمع والعسل وتصل متاجرها لمصر بطريق البحر الأحمر لسهولته (٤٨) . وقد ورد ذكر ميناء سواكن فى فترات الصراع بين مينائى عدن وجدة ، فكانت سوء معاملة آل رسول باليمن سببا فى توجه سـفن التجارة الى جدة لتجد معاملة أخرى سيئة فتوجهت السفن الى ميناء سواكن وجزر « دهلك » ، غير أن المعاملة التى لقيها التجار هنا لم تكن خيرا مما لاقوه فى عدن وجدة ، فتوجهت السفن الى ميناء ينبع (٤٩) .

---

(٤٦) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٩ .
سياهى : المصدر السابق ص ٧٨ .
ابن أيوب : المصدر السابق ص ٨٧
ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٨٧ . وانظر ملحق الخرائط .
(٤٧) ابن اياس : المصدر السابق ورقة ٧٧ .
(٤٨) Depping, Op. Cit. T. II. p. 52.
(٤٩) انظر ملحق الخرايط .

وتمر سفن التجارة الداخلية للبحر الأحمر كذلك بمينائى بربرة وزيلع ، وكلاهما مركز تجمع تجارة الحبشة والنوبة . وفى زيلع تعقد أسواق العبيد والمعادن ، واللؤلؤ وزارها القائد البرتغالى سواريز عام ١٥١٤ ثم استولى البرتغاليون عليها ودمروها عام ١٥١٨ (٥٠) . ويتردد على ميناء بربرة القريب من زيلع فى مواسـم التجارة مالا يقل عن ١٠ ـ ١٥ ألف شخص ، ومعظمهم يتاجرون فى سلع الهنـد والصين والحبشة والنوبة من عاج وقطن وتوابل وأنسجة وشـمع وهى تتبع حاكم الحبشة ودخلها البرتغاليون كذلك عام ١٥١٨ (٥١) .

ويخدم التجارة الداخلية والخارجية فى مصر مجموعة من الطرق الملاحية النهرية والبرية من أسوان الى دمياط ورشيد والاسكندرية ، ومن قوص وقنا وما يقابلهما من موانىء عيذاب والقصير على البحـر الأحمر. فأسوان كانت أهم أبواب مصر الجنوبية بالنسبة لتجارة النوبة وعن طريقها شهدت مصر نشاطا تجاريا كبيرا وخاصة فى عصر المماليك مع بلدان السودان الغربى وافريقية الوسطى وعرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة الى مملكة « كانم » كما عرف بعض طوائفهم باسم التكرور نسبة الى مملكة التكرور (٥٢) وهم يجلبـون الى دولة المماليك التوابل والبهار والبخـور والعبيد مما يتهـافت الأوربيون للحصـول عليه ، وامتد نشاطهم كذلك الى الهند والصين حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من يعمل فى البهار والفلفل ، كما اتخذ عدد كبير منهم مدينة قوص مركزا لنشاطهم التجارى الواسع

---

(٥٠) Varthema, Op. Cit. T. III. pp. 95, 96,
Darnes, Op. Cit. T.I. p. 35.

(٥١) Varthema, Op. Cit. T. III. pp. 95-99.

(٥٢) من المرجح ان تكون تسمية ميناء مصر فى بولاق على النيل باسم بولاق الدكرور نسبة الى تجارالتكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل الى ساحل بولاق . أنظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٠ ملاحظة (٤) .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩١ .

وغدت المدينة سوقا واسعة لتجارة افريقية الوسطى واليمن والحبشة والهند، وكونوا بها نقابة خاصة بهم هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكروها حتى انتزعها منهم المماليك قبيل منتصف القرن الخامس عشر وكان لنقابتهم رئيس ومعترف به من قبل حكومة المماليك أطلق عليه اسم رئيس الكارمية . ولثرائهم كان بعض سلاطين المماليك يقترضون منهم الأموال كلما اضطرتهم الظروف الى ذلك (٥٣).

أما الميناء الثانى (قوص) فاتجهت منه القوافل شرقا فى الصحراء الى ميناء القصير وميناء عيذاب ، وتستغرق الرحلة الى القصير من ١٧ الى ٢٠ يوما وتصلها بحرا سفن التجارة من الحبشة واليمن وبلاد العرب والهند وزنزبار وأسواقها واسعة وتجارها من مصر واليمن والهند والحبشة المغرب وعدن والسودان، وهى على ثلاثة أيام بالقوافل (٥٤).

أما عيذاب على البحر الأحمر فظلت فترة طويلة من العصور الوسطى مركز تجمع الحجاج وتجار الشرق وسلع الحبشة واليمن التى تصلها بحرا ، وبها وال من قبل البجاه وآخر من قبل صاحب مصر ويقتسمان الرسوم الجمركية . وهم يتعاملون بالدرهم ولا يعرفون الوزن . وظلت عيذاب عامرة بما يصدر اليها حتى القرن الرابع عشر حين كثرت بها عصابات قطاع الطرق فقلت قيمتها وشهرتها ، وان ظلت حتى عهد ابن اياس ميناء بحريا عاديا (٥٥) . وتبع انهيار عيذاب انهيار

---

(٥٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٣٢ و ١٣٣ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩١ .
(٥٤) ابن أيوب : المصدر السابق ص ١١١ .
المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .
ابن اياس : نشق الأزهار ــ ورقة ٢٣ .
سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاسطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .
Kammerer, Le Mer Rouge, T. I. pp. 72-80.
Depping, Op. Cit. T.I. p. 71.
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 424-426.
(٥٥) ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٢٦ ــ ٢٧ .
ــ المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ .
ــ ابن الاثير الجزرى : تحفة العجايب (مخطوطة) ورقة ٢٥٧ .

الموانىء المقابلة على النيل وصادف ذلك ازدهار طريق البحر الأحمر منذ القرن الخامس عشر وموانيه فى جدة وينبع وعدن والطور ، « وهجرت عيذاب لتندثر فى القرن العاشر الهجرى ويتلاشى طريقها التجـارى ويتحول عنها التجار والحجاج » (٥٦) .

ومنذ نجاح البرتغاليين فى الوصـول للهند بحرا بطريق رأس الرجاء الصالح وطريق البحر الأحمر التجارى يفقد مركزه تدريجيا ، كما بدأت تنهار الموانىء عليه من مدخله الجنوبى فى عدن الى طرفه الشمالى فى السويس والطور ، وكذلك موانيه فى جـدة وينبـع والساحل الغربى . وقد فهم البرتغاليون أن استقرارهم فى الهند وازدهار تجارتهم لن يتم الا بالقضاء على تجارة العرب ومصر ، وصدرت منذ عام ١٥٠٢ تعليمات للقائد البرتغالى « دى جاما » بسد المدخل الجنوبى للبحر الأحمر عند عدن ـ مما عرض السفن العربية فى هذه المنطقة لهجمات الأسطول البرتغالى بكثرة. وفى عام ١٥٠٦ استولى البرتغاليون على سقطرى فتحكموا بذلك فى طريق البحر الأحمر وشرق افريقية . وبعد وقعتى شول ١٥٠٨ وديو ١٥٠٩ وتحكم البرتغاليين فى هـذا

ـ سياحى : المصدر السابق ورقة ١٩١ أ .
ـ المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٦ .
ـ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٨ .
ـ متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
ـ ابن أيوب : المصدر السابق ص ١٢١ .
ـ ابن اياس : المصدر السابق ورقة ٢٧ (٩٢٣هـ/١٥١٧ م) وضعها فى هذا العام .
ـ على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٥٦ .
ـ أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٦٩ (الملاحظات) طبعة دار الكتب) .
ـ سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

Ency. Of Islam, Art. : Aidab.
Heyd, Op. Cit. T. II. p. 443.
Clerget, Op. Cit. p. 195.
Depping, Op. Cit. p. I. pp. ; 52, 53, 54.

(٥٦) Depp, Op. Cit., p. 52 FOL. 30 & pp. 41, 42. & Fol 28 & p. 50.
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 445, 446-467-480.
Ziada, Op. Cit. pp. 222-225.

الطريق يزداد ، بل ان السفن البرتغالية بدأت فعلا تدخل البحر الأحمر عام ١٥١١ بعد أن قرر البرتغاليون السيطرة الكاملة على كل مراكز البهار وطرقها من ملقا فى الطرف الجنوبى الشرقى لآسيا حتى هرمز على رأس الخليج العربى وعدن عند مدخل البحر الأحمر وجدة على ساحله الشرقى . وكان معنى ذلك سد كل منافذ التجارة على السـفن المماليكية ، وبدأت هذه المراكز فعـلا تفقد أهميتها التجارية ، بل ان البرتغاليين تقدموا فى البحر الأحمر وهاجموا سواكن واستولوا على جزيرة كمران ١٥١٣ م ، فى محاولة منهم للوصول الى جدة والأماكن الاسلامية فى مكة والمدينة (٥٧) . وقد أدى هذا كله الى اضطراب الأحوال السياسية والتجارية بين مصر وجمهوريات ايطاليا ، وصادف ذلك ازدياد تهجم القراصـنة على سـفن التجارة المماليكية فى البحر المتوسط شرقيه وغربيه وبخاصة بعد سقوط آخر معاقل العرب فى اسبانيا عام ١٤٩٢ م ، فقرر الغورى سلطان مصر اذ ذاك اعادة فرض سيطرته على ميـاه الهند وطرق التجارة البحرية اليه ، فأرسـل عام ١٥١٤ م/٩٢٠ هـ أسطولا على رأسه الأمير حسين كردى قائد حملة شول ١٥٠٨ م وديو ١٥٠٩ وضم اليه عسكرا من الترك والمغاربة ، وأقطعه جدة فبنى حولها سورا ضخما وأبحر فى العالم التالى فى طريقه الى الهند . ولما لمس البرتغاليون قوة الأسطول المماليكى انسحبوا من مياه البحر الأحمر وعدن وتبعهم الأمير حسين الى الهند حيث اجتمع بسلطان جوجيرات ، غير أنه لم يستطع ازالة الهزيمة بهم وبعث فى طلب العون من مصر . فقامت حملة من السـويس بقيادة « الريس

---

(٥٧) حاول القائد البرتغالى البوكرك دخول البحر الاحمر عام ١٥١٣ والاستيلاء على مكة والمدينة وجدة كاجراء مقابل لوجود الأماكن المسيحية فى أيدى المسلمين وللقضاء على تجارة البحر الاحمر التى تركزت فى جدة ـ وقد فشل لجهله بالملاحة فى هذا البحر . وحاول كذلك الاتصال بملك الحبشة المسيحى الذى كان يظن أنه « القس يوحنا » الشخصية الخيالية ليحثه على تحويل مجرى نهر النيل من فرعه النيل الأزرق الى البحر الأحمر لتجويع مصر واخضاعها . انظر : شارل ديل : البندقية جمهورية ص ١٤٨/١٤٩ .

سلمان العثمانى » . وعلى الرغم من ذلك لم توفق هذه القوة البحرية الضخمة فى الحصول على نصر حاسم على البرتغاليين الذين كانت قد توطدت أقدامهم فى الهند ، وان كانت الحملة قد نجحت فى الحصول على نصر مؤقت بابعاد خطرهم عن البحر الأحمر وفى العودة استولى على عدن وأشرف على احتلالها سلمان العثمانى ، وتولاها الأمير برسباى الحاكم الجركسى — وأخيرا عاد القائدان الى جدة ومعهما بعض الأسرى من البرتغاليين ، ولكن كان قد تقرر مصير الدولة المماليكية عقب هزيمة مرج دابق ١٥١٦ ثم الريدانية ١٥١٧ — وضاع طريق البحر الأحمر التجارى نهائيا (٥٨) .

وعلى ساحل شرق البحر المتوسط تنتهى الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ومن الخليج الفارسى ومن البحر الأحمر فى الفرع الممتد من أيلة عبر سيناء والشام وكذلك الفرع القادم جنوبا من آسيا الصغرى والفرع القادم من أوربا برا ثم الطريق البحرى الرئيسى من غرب أوربا وايطاليا (٥٩) . وقد اعتاد الأوربيون منذ الحروب الصليبية الحصول على غالبية طلباتهم التجارية من السلع الشرقية من مدن وموانىء الشام وكثر ورودهم فى القرن الخامس عشر وخاصة فى نصفه الثانى بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واضطراب الأسواق

---

(٥٨) ترتب على الصراع بين المصريين والبرتغاليين فى المياه الهندية ضعف الاتصال التجارى بين شواطىء الهند وميناء عدن وموانىء البحر الأحمر على ساحليه الشرقى والغربى. كما أدى بدوره الى تحويل تجارة الفرنج من أسواق مصر والشام الى أسواق لشبونة . وذكر ابن اياس المعاصر لهذه الاحداث ان الازمة اشتدت بمصر وأدى هذا الى خراب بندر الاسكندرية وبندر جدة وبندر دمياط من تعنت الفرنج مع التجار فى بحر الهند . ولم تدخل بضائع ببندر جدة نحوا من ست سنين » ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ حوادث المحرم ٩٢٠ هـ وحوادث شعبان ٩٢٢ هـ ٢٠٧ و ٢٠٨ — ٣٣٢ و ٣٥٩ و ٣٨١ ٣٨٣ — ٤٣٥ر ٤٣٦ — ٤٥٨ و ٤٦١ ثم جـ ٥ ص ١٩٩ دراج : المصدر السابق ص ١٥٦ — ١٥٧ .
انظر ملحق الخرائط .

(٥٩) Heyd, Op. Cit. T. II. ; p. 547.

والطرق التجارية فى منطقة نفوذ السلطنة العثمانية بآسيا الصغرى وشرق أوربا .

واستقر بمدن الشام وموانيها فى دمشق وحلب وبيروت وطرابلس وصور صيدا وبيت المقدس ويافا وعكا ، عدد كبير من تجار البندقية جنوا وفلورنسا وبرشلونة وفرنسا ، وبعض مواطنى شمال أوربا المرافقين للبنادقة والجنويين ، ووكلاء الشركات الأجنبية الأوربية التى لها فروع فى الشرق ، كما كان لهذه الدول والجمهوريات والمدن سفراء وقناصل سياسيين وتجاريين . ولهذه الصلة التجارية الوثيقة بين أوربا والشام ، سادت المنطقة معظم الأنظمة التجارية الموجودة فى الغرب الأوربى ، بالاضافة الى الأنظمة المحلية التى كانت سائدة فى ظل قوانين السلطنة المماليكية الحاكمة . واقبال الأجانب على الشام بهذه الصورة، يرجع الى اتصال الشام اتصالا وثيقا ومباشرا بأسواق الشرق ووسط آسيا ، وكذلك لأن مدنها وموانيها مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين الى بيت المقدس ، ولأن الأوربيين استقروا بها ، مدة طويلة خلال الحروب الصليبية (٦٠) ومواسم الحج الاسلامية والمسيحية من بين المواسم التى كان يتم فيها التبادل التجارى فى الشام بين الغرب والشرق ، بالاضافة الى مواعيد وصول القوافل التجارية من فارس وسلطانية والهند ووسط آسيا الصغرى والبلغار والبحر الأحمر ، لذا فاقت أسواقها أسواق مصر فى تنوع السلع التى ترد اليها (٦١) . وحتى نهاية العصور الوسطى كانت دمشق من أهم مدن ومراكز التجارة بسوريا ، وكانت فى المرتبة الثانية بعد القاهرة وان كانت تعتبر أحيانا الثالثة بعد الاسكندرية ، وخاصة منذ عام ١٤٥٣ ، وهى مركز نائب السلطنة أو كافل السلطنة (٦٢) . كما أنها أيضا مركز

---

(٦٠) Depping, Op. Cit. pp. 81-83.

(٦١) Heyd, Op. Cit. II ; p. 457.

(٦٢) Varthema Op. Cit. p. II. N. 2 & pp. 12-15.

الشام الاقتصادى ومستودع تجارة وسط آسيا الى أوربا ويتردد عليها فى مواسم التجارة حوالى ١٥٫٠٠٠ جمل محملة بالسلع الشرقية لتعود بالسلع الغربية والمحلية ومنها الزجاج والكريستال والأنسجة والعطور والأسلحة والفواكه . وهى أيضا مركز قناصل الدول الأجنبية وبها عدد من الفنادق لسكنى التجار الأجانب شرقيين وغربيين ومخازن لمتاجرهم (٦٣) . وتتصل دمشق بالبحر المتوسط بطريق ميناء بيروت الذى يبعد عنها مسيرة يومين ، ومياه هذا الميناء هادئة لذا تلجأ اليها السفن فى معظم أوقات السنة ؛ ويزورها التجار الأجانب وان كان بعضهم يستقر بها بصفة دائمة من بينهم جاليات من المماليك والشراكسة والبنادقة والجنويين والقطالونيين والأرمن والجورجيين ، ولهم بها فنادق وقياسر ووكالات وكنائس ونواب قناصل . ووكالة البندقية من أظهر هذه الوكالات حتى القرن السادس عشر كما أن لهم بها ولكل التجار الأجانب وكلاء مصرفيين وفروع لمصارفهم وشركاتهم فى أوربا حيث تسود نفس الأنظمة التى تسود الأصول فى بلادهم (٦٤) .

وجمرك بيروت من أغنى جمارك سوريا وأحفلها وتمر به السلع التى تصل الى دمشق من البحر المتوسط أو التى تخرج منها الى أوربا، كما أنه السوق الطبيعية لمنتجات دمشق المحلية (٦٥) . ومنذ سيطرة

---

(٦٣) فندق البندقية من أشهر فنادقها ونزل به هارف أثناء وجوده فى دمشق .
Heyd, Op. Cit. II ; p. 458.
Depping, Op. Cit. I. pp. 99-100.
Verthema, Op. Cit. p. 20.
Harff, Op. Cit. pp. 230 — & R. 2.
Ziada, Op. Cir. pp. 219-220.

دمشق وصفها هارف خلال زيارته ١٤٩٧/١٤٩٨ .

(٦٤) بيروت : وصفها هارف خلال زيارته ١٤٩٨/١٤٩٩ م .
Varthema, Op. Cit. p. 8 & N. II. p. 8.
Ziada, Op. Cit. p. 220.
Depping, Op. Cit. I. pp. 97-99.
Thenaud, Op. Cit. p. 110.
Harff, Op. Cit. pp. 232-233.

(٦٥) كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٦٨ .
Depping, Op. Cit. I. pp. 97-99.

المماليك على قبرص وميناء بيروت مقصد تجار البحر المتوسط عامة ، وازدحم الميناء بالتجار الأجانب بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ (٦٦) . ونظمت الجاليات الأجنبية خطوطا ملاحية الى بيروت وبخاصة البندقية التى صممت سفنها لتتحمل رحلة الجزء الشرقى من البحر المتوسط وتياراته ، فتبدأ الرحلة الأولى فى الفترة من ٨ ــ ٢٥ أغسطس من كل عام ــ أما الرحلة الثانية فتكون فى الفترة من ٥ أبريل ــ ١٥ مايو . وفى شهر يونيو يصل لميناء بيروت سفن معينة لحمل القطن ويصل الى مصر سفن الجمهوريات الايطالية التى تتعامل مع الاسكندرية فى فصل الخريف وتعرج فى فترة تسويق التجار متاجرهم على ميناء بيروت وطرابلس ، وتترك مكانا لسلع مصر بها (٦٧) .

ميناء حلب :

ومن أهم المراكز التجارية فى شمال الشام ميناء حلب التى ظلت حتى نهاية العصور الوسطى على علاقات تجارية مع آسيا وأوربا . وتقع حلب على عشرين فرسخا من الفرات وتتصل بالبحر المتوسط بطريق سهل ، وبالعراق ووسط آسيا وآسيا الصغرى بالقوافل (٦٨) . وتبدو أهمية حلب لدى السلطات المماليكية فى وقوعها عند المدخل الشمالى للدولة المماليكية بين الشام وتركيا ، وفى تجمع تجارة فارس وآسيا وآسيا الصغرى بها ، حتى انه يتوفر بأسواقها مالا يتوفر بأسواق القاهرة ، لذا كانت من أكثر مدن وموانىء الشام مقصدا للتجار

(٦٦) لما بدات بحرية جنوة فى الانهيار منذ النصف الثانى من القرن ١٥ م قلت رحلاتها الى الشام واكتفت بالوصول الى فاماجوستا ، وكانت قد سيطرت عليها وحاولت جعلها مركز تجارة ساحل البحر المتوسط ولكنها فشلت .

Heyd, Op. Cit. II ; p. 461.
Varthema, Op. Cit. p. 8. N. 2.

(٦٧) عرفت سفن بيروت باسم Galee Di Baruti
وسفن دمشق باسم Navii Di Siria

Heyd, Op. Cit. II ; pp. 460-461.

(٦٨) Depping, Op. Cit. I ; p. 101-102.
Varthema, Op. Cit. pp. 9, 10.

الأجانب الذين يصلون اليها من طرابلس مينائها على البحر المتوسط . ويصلها سنويا ما بين ٦٠٠٠و٨٠٠٠ جمل بالطرق البرية محملة بمختلف السلع (٦٩) . ومنذ عام ١٤٥٣ والمدينة تزدهر حتى بلغ عدد جمال القوافل التى تصلها سنويا نحو ١٥ ألف جمل بالطرق البرية بالاضافة الى الجاليات الأوربية ، ولكثرة ما بالمدينة من أجانب أصبح وجودهم أمرا مألوفا ، فهم اما مواطنون عاديون ، واما تجار دائمون ، واما تجار موسميون ، واما وكلاء شركات ومصارف أو نواب دبلوماسيون أو رجال دين ، كما كانت تموج المدينة بتجار الشرق من الكرج والهند وفارس وكلهم يتاجرون بالنقد والمقايضة . والبنادقة هنا من أشهر وأهم الجاليات ، وحصيلة ما يدفعونه لجمارك حلب يفوق كل ما يدفعه الأجانب مجتمعين وزاد تمركزهم بالمدينة بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ (٧٠) . وظلت المدينة على هذه الحال حتى قام الصراع المسلح بين العثمانيين وامبراطورية طرابيزون بآسيا الصغرى ثم بينهم وبين التركمان ، ثم بينهم وبين الصفويين ، فأغلقت مرة أخرى الطرق الشمالية من آسيا الصغرى ووسط آسيا الى المدينة . ولما بدأت المناوشات بين العثمانيين والمماليك اقتصر وصول المتاجر اليها برا من أيلة على البحر الأحمر ثم بالصحراء حتى أفقدها الطريق البحرى الى الهند حول افريقيا الكثير من مكانتها التجارية (٧١) .

---

(٦٩) راجع ما كتب عن تحصيل الضرائب فى موانىء بيروت لصالح حاكم دمشق وفى طرابلس لصالح حاكم حلب فى الفصل الثانى. Depping, Op. Cit. I. p. 103.

(٧٠) زار حلب أواخر العصور الوسطى عديد من الرحالة الأجانب منهم Chiatl & Varthema عام ١٤٨٣ ونوهوا باتساع المدينة وازدحامها بالتجار وامتلاء حوانيتها ووكالاتها بالسلع المحلية من المنسوجات والزجاج والسجاجيد والمجوهرات والأوانى الذهبية والشمع والمسك والتوابل والمصنوعات الحديدية. راجع ـ كرد على المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٧ .
Depping, Op. Cit., I. p. 63.
Hayd, Op. Cit. II ; p. 59.

(٧١) محمد كرد على : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٨ .
كانت هذه الطرق البرية من وسط آسيا قد أغلقت خلال غزوات المغول لغرب آسيا. انظر قبله ملاحظة (٢) . Heyd, Ibid, II ; p. 459-460.

مينـــــاء طرابلس :

ويأتى ميناء طرابلس فى المرتبة الثانية بعد بيروت بالنسبة لتجارة الشام الخارجية والداخلية . وهو مخرج تجارة منطقة حلب ، وحتى نهاية العصور الوسطى وهو صلة التجار الأجانب من آسيا وأوربا ، والوطنيين من حمص وحلب ودمشق وحمــاه وبعلبك ، وعلى طول شـــوارع الميـنــاء تنتظم مخازن وحوانيت التجار التى تمتلىء بالسلع الشامية والسلع المستوردة . وبالميناء نائب للسلطان ، وقناصل للدول الأجنبية ، ووكلاء ومندبو الشركات الأجنبية ، ومصــارف وفروع مؤسسات أوربا التجارية ، وفنادق وقياسر . ويستوعب الميناء عددا كبيرا من السفن المختلفة الأحجام . وازدادت أهمية الميناء فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وبخاصة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ثم بعد ســد الطرق البرية الشمالية ، وأصبح منفذ التجارة الى حلب للبحر المتوسط لتصدير السلع الواردة من البحر الأحمر طريق أيلة، بعكس ما حدث لميناء اللاذقية الذى قلت أهميته وتركز النشاط فى طرابلس (٧٢) .

وعلى طول الساحل الجنوبى للشام الى مصر تنتشر المدن والموانىء العديدة . ولكل ميناء أهمية نوعيه فمنها ما يرد اليه تجار القطن ومنها ما يرد اليه الحجاج من أوربا الى بيت المقدس . ومن أبرز موانىء هذا الجزء من الشام صور وصيدا وعكا ويافا وللجاليات الأجنبية فى صور وصيدا مساكن وفنادق ووكالات تجارية ومخازن وظل ازدهارها متألقا فترة طويلة من النصف الثانى من القرن الخامس عشر واقتصر التعامل فيها على تصدير القطن والحج (٧٣) . وفى عكا أقامت البندقية وكالة

---

(٧٢) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٠٨ .
ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٣ .
Depping, Op. Cit. I. pp. 99-100.
Heyd, Op. Cit. II ; p. 460.

(٧٣) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٣ .
Depping, Op. Cit. I : p. 96.

ونائب قنصل يختص بتشوين القطن وتصله سفن البندقية فى فترة « المدة » وكذلك سفن الفترة المعروفة باسم « فائض المدة » بصورة منتظمة لنقله الى أوربا (٧٤) . وظلت يافا طوال العصور الوسطى المتأخرة وفترة من عصر النهضة ميناء لمدينة القدس وينزل بها الحجاج المسيحيون فى طريقهم لبيت المقدس وللجاليات الأجنبية بهـا أماكن محددة لا يتعدونها ، فللجنويين مثلا حى خاص آل لفرنسا منذ أصبحت السلطة فى جنوة للفرنسيين ، ولم يعد رعاياها يتمتعون بامتيازات الدولة الأكثر رعاية وأصبحوا مجرد حجاج أو زوار يدفعون الرسوم المطلوبة مثل غيرهم على الحج والتجارة وقد اهتمت السلطات المماليكية حتى نهاية دولتهم بزيادة الحجاج المسيحيين للأراضى المقدسة فى فلسطين لأسباب سياسية واقتصادية . وموضع الأهمية هنا هو ماتجبيه الدولة من رسوم جمارك وحج وكذلك انتعاش التعامل التجارى فى هذه الفترة القصيرة فى مدن يافا والرملة وبيت المقدس حيث تباع السلع الشرقية المستوردة، والسلع المصنوعة محليا من الأنسجة والعطور والحلويات ، حتى ان أماكن التجار تظل تفوح منها رائحة العطور والبخور فترة طويلة . ولهذه الأسباب حذرت البندقية السلطان الغورى عن طريق سفيرها تالدى عام ١٥٠٤ من منع الحج للأراضى المسيحية فى فلسطين كتهديد منه للبابوية وملوك أوربا اذا لم يوقف البرتغاليون تعرضهم لتجارة السلطان الشرقية فى الهند ، ومما قاله السفير للسلطان : « ان هذا سيحرم بلادك من رسوم ضخمة ، ويفقدك عطف الدول الأوربية المسيحية ، بل سيثيرها عليك ، ولن يمنع البرتغاليين من هدفهم » (٧٥) ولميناء يافا علاوة على ذلك سمعة طيبة تجارية ،

---

(٧٤) Heyd, Ibid, II. p. 465.
Depping, Op. Cit. I. p. 96. II. p. 310.

(٧٥) ساد ميناء يافا نفس الأنظمة التى اتبعت فى كل موانىء ومدن السلطان المماليكي باستثناء واحد وهو قصر مدة بقاء سفن الحجاج المسيحيين يوما واحدا انتظارا لعودة الحجاج من بيت المقدس ، وهذا ينطبق على حجاج بيت المقدس فقط ولا ينطبق على الحجاج =

فتتجمع به تجارة الداخل من نابلس وغــزة ورام الله والرملة وبيت المقدس (٧٦) . وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأ الميناء يفقد مركزه التجاري فقط ، وتحولت عنه التجارة الى بيروت والاسكندرية بقصد التركيز ، وذلك على عهد السلطان الغوري بعد سيطرة البرتغاليين على مياه الهند وتجارتها (٧٧) . ولدى الفتح العثماني للشــام ١٥١٦ كانت يافا مجرد قرية مهملة (٧٨) .

= المتوجهين بعد ذلك الى سيناء لزيارة دير سانت كاترين فهؤلاء يعودون عن طريق مصر . وللزيارة ترتيبات معينة فلدى وصول السفن المقلة للحجاج الى الميناء تطلب أولا اذنا من السلطان بدخول الميناء والا اطلقت عليها المدفعية ، ويرسل قائد السفينة لحاكم الميناء يطلب الاذن للوصول الى بيت المقدس ولابد أن يؤيد هذا الطلب رئيس دير جبل صهيون ومتى وصلت الموافقة يصحبهم نائب الحاكم مع بعض الأدلة وفرسان المماليك الى المدينة المقدسة . ويصحب هذا أيضا بعض اجراءات تفتيش على الأمتعة والتحقق من الشخصية وقصر دخولهم للمدينة المقدسة على اقامة الشعائر الدينية ، ويدفع كل حاج دوكين نظير الاقامة والضــيافة وفي بيت المقدس ٧½ دوكات ويسجل اســمه ثم ١٢½ دوكا ضريبة رأس ويسمح لهم بالمتاجرة فيما يحملونه أو يشترونه من سلع العرب ويقيمون في بيت المقدس يوما وليلة يؤدون فيها الشعائر الدينية ويزورون الأماكن المقدسة ويعودون ثاني يوم الى يافا أو الى دير سانت كاترين ، وهؤلاء يرحلون ثالث يوم من بيت المقدس .

انظر الفصل الثاني ثم الملحق رقم (٧) عن بعثة تالدى للغوري والمعاهدة .

Fabri, Op. Cit. Vol. VII. Part, II. pp. 213-226.
Ziada, Op. Cit. pp. 293-296.

(٧٦) تذكر مراجع العصور الوسطى المتأخرة طريقا آخر من يافا الى بيت المقدس مارا بمدينة الرملة وتمر بمدينة الرملة تجارة البندقية مرتين في العام وتحمل سفنهـــا المتاجر والحجاج ، في حين أن سفن الحجاج الخاصة لا تحمل معها متاجر . ولكن البندقية في النصف الثاني من القرن ١٥ م خالفت هذه القاعدة وحملت المتاجر على سفن الحجاج لدى عودتهم من بيت المقدس ومن بين هذه السلع المتاجر الشرقية والمحلية والمنسوجات والزجاج . وللبنادقة في الرملة قنصل وهم لا يطرقون يافا الا في حالات نقل الحجاج المسيحيين القادمين من الرملة وبيت المقدس ثم في الحاجة الى خيوط الغزل القطنية التي تشتهر بها هذه المنطقة بالرغم من مغالاة الأهالي في أسعارها تتشدد السلطات في الجمارك والأصل في وجود القناصل هنا هو تسهيل أمور الحج للمسيحيين الى بيت المقدس وأضيفت اليهم بعد ذلك رعاية تجارة مواطنيهم . ويدفع الحاج رسوما للحج ورسوما للجمرك عن تجارته اذا كان يحمل متاجرا ورسوما للقنصل ويؤجر دليلا للطريق .

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 466, 467.
Fabri, Op. Cit., Vol. I. Part. II. pp. 266-269.

(٧٧) ركز السلطان الغوري تجارة الشرق في الاسكندرية وبيروت بعد أن قلت وارداته من التجارة الشرقية منذ وصول البرتغاليين الى الهند . راجع الفصل الثاني .

(٧٨) Depping, Op. Cit. T.I. pp. 88, 89.

أما الطريق البرى من دمشق للقاهرة فيسير بحذاء الساحل حتى غزة ، وبها تجارة على جانب كبير من الرواج ومعظم تجارها هنا من الوطنيين ولا يتردد الأجانب عليها الا قليلا ، واذا نزلوا فهى عندهم استراحة فى طريقهم لمصر وقد أصاب مدن الشام بصفة عامة ضرر بالغ بعد أن شق البرتغاليون طريقهم البحرى للهند فتحولت عنها تجارة الشرق من الصين والهند بحرا ، كما بطل عمل القــوافل البرية التى كانت تروح وتغدوا بين الشرقين الأدنى والأقصى وقل بها عدد الأجانب من التجار المستقرين والمارين وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق وأصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك (٧٩) .

الطــريق الثــالث :

أما الطريق الثالث الرئيسى : فهو طريق برى من وسط آسيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها الى نهر الأتيل ويتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ، ثم يسيران معا حتى بخارى حيث يتفرع فرعان الأول: الى بحر قزوين فنهر الفلجا وبلاد البلغار . والثانى: يتجه الى البحر الأسود وموانيه، ثم القسطنطينية وأوربا وتخرج منه فروع جانبية الى حلب وساحل البحر المتوسط ، وآخر الى بغداد وديار بكر، والثالث : غير مطروق ويعبر أرمينا وآسيا الصغرى برا الى القســطنطينية . وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر تعددت مرات اغلاق هذا الطريق ووقفت حركة التجارة فى مدنه وموانيه بسبب اشتداد الصراع بين العثمــانيين والتركمان والجيوب الرومانية على البحــر الأسود ، ثم الصفويين والماليك . كما تأثرت فروعه بهذه العمليات الحربية التى اشتدت بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٨٠) .

---

(٧٩) كرد على المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٨ .

(٨٠) انظر ملحق الخرائط وراجع كذلك

Clive, A Hist. Of Commerce, pp. 85, 86.
Eleen Power, Travel & Travellers, pp. 136, 137.

وبالرغم من سيطرة القوات التركية على هذا الطريق قبل سقوط القسطنطينية فان التجارة لم تتوقف فيه ، بل وصلت قوافل الصين والهند حاملة معها التوابل والأنسجة والأحجار الكريمة من الهند والصين ، كما وصلت عليه الأنسجة المطرزة والسجاد من فارس وشيراز وأصفهان وكردستان ومابين النهرين، والجلود والفراء والحنطة وسمك الكافيار والعبيد من بلاد البلغار عن طريق نهر الفلجا لتتقابل مع السلع الواردة من الشرق الأقصى وتوجد طريقها الى آسيا الصغرى ثم الى البحر المتوسط أو القسطنطينية وأوربا . والقادة فى هذه التجارة هم البنادقة والجنويون ثم الفلورنسيون وآخر نقط وصولهم شرقا هى مصب نهر الفلجا عند تقابل طرق الشرق والوسط والشمال ويتولون هم بعد ذلك نقلها للقسطنطينية أو موانىء الشام (٨١) .

واذا كنا بصدد الحديث عن التجارة عبر هذا الطريق من آسيا الى آسيا الصغرى فان موقف الأتراك العثمانيين هنا هو حجر الزاوية فيما آل اليه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر . فهذه الطرق لم تعد منذ ذلك الوقت تصلح للاستخدام بعد أن ظلت فترة طويلة مسرحا لحروب مدمرة بين الأتراك العثمانيين والغرب المسيحى ، ولم يعد بامكان السفن التجارية دخول المضايق والبحر الأسود بنفس الحرية التى كانت لها أيام البيزنطيين ، وواجهت التجارة صعوبات جمة من تفتيش دقيق وقيود شديدة ورسوم عالية ونهب أحيانا . وتدخلت السياسة في تنظيم الاقتصاد ، فصادر العثمانيون السفن الحربية عدة مرات لصالح الحرب ولما تعددت الاعتداءات، وكثرت الشكاوى، ضبج التجار وجأروا بالشكوى لحكوماتهم ووجدت هذه الحكومة أن خير ما تنصح به تجارها ورعاياها هو التوجه الى الساحل الشرقى والجنوبى

(٨١) Pernaud, Op. Cit. T. II. pp. 65, 56.
Gayet, Op. Cit. T. II. p. 315.

للبحر المتوسط فى مصر والشام . لذا شهد النصف الثانى من القــرن الخامس عشر حــركة تجارية جديدة ، فبعد أن كانت السفن يتجه معظمها الى الشــمال والشــمال الشرقى حولت وجهتها الى الشرق والجنوب الشرقى للبحر المتوسط (٨٢) . وبعــد فتح القســطنطينية وصلت التجارة لبلاد السلطان العثمانى بطريق الشرق وبطريق الغرب برا وبحرا . وفى عودة التجار الأوربيين كانوا يحملون معهم الســلع الشرقية . ولما كان البيزنطيون من قبلهم هم ســادة المنطقة انحصرت سياستهم الاقتصادية فى أنهم اذا أمكنهم السيطرة بأنفسهم على التجارة واحتــكارها فانهم يقــومون بذلك وعلى نطــاق واسع والا تركوها للتجار الغربيين مع منحهم جميع التسهيلات لمباشرة نشاطهم التجارى ـ أما الأتراك العثمانيون كما يقول « هايد » : « فكانوا يتصرفون على غير ذلك ، فعلاوة على أن روح المتاجرة لم تجر فى عروقهم ولم تشغل أفكارهم ، فان الرغبة الجامحة فى الفتح والحرب سيطرت على كل جهودهم وبخاصة الجمهوريات الايطالية التجارية لثرائها وقوتها البحرية لمساعدتهم للبيزنطيين خلال الصراع على القسطنطينية ، فلم يلق العثمانيون بالا لما يجره عملهم هذا على التجارة وطرقها ، بل كانوا فى عنفهم يدمرون الأسواق ويخضعون لســيطرتهم مراكز الجاليات التجارية ومن بها من تجار وتجارة ، وفر الكثيرون الى وطنهم مكتفين من الغنيمة بالاياب » ، والواقع أن مؤرخى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ومنهم « هايد » يتهمون السلطات العثمانية بالتأخر وفقدان روح الحضارة ويلقون مسئولية غلق هذا الطريق فترات طويلة على عاتق العثمانيين . والحقيقة أن العثمانيين فى فترة تكون دولتهم نحوا التجارة جانبا ، لا اهمالا منهم ، ولا لأنهم رعاة آسيويين ، ولكن لأن تأمين امبراطوريتهم أهم فى هذه الظروف من المتاجرة ، وأهم من فتح

---

(٨٢) Heyd, Op. Cit. p. 427.

أبواب بلادهم للأجانب وهم على عداء معهم وبخاصة أن الجيـوش العثمانية تعبت كثيرا فى شرق أوربا ووسطها ، كما أن هذه السلطات كانت تعلم ان قواد الجمهوريات الايطالية ــ التى اشتركت فى الحرب ضدها ــ قائم على التجارة وانها مصدر خطر حربى على الامبراطورية الجديدة (٨٣) . وليس أدل على ذلك من أن التجارة ظلت مستمرة فى آسـيا الصـغرى فى الأماكن التى غزاها العثمـانيون قبل سـقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، كما أنه بمجرد انهيـار الامبراطورية البيزنطية واستقرار الأمور للعثمانيين فى القسـطنطينية وفى البلقان استؤنفت حركة التجارة بين الشرق والغرب على هذا الطريق ، وتقدم البنادقة والجنويون والفلورنسيون وغيرهم من تجار راجوزا وسيين والألمان بطلبات استئناف التجارة فى ظل السيد الجديد ، وعقـدوا اتفاقيات تجارية أكدت سابق امتيازاتهم ، وان كانت الضرائب قد زادت أحيانا ودفعوا تأمينات لهم فى الجمارك (٨٤) . الا أن العثمانيين تشـددوا فى الجمارك وتفتيش السفن وبخاصة فى فترة الحروب : كما حدث فى الصراع الحربى بينهم وبين البابوية على عهـد البابا كالكتس ١٤٥٧ وجرت اليها البندقية فى صراع اسـتمر حتى عام ١٤٧٩ أغلقت فيه المضايق فى وجه سفنها وجرى تفتيش دقيق للسفن المحتجزة فى البحر الأسود كما أغلق الطريق البرى من وسط آسيا ، وهذا اجراء تطلبته

---

(٨٣) الملاحظ ان بعض المؤرخين مثل هايد يتحامل كثيرا على العثمانيين علما بانه أشاد بموقفهم عند الكلام على تجارة القرن ١٥ م مع قطالونيا وفلورنسـا والبندقية . انظر ملاحظة ٨٧ بعده

Heyd, Op. Cit. II. p. 349.

(٨٤) حصل الجنويون على معاهدة تجارية مع العثمانيين بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ وكانوا قد سلموا حصونهم فى جلاثيا للسلطان محمد الثانى العثمانى . فمنحهم الامان وحق المتاجرة ، اما البنادقة فقد عقدوا اتفاقية مع العثمانيين لتنظيم شئون رعايا وتجارة الدولتين وتحديد الرسوم الجمركية . ملخص معاهدة البندقية والسلطان محمد الثانى العثمانى بالملحق رقم (١٧) .

Cambridge Modern Hist. Vol. I. p. 278.
Heyd, Op. Cit. II ; p. 214-215. & pp. 316-317.
Depping, Op. Cit. II ; pp. 214-215-227-228 & N. p. 341.

الضرورة الحربية كما أنه من حقوق السيادة للعثمانيين (٨٥) . الا أن هذا العداء مع البندقية لم يشمل باقي الجمهوريات والمدن الجمهورية، الايطالية فتمتعت فلورنسا بامتيازات رائعة فى الموانىء والجمارك العثمانية ؛ بل ان السلطان العثمانى استخدم بعض الفلورنسيين فى قصوره كمستشارين وتبادل الطرفان العديد من المعاهدات (٨٦) . كما زادت بعثات عثمانية مدينة فلورنسا وتبادلت مع حاكمها الهدايا (٨٧) .

ومن المحطات العثمانية التى خدمت التجارة على هذا الطريق مدينة أدرنة التى زخرت بالتجار البنادقة والجنويين والفلورنسيين وعرب الشام والعراق .

وامتد النشاط كذلك الى بروسة حيث تعقد بها أسواق بيع التوابل والسلع الشرقية عامة ومعظم روادها من تجار الشام والعراق الذين يتجهون بعد التسويق الى حلب وبغداد ، بل ان أهالى ضاحية بيرا بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ وحصولهم على الأمان لهم ولتجارتهم اتجهوا الى بروسة وأدرنة للحصول على حاجتهم من السلع

---

(٨٥) شارل ديل : البندقية جمهورية ص ١٣٨ .
Depping, Op. Cit., T. II. pp. 228 & N. p. 341.
Heyd, Op. Cit. T. II. p. 318.
Hammer, Op. Cit. T. III. p. 240.

(٨٦) عقدت فلورنسا مع العثمانيين معاهدات تجارية عديدة منها معاهدات عام ١٤٦١ – ١٤٦٣ – ١٤٦٩ – ١٤٧٠ – ١٤٨٣ – ١٤٩٨ – ١٤٩٩ – ١٥٠٧ .
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 339, 340-343-343-346.

(٨٧) يمكن أن يقال بوجه عام ان عدم اهتمام العثمانيين احيانا بالتجارة كان مبعثه أمورا سياسية واقتصادية ، فكانت البندقية وقوتها العسكرية هى المقصودة من اجراءات غلق الطرق والموانىء والمضايق ومصادرة الأموال والمتاجر . فانه بعد أن استقر الأمر للعثمانيين فى القسطنطينية وشرق أوربا بحثوا فى فرض السيطرة على مواصلات وتجارة البندقية فى بلاد السلطان العثمانى لأن رواج تجارتها يزيد من ثرائها وتهديدها المستمر للفتوحات العثمانية ووجد العثمانيون أن السبيل الوحيد لمنع التهديد ، وللثراء التجارى هو القضاء على تجارة البندقية ومواصلاتها البرية والبحرية ثم تشجيع باقى المدن الايطالية مثل الفلورنسيين للعمل على نطاق واسع . ومعنى هذا ان الطرق لم تغلق نهائيا انما أغلقت فى وجه جاليات بعينها لدواعى الأمن . انظر ملاحظة (٨٣) وكذلك :
Heyd, Op. Cit. T. II. p. 349.

الشرقية . ومعظم المتاجر الشرقية فى مدن ومراكز آسيا الصغرى كانت فى يد العرب المستوطنين والتركمان وبعض الأجانب المغامرين من بنادقة وجنويين وفلورنسيين ولهم وكالات ومخازن . ومن أكثر مراكزهم ازدحاما طوروس ، وبها سوقان : أحدهما : للحرير والمنسوجات القطنية والأحجار الكريمة ، والآخر: للقطن الخام والصابون والتوابل والسلع التى يكثر الطلب عليها فى أسواق الشرق والغرب ، كالسجاد والصوف والجلود المدبوغة والشمع وبذور الصباغة ، وبخاصة صبغة المن والقمح (٨٨) . وفى فترات الصراع الحربى ـ اقتصر التعامل التجارى على الفلورنسيين والعرب (٨٩) . وعلى شواطىء البحر الأسود مرت سلع هذا الطريق التجارى من الشرق الأقصى وسيطر على تجارته فى هذا الجزء الايطاليون بصفة عامة برا وبحرا ، وتعاملوا مع قبائل القوقاز ووسط وشمال آسيا وارتكزت تجارتهم على قواعد ثابتة من التعامل النقدى والمؤجل والمقايضة ، ومن أهم مراكزهم على البحر الأسود كافا ، وتتصل بالطريق البرى من بكين بالصين ، واتخذها الجنويون عاصمة لهم ولتجارتهم وتردد عليها التجار البلغار والرذانيون والبولنديون والأتراك والأرمن والبنادقة والفلورنسيون أحيانا بعدعام ١٤٦١ (٩٠) . وكان الجنويون يعتبرون البحر الاسود بحيرة جنوية حتى سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ وسيطر العثمانيون على هذا الطريق فى جزئه الأوسط بآسيا الصغرى حتى شرق أوربا مما جعل المراكز التجارية فى الأناضول وعلى البحر الأسود شبه معزولة ، وان كان التجار الأجانب فيها قد نالوا حق استخدام هذا الطريق فى

---

(٨٨) Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 353.

(٨٩) Heyd, Ibid, T. II. pp. 250, 351.

(٩٠) Poston, Camb. Med. Hist., II ; pp. 353-354.
Depping, Op. Cit., T. II. pp. 224-227.
Gayet, Op. Cit. T. II p. 314.
Pernaud, Op. Cit. pp. 69-70.

أملاك الدولة العثمانية ضمن المعاهدات والاتفاقيات التى عقدوها مع السلاطين المتعاقبين ، الا انهم شعروا بقرب انتهاء وجودهم ، وبخاصة عندما عاد السلطان محمد الثانى العثمانى الى الشرق منذ عام ١٤٦٠ لاخضاع ما بقى من جيوب تركمانية ومغولية وأوربية فى شرق آسيا الصغرى . وكذلك نهاية للفترة الزاهية التى عاشها تجارهم قرونا عديدة . وسلم الجنويون أموالهم لبنك سان جورج ورحلوا الى مراكزهم فى مصر والشام (٩١) .

وبعد أن اكتسح السلطان محمد الثانى العثمانى الامارات التركمانية استولى على المراكز الاغريقية الباقية فى بونتس وهراقليا وسينوب وسمسون التى انقسمت الى قسمين : التركى وهو سمسون، والجنوى سميسو ولجنوة فى الجزء التركى قناصل وتجار (٩٢). أما مدينة طرابيزون فتتصل بطرق برية بفارس وأرمينيا ، وبها أسواق عالمية وتمد أوربا بالسلع الشرقية ، وللجاليات الأجنبية فيها وكالات وفنادق . وتتصل بحرا وبرا بباقى موانىء البحر الأسود وبالقسطنطينية كما تتصل عن طريق ديار بكر ببغداد بالخليج الفارسى . ولدى وصول السلطان محمد الثانى للمنطقة حاول ممثلو طرابيزون فى أوربا اثارة حروب أوربية ضد السلطان العثمانى ، وأقاموا حلفا عسكريا من امراء المسلمين الحاقدين على الأتراك وأمراء جورجيا المسيحيين والبابوية ، ولكن فشل الحلفاء وسقطت المدينة عام ١٤٦١ (٩٣) .

---

(٩١) انظر ملق الخرائط وراجع
Gayet, Op. Cit. T. II. p. 314.
Poston, Op. Cit. T. II. p. 354.
Depping, Op. Cit. T. II. p. 221.

(٩٢) Depping, Ibid; p. 222.
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 359, 360, 361.
Hammer, Op. Cit. T. III. pp. 70, 71.

(٩٤) انظر ملحق الخرائط وراجع :
Depping, Op. Cit. T. II. pp. 128, 129.
Camb. Mod. Hist. Vol. I. p. 78.

وخلال الفترة التالية لسقوط امبراطورية طرابيزون ماجت المنطقة بالصراع السياسى والحربى الذى امتد من حدود فارس الى حدود سلطنه المماليك بأطراف الشام والعراق وديار بكر ، وشمل عصر سلاطين آل عثمان محمد الثانى وبايزيد الثانى وسليم الأول . ومن سلاطين مصر المماليك شمل عصر السلطان قايتباى والسلطان الغورى ومن فارس فترة طويلة من عصر الشاه اسماعيل الصفوى . وكان لامتداد القتال فى هذه المنطقة أثره البالغ فى طريق التجارة الأوسط البرى والبحرى وفروعه بين الشرق والغرب ، وليس أدل على ذلك أن الترك كثيرا ما كانوا يرسلون سفنهم الى الاسكندرية ودمياط وبيروت للحصول على حاجتهم من السلع الشرقية ، بل منح تجارهم فى الاسكندرية فندقا ومركزا دائما (٩٤) . وكان هذا الفندق من قبل لجالية بيزا ورفض قاضى الاسكندرية منحه للفلورنسيين بعد انضمام بيزا اليهم ـ وقد آل الفندق للمسلمين .

الطريق الرابع :

أما الطريق الرابع فهو من الصين بحرا الى الهند ، وعندها يتحد مع الطريق الأول الى الخليج الفارسى، والطريق الثانى الى البحر الأحمر ويخدم التجارة على هذا الطريق عدة موانىء بالصين والهند ، أبرزها خانفو (كانتون) وزيتون وكينساى بالصين . أما بالهند فعلى ساحل الملابار مدن جوجيرات وكمباى وديو وقاليقوط وجوا وكولون وشول وكانانور وسورات ثم محطات قليلة على ساحل كروماندل الشرقى فجزيرة سيلان. وقد سيطر على هذا الطريق من طرفيه دولتان تجاريتان عظيمتان ، ففى طرفه الشمالى الصين ، وبها أسرة منج الوطنية التى

(٩٤) شارل ديل : البندقية جمهورية ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 374-350 & 735, 736.

حكمت من عام ١٣٦٨ /١٦٤٣ . وفى طرفه الغربى دولة سلاطين المماليك بمصر والشام من ١٢٥٠ / ١٥١٧ م وأشرف الصينيون على الطريق من عاصمتهم تانكنج ، وقد ظهرت أهمية هذا الطريق منذ أن هددت الحروب العديدة الطريق البرى من شرق ووسط آسيا والهند الى آسيا الصغرى. وكان أقصى نقطة وصلت اليها السفن الصينية هى جدة فى البحر الأحمر وقد نشطت العلاقات التجارية من الرحلات المباشرة بين شرق وغرب آسيا والتى يقوم بها الطرفان ووصلت بعثات الصين التجارية الى الساحل الجنوبى لبلاد العرب والساحل الشرقى لافريقية حتى مقديشو، كما أن سفنهم مرت فى هذا الطريق بالخليج الفارسى ومدنه وموانيه ، وان كانت معظم الرحلات توجه أساسا الى البحر الأحمر ومصر والشام (٩٥) .

أما التجار العرب فقد ازدادت رحلاتهم للمياه الصينية بعد غلق الطريق البرى الأوسط منذ أن ملأت الفتوحات العثمانية النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى آسيا الصغرى ، وازداد بالتدريج عدد التجار العرب وسيطروا على تجارة جنوب شرق آسيا ، واتخذوا من خانفو قاعدة لعملياتهم التجارية وأنشأوا مواصلات منتظمة بين مراكزهم على الخليج الفارسى ومراكزهم الجديدة جنوب شرقى آسيا. وانتقل هذا النشاط بعد ذلك الى البحر الأحمر الذى اتصلوا منه مباشرة بموانىء الصين ، وتركزت التجارة الى حد كبير فى يد بعض الأسر ، وخانفو من أهم مراكز التجارة فى الصين ، وتزخر أسواقها بالحرير والمسك والعود والسروج والسمور والدارصينى والأبنوس وخشب الصندل والكافور والخيزران ومختلف أنواع الأفاوية ، وذكرها معظم مؤرخى العرب كمرفأ للسفن « ومجتمع تجارات العرب ولهم بها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين

---

(٩٥) انظر ملحق الخرائط وكذلك :
Hyzayyin, Arabia & The Far East, pp. 180, 181.

المسلمين القاصدين تلك الناحية ، وفى العيد يصلى بالمسلمين ويخطب ويدعو للسلطان » (٩٦) . وبالاضافة الى العرب فيها جالية يهـــودية ونصارى ومجوس . « ولدى وصول سفن البلاد العربية تدخل الميناء ، وتنقل السلع الى الجمرك وتبقى فيه مدة حيث يصير تقدير ثمنها وتحصل الحكومة على ثلاثة أعشار الثمن جمارك وضرائب، ويستطيع الامبراطور أن يشترى ما يشاء بأثمان غالية بلا ظلم لأحد (٩٧) . ومن أســباب احتجاز السلع حتى نهاية الموسم اتاحة الفرص للأهالى للشراء بأسعار منخفضة ، وذلك باغراق السوق بالسلع . ومن النظم كذلك قيــود التفتيش فيلزم مفتش التجارة البحرية الصينى التجــار بتســـجيل أسمائهم وشحناتهم فى مكتبه لامكان حصر قيمة الضرائب ورســوم الشحن على سلعهم ، كما يحرم عليهم تصدير السلع النادرة أحيانا (٩٨).

أما ميناء زيتون (٩٩) فهو من مداخل الامبراطورية البحـــرية ومستقبل السفن الضخمة وبه مخازن واسعة ، وجميع الأهالى هنــا يعملون اما تجــارا ، واما صناعا كما أن معظم السفن التى تدخل الميناء

---

(٩٦) ابن الوردى : فريدة العجائب ص ٤١ و ٤٢ .

ابو زيد حسن السيرافى : سلسلة التواريخ ص ١١٠ .

الجزرى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة رقم ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .

ابن اياس : نشق الأزهار : (مخطوطة) ورقة رقم ١٢٨ .

سباهى : المصدر السابق ص ١٢٧ ب .

Hyzayyin, Ibid, pp. 157-158.

(٩٧) حورانى : المصدر السابق ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

(٩٨) راجع ملحق الخرايط وكذلك :

Hyzayyin, Op. Cit. pp. 160, 166.
Eleen Power, The Opening Of The Land Route To Cathay, pp. 148 ; Chp. VIII From «Travel & Travellers».
Gayet, Op. Cit. T. II. p. 315.

(٩٩) زيتون هى المدينة الصينية « تشوان ــ تشو » Chù an-Chow
ويقال الها تسوتونج Tsau — Tung من موانىء اقليم فوكن . ولا يرد اسمها الا فى المصادر العربية المتأخرة . انظر :

حورانى : المصدر السابق ص ٢٣١ ملاحظة (٦) .

Hyzayyin, Op. Cit. pp. 178. R. 3, 197. R. 2.

أجنبية وبالأخص عربية . وبها جمرك على جانب كبير من الاتســــاع والثراء ويستوعب الميناء حوالى ١٠٠ سفينة فى المرة الواحدة من السفن الكبيرة وضعفها من السفن الصغيرة ، ولزيتون اتصالات وثيقة بمــدن وموانىء غرب آسيا فى مصر والشام وترسو فى مينائها سفن الصــين بشكلها المعروف محملة بالتوابل وعود الند والصــــبار والأبنوس وخشب الصندل من الهند الصينية والمسك من التبت والحرير الخـام من الصين نفسها . وفى طريقها للبحر الأحمر تمر بالهند لتحمل اللآلىء والجواهر والأحجار الكريمة والفلفل والحرير والأفاوية (١٠٠) .

ومن هذه الموانىء أيضا ميناء « هانج تشو » الذى يعرفه العرب باسم كنيساى أو كنيسا . ويقع شمالى زيتون وهو من أعظم فرض الصين واليه ينتهى وصول تجار الغرب من العرب وغيرهم . ومع أنها ليست كبيرة الا أنها اكتسبت شهرتها كمركز تسويق ومدخل لنهر يانج تسى ، وبهــا مراكز ووكالات تجارية للمسلمين مثــــل كانتون وزيتـــون (١٠١) .

على أن هذا الطريق لم يكن معظمه آمنا ، فليست صــعوبة المواصلات فى بعض أجزائه هى العقبة الوحيدة انما انتشرت القرصنة فى بعض أجزائه عند البحرين وقطر والســاحل الايرانى فى الخليج الفارسى . وكان القراصنة يأوون فى الشعاب المختلفة بالبحر ، بل انتشروا كذلك فى مياه الهند والسند وهم المعروفون باسم « الميد

---

(١٠٠) سياهى : المصدر السابق ص ١٣١ أ .
Eleen Power, Op. Cit. p. 136.

(١٠١) أصل هذه المدينة هو King Sec اى المدينة المركزية وعرفت كذلك باسم Quinsay, Kinsa وتقع على عدة جزر بينها قنوات مائية ولها ١٢ بواية و ١٢ كوبرى — ويسكنها سادة الصين وتجارها يتمتعون بجميع الحقوق المدنية والدينية والسياسية .

Hyzayyin, Op. Cit. p. 108.
Eleen Power, Op. Cit. p. 134.

والكرج » ويسكنون بلاد السند . لذا كان على السفن التى تصل الصين على هذا الطريق البحرى أن تتزود بما تحتاج اليه من ميـــاه ومؤن من ميناءى صحار ومسقط على ساحل عمان ، ثم تمخر المحيط مباشرة الى كولم ملى فى جنوب مالابار لتتفادى بذلك قراصنة الميد والكرج . بل ان هؤلاء القراصنة وصل نفوذهم أحيانا الى جزيرة سقطرى واتخذوها وكرا لهم ليترصدوا السفن القادمة الى شرق افريقية والبحر الأحمر ، لذا حرص الصينيون على أن تحمل سفنهم التجارية جنودا بحريين مدربين على رمى النار اليونانية . (١٠٢) ومن هذه العقبات أيضا اختلاف هبوب الرياح فى المحيط الهندى من فصـــل لآخر ، ولكن الملاحين استطاعوا تذليل هذه الصعوبة بعد أن مارسوا الملاحة فترة طويلة فى هذا المحيط ووقتوا مواعيد رحيلهم وأوبتهم مع دفع الرياح الى جهة مقصدهم . وتبعا لاختلاف هبوب الرياح فى البحار الشرقية فان السفن القاصدة للصين كانت تدخل الخليج الفارسى قبل أن تشتد عواصفه فى شهرى سبتمبر واكتوبر . وتعبر المحيط من مسقط الى ســـاحل الملايار بالهند بدفع الرياح المو ســـمية الشمالية الشرقية وتستغرق هذه الرحلة شهرا مابين شهرى نوفمبر وديسمبر وتبقى حتى تنتهى العواصف الدوارة من خليج البنغال . ومن ساحل الملبار تسير السفن الى جزيرة « سرنديب » سيلان الياقوت ، وأحيانا تعرج على خليج البنغال بعد هدوء عواصفه ثم تسير شرقا مباشرة الى جزر نيكوبار ليتزود رجالها بالماء والميرة ويتبادلون السلع مع السكان وهم ممتطون قواربهم ، ويكون شهر يناير قد انتهى ، وانتهى كذلك هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وتتجه السفن الى ملقا مدفوعة بالرياح الموسمية الجنوبية ، وبحلول شهرى أبريل ومايو تكون قد وصلت الى الملايو ثم تتجه فى شهور الصيف الأولى الى ســـومطرة وجاوة

---

(١٠٢) حورانى : المصدر السابق ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

والهند الصينية ، وتستغرق فى هذه الرحلة حوالى ستة شـهور من الخليج الفارسى لتدخل فى النهـاية ميناء كانتون « خانفو » وبحر الصين عامة . واذا سارت السفن من مسقط الى كانتون مباشرة دون توقف استغرق سفرها حوالى ١٢٠ يوما . وبعد قضاء الصيف فى بحر الصين تحمل السفن السلع الصينية لتعود مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الى مضيق ملقا فيما بين أكتوبر وديسمبر ، وتعبر الخليج فى البنغال فى يناير مستعينة بدفع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية . ثم تختتم رحلتها الى الخليج الفارسى ويكون الصيف قد حل . ورحلتا الذهاب والاياب تستغرقان نحوا من عام ونصف عام (١٠٣) .

وفى الهند على هذا الطريق انتشرت المدن والمراكز التجارية على ساحل ملابار ــ الساحل الغربى للهند ــ وهى تحجز خلفها مساحات واسعة من الأراضى ذات المناخ الموسمى والانتاج الوفير من التوابل ويزرع الأهـالى الحاصلات ، بأنفسـهم وتقـوم الوكالات الأجنبية بتسويقها وتصديرها للخارج ، ومن هذه الوكالات وكالات الجاليات العربية الذين يكونون خمس سكان الموانىء ، ويراسلون التجار فى مصر وأوربا ولهم وكلاء فى الخليج الفارسى وسـواحل بلاد العرب وشرق افريقية وقد ثبتوا أقدامهم فى مدن وموانىء ساحل ملابار منذ أمد طويل ، واشتركوا مع الأهالى فى اللغة والدين والعادات والتقاليد والعمل المشـترك (١٠٤) ، وانقسمت الولايات الهندية الى مجمـوعة من الامارات تنافست بعضها مع بعض فى السياسة والانتاج الاقتصادى وشمل التنافس جميع فئات التجار الوطنيين ، والأجانب ، ولكل اقليم منتجاته الخاصة به التى يزداد الطلب عليها فى الأسواق العالمية تبعا

---

(١٠٣) حورانى : المصدر السابق ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

(١٠٤) انظر ملحق الخرائط ثم راجع :

Depping ; Op. Cit. I. p. 39.
Darnes, Op. Cit. II. p. 75.

لجودتها وندرتها ونقائها . والانتاج هنا يصل الى التجار مباشرة دون وساطة مما جعل أسعاره منخفضة . وميناء قاليقوط من أبرز موانىء هذا الساحل والتجار العرب هم أول من وردوا أسواق قاليقوط ويصلون منها شرقا الى الملايو والصين . واكتسبت المدينة شهرتها العالمية التى امتازت بها من تجارة التوابل والأحجار الكريمة الثمينة ، وتموج بعديد من الجاليات الأجنبية من العرب، والسوريين والمصريين واليمنيين والأحباش والترك والعجم والصينيين (١٠٥) . وبالاضافة الى انتاجها الوفير ، تصلها توابل وبهار الصين وجزر الهند الشرقية وسيلان ويحملها العرب الى الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، وتعقد أسواقها السنوية فى الأعياد ، ويدفع التجار لسلطات الميناء رسوما جمركية تقل أو تزيد بحسب تغير الحكومات ، وبارتفاع رسوم الجمرك ترتفع تبعا لذلك أسعار السلع أربعة أو خمسة أمثال ثمنها أحيانا . وعلى هذا فان الفائدة الضخمة هى التى يجنيها التجار الذين يحملون السلع الى غرب أوربا مباشرة دون وساطة (١٠٦) .

ووصف قاليقوط الرحالة المسلم ماهون فى القرن الخامس عشر وكان ترجمانا لامبراطور الصين فذكر أنها « ... من أهم مراكز العالم التجارية ويرد اليها التجار من جميع أنحاء العالم ... ولدى وصول سفن الصين اليها ، يعتليها مندوبو الملك لكى يلقوا نظرة على البضائع والسلع ويثمنون حمولتها ، ويعين لكل تاجر حارس ، لحمايته ومحاسب لتنظيم حساباته وتقدير رسوم الجمارك وسمسار لتسويق ما يطلبه من سلع أو يبيعها نظرا لمعرفته ببلاده وطباع أهلها ولغتهم . وعلاوة على الحارس الخاص فان جميع ضباط الميناء والبحرية ورجال الجمارك

---

(١٠٥) انظر ملحق الخرايط و كذلك :
Heyd, Op. Cit. II ; pp. 497-499.
Synge, A Book Of Discovery, p. 178.

(١٠٦) هم البرتغاليون بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح .
Gamb. Med. Hist., I. pp. 25-26.

فى حراسة أمتعته وبضائع التجار الأجانب ، ويحصلون لقاء ذلك على ربع قيمة المبيعات والمشتريات ، واذا لم تبع فلا يحصلون أى عوائد .. واذا دفعت الرياح اى سفينة الى الميناء بطريق الخطأ أو القهر وجد ربابنتها فى الميناء الأمن والسلامة بعكس الموانىء الأخرى التى تنهب وتصادر حمولة السفن المحتمية بها لصالح السلطان أو تفتك بركابها (١٠٧) . ومعظم أهالى قاليقوط بحارة مهرة وشجعان ولا يجرؤ أى قرصان مهاجمة سفينة يقودها بحار من قاليقوط هذا برغم انتشار القراصنة فى المنطقة من سقطرى الى ساحل ملابار . (١٠٨) وحوانيت العرب والفرس والصينيين هناك مشهورة ببيع الأحجار الكريمة واللؤلؤ والعطور والتوابل والبخور والحرير الصينى . ويرد للميناء سلع أوربا عن طريق الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، ولهذه السلع حوانيت خاصة تبيع النبيذ الوارد من كريت والأصواف وغيرها . أما العملة المتداولة هنا فهى قطع ذهبية مضروبة فى مصر كما يستعملون أيضا الدوكات البندقى وعملة أخرى من الفضة تزن حوالى ١٦٣٫٢٤ قمحة ، وكثر استعمالها فى أسواق الصين (١٠٩) . والميناء ، صالح لرسو السفن الكبيرة والصغيرة ويستعمل العرب هنا السفن الصغيرة والسفن الكبيرة الضخمة كالصنادل والتى لا تقل حمولة كل منها عن ألف ومائتى بهار (البهار أربعة قناطير) وتربط ألواحها بعضها ببعض بخيوط من القنب والقطن . أما الهنود فيستعملون سفنا تسمى « سامبوك Sam-Buques » ويستعمل الصينيون هنا سفنهم المسماة « يونك Yonques » . وليس

---

(١٠٧) Mockerjii, Indian Shipping (A Hist. Of ....) pp. 196, 197, 198.

(١٠٨) عن قراصنة الميد والكيرج : تركزوا أولا فى خليج Cathiawar, Cutch كما تجولوا فى أرجاء المحيط الهندى ودخلوا الخليج الفارسى والجزء الجنوبى من البحر الأحمر وسواحل سيلان وجزيرة سقطرى من أوكارهم . ولرد عدوانهم حملت السفن التجارية معها بحارة محاربين ممرنين على النار الاغريقية .

حورانى : المصدر السابق ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(١٠٩) Mockerjii, Ibid, pp. 196-197.

Depping Op. Cit. I. pp. 30-31 & ... 40.

بالسفن أسطح علوية ، وظلوا حتى وصول البرتغاليين للهند لايستعملون الحديد فى ربط ألواح السفن بعضها ببعض (١١٠) .

---

(١١٠) Depping, Op. Cit. I. pp. 31-33.
Varthema, Op. Cit. pp. 153, 172-177 & N.I.
Darnes, Op. Cit. II. p. 77.

حتى وصول البرتغاليين للهند ظل العرب والشرقيون عامة يستخدمون فى رحلاتهم البحرية من الصين الى الخليج الفارسي والبحر الأحمر وشرق افريقية سفنا ذات أنماط واحدة فى صناعتها وان اختلفت فى أسمائها ومن أبرز خصائصها ٠

(١) ان الواحها تخاط بالخيوط المصنوعة من القنب ولا تدق فيها المسامير ٠

(٢) طول الصارى وامتداد الشراع على طول السفينة فهيكل السفينة يصنع من الواح خشب الساج وخشب جوز الهند وكلاهما متين لا يتشقق ولا يتغير شكله فى الماء، ومعظم هذه الأخشاب تاتى من الهند ولا تصنع السفن فى المنطقة من شرق البحر الأحمر الى الصين من أشجار النخيل والسرو ، وبخاصة فى الخليج الفارسى ، لأنها لا تصلح للسفن المحيطية ٠

حورانى : المصدر السابق ص ٢٤٦ ــ ٢٤٨ ٠

وتثبت الواح الهيكل بعضها الى بعض أفقيا بخيوط من الليف ثم توضع لها ضلوع لتقاوم أمواج المحيط الصاخبة ٠ والواح الجانبين متلاصقة الاطراف ٠ وتغرز الخيوط خلال ثقوب على أبعاد معينة قرب أطراف الالواح المتجاورة ٠ والخيوط من القنبار ومن ليف النخيل ٠

حورانى : المصدر السابق ٢٥٦ ــ ٢٥٧ ٠

More Land, The Ships Of The Arabian Sea, J.R.A.S. pp. 191-192 & pp. 172-174-179.
Mockerjii, Op. Cit. pp. 196-197.

ثم تسد ثقوبها باجزاء من عيدان النخيل تعرف باسم الدستر أو مسامير الخشب واحيانا من شحم الحيتان الصغيرة الموجودة فى مياه عدن بعد طبخه واحيانا يستخدمون دهن سمك القرش وساد هذا النوع من الدهون سفن فارس والهند والصين وساحل عمان ، ثم تطلى بالقار ٠

حورانى : المصدر السابق ص ٢٥٩ ٠

بزرك بن شهريار : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره ص ٣٣ ــ ٩٤ ــ ١٤١ (نشر سيفر)

Darnes, Op. Cit. II; p. 76.
Varthema, Op. Cit. I. p. 152.

يرجع بقاء هذه السفن على هذا النحو حتى القرن ١٦ م الى غلاء صناعة الحديد الذى يحتاج الى افران صهر وخبرة وغلو نفقاته مما لم يمرس عليه الشرقيون ، كما ان البحارة الشرقيين اعتادوا هذا النوع من السفن ، وهى مرنة تتحمل صدمات الصخور وشعاب البحر الاحمر المرجانية ، وليس كما قيل عن ارتفاع ملوحة المحيط الهندى وتاثيره فى المسامير والروابط الحديدية ٠

More Land; Op. Cit. pp. 188 & 191, 192,

ومن الجاليات الأجنبيــة المســتقرة هنا أيضــا بأسرها : فرس وخراسانيين ولهم كبير يفصل فى أمورهم . وكان لاســتقرار العرب والجاليات الأخرى فى قاليقوط أثره فى الصعوبة التى واجهها البرتغاليون فى محاولتهم السيطرة على التجارة فى المحيط الهندى والهند (١١١).

وفى ولاية جوجيرات تقع أعظم مراكز الهند فى تجارة التوابل ، وهى كمباى ، وديو . ويســكن المنطقة معظم تجار وأعيــان الهند

= حورانى : العرب والملاحة ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ ــ ٢٥٩ ٠

أما دفة السفينة فكانت فى الجنب ، وهى النوع الوحيد الذى عرف فى العصور الوسطى . ولكل سفينة دفتان على جانبيها مادامت تعبر المحيط ٠ أما المرساة فهى حجر غليظ فى وسطه ثقب للحبال وأحيانا من الرخام وتحمل بالسفن المحيطية ستة مراسى ٠

بزرك : المصدر السابق ص ٨٧ ٠

حورانى : المصدر السابق ص ٢٦١ ــ ٢٦٣ ٠

Varthema, Op. Cit. p. 152.

أما صوارى السفن فهى من الخشب (الساج) وأطول من السفينة ، وينسج شراعها من أوراق جوز الهند ، أو سعف النخيل ، أو النسيج القطنى ٠ واختصت السفن العربية بالشرع المثلثة حتى القرن الخامس عشر ، ونقلها عنهم كولمبس ودياز وفاسكودى جاما ٠ وترجع أهميتها الى تسهيل تحويل السفينة تجاه الريح من كل جانب حتى لا يضغط على الشراع ويحطم الصارى ٠ وللسفينة أشرعة احتياطية ٠

حورانى : المصدر السابق ص ٢٦٣ ــ ٢٨٦ ٠

ومن الأجهزة المعينة فى الملاحة عندهم : البوصلة ولها عندهم ٣٢ قسم وصعب عليهم استعمال الاسطرلاب بسبب شدة اهتزاز السفن فى البحر وان كانوا يستعملونه على الساحل وتحدد خطوط العرض نهارا بالشمس وليلا بالنجم القطبى لامكان تحديد مكان السفينة وتسجل فى دفاتر الارشادات البحرية التى أطلق عليها اسم « رهمانى » الذى يضم عدا خطوط العرض والجداول الفلكية معلومات عن الرياح والســواحل والشــعاب وكل ما يحتاج اليه الربابنة فى رحلاتهم ويحمله الملاحون والتجار فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ٠٠ ومن أشهر هذا النوع من الكتب فى نهاية القرن الخامس عشر « رهمانى أحمد ابن ماجد» الذى اعتمد فيه على خبرته الخاصة وخبرة أبيه وجده من قبل من سنين طويلة فى المحيط والبحر الأحمر » وهو « كتاب الفوائد فى أصول علم البحار والزخار » وعلق عليه فراند فى المجلد الأول من :

Ferrand, Instructions Nauatiques et Routiers...

أما الابرة المغناطيسية فكان استخدامها قليلا بسبب صفاء السماء معظم فصول السنة٠

حورانى : المصدر السابق ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ ــ ٢٨٤ ٠

(١١١) Darnes, Op. Cit. II. p. 76.

والعرب، ولهم اتصالات قوية بمصر وفارس والصين، ففى كمباى تنتشر جالية عربية غنية لها وكالات وفنادق وهم وكلاء عن كبار تجار الشام ومصر والعراق . ويدخل ميناء كمباى السفن العربية المحملة بالخيول والقطن والتيل « والمتاع الديبلى » لتعود بالتوابل والأحجار الكريمة والحرير والكشمير والعقيق وزيت السمسم والأخشاب والناردين والمسك واليوراكس والأفيون والصبغات والحبوب (١١٢) ويدفع التجار هنا ١٪ لصالح تعمير المدينة ، كما يتعاملون بنقود ذهبية فضية مسكوكة وعليها من الوجهين كتابات عربية (١١٣) .

أما ديو فهى مخرج تجارة كمباى ، وبها جاليات مصرية وفارسية وعربية ويعمل الأهالى كلهم فى التجارة وفى تجارة التوابل فقط يعمل حوالى ٥٠٠٠ تاجر ، كما يصلها أكثر من ٢٤٠٠ تاجر سنويا . ويرد لها من الصين البورسلين والمسك ، والحرير وخشب الصندل ومن فارس المعادن النفيسة والفضة الخام والمسكوكة واللؤلؤ والبلح ومن مصر والشام متاجر غرب أوربا كالأصواف الايطالية والذهب والفضة والأسلحة والزجاج والكريستال والروائح العطرية ومن بلاد العرب الخيول (١١٥). وحاكمها فى ١٥٠٦ هو الملك العزيز الذى تعاون مع أسطول مصر ضد البرتغاليين ، وبعد هزيمة ديو ١٥٠٩ وهى المعركة التى تأيد بعدها

---

(١١٢) ابن ايوب : المصدر السابق ص ٣٤٩ .
Depping, Op. Cit. I. pp. 35-36-37.
Heyd, Op. Cit. II. pp. 500-501.
Varthema, Op. Cit. pp. 117-118-120.
Darnes, Op. Cit. I. pp. 164-165 & 108-156 & R. 3 p. 119.
Lane Poole, Med. India, p. 5.
Camb. Med. Hist. I. p. 28.

(١١٣) Varthema, Op. Cit., p. 129.
Darnes, Op. Cit. I. p. 154, 156.

(١١٤) انظر ملحق الخرائط وكذلك :
Lane Poole, Med. India, Op. Cit. pp. 170-175.
George Dan Bar, A History Of India, p. 141.
Varthema, Op. Cit. pp. 99, 100 & R. I. p. 100.
Depping Op. Cit. I. p. 36
Darnes, Op. Cit. I. pp. 128-130 & R.I. p. 128-129.

سيطرة البرتغاليين على التجارة الشرقية ونهاية تجارة العرب ومصر فى الهند ، طلب الحاكم الصلح وأجابه اليه البوكرك القائد البرتغـالى الذى لاحظ أهمية ديو فسيطر عليها عام ١٥١٣ (١١٥) .

ومن الموانىء الهامة التى لها صلة بالتجارة مع شرق وغرب آسيا مينـاء جوا فى مملكة الدكن وسكانها من الهنود والعـرب والفرس والصينيين ، وتصلها سفن مكة وجدة وزيلع وعدن وهرمز وكامباى ولا يدخل الميناء أجنبى قبل اجراءات تفتيش دقيقة ، وحاكمها عام ١٥٠٩ هو عادل شاه . ولما علم بهزيمة ديو فتح بلاده لكل الفارين من بطش البرتغاليين ومنحهم حق الالتجاء والحماية والمعونة لاسـتئناف الحرب ضد البرتغاليين ، وقد بنى أسطولا ضخما وحصونا لأسلحتهم وجنودهم : ولما علم البوكرك بذلك هاجم الميناء واستولى على حصونه وأسلحته وأجبر الأهالى على دفع الجزية ، ثم اتخذها قاعدة حكمه فى الهند . ويصل لجوا من هرمز الخيول العربية ويحصل مندوب ملك البرتغال على نسبة معينة من بيع كل حصان وايراده من ذلك سنويا حوالى ٤٠٠٠ دوك ، ويعود تجار هرمز بحمولات من السكر والرز والحرير والفلفل والبهار والزنجبيل والعقاقير وخلافها (١١٦) .

وفى ميناء شول على الساحل الغربى للهند حدثت المعركة البحرية بهذا الاسم عام ١٥٠٨ وفيها انتصر الأسطول المماليكى بقيادة الأمير حسين على أسطول البرتغال بقيادة « الميديا الصغير » وتعاون مع الأسطول المماليكى أسطول ديو الذى يقوده حاكمها . وفترة ازدهارها بالتجارة تمتد من ديسمبر الى مارس فى العام التالى — وللتجار بها

(١١٥) Darnes, Op. Cit. I. p. 132 & R. 2. p. 132 & R. 1 p. 133.
Depping, Op. Cit. 1. p. 36.

(١١٦) Darnes, Op. Cit. 1. pp. 170, 171, 172-175, 176-178, 188. & R. 2. p. 170 & R. 2. p. 176

أماكن محددة . ولهم عملة مسكوكة محليا من النحاس (١١٧) . ومن الموانيء الأخرى على ساحل مالابار التى أسهمت بنصيب كبير فى تجارة الشرق والغرب عدا ذلك كوشين (١١٨) وسورات (١١٩) وكولام (١٢٠) وكانانور (١٢١) ، والميناءان الأخيران رحبا بوصول البرتغاليين للمياه الهندية ومنحوا أسطولهم مرفأ وحصونا وأسواقا (١٢٢) . كما أن كولام تعود شهرتها الى تصدير الأعشاب الطبية والعقاقير، « اذ لا يوجد طب بالهند الا بها ويعمل بها كذلك الأوانى الصينية البيضاء وبها منابت الخيزران والساج الذى يجاوز فى الطول مائة ذراع » (١٢٣) وصلة كولام بمصر وثيقة فميناؤها آخر بلاد الفلفل من الشرق « ويقلع منها الى عدن » والبحر الأحمر . كذلك تشتهر بشجر البقم وهو مثل حب الرمان (١٢٤) . وأهلها يعرفون بالصوليين وتجارتهم مصدر ثرائهم (١٢٥) . ولكوشين صلات تجارية مع الملايو ومصر فتبحر منها السفن التجارية الى جدة محملة بالتوابل وجوز الهند والعقاقير والبخور والسكر والشمع والسنباذج (حجر الجلخ) وفى عودتها تحمل القمح والدقيق والذرة والشعير وزيت السمسم والقماش من حرير وموسيلين

(١١٧) Depping, Op. Cit. I. p. 33.
Lane Poole, Med. India, p. 177.
Darnes, Op. Cit. I. pp. 158-163 & R. I. p. 134 & R. 2. p. 162.

(١١٨) Depping, Op. Cit. I. pp. 38-39.

(١١٩) Darnes, Op. Cit. I. pp. 148-150.

(١٢٠) Darnes, Ibid. II. pp. 95-102 & R. II. p. 95. & R. I. p. 97.
Varthema, Op. Cit. p. 197 & R. I. p. 197.

(١٢١) Varthema, Ibid, pp. 123-141 & R. I. p. 141.
Darnes, Op. Cit. II. pp. 79-83.

(١٢٢) Darnes, Ibid, II. p. 80, R. 3.
Varthema, Op. Cit, p. 141 R. I.

(١٢٣) ابن اياس : نشق الازهار ورقة ١٣٤ .

(١٢٤) ابن ايوب : المصدر السابق ص ٣٦١ .

(١٢٥) ابن بطوطة : تحفة الانظار فى غرائب الامصار جـ ٢ ص ١١٨ .

والأصواف المستوردة من أوربا . كما أنه يسكنها عدد كبير من المسيحيين (١٢٦).

أما ساحل كروماندل ــ ساحل الهند الشرقى ــ فمعظم اتصال مدنه وموانيه بالشرق الأقصى وحركته التجارية مع العرب محدودة ، ويؤمه تجار كمباى والحبشة ومصر وفارس وبلاد العرب للبحث عن أنواع معينة من العقاقير والتوابل والنحاس والعطور ويبادلونها بالسلع الغربية ، كما أن الجالية العربية محدودة ويلحون هنا فى الحصول على العبيد الخصى لقصور الحكام والأمراء والحريم (١٢٧) .

وعلى الطريق البحرى من الهند الى الصين تقع جزيرة سيلان(١٢٨) وهى مقصد تجار الصين والعرب والفرس والهنود والشوام ويسكنها عدد كبير من العرب وكلهم رعايا ملك الجزيرة الذى يمنح التجار والأهالى منهم حرية أكثر لذا يفضلها تجار ساحل مالابار الهنود . وأهم ما تشتهر به سيلان زراعة القرفة التى تنمو على التلال فى شكل شجيرات صغيرة وتقطع هذه الشجيرات لحساب الملك وتوضع فى الشمس لتجف فى أشهر معينة وتجهز لحملها للخارج . ويتاجر الأهالى فيها فى اللؤلؤ والكافور ومختلف أنواع الأدوية والمسك والأحجار الكريمة والياقوت والماس والسنباذخ والأنسجة القطنية والحريرية وقد هاجمها البرتغالى لورنزو دالميديا الصغير عام ١٥٠٦ ثم بنى بها

---

(١٢٦) Depping, Op. Cit. I. pp. 38-39.

(١٢٧) Depping, Op. Cit. I. pj. 41.

(١٢٨) يسميها العرب «سرنديب» كما تسمى هى والجزر حولها باسم Sibal أو بلاد « السيبال » أو « سهيلان » ويطلق عليها أهلها سهالا Sihala Ency. Of Islam, I. p. 839 Art. Ceylon.

« لوبوسواريز » القائد البرتغالي حصنا في العاصمة « كولمبو » عام ١٥١٨ (١٢٩) .

والمار بهذا الطريق البحري من البحر الأحمر أو الخليج الفارسي للهند والصين لابد وأن يمر بمسقط أكبر مراكز عمان وميناؤها التجارى وقد اعتبرها البوكرك من أهم المراكز على الطريق الى الهند فاستولى عليها وحصنها وصارت مركزا حربيا وتجاريا للبرتغاليين (١٣٠) .

وحتى مطلع القرن السادس عشر وطرق التجارة من الشرق للبحر الأحمر تتجه بفرع لها نحو شرق افريقية على المحيط الهندى جنوبا ، وطافت بهذا الساحل سفن سيراف وعمان كذلك في تجارة منتظمة ، وليس لهذا الساحل طرق منتظمة ، انما تسير السفن على طول الساحل الافريقى الشرقى ، ثم حول ساحل الصومال حتى عدن ثم الخليج الفارسى والهند وأحيانا تشق السفن القادمة من الشرق الأقصى الطريق مباشرة من رأس « فرتك » جنوب شبه الجزيرة العربية الى رأس « جاردافوى » مباشرة ثم باقى الساحل الافريقى وربما كان الطريق الأول هو الأرجح من شرق افريقية الى الهند . وفى عودته يتلاقى فى البحر بسقطرى ثم بعدن ثم حول ساحل الصومال الى رأس جاردافوى ثم باقى الساحل الافريقى بعيدا عن مخاطر القراصنة فى سقطرى . ومن ساحل افريقية جلب التجار الرقيق والعاج والعنبر وكانت أقصى نقطة يصلون اليها هى موزمبيق وقنبلة (مدغشقر) التى يقال أنها بلاد الواق

---

(٢٩) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٨ و ٩ و ١٠ .
سليمان الفارسى : سلسلة التواريخ ص ٧ .
ابن ايوب : المرجع السابق ص ٣٧٥ .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٧٨ و ٧٩ .
Darnes, (Barbosa) Op. Cit. II. pp. 109-113-118.
(١٣٠) Darnes, Op. Cit. II. pp. 71 & I. p. 7 kl;

الواق (١٣١) وعلى الطريق المباشر من شرق افريقية الى الهند يمرون بجزيرة ســقطرى قرب مدخل الخليج المؤدى الى البحر الأحمــر الجنوبى . وطول الجزيرة ٨٠ فرسخ وهى من المراكز التى يأوى اليها قراصنة البحر من الميد والكيرج ومن أهم انتاجها الصمغ والصبار . وسكانها مسيحيون يعاقبة ويدفعون الجزية لملوك الهند (١٣٢) .

وقرب باب المندب تقع جزيرة قمران (كمران) وهى محط للسفن التجارية بين الهند وجدة وتتمون منها السفن بالمـاء والميرة ٠ واستولى عليها البوكرك البرتغالى ١٥١٣ م فى محاولة منه للوصول لميناء جدة ، وفعل مثل ذلك البرتغالى لوبوسواريز ١٥١٧ نظرا لقربها من الساحل وأهميتها الحربية (١٣٣) .

ومن هذه المراكز الهامة أيضا على الطريق التجارى لشرق افريقية ميناء مدغشقر مقديشو وهو على الساحل نحو البحر الأحمر ، وله ملك عربى كأهله وتصله سفن الهند فى قوافل محملة بالســلع التجــارية كالأقمشة والتوابل وتصله السفن من عدن مباشرة وفى عودتها تحمل العاج والذهب والشمع. وفى مقديشو نزلت أولى أفواج العرب وبخاصة التجار منهم واستقروا بها بعد أن وصلوا الى رأس جاردافوى وشاهدها

---

(١٣١) يذكر حورانى : الملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٤١ ــ ٢٣٢ أن مدغشقر هى واق واق الجنوب وسومطرة هى واق واق الشرق وعن فراند : وصحة القول بأن هناك صلة بين الجزيرتين اذ هاجر بعض سكان سومطرة الى مدغشقر منذ القرون الاولى للمسيحية لذا عرفت بهذا الاسم وان كان الأرجح أن اليابان وحدها هى واق الواق » ٠ انظر كذلك:

المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٧ ٠

متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٧٠ و ٣٧١ وانظر ملحق الخرائط ٠

(١٣٢) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٧١ ٠

سباهى : المصدر السابق ص ١٦٠ أ و ب وانظر ملحق الخرائط ٠

Harff, Op. Cit. pp. 155-159.
Dapping, Op. Cit. I. p. 47.

(١٣٣) — Darnes, Op. Cit., I. p. 52.

دى جاما لدى عودته من رحلته الأولى الى الهند عام ١٤٩٩ (١٣٤) .

أما رأس جاردافوى فهى على بعد غير قليل من مقديشو وعندها ينحنى الساحل الافريقى ليدخل البحر الأحمر «وتمر بها السفن القادمة من الهند وسيام وسيلان وملقا وسومطرة والصين ويتاجر أهلها فى سلع الشرق الأقصى والهند والبحر الأحمر وعدن وزيلع وبربرة وينتظر فيها البرتغاليون لقطع الطريق على سفن العرب القادمة من البحر الأحمر لأسرها ونهبها » (١٣٥) .

وهكذا ظلت سفن التجارة الشرقية من الصين والهند وبلاد العرب تقطع هذا الطريق قرونا طويلة حتى نهاية القرن الخامس عشر حين انقطعت الزعامة للشرقيين بدخول البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى . ففى عام ١٤٩٨ كان فاسكودى جاما الملاح البرتغالى فى ملندى بشرق افريقية يبحث عن دليـــل يحمله الى الهند فلم يجد الا المــلاح العربى «شهاب الدين أحمد بن ماجد» وأقنعه دى جاما بقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط للهند فكان من سخرية القدر أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد فى القضاء على الملاحة العربية فى المياه الشرقية ، فلم يستطع العرب ابعاد البرتغاليين عن المياه الهندية وبدءوا يتوسعون شرقا وغربا حتى سيطروا على الطريق المذكور من مالقة الى الخليج الفارسى ، ثم وسعوا نفوذهم ليشمل المنطقة من سقطرى الى كانتون وجزر مكاو بالصين وقضوا على الملاحة والتجارة العربية وندرت سفن العرب ، وبخاصة

---

(١٣٤) Darnes, Ibid, II. p. 31 & R. I. p. 32 R. 2. —

(١٣٥) Darnes, Ibid, II. pp. 32-33. —

الاسم العربى الحديث لهذا الرأس هو (راس أشير) ، أما الاسم الاول فقد استخدمه البرتغاليون لأول مرة وهو لا يطلق على الرأس نفسه انما على مكان جنوبه بحوالى ٦٠ ميلا يعرفه العرب باسم « راس حافون » ، ويبدو أن الاسم الأخير يطلق على الساحل كله وليس على مكان بعينه ويطلق عليها الفرس اسم انحناء حافون انظر ملحق الخرائط .

بعد أن سدوا مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، وفي عام ١٥١٧ كانت تجارة هذا الخط في جزئه الغربي بالخليج الفارسي والبحر الأحمر قد انهارت تماما .

وفي البحر المتوسط لم تكن هناك طرق مباشرة بين شرقيه وغربيه انما تخرج السفن من المدن الايطالية وجمهورياتها متفرعة غربا الى غرب أوربا ، وشرقا الى مصر والشام والأناضول ، مارة بمراكز عدة : فمن البندقية شمال الادرياتي تخرج السفن في طريقين يسير الأول بحذاء ساحل دالماشيا مارا براجوزا ، ثم الى كورفو ويدور حول شبه جزيرة البلقان وعندها ينقسم قسمين يتجه أحدهما الى ساحل الشام مارا بكريت ورودس وقبرص وموانىء بيروت وطرابلس والشام وعكا، ويتجه الآخر الى الاسكندرية مباشرة . أما الفرع الآخر من طريق البندقية الملاحي فيدور من البحر الادرياتي حول ايطاليا عابرا مضيق مسينا الى نابلي ، ومنها مباشرة الى مالطة مارا بجنوب سردينيا ويعبر مضيق جبل طارق الى لشبونة في البرتغال وبردو في فرنسا ، بعد أن يعبر مضيق دوفر ليتجه الى كاليه وبروج ثم دول الهانسا شمال أوربا وله فرع من بروج الى لندن (١٣٦) .

طريق البندقية التجارى :

وقوافل البندقية البحرية تعرف باسم « مراكب المدة » ولكل جهة سفن معينة فهناك سفن المدة للقسطنطينية ، ومدة البحر الأسود ، ومدة الشام ، ومدة الاسكندرية ولدى عودة هذه السفن من الشرق ينتظرها الأهالي بفارغ الصبر الأسواق الكبرى التي تعقد في عيد الفصح في شهرى سبتمبر وفي عيد الميلاد (١٣٧) .

---

(١٣٦) راجع ملحق الخرائط وكذلك :

— Poston, Op. Cit. xI. pp. 292-293 & ff.

(١٣٧) كلمة « مدة » هنا تعني قافلة الموسم ولما أضيفت اليها كلمة مراكب اصبحت تدل على بيان وقت رحيل وأوبة سفن القافلة ، وتطورت الكلمة لتشمل أنواع السلع التي =

وترحل سفن المدة الى الشرق فى أوقات وصول السلع الى هذه البلاد ، وهى فى الغالب أوقات الحج لتعود فى الخريف قبل حلول فصل الشتاء ، ويصاحب سفن المدة أسطول بحرى لحمايتها من القراصنة المنتشرين على طول الطريق شرق وغرب البحر المتوسط . وقد قسمت الجمهوريات الايطالية رحلاتها الى مراحل ، وفى كل مرحلة يصاحب السفن أسطول بحرى للحراسة ويوصلها لنقطة الحراسة التالية ويبقى لحين عودتها لمصاحبتها . وتقع هذه النقط فى جزر ومدن السواحل ، وللبندقية بها مخازن. ومن أشهرها كورفو وكورون وورون وكاندى (كريت) وقبرص (١٣٨) .

ومنذ الفتوح العثمانية فى شرق أوربا بعد عام ١٤٥٣ ، حولت البندقية طريقهـا من كورون ومودون الى كورفو بعد أن سـقطت الجزيرتان فى أيدى القوات العثمانية . ولما استقر البنادقة فى جزيرة قبرص على عهد السلطان قايتباى صـارت الصـلة وثيقة بين قبرص والشام وكريت والاسكندرية ، وأصبحت الجزيرة أهم مركز تجارى للبندقية شرق البحر المتوسط لا سيما وأن العلاقات كانت متوترة بصورة دائمة بين البنادقة والعثمانيين . أما سفن البندقية الى سـاحل افريقية الشمالى الغربى فلم يكن مباشرا ، فان سفن الاسكندرية قبل توسـيقها تتجه الى طرابلس الغرب وتونس وتعود الى الاسـكندرية لتملأ ما بها من فراغ ، وتنتظر كذلك سفن بيروت أحيانا ، وعند عودتها الى البندقية يعاد تصدير السلع برا وبحرا الى أوربا (١٣٩) .

= تحمل على سفن معينة وتصل فى أوقات محددة فيقال مدة سبتمبر مثلا لتدل على اسطول الشرق العائد فى شهر سبتمبر قبل حلول فصل الشتاء فى أوربا وأحيانا اطلقت كلمة المدة على مدة بقاء السفن فى الموانى، فيقال « مدة المدة » ليكون لها حق الأولوية فى الشحن والرعاية . انظر الفصل الخامس .

(١٣٨) انظر ملحق الخرائط .

(١٣٩) بخصوص سفن البندقية الى طرابلس وتونس أنظر ملحق الخرائط وكذلك معاهدة تريفيزانى بالملحق رقم (١٣) السؤال السادس .

ومن المحطات على الطريق التجارى للشرق جزيرة كورفو ، وهى مركز شحن وتسويق السلع الواردة من الشرق ، وفى القرن الخامس عشر طرأ تغيير على نظام سفن البندقية فأصبحت كورفو مخزنا للبضائع الهامة وتمر بها السفن الآتية من الاسكندرية وبلاد السلطنة العثمانية. وكان على السفن أن تمر بالضرورة على كورون ومودون فى الذهاب والاياب ، ولكن كورفو كانت اختيارية بالنسبة بها ، ثم بدأت تحتل مكانتها ، الممتازة بعد سقوط القسطنطينية وتقدم الأتراك فى البحر الأيونى وسرعان ما احتلت مكانة كورون ومودون (١٤٠) .

ومن هذه المراكز أيضا « رافنا » ، ولها أسطول يصل لشرق البحر المتوسط ، وللبندقية بها مخازن ومندوب يتولى شحن وتسهيل العمليات التجارية (١٤١) .

ومن أبرز هذه المراكز كذلك « راجوزا » على الادرياتى ، وهى مركز للأسطول البندقى فى الذهاب والاياب ، وحصل الراجوزيون على تراخيص للمتاجر فى بلاد السلطان العثمانى بعد عام ١٤٥٣ ، على عهد السلطان محمد الثانى عام ١٤٨٠ ، وبايزيد الثانى ١٤٨١ ، وسليم الأول ١٥١٧ . ويحملون من الشرق الغراء والشمع والبهار ، والجلود

— Renaud, Journal Asiatique, T. IV.

=

— Heyd, Op. Cit. T. IV pp. 79-80.
— Hammer, Op. Cit. T. IV pp. 79-80.

(١٤٠) بخصوص استخدام هذه الجزر كمستودعات ومخازن للسلع فان البندقية قسمت سفنها الى سفن الاسكندرية وبيروت ، وهى تصل للبندقية مرتين فى العام مدة سبتمبر ومدة ابريل فى العام التالى وبين هذين التاريخين يتم توزيع السلع فى أوربا وترسل أحيانا بين هذين التاريخين سفن تعرف باسم فائض المدة لتحمل مابقى من السلع فى مخازن الاسكندرية وبيروت ويتم تخزينه فى هذه الجزر حتى ينقل الى البندقية . انظر ملحق الخرائط .

— Depping, Op. Cit. II. p. 310.

(١٤١) انظر ملحق الخرائط .

— Depping, Ibid, pp. 313.

المدبوغة والذهب والفضة من صربيا التى دخلت فى حوزة العثمانيين كما روجوا المنتجات الأوربية فى بلاد السلطان العثمانى مثل حرير وصوف تسكانيا (١٤٢) .

وتقع كريت على الطريق البحرى الى شرق البحر المتوسط ، كما أنها محط للسفن ، ويستقبل ميناؤها الواسع السفن الكبيرة ، وتتصل تجاريا بمصر والشام وآسيا الصغرى وتصدر السكر والنبيذ والعسل (١٤٣) .

وتبدو أهمية قبرص لوقوعها على الطريق التجارى البحرى الى الشام وآسيا الصغرى وهى ملجأ التجار اذا حاق بهم أى ضرر فى بلاد السلطنة المماليكية أو العثمانية بل ان القبارصة قاموا فى أوقات عصيبة بالنسبة للأوربيين بنقل متاجر الشرق من صور وصيدا وحلب وبيروت والاسكندرية وأنطاكية الى جزيرتهم حيث ينتظرها البنادقة والجنويين وغيرهم. وميناؤها الرئيسى فاماجوستا مزدحم دائما بالسفن، وبه وبباقى الموانىء فنادق ووكالات ملأى بالمتاجر والتجار من عرب، وترك وجنويين وبنادقة وفلورنسيين وغيرهم . وفماجوستا من أشهر موانىء شرق البحر المتوسط تصلها التجارة من وسط آسيا برا ثم بحرا ، وكذلك من حلب وديار بكر والاسكندرية ووسط الشام والعراق . وتمتلىء أسواقها بالحرير والكتان والقطن وجوز الهند واللبان والجلد والنحاس والفواكه والعنب الغض « الطازج » والمجفف والمطاط وعاج افريقية والفراء والصابون والشب من طرابيزون وبروسة والحرير والسجاد من قونية والأحجار الكريمة من الشرق الأقصى ، ويدفع القبارصة ١٪ رسوم جمارك ، فى حين يدفع الأجانب ٤٪ واتخذت

---

(١٤٢) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 346-348.

(١٤٣) — Depping, Op. Cit. I. p. 112.

البندقية الجزيرة أكبر مركز تجمع لمتاجرها شرق البحر المتوسط بعد أن ساءت العلاقات بينها وبين السلطات العثمانية وحصلت من السلطات المماليكية على حق حكم الجزيرة مع دفع الجـزية السـنوية ، وبذلك ضمنت البندقية حرية تجارتها وحماية مخازنها فى شرق البحر المتوسط. واستولى عليها العثمانيون عام ١٥١٧ (١٤٤) .

ومن هذه المراكز أيضا جزيرة خيو التى ظلت حتى الربع الأول من القرن السادس عشر من أشهر وأهم مراكز التجارة على الطريق الى الشرق العربى ، ونالت ثراءها من تجارتها مع الغرب بعد توزيعها سلع الشرق فى أوربا ، وكان لجنوة فى الجزيرة مركز ومخزن ومندوب تجـارى (١٤٥) .

طريق جنوة التجارى :

أما سفن جنوة فتتكون من أسطول للشرق وآخر للغرب ويتجه أسطول الشرق، جنوبا بحزاء شاطىء شبه الجزيرة الايطالية مارا بنابلى ومضيق مسينا الى كريت ، ويتجه شـمالا عابرا مضيقا البسـفور والدردنيل الى القسطنطينية ، ثم موانىء البحر الأسود أما فرعه الغربى فيمر بساحل فرنسا الجنوبى على البحر المتوسط عند مرسيليا ثم الى برشلونة وفالنسيا فى قطالونيا . ويخرج من جنوة أسطول آخر يتجه مباشرة الى تونس ويسير على طول ساحل افريقية شرقا الى الاسكندرية ومدن وموانىء الشام وغربا عابرا مضيق جبل طارق الى غرب افريقية . وفى البحر الأسود تتوحد طرق الملاحة بالنسبة لكل السفن التجارية الوافدة من المضيقين وتتفرع الى ٣ فروع شمالا لبلاد البلغار ، وفرع الى كافا على شبه جزيرة القرم ، وآخر الى طرابيزون ومدن شاطىء

---

(١٤٤) انظر ملحق الخرائط وراجع :

— Bernard, Cypris, pp. 3-4-6-7-8-21 ;
— Depping, Op. Cit. I. pp. 106, 108.
— Depp, Op. Cit. pp. 54-556.

(١٤٥) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 335-336.

البحر الأسود الجنوبي ومنها بونتس وهرقليا وسمسون وسينوب، كما ان هناك فرعا بريا من أوربا يعبر مرمرة الى الأناضول ليتصل بالطرق البرية الآتية من وسط آسيا وتبريز ويتجه فرع منه جنوبا الى لاجاسو وانطاكية ودمشق على الليفنت ثم بحذاء الساحل الى القاهرة (١٤٦) .

طريق فلورنسا التجارى :

أما فلورنسا فانه بعد انضمام بيزا اليها بجزر وموانىء البحر المتوسط وبخاصة خيو وجاليوبولى ، وصلت بسفنها الى البحر الأسود والاسكندرية، ولها فى كريت ورودس مندوبون تجاريون (١٤٧) .

وبرغم الصلة الوثيقة بين جمهوريات ايطاليا ومصر والشام فان بعض مدن ايطاليا مثل أنكونا فضلت التعامل مع السلطات العثمانية . وسارت فعلا سفنها الى القسطنطينية عام ١٤٧٥ ، وحصلت على حق المتاجرة مع مدن تركيا ــ وخلال حروب السلطان العثمانى مع البنادقة قطع الطريق البحرى التجارى ، ومع ذلك نعم التجار الانكونيون بكرم الضيافة العثمانية ، واتخذوا فى رحلاتهم من رودس مركزا لتجمع متاجرهم وسفنهم (١٤٨) .

مدينة سيين :

أما مدينة سيين فى مقاطعة تسكانيا بايطاليا فقد اكتفت سفنها بالوصول الى قبرص وأحيانا تتجه الى البندقية نفسها للحصول على حاجتها من سلع الشرق وسوقهم الطبيعية فى فرنسا وأسبانيا وانجلترا وألمانيا أكثر من مدن ودول شرق البحر المتوسط ، وفى عام ١٤٨٩

(١٤٦) شارل ديل : البندقية ص ٢٠ و ٢١ ومابعدها .

(١٤٧) — Heyd, Ibid, pp. 345 & ff.

(١٤٨) انظر ملحق الخرائط :

— Heyd, Op. Cit. p. 346.

اتصلوا بأنفسهم بالسلطات العثمانية وصارت لهم قنصلية فى القسطنطينية حتى عام ١٥٠١ (١٤٩) .

طريق مرسيليا التجارى :

وحتى الربع الأول من القرن ١٦ م ظلت مرسيليا متصلة بشرق البحر المتوسط ولها فى مصر وسوريا وكلاء وفنادق ــ وهى مخرج تجارة فرنسا الى البحر المتوسط ، كما أن لها اتصالا بالمدن الايطالية ويمر بها خط جنوة البحرى التجارى الى أسبانيا (١٥٠) .

طريق برشلونة التجارى :

وعلى الشاطىء الاسبانى الشرقى كانت برشلونة ملتقى الطرق البحرية من ايطاليا وفرنسا الى أسبانيا . وقد نافست المدن الايطالية فى التجارة الشرقية ، ولها امكانيات مهدت لها أن تكون مركزا تجاريا من الطراز الأول فميناؤها محصن وتدخله السفن من الدول المختلفة وله أحواض لبناء وترميم السفن ومخازن ومستودعات للسلع وترسانات ضخمة لعبت دورا هاما فى اجلاء العرب عما بقى لهم بالأندلس أواخر القرن الخامس عشر ، كما أن هذه الترسانات تبنى السفن للدول التى تتاجر مع شرق البحر المتوسط (١٥١) . ووصلت سفنها كذلك الى بلاد المغرب ، ولكل جهة سفن معينة وقناصل ومراكز تجارية ، وللقناصل التجاريين نقابة تحميهم ، وكان ضمن رجال حكومة قطالونيا فى القرن الخامس عشر عضوان ينوبان عن القناصل فى شئون التجارة . وقد حرم ملوك قطالونيا دخول سفن أجنبية تحمل سلعا من الشرق حتى يقتصر ذلك على السفن القطالونية فقط (١٥٢) .

---

(١٤٩) انظر ملحق الخرائط :
— Heyd, Ibid. p. 347.

(١٥٠) انظر ملحق الخرائط :
— Pernaud, Op. Cit. p. 40.

(١٥١) — Pernaud, Op. Cit ; p. 41.
— Depping, Op. Cit. I. p. 260.

(١٥٢) انظر ملحق الخرائط وراجع :
— Depping, Op. Cit. pp. 251-254, 258-259.
— Heyd, Op. Cit. II ; pp. 473, 477.

طريق القسطنطينية البرى :

أما الطريق البرى من أوربا الى القسطنطينية فقد وقعت أجزاء عديدة منه تحت حكم العثمانيين بعد أن سيطرت السلطات العثمانية بفتوحاتها حتى شرق ووسط أوربا ــ وموضع الأهمية هنا أن الرقعة التى سيطر عليها العثمانيون هى محور تجارة الشرق والغرب ، فما من طريق تجارى من الشرق الى الغرب أو من الغرب الى الشرق الا ويمر ببلاد الترك أو بدول تحت سيطرة الأتراك العثمانيين واذا نظرنا الى خريطة العالم فى الربع الأول من القرن السادس عشر لاحظنا أن هذه الطرق اذا اتجهت من البسفور والدردنيل الى البحر الأسود فلابد أن تمر بأرض عثمانية ، واذا اتجهت الى ساحل الشـــام ومصر فلابد أن تمر بتركيا وبأرض تحت سيطرتها ، واذا اتجهت الى البحر المتوسط والبحر الأحمر من الشرق فلابد أن تمر بأرض تحت سيطرتهم ، اذ أن أملاكهم شملت رقعة واسعة تمتد من العراق شرقا الى الادرياتى غربا والى البحر الأسود شمالا وحدود النوبة جنوبا . وعلى هذا أصبح على التجار الغربيين اذا أرادوا الوصـــول الى أى مـــكان فى الشرق أو الليفنت أو القسطنطينية أن يمروا بأرض عثمانية ويحصلوا على تصاريح من السلطات العثمانية. علىأن هذا لم يوقف التجارة علىهذه الطرق من أوربا لشرق البحر المتوسط بل استمر فى ظل السيد الجديد وتحت اشرافه ، وكانت الفتوحات العثمانية فى شرق أوربا قد أحيت طرقا برية قديمة منها الطريق الذى يبدأ من راجوزا Ragusie ، والطريق الذى يبدأ من سبلاتو Spalato وهما يلتقيان عنـــد بليفيلج Plevlje ثم يتوحد ليصلا الى مدينة بريبوليج Prepelje على نهر ليم Lim ثم الى مدينة نوفيبازار Novibazar حيث يوجد للتجار جاليات ، وفنادق ووكالات ومنشآت تجارية عديدة وخاصة البنادقة ، وبعد مبارحة مدينة نيش Nich تدخل القافلة الى الطريق الموصل لبلغراد ثم الى القسطنطينية مارة بمدينة صوفيا Sophia وفهليبوبولى Philippopoli

وأدرنة والمدينة الأخيرة كسوق عالمية كانت تلقى أهمية القسطنطينية نفسها التى تصلها القوافل بعد ٣٠ يوما من رحلتها البرية من راجوزا (١٥٣) . هذا فيما يتعلق بشرق البحر المتوسط .

أما فى غرب هذا البحر فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وعلى وجه التحديد فى البرتغال واسبانيا وغرب أوربا فانه حدثت تغييرات واسعة النطاق بعيدة الأثر فى المراكز الأساسية التى اختصت بالتجارة العالمية فى العصور الوسطى فى غرب آسيا وغرب أوربا والشرقين الأدنى والأقصى ، فقد بدأت شعوب أوربا على الأطلنطى رحلاتها الطويلة عبر البحر ونجحت أخيرا فى ايجاد طريقها الى الشرق بحرا دون وساطة مصر والشام أو آسيا الصغرى ، وفتحت مخاطرتهم فصولا جديدة فى العلاقات العالمية ليس فقط لأن هناك طرقا جديدة قد فتحت، ولكن لظهور وسطاء جدد على المسرح أحدثوا تغييرات حقيقية أسرعت بنهاية القرون الوسطى فى عالم التجارة . وكان الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة فى التجارة العالمية ثوريا من كل الوجوه . واستمرت نفس السلع يحملها البرتغاليون والهولنديون بعدهم ، وقد ساروا على نهج العرب وتقاليدهم ، وبقيت هذه التقاليد حتى ظهرت الطوائف الأكثر حداثة ونشاطا فى شمال غرب أوربا (١٥٤) .

ومع أن العثمانيين فى فتوحاتهم نجحوا فى السيطرة على مصر والشام ، مفتاح التجارة العالمية فى العصور الوسطى ، فانهم أخفقوا فى أن يحلوا محل العرب فى السيادة الاقتصادية ، لاختلافهم عن العرب التجار بالفطرة ، وقد بذلوا جهودا طيبة لانعاش الطريق البحرى

---

(١٥٣) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

— Heyd, Op. Cit. pp. 334, 335.
— Atiya, The Crusades, p. 477.

(١٥٤) — Hyzayyin, Op. Cit. p. 153.

القديم وشجعوا تجار البحر المتوسط للاقامة فى أراضيهم الجديدة ولكن كانت أسواق الشرق العــربى قد انهارت وفقدت أهميتها فى التجارة العالمية التى انتقلت بالتالى الى غرب أوربا (١٥٥) .

---

(١٥٥) بالملحق رقم ٢٥ معاهدة السلطان سليم الأول العثمانى للبنادقة فى مدن موانىء مصر ـ راجع الفصل الثانى وكذلك :

— Hyzayyin, Ibid, p. 185.

الفصل الرابع

السلع التجارية

أنواع السلع المتبادلة :

تعتبر الفترة الأخيرة من العصور الوسطى من أنجح فترات الازدهار التجارى بين الشرق والغرب ، فقد عمل المماليك فى مصر والشام وسطاء لأهم السلع التجارية من الشرقين الأدنى والأقصى ، وهى التوابل ، والعقاقير الطبية ، والعبيد ، والمنسوجات ، والصينى ، والأحجار الكريمة ، والأخشاب ، وجميع السلع التى يكثر طلب الغرب الأوربى لها . ولعبت الطرق البحرية والبرية عبر مصر والشام دورا هاما فى هذا المجال ، كما ارتبطت ثروة البلاد وقوتها العسكرية وهيبتها فى العالم بتجارتها الشرقية ، وظلت فترة الازدهار باقية ما بقى الاتصال مباشرا مع الهند والصين ، وانتهت وأنهت معها دولة سلاطين المماليك بعد أن تحول الطريق حول افريقيا على يد وسطاء جدد من غرب أوربا . وفى أوائل العصور الوسطى كانت التوابل والأفاويه الشرقية هى غذاء الأغنياء فى غرب أوربا ، كما كان البخور الشرقى من متطلبات الكنائس الغربية ، حتى الملابس المطرزة كانت لا ترد لهم الا عن طريق الشرق ، بل يقال ان الأشراف ورجال الكنيسة كانوا من المولعين بالطعام المتبل . وفى عصر النهضة أولع الشعب بهذه الطريقة فى الطهو ، بعد أن اعتاد استعمال التوابل فى الأطعمة منذ

الحروب الصليبية (١) . وفى العصور الوسطى المتأخرة زاد الالحاح فى طلبها حتى أصبحت هذه السلع الشرقية جزءا لا يتجزأ من حياتهم فهى عندهم ضرورية لتحسين الطعام ولصنع النبيذ وحفظ الأطعمة لكثرة وطول الصيام عندهم ، كما كانت تدخل فى صناعة العقاقير الطبية (٢).
وقد اكتفى المماليك خلال فترة حكمهم الأولى حتى القرن الخامس عشر بتسهيل استيراد هذه السلع من شرق آسيا والهند ، وتسهيل ورود الأجانب لحملها الى أوربا ، مع تسهيل اقامتهم فى الفنادق ، ومنحهم كل التيسيرات ، وكان لكل هذا رسوم تجبيها خلاف الرسوم الجمركية على الوارد والصادر . وسيطر على هذه التجارة جماعة الكارمية الذين قاموا بالعبء الأكبر فى استيرادها من الشرق الأقصى وتسويقها ، حتى أن اسم الكارمية كان يطلق على كل من يعمل فى تجارة البهار والفلفل، وأصبح « لرئيس الكارمية » صلة معترف بها لدى السلاطين . ولثرائهم من احتكار هذه التجارة كانوا يقرضون السلاطين كلما اضطرتهم الظروف الى ذلك (٣) . ولكن فى القرن الخامس عشر عندما بدأت القوات العثمانية تزحف حثيثا نحو الغرب اضطربت الطرق البرية من وسط آسيا وآسيا الصغرى حتى أغلقت فى عام ١٤٥٣ بسقوط القسطنطينية وتركز جلب هذه السلع على طريق البحر الأحمر ، وتنبه سلاطين المماليك الى ذلك ، والى أن دولتهم قائمة فعلا على أموال

---

(١) اشتد الطلب على التوابل أواخر العصور الوسطى فى أوربا اما لشدة البرد أو لتتبيل الطعام وحفظه أو لاستعماله كعقار طبى ، وكان الأوربيون يطيب لهم أكل السجق المتبل والفطائر المتبلة ، كما أن ساعات الشتاء الطويلة تدعو الى احتساء فنجان من شراب ممزوج بقليل من البهار والتوابل كالجنزبيل وجوزة الطيب والقرفة والقرنفل .

— توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) ص ١٤٠

— Sonia, In Quest of Spices, pp. 13-14.

(٢)
— Sonia, Op. Cit. pp. 19-20.
— Clerget, Le Caire, pp. 343.
— Clive, A History of Commerce pp. 79-80.

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٩١ .

المقريزى : السلوك ج١ ص٨٩٩ حاشية ٢ + ج٢ ص٨٣٧ حاشية ٣ .

التجارة بالاضافة الى أن الوضع اختلف في هذه الفترة من فترة حكم المماليك البحرية ، اذ تطرق الفساد الى النظام الاقطاعى الذى اعتمدوا عليه فى فترة تكوينهم الأولى ، ولم يعد يسد حاجتهم المالية والمـادية بوجه عام لذا اتجهوا نحو الاشتغال بالتجارة واتبعوا سياسة احتكار السلع التجارية الشرقية لتعويض النقص المـادى الناجم عن الغاء النظام الاقطاعى . فأقصوا الكارمية عن التجارة ، واقتصر عملهم على تسويقها ونقلها من مصادرها ، ثم ما لبث السـلاطين أن أقصوهم نهائيا عنهـا واحتكروها احتـكارا كاملا (٤) . وقد أضر هـذا الاحتكار بالتجارة فارتفعت أسعار التوابل ارتفاعا فاحشا الأمر الذى أنزل الضرر بالتجار الأوربيين وتعدى الأمر الى تحديد أسعار التوابل الحرة وأسعار التوابل السـلطانية أو الشريفة مع اجبار التجار على شرائها وأحجم التجـار الأجانب أحيانا عن الشراء ، فكانوا يلاقون العسف من عمال السلطان. ويظل الأمر كذلك حتى تصل البعثات لايجاد حل مرض للطرفين . ومع هذا زاد الرواج التجارى فى السلع الشرقية فى بلاد السلطان المماليكى حتى أن سفن البندقية وحدها ، وهى العميل الأول لتجارة التوابل فى مصر ، كانت تحمل سفنها سنويا من موانىء مصر والشام سلعا تقدر بحوالى ٣٠٠٠٠٠ دوكات من المعادن الثمينة والنقود ذهبا وفضـة وأقمشة (٥) ، برغم قوانين « التحريمات البابوية » التى حذرت ،

---

(٤) سعيد عاشور : المصدر السابق ص ٣٩٥ .

(٥) فى الفصل الثانى فصل العلاقات التجارية الخارجية توضيح لموضوع التوابل السلطانية . والواقع انه منذ أواخر عهد قايتباى وعهد الغورى بدأ رصيد الذهب يقل فى خزائن المماليك ، وعلاجا لذلك بدأ السلاطين فى زيادة ، الاهتمام بالتوابل المعروفة باسم « التوابل الشريفة أو السلطانية أو الذخيرة » وفرضوا على البنادقة شراءها على أن تدفع القيمة نقدا وبالذهب مع بقاء معاملتهم مع الأفراد حرة فى الالتجاء للمقايضة أو الشراء بالمال ، اذ كان البنادقة حتى ذلك الوقت ملوك الذهب فى العالم المسيحى . انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة ص ٤٣ ــ ٤٤ .

وقد طبق هذا النظام على البنادقة فقط فى مصر والشام ولما ترددت شكواهم حددت قيمة التوابل السلطانية المفروضة عليهم بنسبة معينة الى السلع الأخرى وهى تحمل من=

التعامل بين المسيحيين والعرب عامة ومماليك مصر والشام خاصة . وكان هذا القانون الذى أصدره البابا نقولا الرابع سنة ١٢٩١ موضع عناية وتأييد البابوات المتعاقبين . وهدف القانون الى تدمير تجـارة المماليك فتضعف دولتهم ويسهل هزيمتها . ولم يكن التحريم فى الواقع أمرا قاطعا أو دائما بل اقتصر منذ أواخر القرن الرابع عشر وفى القرن الخامس عشر على المواد التى يمكن أن يستفيد منها المماليك فى بناء السفن وعمل الأسلحة كالأخشاب والحديد والنحاس والبارود وخلافه. واذا كان اصدار هذه القوانين واطاعة البنادقة والجنويين وغيرهم لها تقليد جرت عليه الأمور حتى القرن الرابع عشر، فانه فى القرن الخامس عشر ضرب التجار بهذه القوانين عرض الحائط ، فهى تحترم نظريا وتنقض عمليا ، والعرب يعرفون تماما مدى احتياجات الغرب الأوربى الى السلع الشرقية الواردة عن طريقهم ، كما أن الأوربيين لم يتقيدوا بحرفية قوانين التحريم ولاحظ البـابوات ذلك ، كما أن حاجة أوربا أخذت تزداد يوما بعد يوم للسلع الشرقية ولا سيما السلع الخاصة بالكنيسة ، فكان لابد من مسايرة الواقع وتعديل قوانين التحريم ــ واحقاقا للواقع عدلت القوانين ، وخلال السنوات الأخيرة من القرن

= التوابل عن كل الف دوكة من السلع الأخرى » ثم حددت نهائيا بعدد معين مسعر من أحمال التوابل سنويا ، وهى ١٠ أحمال بسعر لا يزيد على ٨٠ دوكا للحمل الواحد « الحمل الاسكندرانى = ٥٠٠ رطل فرفورى » وقد أدى هذا الاجراء الى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة تجار البنادقة التى كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خلت وظل هذا الاجراء متبعا حتى عام ١٥١٦ وان كانت البندقية قد ساومت أكثر من مرة فى سعر هذه الصفقة الاجبارية التى سبق تسعيرها . انظر :

توفيق اسكندر : المصدر السابق ص ٤٤ ملاحظة (١) .

ــ فى عام ١٤٩٦ حملت سفن البندقية من ميناء الاسكندرية ما قيمته ٢٠٠٠٠٠ دوكات ومن بيروت ١٢٠٠٠٠ دوكات وفى عام ١٤٩٧ حملت من الاسكندرية ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ دوك ومن بيروت ما قيمته ٦٠٠٠٠ دوك . انظر : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٨/٥٩ .

الخامس عشر صــار تجـديد القوانين على بنودها المعدلة (٦) . ومن السلع التى نقلها التجار الأجانب لمصر والشرق ، علاوة على منتجات المناجم ، الأخشاب والأسلحة والجوخ والشمع والعنب الطازج والمجفف والفراء والصوف والزعفران والمرجان والمصطكى والبندق والموالح . أما النبيذ فكان محرما تعاطيه فى مصر بحكم الدين ، ولكن الســادة المماليك كانوا يسمحون لأنفسهم أحيانا بشرب بعض أنواعه ، وكان يستورد لحسابهم من كريت خفية . وأسواق القاهرة كانت تزخر بأنواع مختلفة من الأقمشة الأوربية . فأرواب الســادة المماليك تصلهم من البندقية وفلورنســا ودول شــمال أوربا ، ويجد هـذا النوع من الأقمشة الصوفية والجوخ رواجا فى الأسواق العربية لجودة نسجه ، وان شابه أواخر العصور الوسطى الكثير من الغش ، وظهر هذا فى شكل احتجاجات فى المعاهدات بين المماليك والبندقية (٧). بقى أن نذكر أن للسلاطين المماليك تجارة خاصة بهم ، وهى تجارة الصقور أو الباز ، فكان السلطان المماليكى لا يخرج للصيد الا ومعه رمزه الباز ، وكانوا يدفعون فى الباز الواحد من الأنواع الممتازة مالا يقل عن ٣٠٠٠ دراخمة ، أو ما يوازى ١٥٠ قطعة من الذهب ، ونصف هذا الثمن للباز

---

(٦) من بين السلع التى استثنت من التحريم (الشب) اذ كان احتكارا للبابوية .

انظر : سعيد عاشور : المصدر السابق ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ .

قيشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (مترجم) جـ ٢ ص ٤٢٦ حاشية للدكتور زيادة .

فكرت البابوية بعد وقعة عكا ١٢٩١ فى اضعاف المماليك عن طريق حرمانهم من المواد اللازمة للحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت وكذلك عدم شراء المتاجر منهم حتى تبور وتضعف دولتهم لذا أصدروا (قوانين التحريم البابوية) ومن بين السلع التى شملها المنع الرقيق الذى اعتمد عليه المماليك فى تكوين جيوشهم .

— Pernaud, Les Villes Marchands, pp. 30, 31.
— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 440.
— Depping, Op. Cit. T. II. p. 170.

(٧)
— Day, & Hist. of Commerce, p. 79.
— Poston, Camb. Med. Hist. of Commerce, Vol. II. p. 331.

الذى يموت فى الطريق . وكان البنادقة هم المتعهدين ويجتهدون فى الحصول على أفضل الأنواع (٨) .

ولقاء هذا كانت مصر تصدر من انتاجها الخاص للغرب : السكر من أحسن أنواعه والتمر والموالح والكبر والبلسم والقطن والكتان والشب والصبغات . وأكثر الموانىء استقبالا للتجار للحصول على السلع المحلية والشرقية هى الاسكندرية حتى ان السلطات خصصت بابا فى منطقة الجمرك عرف باسم باب البهار وشارعا له نفس الاسم (٩) ، وقد احتجزت تجارة التوابل فى مصر مجموعة ضخمة من التجار ووكلاء البيوتات التجارية فى أوربا ، يتولون عمليات التسويق والشحن وحسابات الجمارك وأحيانا هم الممثلون السياسيون لبلادهم فى بلاد السلطان المماليكى وكان من صميم أعمالهم فرز التوابل لابعاد التالف (١٠) . ومنذ أن صارت هذه التجارة حكرا لسلاطين المماليك ، والشكوى تتردد عن غشها وخلطها بمواد غريبة وأتربة ، وأنها تغربل بغرابيل مصمغة الخروق . وفى المعاهدات المتأخرة من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر نص على نقاء هذه التوابل ، ونص كذلك على مراعاة عدم غش الجوخ والأنسجة الأوربية التى ترد لمصر (١١) .

---

(٨) — Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 442, 443.

(٩) توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ـ بحث فى المجلة التاريخية ص ٤٦ ملاحظة (٢) ويذكر « ان البهار فى تجارة الاسكندرية الخارجية كان يحوز الاهمية التى تحرزها الآن تجارة الشاى والقطن الخام والمنسوج لانجلترا والسكر والتاباكا لكوبا . ويأتى فى الاهمية بعد البهار القرفة وجوز الهند والزنجبيل وخشب الساج والعاج والجواهر والاحجار الكريمة » .

(١٠) خصصت السلطات المماليكية وكالات للبهار وأسواق تحمل اسم العطارين لا تزال ، بالاسكندرية لليوم كما صرحت بفتح فنادق لتجار هذه السلع لاقامتهم خلال وجودهم بمصر .

(١١) تردد فى معاهدات قايتباى مع البندقية وكذلك معاهدات الغورى شكوى تجار =

وعلى رأس قائمة السلع التى كانت تلقى رواجا فى أوربا فى العصور الوسطى : التوابل والأفاويه وهى من أسباب ثراء مصر فى عصر المماليك ومن أجلها دار البرتغاليون حول افريقية فى بداية لحركة كشف جغرافى واسع نقل العالم من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، كما أنها كانت سببا فيما عرف فى التاريخ بحروب التوابل والبهار . وكانت مدخلا لحركة الاستعمار الحديث فى الشرقين الأدنى والأقصى . ومن أهم هذه السلع : التوابل والبهار والأعشاب الطبية ، والصبغات والصموغ والبخور والعطور والأخشاب والمعادن والأحجار الكريمة والمنسوجات، وتدفق تيار هذه المتاجر الىأوربا من شرق البحر المتوسط حتى أحصى مؤرخو العصور الوسطى ٣٨٦ نوعا من التوابل (١٢) . وكان أبرزها وأهمها وأكثرها طلبا فى أوربا الفلفل . وقد اشتدت الرغبة فى الحصول عليه أكثر من أى تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه . ومصادره الهند والشرق الأقصى وشرق افريقية . والفلفل له ثلاثة أنواع الطويل وهو غير مستكمل النضج ، والأبيض الذى لم تصهره الشمس بعد ، ثم الأسود الناضج بعد تحميصه وهو أحسنها كلها « وهو حريف المذاق ذو رائحة طيبة ويشترط وجود الماء بكثرة فى جذوره وثمرته تشبه العناقيد ، واذا اشتدت الشمس وارتفع حرها تنضم أوراقها على عناقيدها والا حرق الفلفل قبل أوان

الفلندرز والالمان من غش التوابل وشكوى المصريين من غش الجوخ الوارد من أوربا ونص فى المعاهدات على مراعاة ذلك من الطرفين • بالملحق «نص المعاهدات» رقم (٢) و (١٣) ب•

— Clerget, Op. Cit. pp. 343, 344, 345, 346, 347.
— Poston, Op. Cit. T. II. p. 351.
— Clive, Op. Cit. p. 79.

(١٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٢٠ وما بعدها •

— Hyzayyin, Op. Cit., pp, 35-38.
— Poston, Op. Cit, Vol. II. p. 351.
— Lopez ; Med. Trade pp. 109-114.
— Day, Op. Cit. p. 79.

ادراكه (١٣) : والنوع الذى ينمو فى شرق افريقية يصدر عن طريق ميناء مقديشو وتنمو أشجاره على أميال طويلة على مدى البصر. وشجرته ذات عناقيد تتدلى منها كعناقيد العنب وتعطى ثمرها ثلاث مرات سنويا وتظهر زهور الفلفل فى شهر مارس ، وبعد أن تتلون تقطع وتغرس فى الشمس لتجف وتأخذ لونا أشهب ويتم ذلك فى شهر مايو ، أما الأنواع الأخرى فبعد أن تجف يصبح لونها أسود . والأهالى هنا يستخدمون الفلفل فى طعامهم وشرابهم ويقال انهم يضعون النيران تحت الشجرة لكى لا تقترب منها الثعابين كما يقال انهم يضعون الثمار فى الفرن لكى لايعاد بذرها فى بلاد أجنبية (١٤) . وهناك نوع آخر لا يجلب من الشرق الأقصى ولا الهند ولا شرق افريقية وشاع استعماله فى مدن مونتبلييه Montpellier وملقه Malaguette وكان الايطاليون يبتاعونه من شمال افريقية . أما مصدره الأصلى فلم يكن معروفا حتى عصر الأمير هنرى الملاح عندما نقله بحارته معهم فى عودتهم من جنوب غرب افريقية . وأنواعه تفضل كثيرا أنواع الشرق الأقصى وعلى درجة كبيرة من النقاء ، اذ أن فلفل الهند داخله الغش فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر بعد وصول البرتغاليين للهند ، وبنشوب الصراع على التوابل بينهم وبين العرب قل الوارد ولجأ الباعة الى غشه لعدم وجود رقابة كافية بعد احتكار الدولة لهذه السلعة فكان يضاف اليه أنواع رديئة وأتربة مما أدى الى تكرار الشكوى من تجار البندقية

---

(١٣) ابن اياس : نشق الأزهار (مخطوطة) ورقة ١٣٤ .
الجزرى : تحفة العجايب (مخطوطة) بدار الكتب رقم ط ١٣٤٤ ورقة ٤١٣ و ٤١٤ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٢ .
— Von Harff, Op. Cit. pp. 169, 170. 178.

(١٤) « ساد الاعتقاد فى العصور الوسطى أن الفلفل ينبت فى جنوب القوقاز فى وهج الشمس وتقوم على حراسته الحيات والثعابين وعندما ينضج تشعل النار فى أشجاره فيسود بعد أن يكون أبيض » .
— Sonia, Op. Cit. p. 19.
— Harff, Op. Cit. p. 171.

وعملائهم تجار الفلاندرز والألمان ووفد بعضهم للاسكندرية لإعلان ذلك ومراقبة البيع ونص على نقاء هذه السلعة فى معاهدة قايتباى ودوج البندقية عام ١٤٨٣ ومعاهدات الغورى والبنادقة وخاصة المعـــاهدة الشاملة (١٥) . والمثل الشائع فى أوربا فى العصور الوســطى « ان شيئا ما غال كالفلفل » ، ومنشأ ذلك أنه كان للفلفل قوة شرائية يتعامل بها فى ظروف معينة فكان من العادات الشائعة بين رؤساء الكنيســة الفرنسية أن يتقاضوا العشور توابل ، فلفلا أو جنزبيلا كما كان العبيد يشترون حريتهم بأحمال من الفلفل ، ويفرض على اليهود جزية ضرائبية قوامها الفلفل والجنزبيل والشمع . نظير السماح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس لأبنائهم « وفى انجلترا كانت له قوة شرائية مثــل العملة تماما لندرته وغلوه بل انه كان يقوم مقام المال فى الايجارات الزراعية ومهور الزواج » . (١٦) وساحل المالابار هو مصدر أوربا من هذا التابل فى العصور الوسطى وتزرع منه كميات كبيرة كذلك فى كلكتا وسيلان والهند الصينية وإن كانت مدن ساحل مالابار أوفرها انتاجا . وعندما شدد البرتغاليون قبضتهم على الهند كان الفلفل يهرب الى مكة ومنه الى أوربا كما أن بعضه كان يصل للصين (١٧) . وكمية الفلفل المرسلة الى أوربا تصلها عن طريق مصر والبندقية حتى احتــل البرتغاليون مناطق انتاجه فصارت لشبونة مركز تصدير لأوربا (١٨) .

---

(١٥) بالملحق معاهدتى قايتباى والغورى الاولى برقم (٢) والثانية برقم (١٣) راجع كذلك :

— Sonia, Op. Cit. p. 72.

(١٦) — Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 658, 659-662-664.
— Sonia, Op. Cit. p. 20, 21.

(١٧) هناك أنواع أخرى اقل قيمة وتأتى على مايذكر من الملايو والهند الشرقية وتقدر حمولة المركب الصينية بعدد أسبات الفلفل التى كانت تحملها وفى عام ١٥١٥ كان ما حملته السفن الى الصين من الفلفل من جزيرة سومطرة حوالى ٦٠٫٠٠٠ قنطار ليعاد تصديره للغرب » .

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 205.

(١٨) — Heyd, Op. Cit. p. 660.

ولفلفل سيلان سمعة طيبة الا أن سيطرة البرتغاليين على تجارته فى الهند وسيلان فى مطلع القرن السادس عشر حجب وصوله لمصر وأوربا عن طريق البندقية ووصل بدله فلفل جزر الهند الشرقية والهند الصينية . وفلفل سومطرة من النوع الطويل ، وكان قبل ذلك نادرا ما يصل لمصر والغرب لبعد مصادره ولكفاية ما كان يصل من الهند (١٩) . وليس معنى ذلك أن الصين لا تزرع الفلفل ولكن الثابت أنها كانت تزرع كميات هائلة منه بالاضافة الى ما يرد لها من جزر الهند الشرقية والملايو ليعاد تصدير الكل على السفن الواردة من الهند ومن البحر الأحمر لأن موانىء الصين تستقبل السفن الضخمة (٢٠) . ولهذا كان سعر الحمل الذى يساوى أربعة جنيهات على السفن المتجهة مباشرة من الهند الى البحر الأحمر يساوى بعد خروجه من الصين حوالى ١٥ دوكات (٢١) . ومن أهم استعمالاته لدى الأوربيين تأثيره القوى فى علاج بعض الأمراض وادخاله فى صناعة النبيذ وحفظ الطعام (٢٢) . واذا كان الفلفل قد استخدم بكثرة فى الأطعمة المتبلة وفى بعض حالات العلاج

---

(١٩) — Heyd, Ibid, p. 665.

(٢٠) « ان كل شحنة مركب واحدة ذاهبة للهند أو الاسكندرية أو أى مكان آخر او متجهة للمناطق المسيحية كان يأتى مئات امثالها وأكثر الى ميناء زيتون بالصين »

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 205.

(٢١) — Clerget, Op. Cit. p. 343.

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 663.

(٢٢) للفلفل تأثير قوى كعلاج للامراض فهو عند مزجه بورق الغار يفيد فى حالات لدغ الكائنات السامة وعندما يمزج بالزيت يكون مرهما مفعوله قوى التأثير واذا أضيف الى النبيذ أفاد فى النزلات الشعبية والتهاب الرئة وهو يستخدم كثيرا فى تنشيط الجهاز الهضمى وحفظ اللحوم والاغذية لمدة طويلة .

— Sonia, Op. Cit. p. 20.

ويقول الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٣ و ٤١٤ أنه حار يابس جدا وفيه جذب لأصول البلغم ويسكن العصب ويلطف الاغذية الغليظة ويهضم الطعام ويمنع ظلمة البصر .

الطبى ، فان الشرق أنتج محاصيل عديدة اقتصرت الافادة منها على صنع العقاقير الطبية .

ولفظ العقاقير الطبية يفيد معنى الأدوية بمفهومها الآن ، وهـو يتصل اتصالا وثيقا باقتصـاديات المدن فى العصور الوسطى وكانت القاهرة سـوقا رائجة لتجارة الأعشـاب الطبية وصناعة الأدوية من الأعشاب الواردة من الشرق وكانت معروفة لأهالى القاهرة وللعرب كافة وان غابت عن أفهام الأوربيين فى ذلك الوقت . وقد مهر المصريون منذ القدم فى معرفة جواهر العقاقير الطبية والتوابل الشرقية ويباع من هذه الأعشاب مالا يقل عن ٦٠٠ قنطار تبلغ قيمتها حـوالى ٣٠٠٠ جنيه تضاعفت الى خمسة أمثالها فى النصف الثانى من القرن الخـامس عشر بعضها للاستهلاك المحلى ، والبعض الآخر للتصدير لأوربا بعد أن بدأ الأوربيون يقدرون قيمتها العلاجية . هذه الأعشاب الطبية هى التى طورت طب العصور الوسطى الى الطب الحديث القائم على العلاج بالعقاقير حتى انه يقال « ان علم الكيمياء الحديث قد قضى على تجارة مصر وثرائها فى الأعشاب والعقاقير الطبية » (٢٣) .

ومن بين مئات السلع التىاستخدمت كعقار طبى القرفة ــ القرنفل ــ الخلنجان ــ الزنجبيل ــ الهند شعيرة ــ وخيار شمر أو شنبر ــ والراوند ــ والحفص ــ والمن والبلسم ــ والكافور وعرق الكافور ــ والعود الهندى ــ والحبهان ــ وجوزة الطيب ــ والزعفران ــ والتوتيا .

والقرفة أو الدارصينى من بين السلع التى دخلت فى صـناعة العقاقير الطبية ولم تعرف فى أوربا الا منذ القرن الثامن الميلادى ، وبخاصة فى فرنسا ، اذ كانت تصل مع العطور والبخور كهدايا للملوك والأمراء ، ثم عرفت عن العـرب كمـادة طبية تسـتخدم فى صـناعة

---

(٢٣) — Clerget, Op. Cit. pp. 349, 350 & 356.

العقاقير (٢٤) . والقرفة اسم يطلق على لحاء شجرة القرفة ويعرفها العرب منذ العصور الأولى ، وتستخدم مطحونة فى حفظ الأطعمة والنبيذ كما كانت معروفة فى موانىء شرق البحر المتوسط . وتأتى القرفة من ملقا وتصل القاهرة عن طريق البحر الأحمر . وفى فارس تعرف باسم « خشب الصين » نسبة الى مصدرها القديم حيث كانت تتوافر فى جنوب الصين كما أنها تنمو فى الهند الصينية وعرفها الغربيون باسم أوراق الهند وقد نقل البرتغاليون منها كميات ضخمة أواخر القرن الخامس عشر حيث اتخذت عنصرا هاما من عناصر الدواء (٢٥) . ولم تذكر المصادر العربية أهمية سيلان فى زراعة هذا التابل ، وان ذكرته الكتب الغربية ورحلات الغرب منذ القرن الرابع عشر ، وهو فى حوانيت العطارة فى مصر سلعة من الهند وسيلان ، ويبادل أهالى ساحل كروماندل ومالابار القرفة بالملابس أحيانا (٢٦) . وهناك نوع آخر ينمو فى اليمن (٢٧) . وشجرة القرفة تشبه شجرة الصفصاف الا أنها تفوقها ارتفاعا وتنمو أفقيا لا عموديا ، وأجود ما فيها لحاؤها وأغصانها . ولحاء الساق سميك ، أما الأوراق فأكبر من أوراق شجرة الغار وان كانت

---

(٢٤) تذكر مصادر العصور الوسطى شجرة القرفة باسم Cinamonan وأحيانا تختصر الى Cinname Or Cinamum والاسم الحديث هو Canella وهو اقل جودة من النوع المسمى Cynamome

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 595-596.
— Clerget, Op. Cit. p. 343.

(٢٥) يذكر ابن البيطار فى الجامع لمفردات الأدوية والاغذية ج ١ ص ٨٣ و ٨٤، ١٠٤ « ان أصله من الصين لذا عرف باسم الدار صيني وأقل أنواعه يعرف باسم دار صوص ويسمى قرفة القرنفل أما «الدارصيني» الحقيقى فهو أضخم وفيه حمرة ، وطعمه حريف قابض مع حلاوة ثم مرارة والنوع الردىء رقيق وصلب يميل للسواد يفيد المعدة ويجلو البصر ويذهب البرد ويستخرج منه دهن يصلح كملين .

الكوزى : المصدر السابق ورقة ٤١٤ .

(٢٦) — Heyd, Op. Cit. T. II. p. 598.

(٢٧) — Sonia, Op. Cit. pp. 18-19.

تشبهها ، وثمرتها مثل ثمرة حبة الغار ويستخرج منها زيت قوى يستعمله الهنود مرهما للجروح والحروق ومتى جردت الشجرة من لحائها وثمرتها استعملت وقودا (٢٨) . وقد أدرك البرتغاليون منذ دخولهم الهند أهمية القرفة فى التجارة ، كما أدركوا أن قرفة قاليقوط أقل جودة من قرفة سيلان ، لأن سيلان تعنى بزراعتها وتوليها أهمية خاصة وتعنى باقتناء وغرس الأشجار الممتازة . لذا كانت أسعارها فى سيلان قدر أسعارها فى قاليقوط حوالى أربع مرات تقريبا (٢٩) . وأجود أنواع القرفة ذات اللون الأحمر الخفيف والطعم القوى الحريف (٣٠) .

ومن بين الأفاويه التى كثر اســـتعمالها فى الأغراض الطبية فى العصور الوسطى القرنفل وقد ورد ذكره بكثرة كذلك فى الكتب التى تتحدث عن حفظ الأطعمة وبخاصة الأسماك فى طعام المسيحيين فى أوربا خلال صيامهم الطويل كما تستخدمه الطبقات البرجـــوازية فى تتبيل اللحوم أكثر من طبقات الأمراء . ومنذ الحروب الصليبية كثر استعماله بعد أن جلبت كميات كبيرة منه لأوربا عن طريق موانىء شرق البحر

---

(٢٨) لا تستعمل القرفة فقط للحائها ولكن كذلك لزهورها وتحتوى أوراقها على زيت طيب طيار ذو رائحة عطرة يفيد فى أمراض الأمعاء كملين ومرهم .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤

— Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 599-600.
— Sonia, Op. Cit. p. 72.

(٢٩) كان غرض البرتغاليين من حملتهم الأولى على سيلان هو التحكم والاستحواذ على تابل القرفة (الدارصينى) المزروع بالجزيرة والذى بدا لهم أنه أفضل من المزروع فى ساحل مالابار وأغلى منه ثمنا . ومع ذلك لم تكن سيلان معروفة بزراعته ، وكان يظن أنه يأتى من الصين . وقنطار القرفة فى سيلان يساوى ما قيمته ضعف ونصف مثيله وأحيانا يصل الى أربعة أمثال ثمنه فى مدن ساحل مالابار . وشجرة القرفة متوسطة الحجم والطول والبرتغاليون هم الذين ، اكتشفوا أن بسيلان أفضل أنواع القرفة .

— Dames, Op. Cit. Vol. II. pp. 113-114.

(٣٠)وثيقة رقم ١٧٥ ص ٣٤٨ من راجوزا عام ١٤٥٨ عن فحص السلع ونصائح للمشترين .

— Lopez, Op. Cit. p. 349.

المتوسط ، وكان ثمنه ضعف ثمن الفلفل حتى أوائل القرن السادس عشر لا سيما بعد أن دخل الصينيون كتجار له بالأسواق ، ثم انخفض السعر بعد ورود كميات ضخمة منه على يد البرتغاليين بعد أن داروا حول افريقية ولا تكاد تخلو صيدلية فى العصور الوسطى من القرنفل (٣١) . وأواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بلغ ثمن حمل القرنفل الذى يزن ٧١٥ رطلا بموازين البندقية ٢٥ دوكا تسليم ملقا وجاوة للتجار الوطنيين وما بين ١٠/١٢ دوكا للأجانب ، أما فى قاليقوط فلم يقل سعره عن ٥٠/٦٠ قطعة ذهبية . ومن هنا عرف سبب ثراء تجار هذا التابل من الوطنيين والأجانب على السواء (٣٢) . وقد ظل مصدر تصدير القرفة الى أوربا مجهولا فترة طويلة ولم يعرف الا أن الصين مصدره ومنها أخذ الاسم وان العرب هم وسطاء نقله من الشرق عبر الخليج الفارسى أو البحر الأحمر ، ولكن ذكر مؤرخو الغرب أنه من زراعات الهند والأرخبيل الهندى وجزر ملوك وجاوة وسيلان (٣٣) . ولكن هذه الجزر فى الواقع لم تكن أكثر من محطات تجارية على الطريق لغرب آسيا (٣٤) . وفى عام ١٥٠٤ كان الرحالة فارثيما أول أوربى يضع أقدامه فى جزر ملوك وشاهد بنفسه قرون القرنفل على أشجارها ووصفها والقرنفل المعروف الآن هو براعم الشجر (٣٥) . وينحنى هذا البرعم بساقه وجزئه الأعلى المستدير

---

(٣١) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 603-604.

(٣٢) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٤ ص ٨/٧ .
— Depping, Op. Cit. I. p. 44.
— Sonia, Op. Cit. pp. 18-19.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 655.

(٣٣) ابن البيطار : المصدر السابق ونفس الصفحات .
الجزرى : المصدر السابق ورقة رقم ٥٢ .

(٣٤) — Heyd, Op. Cit. II. p. 605.

(٣٥) اسم نبات القرنفل العلمى Bugenia Caryephllata.

وبعد جمعه يعرض للشمس ويجفف ويعرض للبيع، ويشترط أن يحتفظ بلونه الأحمر القانى دليل نقاوته ويحق للتجار رفضه اذا كان على درجة من الاحمرار أقل من ذلك . أما أوراقه ففيها عطر طيار مثل الموجود فعلا فى قرون القرنفل (٣٦) .

أما تابل الخلنجان فهو من المواد كثيرة الاستعمال فى الطب وشجرته تعرف باسم « خسرودار » ولها عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والحمرة وترد من الهند وقد استعمله الغرب الأوربى فى العصور الوسطى فى الطب والطهى ويستورد من موانىء بيروت والاسكندرية وعكا . وفى الطب يميزون بين نوعيه الكبير وهو الأحمر القانى ويرد من الهند والصغير البنى الخفيف ويرد من الصين (٣٧) .

واعتبر الزنجبيل فى العصور الوسطى من أكثر التوابل شيوعا وتداولا ولا يقل فى استعماله عن الفلفل والبهار وهو يطرح فى الأسواق على صورتين اما أخضر واما مخلوطا بالسكر ويدخل فى صناعة العقاقير الطبية والطهى وحفظ وتحضير الخمور ويزرع بكميات كبيرة فى الهند والصين وسمرقند وبعض البلاد العربية .

وزنجبيل بلاد العرب والهند هو الذى يصل الى أوربا . والنوع الهندى ثلاثة أنواع الجبلى والبلدى والدلى ، ويزرع الأول والثانى

---

(٣٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٥ .

يذكر ابن بطوطة « ان ما يجلب لبلادنا هو نور القرنفل وهو الذى يسقط من زهرة ويشبه زهر النارينج وثمر القرنفل هو « جوزبوا » المعروف فى بلادنا باسم جوزة الطيب أما الزهر المتكون منها فهو « البسباسة » .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 607.
— Lepez, Op. Cit. p. 349, DOC. 175.
— Ferrand, Instructions Nauatique

(٣٧) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٥ .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨٠/٧٩ .

يفيد الخلنجان فى علاج أمراض الكلى والمعدة والقصبة الهوائية .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 617.

على الجبال وان كان الأول أفضل من البلدى ويكثر زراعتهما فى قاليقوط حين يزرع الصنف الثالث على ساحل كانانور (٣٨) .

وهناك نوع آخر ينسب الى مدينة كولام (٣٩) ، والرطل منه يساوى اذ ذاك مايوازى الآن عشرة فرانكات لكل ١١ أوقية صافى ويرد لأسواق مكة زنجبيل مدغشقر وزنجبار ، ويباع بضعف سعر الزنجبيل فى كولام (٤٠) .

ومن العقاقير الطبية الشرقية التى نالت شهرة عظيمة فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء « البلسم » انتاج شجرة البلسان . وتكثر زراعة أشجاره فى حدائق المطرية بالقرب من القاهرة. ولهذه المنطقة شهرة روحية عميقة فى مصر ، ومنذ العصور الوسطى المبكرة وهى موضع احترام الناس على اختلاف أديانهم من مسيحيين ومسلمين . وتقول القصة الدينية أن السيدة مريم فى هربها بالطفل يسوع المسيح من طغيان هيرودس الحاكم الرومانى لبيت المقدس ، نزلت والطفل ، ويوسف النجار ، هذه الناحية وجلست لتستريح على الأرض والطفل فى حجرها بعد أن نال منهم التعب والعطش وهنا حدثت المعجزة ، فقد أخذ الطفل المقدس يحرك رجليه كما تفعل الأطفال عادة ، ولامس كعباه الأرض فتفجرت عين ماء فى ذلك الموضع وروت

---

(٣٨) — Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 619-620-622, 623.
— Sonia, Op. Cit. p. 19.

(٣٩) هناك نوع يحمل من بلاد المغرب وأرض عمان ويشبه فى طعمه طعم الفلفل ويحمل الى ايطاليا فى أوانى خزفية ويستعمل فى العلاج الطبى لأمراض ، القصبة الهوائية . انظر :

ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٧ .

– زنجبيل كولام يعرف باسم زنجبيل كولمبينو وهى غير عاصمة سيلان .

(٤٠) يذكر الجزرى نفس المصدر والورقة ان أجوده الصينى المائل للصفرة ويشبه الفلفل فى منافعة .

أمهعطشها وغسلت له ثيابه. وحدث أن سقطت بعض البذور من شجرة البلسان حيث الماء المتفجر ونمت أشجاره وازدهرت وأصبحت مزارا للمسيحيين من جميع الأقطار بعد عودتهم من بيت المقـــدس للتبرك بالشجرة المقدسة كجزء مكمل لحجهم . وقد نالت المنطقة وأشجار البلسم بها رعاية حكام مصر على اختلاف طوائفهم (٤١) .

وتذهب الروايات الى أن البلسم المذكور معجزة من المعجزات وأن أفضله لاينبت بمكان ما على الأرض الا بالمطرية . وفى رأيهم أن هـــذا قد يكون لقداسة المكان أو لطيب أرضه وصلاحيتها لنمـــو هذا النوع من الشجر . وتجرى عصارة الشجرة فى موسم بعينة من السنة فتتضخم الشجرة وفروعها بشكل ظاهر ويعمد عمال الحديقة الى احداث الشقوق فى لحائها متفادين خشب الشجرة نفسه وأحيانا ينزعون الورق فيسيل السائل السحرى ويجمعونه فى أوان وقدور خاصة ويلاحظ ضرورة سد الشقوق بعد فترة مناسبة حتى لا تموت الشجرة لكثرة ما قد ينزف منها من عصارة ، والسعيد من نال قطرة على قطعة قطن منــدوفة والعصارة المجموعة توضع فى قدور فى وهج الشمس ويطفو الزيت وتهبط الشوائب ثم يؤخذ ويغلى على النار فيكتسب لونا أحمر جذابا ويعتبر هذا من أرقى الأنواع . ومحصول العام الواحد يزيد على ٦٠ رطلا فى أو فى الأعوام (٤٢) .

---

(٤١) « نالت الاشجار والمنطقة المزروعة بها شهرة عالمية ودينية كما ان طريق الحج عبر سيناء يمر بهذه القرية التى تبعد عن القاهرة مسافة ٤ فراسخ » .

— Harff, Op. Cit. p. 127 & R. 1.
— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 575.
— Clerget, Op. Cit. p. 530.
— Sonia, Op. Cit. p. 15.
— Depping, Op. Cit. T. 1. p. 73.

ابن اياس : نشق الأزهار ورقة ٣١ و ٣٢ .

(٤٢) يذكر ناصر خسرو فى رحلته « أن حب البلسان لا ينبت حيثما يزرع واذا نبت فى غير مكانه فلا يخرج زيتا ، وشجرته مثل شجرة الآس ويشدبون غصونها بالنصل حين تكبر ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن ، كالصمغ وحين ينفذ ما فيها =

والبلسان احتكار سلطان مصر وتراقب عملية جمعه مراقبة شديدة لقلة الناتج وكثرة الطلب عليه وغلاء سعره . ويباع المحصول لحساب السلطان فهو صاحب المزرعة ، لذا سورت منطقة أشجاره ووضع عليها الحرس ليلا ونهارا ويحضر السلطان بنفسه جمع المحصـــول وتقطيره ويضعه فى كئوس من الفضة (٤٣) . ويتولى اهداءه هبات وهـــدايا الى ملوك وأمراء ورؤساء جمهوريات الدول المسيحية فى أوربا التى تتعامل معه وملك الحبشة ، كما كان يمنح منه هدايا للشخصيات الدينية الكبيرة المارة ببلاده ويذهب جزء آخر الى المستشفيات لعلاج المرضى . وما يتبقى منه يباع لحساب السلطان بأســـعار عالية . وكانت بعض

= من دهن تجف ويحمل البستانيون غصونها الى المدينة ويبيعونها . ولحاؤها ثخين وطعمه كاللوز حين يقشر وينبت فى جذعها أغصان فى السنة التالية فيعملون بها كما عملوا فى السنة الغابرة » . (لم يلحق ناصر خسرو عصر المماليك الذين احتكروا نتاج الأشجار المذكورة وفى القرن ١٥ أصبحت المزرعة ملكا لسلاطينهم) انظر زكى حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ رحلة ناصر خسرو ص ٥٦.

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 575.
— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(٤٣) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٩/١٠ . « ان أشجار البلسان فى عين شمس محاطة فى مساحة سبعة أفدنة ، وارتفاع شجرة البلسم نحو ذراع أو أكثر من ذلك وعليها قشران : الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين ، واذا مضغ ظهر فى الفم منه مادة دهنية ورائحة عطرة وورقه يشبه ورق السذاب ويجتنى دهنه منذ طلوع الشعرى ، بأن يشدخ الساق بعد ما تجت عنها كل أوراقها وشدخها يكون بحذر بحجر بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ للخشب . فاذا نفذ للخشب لم يخرج منه شيء . واذا شدخ كما أسلفنا أمهل ريثما يسيل لثاه على العود فيجمع بأصبع فى قنانى زجاجية ويجمع منه سنويا ٢٠ رطلا . (يقول هايد ص ٦٠) وتؤخذ القنانى فتدفن فى القيظ والحر الشديد ثم تعاد الى الشمس وتفتقد كل يوم ويطفو الدهن ويقطف ثم تعاد ثانيا للشمس ولا يزال كذلك حتى لا يبقى فيها دهن ثم يؤخذ الدهن ويطبخ ولا يطلع أحد على طبخه ثم يرفع الى خزانة الملك ويصل جملة المجموع النقى عشر الكمية) .

أما الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤٨٤ فيذكر «أن شجرة البلسان أو البلسم تشبه الآس ، ويقال ان السيد المسيح عليه السلام اغتسل فى هذا البئر ، وهو يقلم فى الثانى والعشرين من طوبة ويسقى الى آخر هاتور ـ ويستخرج دهنه بأن تشرط الأغصان بمشرط من حجر وكذلك الجذع ويجمع ما يخرج منها بالظفر فى الاصداف والقوارير وتدفع الى رجل نصرانى يعرف طبخه ولا يعلمه الا لولده ، وهو أثمن دهن فى الدنيا ».

— Sonia, Op. Cit. p. 16.

الشخصيات التى تحصل عليه هبة تبيع ما يهدى اليها للأجانب للحصول على حاجتهم من هذا الزيت المقدس عند المسيحيين ، اذ أن ملوك الفرنج كانت تتغالى فى شراء هذا البلسم بثقله ذهبا لأنه لا يتم عندهم التنصر الا بعد وضع شيء من دهن البلسان فى ماء المعمودية وينغمسون فيه، ويستخرج الدهن من الشجر فى شهر برمهات من كل عام (٤٤) « وما يصرف منه باذن السلطان يكون بمرسوم عال ويرسل كذلك لملوك الحبشة (٤٥) » . ولكثرة حاجة المسيحيين لهذا الزيت يعمد بعض التجار الى تزييفه ، فكان السلطان يعاقب بشدة كل من يثبت أنه باع بلسما مهدى للأجانب أو بلسما مغشوشا ، وعمال الحديقة هم الذين يتولون عملية الغش اذ تترك لهم فروع هذه الأشجار فينالون بقاياها ويتولون بيعها لحسابهم الخاص بعد عصرها ، والدهن المستخرج نوع ردىء غير نقى مختلط بعصارات أخرى من أشجار مختلفة (٤٦) ومع ذلك كان يباع

---

(٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور (طبعة كالة) جـ ٤ ص ١٤٩ حوادث ذى الحجة ٩١٤ هـ .

— Harff, Op. Cit. pp. 127, 128 & R. 1. p. 127.

يذكر هارف « أنهم يقطعون أطراف الشجرة فى شهر مايو من كل عام ، ويتركون السائل الذى هو عصارتها ليسيل فى أوان معدة لذلك ، وهذه هى نقط البلسم ويفعلون ذلك ثلاث مرات ، وثالث قطفة أفضل من الثانية وهذه أفضل من الأولى (أخطأ هارف فى هذا والعكس هو الصحيح) ويرسل السلطان أجود الأنواع هدية كل عام الى بابوات أوربا وملوكها وسلطان تركيا وخان الصين وامبراطور الحبشة (وكان يظن أنه القس يوحنا) وملك الهند » .

فى وثائق تنازل السلطان قايتباى اداريا عن قبرص للبنادقة رسالة من السفير البندقى للدوج عن أحوال مصر عام ١٤٨٩ م وموجودة بالملحق رقم (٤) عن منح السلطان للمبعوث البابوى كمية من البلسم هدية فقرة (١) وهى ترجمة الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر .

— Senato, Secreta xxxiv fo 30-33.

(٤٥) ابن اياس : نشق الازهار (مخطوطة) ورقة ٣٢ .

(٤٦) Breydenbach, Les Saints Peregrination, p. 39 & N. 2 p. 45. —

يذكر برايدنباخ « أن البلسم الممتاز لا يوجد الا فى مطرية مصر ، وله مركز ممتاز فى العالم المسيحى ، ويدير سواقى الحديقة اربع ثيران لكى تروى بصفة دائما ، وغش البلسم يكون بماء الورد » .

— Heyd, Op. Cit. T. 11. pp. 575-580.

بأسعار خيالية . ولما كان المستخرج لا يكفى عمد التجار الى خلطه بأنواع رديئة مستوردة لتقليل الثمن وسد حاجة السوق مما قلل قيمته الشفائية للأمراض (٤٧) .

ولم تكن المطرية بمصر هى التى تحتكر وحدها زراعة البلسان ، وان كانت تحتكر بالفعل أفضل أنواعه فقد وجدت أنواع أخرى أقل قيمة كانت تختلط بالنوع النقى لسد حاجة السوق ووجدت فى الشام وفلسطين واليمن (٤٨) . وان كان قد قل انتاجه فى القرنين ١٣ و ١٤ واقتصر على ما تنتجه مصر وحدها . وعلى أى حال فان البلاد العربية تتصدر انتاج هذا الزيت بدليل أنه لما أهملت فى مصر فى أواخر القرن الخامس عشر، صار تجديدها بعد ذلك بأشجار من البلاد العربية . فمنذ وفاة السلطان قايتباى ومنطقة المطرية لا تحوز اهتمام الحكومة، وأهملت العناية بالشجرة وانهار محصوله وتجارته ثم دمرت خلال الصراع على السلطنة بين الناصر محمد بن قايتباى وقانصوه خمسماية ١٤٩٧ م (٤٩) . وانقطعت زريعته من أرض المطرية حتى ولى السلطنة

(٤٧) — Depping, Op. Cit. I. pp. 73-74.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 576-577.

(٤٨) — Sonia, Op. Cit. p. 15.

(٤٩) يعزى تدمير منطقة زراعة البلسم بالمطرية الى قانصوه خمسماية الذى عزل السلطان محمد بن قايتباى وتولى السلطنة بدله ولكنه لم يثبت عليها سوى ثلاثة أيام دعى بعدها السلطان المعزول مرة ثانية . والرحالة هارف عاصر هذه الأحداث ورأى بنفسه الصراع على السلطة ، فاعلن قانصوه نفسه سلطانا على مصر بعد أن عزل السلطان محمد ابن قايتباى على أنه من المماليك المشتراه وليس من أولاد الناس الذين لا يحق لهم اعتلاء العرش مثل ابن قايتباى وكانت العادة أن يعتلى الحكم ابن السلطان المتوفى ويبقى به حتى يستقر الأمر على سلطان من المماليك المشتراه . ولاحظ هارف أن هذا الأمر لا يهم الوطنيين بل يهم المماليك وحدهم وان كان الخراب والدمار يصيبان الأهالى . وبعد ثلاثة أيام استطاع محمد بن قايتباى أن يسترد السلطة وفر قانصوه ليلا وتسلل وأعوانه الى المطرية حيث مزرعة السلطان من أشجار البلسم ورثها عن أبيه فاقتلع أعوانه الشجر الصغير ودمروا السواقى وذبحوا الثيران وسووا الأرض فى المنطقة المقدسة ، وشاهدها

قانصوه الغوري » وتكدر السلطان لذلك ولا يزال يفحص أمره حتى أحضر اليه بلسان برى من بعض أماكن الحجاز وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى المكان المشهور به فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر التي بالمطرية وطلع ما كان قد بطل أمره من مصر فعد ذلك من محاسن الملك الأشرف الغوري (٥٠) . ثم حدث بعد ذلك أن بعض المخربين جردوا الحديقة من أشجارها مرة أخرى ونسبوا ذلك لبعض الأجانب، وبدأ الناس يقطعون أشجارها ويستعملوها للحريق حتى استولى الأتراك على مصر فاعتنوا بها وبدأ ظهورها مرة أخرى ، ولو أن لونه أصبح أشهب ، ويعرف الجديد باسم بلسم مكة لأن شتلاته منها (٥١) . ومصر وحدها هى التى كان ينمو بها شجر البلسان الأنثى ، أما الشجر الذكر فينمو فى ايران وبلاد العرب وانتاجه أقل من الأنثى ولونه أشهب (٥٢) وكان الكيميائيون فى أسبانيا والصيادلة فى القرن الخامس

هارف بنفسه على هذا الوضع المؤثر وحمل احداها معه ويقول ان الأهالى اخبروه بانه لن ينمو بلسم منذ الآن الى عشر سنوات قادمة » .

— Harff, Op. Cit. pp. 104, 105-127, 128.
— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 578.
— Dopp, Op. Cit. p. 30.

(٥٠) ابن اياس : المصدر السابق : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٩ حوادث ذى الحجة ٦١٤ هـ .

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 578.
— Dopp, Op. Cit. pp. 29, 30.

(٥١) من الرحالة الأجانب الذين شاهدوا آثار التخريب مارتن ده باوم جارتن Martin De Baum Garten وبيير مارتير دا انجليرا Pierre Martir D'Angliera
— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 579.
— Clerget, Op. Cit. p. 352.

(٥٢) البلسم النقى بلون الذهب واذا وضع فى الماء غاص للقاع والانواع الاخرى. شهباء بالملحق رقم (٦٤) فقرة (٢) .

— Lopez, Op. Cit. p. 349. DOC. 175.
— Day, Op. Cit. p. 79.

عشر يعرفونه باسم «حب البلسان» وعرفت هذه الأنواع فيما بعد فى منتصف القرن السادس عشر (٥٣) .

ومن أنواع السلع التى كثر استخدامها فى صناعة العقاقير الطبية فى العصور الوسطى الكافور وعرق الكافور ، وترجع معرفة العرب له الى أيام فتوحاتهم الأولى فى فارس ويرد اليها من الهند وجزر الهند الشرقية ويحصلون عليه بعد أحداث شق فى الشجرة فيسيل السائل فى أوانى وأحيانا يحصلون عليه من قلب الشجرة نفسها ، ويرد للتجار العرب خاما أو نقيا وله أنواع وألوان وخواص شتى حسب مصادره . وأفضل أنواعه مايرد من سومطرة والصين وجزر بورنيو ، ولم ينتبه الأوربيون لكافور هذه الجزيرة الا بعد وصول البرتغاليين اليها وكان كافورها يصل قبلا للهند عن طريق ملقا (٥٤) . ويذكر المؤرخون العرب ورحالتهم أن تجارته بالهند ضخمة حتى أن الواحدة منها تظلل مائة رجل وأكثر ولا يوجد بها السائل الكافورى الا فى أوقات معينة من السنة حيث يثقب وسط الشجرة وتملأ منه الأوانى ثم تسد ، وأجود أنواعه ما يسمى باسم المقاصيرى (٥٥) وهناك نوع آخر فى سيلان وجزر الهند الشرقية والصين وسوفاله يعرف باسم الرياحى الأبيض (٥٦) . أما الغرب الأوربى فكان يحصل على الكافور فى

---

(٥٣) استقصى الرحالة بيلون Belon عام ١٥٤٩ عن نوع حب البلسان Grain de Baum نعرف أنها زراعة من نصف قرن تقريبا مضى من أصول من مكة والمدينة .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 579.

(٥٤) — Heyd, Ibid, II. pp. 592-593.

(٥٥) الجرزى : المصدر السابق ورقة ٤١٧ و ٤١٨ « يذكر أنه يفيد فى تقوية الاعصاب والقلب والكبد ويذهب الرطوبة » .

(٥٦) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٢ و ٤٣ . ويعرّف نوع منه باسم الرياحى نسبة الى أول من عرفه » .

— Ferrand, Op. Cit. II. p. 112.

العصور الوسطى من اليابان وجزر فرموزا ويستعمل العــرب كافور بورنيو ، وقد قلت كمية الكافور فى العصور الوسطى بسبب ســوء استعمال الأهالى للشجرة وترك السائل ينزف منها دون سد ثقوبها . وتستخدم الهند كميات كبيرة منه فى تحنيط الجثث وتعطير ، المعابد والتماثيل ، كما كان يصدر بعضه للبلاد العربية وأوربا وسعر الكافور يتضاعف عند نقله خارج مواطنه لمصاريف النقل والجمارك وبخاصة فى القرنين ١٥ ، ١٦ م حيث كثر الطلب وقل المعروض ، وعمد تجــاره الى غشه، وأصبح النوع المتداول لايفى بالأغراض الطبية المطلوبة (٥٧) ويشترط فى الكافور أن يكون أيضا نظيفا غليظ القوام (٥٨) . ويذكر مع الكافور عرق الكافور ويرد للغرب من شرق البحر المتوسط ويباع على أنه الكافور الوارد من الشرق الأقصى والهند ومصـــــدره كذلك سنغافوزة وجاوة (٥٩) .

ومن هذه السلع أيضا ثمرة ذات نواة من نوع فواكه الخــوخ والبرقوق وهى الهند شعيرة المعروفة باسم الاهليلج وتمثل فى العصور الوسطى احدى السلع التجارية كثيرة الاستخدام فى الطب ، ويذكــر الرحالة الشرقيون والغربيون خمسة أنواع لها (٦٠) . ومصدرها الهند

---

٥٧) كثر استعمال هذا النوع فى الطب وكثر وجوده فى حوانيت الصيادلة فى العصور الوسطى « العطارين » فى مصر واوربا وعرف الغرب خواصه عن العرب واليونان فاكثروا استعماله فى عياداتهم .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 594 & ff ;
— Sonia, Op. Cit. p. 17.

(٥٨) — Depping, Op. Cit. I. p. 143.
— Day, Op. Cit. p: 80.
— Lopez, Op. Cit. p. 349, DOC. 175.

(٥٩) — Heyd, Op. Cit. II. p. 676.

(٦٠) يذكر الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٧ « ان المعروف منه أربعة فقط : الأصفر وهو الفج ، والأسود وهو البالغ ، والكابلى الاكبر ، والصينى الرقيق ، واحسن الانواع الشديد الصفرة الضارب للخضرة ، وهو يفيد فى علاج أمراض المعدة والأمعاء والبصر ، ولتحضيره كعلاج طبى يمزجون ٣ أنواع منه يطلق عليها اسم Triphala .

وأفغانستان وخراسان وأكثر أماكن نموها ، ساحل الملابار بالهند وخاصة منطقة كولام . وفى الشمال تمتد مناطق زراعته حتى كابول فى أفغانستان ، ويحصل الغرب الأوربى على حاجته من هذه المادة من أسواق الاسكندرية التى يصلها من قاليقوط ومنجالور . ويحب الهنود هذا التابل لمقدرته على الهضم وشفاء أمراض المعدة والأمعاء . وظل الأهليلج هذا لفترة طويلة على رأس قائمة عقاقيرهم الطبية (٦١) ولما كثر استعماله ارتفع ثمنه حتى أمكن الاستغناء عنه بعقاقير أخرى أكثر استجابة من هذا النوع فى شفاء الأمراض . وفيما بعد اقتصر استخدامه على الصبغات (٦٢) .

وهناك سلعة عقاقيرية أخرى اقتصر استعمالها فى الشرق هى « خيار شنبر أو خيار شمبر » . وقد أتيح لتجار الغرب المارين بالاسكندرية أن يروا هذا النبات مزروعا فى حدائق الأسكندرية وحول المدينة ، وهو نبات غريب عنهم وتستعمل الأجزاء العليا من ساقه حتى البراعم وتدخل فى صناعة العقاقير الطبية (٦٣) . وتباع فى أسواق القاهرة والاسكندرية ودمياط كما تجود زراعته فى جميع أراضى مصر (٦٤) . ويذكر رحالة العصور الوسطى هذا النبات كأحد أشجار

---

(٦١) — Heyd, Op. Cti. II. pp. 640-641.

(٦٢) — Heyd, Ibid, II. p. 643.

(٦٣) يستعمل فى الطب كمدر للصفراء وتسكين آلام الأورام وضيق الصدر كما يفيد فى آلام المفاصل .

الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٦ .

ابن البيطار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٦٤) يذكر ابن البيطار : المصدر السابق جـ ١ ص ٨١ أن هذا الشجر مألوف ويعرف فى الاسكندرية ويحمل الى الشام والبصرة .

ويذكر الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٦ انه لا ينبت الا بارض مصر واجوده ساقه البراق الأملس القشرة .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 602.

الهند ، وبخاصة فى كانانور وقاليقوط وجاوة . ويساورنا الشك الكثير فى وصول (خيار شمبر) الى أوربا عن طريق مصر من الهند لتوافره فى مصر والواقع أن وصوله للغرب من الهند كان بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وانهيار الطريق البحرى من البحر الأحمر ومصر (٦٥) . وحجم شجرته قدر حجم شجرة الجوز وورقه كورقته الا أنه أصغر قليلا وزهره يظهر فى شهر سيتمبر (٦٦) .

ويمثل الراوند أحد السلع الرئيسية فى صناعة العقاقير (٦٧). ويعرفه العرب من قديم الزمان ويرد بكثرة من الصين كما يوجد كذلك فى جبال أورال وتزخر به مناطق واسعة من وسط آسيا ويصل منه لأوربا أنواع عدة منها الروسى والتركى والصينى وأنواع من خراسان والتبت والهمالايا ، وطريق البحر الأحمر هو طريقه الطبيعى وهم يفضلون فى أوربا النوع الصينى ويجمعه الصينيون من صحراء بلاد التتار . وكانت البندقية تتلقى كميات كبيرة منه من البحر الأسود (٦٨).

وهناك نوعان آخران من السلع التى تستخدم فى صناعة العقاقير الطبية وكثر الطلب عليها فى الشرق والغرب وهى العفص والمن .

---

(٦٥) يذكر البغدادى : المصدر السابق ص ١٧ « أنه يشبه شجر الخروب ، الشامى وزهره أصفر كبير ذو رائحة بهجة فاذا عقد تدل ثمرة كالمقراع ، وأفضل أنواعه الغليظ والثقيل ولا تحدث بذرته صوتا عند دعكها ويجب أن يكون ساقها كاملا والا يتقشر لحاؤها » .

— Heyd, Ibid, II. p. 603.
— Lopez, Op. Cit., p. 349, DOG. 175.

(٦٦) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ١ ص ٨١ .

(٦٧) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤٦٢ يذكر أن « من أنواعه الصينى والخرسانى ويفيد فى أمراض المعدة والكبد والكلى ولونه أخضر كالزبرجد لين المجس ويتكون من معدن النحاس ومن عجيب أمره انه يصفو بصفاء الجو ويتكدر بكدرته » .

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ١٣٠ .

(٦٨)
— Day, Op. Cit. p. 80.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 666-667.
— Depping, Op. Cit. I. p. 145.

ويتكون الأول عندما تثقب حشرة فرع شجرة القرو أو أى شجرة أخرى من أشجار الصبغة من نفس العائلة ولونه أخضر غامق نوعا وأسوأ أنواعه الأشهب ويأتى به من اليونان وآسيا الصغرى كما يصل الى الاسكندرية من بلاثيا Palatia وجاليوبولى وسبلاتيا وكاندالور (٦٩) . أما المن فمن حاصلات بلاد العرب وما جاورها وهو أجود الأنواع المعروفة ، ويفضلون النوع الذى يسقط على الحجر ومركز تجمعه فى مكة وتنسب وثائق الغرب الحديثة تسميته الى مكة لذا يعرف باسم ماكينا Machina كما أثبتت البحوث الحديثة الطبية أن أجود أنواعه هو المكى ومن شبه جزيرة سيناء حيث يجمعه الأهالى ويصدرونه للقاهرة والاسكندرية وأوربا . وهو يعتبر سلعة عابرة لأوربا من القسطنطينية وفاماجوستا ومصر والشام . ولما كان يرد معظم كمياته من الشام فقد ساد الاعتقاد أنه احدى حاصلاتها . وعلى أى حال فان صيادلة وأطباء الغرب الأوربى ألحوا فى طلب المن العربى . وفى فترة انقطاع الصلة مع العرب ، كان الغرب يحصل على حاجته منه من جزيرة صقلية (٧٠) .

ومن بين الغلات الطبيعية الشرقية التى كثر تداولها فى الغرب وبخاصة للأغراض الطبية « العود الهندى » المعروف بالصبر الكبدى وأحيانا يطلق عليه اسم العود فقط أو الصبر فقط . وهو ينمو طبيعيا فى جزيرة سقطرى على مشارف الطريق من الهند الى شرق افريقية والبحر الأحمر ، وهو ثلاثة أنواع ، كل نوع له لون يتميز به وبخاصة فى الطب تختلف عن الأخرى ، فمنه نوع يميل لونه الى الأصفر الليمونى المشوب بالحمرة ، والنوع الثانى لونه أصفر غامق ، والثالث لونه أصفر

(٦٩) — Heyd, Op. Cit. II. p. 644.
— Clerget, Op. Cit. p. 353.

(٧٠) — Heyd, Op. Cit. II ; p. 633

كالح . وأعطيت الأولوية فى التجارة العالمية للعود الليمونى الأصفر المشوب بالحمرة، ويعرف فى كتب الطب القديمة ولدى الصيادلة بالعود الرقيق . أما النوع الثانى الغامق فيرد ذكره بكثرة فى كتب العصور الوسطى المختصة بالتجارة والرحلات ، ويرد ذكره كذلك فى الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بالجمارك ورسومها مع الكثير من السلع المحددة رسومها لأهميتها التجارية ، وأحيانا يؤخذ اسمه من لونه فيقال له « العود الكبدى » تمييزا للونه عن غيره . أما النوع الثالث ذو اللون الباهت فيندر ذكره لقلة قيمته وندرة استعماله (٧١) . وأشهر مناطق انتاجه علاوة على جزيرة سقطرى وحضرموت فى بلاد العرب ، وفى كمباى والبنجال بالهند . أما فى الغرب الأوربى فقد وجدت أنواع منه فى أسبانيا وجزر اليونان وجنوب ايطاليا وان كانت أقل جودة من النوع السقطرى . وهذا النوع يرد ذكره بكثرة فى كتب رحالة وجغرافى العصور الوسطى العرب والأجانب ، وامتاز عن سائر الأنواع بالجودة ورخص السعر . وقبل وصول البرتغاليين الى الهند كان يصل لأوربا عن طريق مصر وسوريا وقبرص وعرف باسم عود سقطرى (٧٢).

(٧١) يذكر هايد « ان النوع الاصفر الليمونى أحسن الأنواع وأشهرها وأكثرها استعمالا » .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 563-564.

حين ان لوبيز يذكر أن (العود الكبدى) وهو النوع الثانى من حيث اللون والصنف أجود الأنواع وخاصة اذا كان خاليا من الشوائب الجلدية وهو غامق لون الكبد ، وأحيانا يكون كلون القار الاسود لامعا ، كما أن اللون البنفسجى دليل الجودة » .

— Lopez, Op. Cit. p. 348, DOC. 175.

(٧٢) يذكر الجزرى : المصدر السابق ورقة ٣٣٢ و ٤٦٥ « ان الصبر السقطرى ماؤه كماء الزعفران ورائحته كالمر والنوع الهندى منه يفيد طبيا فى أمراض الصدر وسقوط الشعر » .

ويذكر ابن بطوطة : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥٥ « انه يشبه شجرة البلوط وأوراقه كأوراقها ولا ثمر له وقشرته رقيقة وعيدانه وورقه غير عطرى » .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 560-561.
— Ferrand, Op. Cit. II. p. 447.

ومن السلع التي استخدمت كثيرا في الطب والطعام الجبهان وجوز الطيب والأول من المواد المتداولة بكثرة في العصور الوسطى في أوربا كدواء وعرفت فوائده عن العرب ، والفرس كما أضيفت الى الأطعمة كتابل لحفظها ، وخاصة في الغرب المسيحي لطول الصوم عندهم . ويصل لأوربا عن طريق الاسكندرية . وفي التجارة يفرقون بين ثمرة الجبهان الخشبية ، وتلك التي تجلب من الحدائق ، ولا تزال هذه الميزة موجودة حتى الآن . ويرد الجبهان من الهند الصينية وكانانور وقالقوط وأجوارهما (٧٣) .

أما جوزة الطيب فتابل معروف من قديم الزمان في التجارة الشرقية ومصدرة الهند وجزر الساحل الشرقي ، وثمرته لها قرون مثل قرون القرنفل وأحسن أنواعه ما يرد من جاوة وسومطرة وبورنيو وجزر الهند الشرقية . ويرد لبغداد من أسواق سلطانية وسمرقند ويصل لأوربا من الهند بطريق البحر الأحمر وعدن ويستخدم في الأغراض الطبية والطهي وتحضير الخمور ، وزادت أسعاره أواخر القرن الخامس عشر لقلة المعروض منه في مصر وأسواقها حيث بلغت أثمانه عامي ١٥١٠ و ١٥١١ ضعف ثمنها قبل ذلك . وفي سجلات البلاط الفرنسي في ذلك الوقت أن نصف الرطل من جوزة الطيب يساوي ١٢ دينارا (٧٤) .

ولا تذكر الجواهر الطبية في العصور الوسطى دون الاشارة الى مادتي التوتيا والزعفران . فالتوتيا حجر له ألوان عدة منها الأخضر والاصفر والابيض ويجلب من الهند ، وأجود أنواعه الابيض ثم الأصفر ثم الفستقي وهي معروفة عند العرب ، وعنهم عرفها الغرب ، ويذكر حجر التوتيا دائما مقرونا بالاسكندرية ، وان كان مصدره ايران

---

(٧٣) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 601, 602.
— Day, Op. Cit. p. 80.

(٧٤) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 644-645-646-648.

وخاصة كرمان وأصفهان ، كما يوجد كذلك فى الهند والصين . ففى أجوار أصفهان توجد مناجم الزنك وهى التوتيا الطبيعية ، وشبه جزيرة ملقا غنية بهذا الحجر بصورته الطبيعية وبها مصانع لتنقيته واستخلاصه. ويصل لأسواق فارس نوع معين منه يعرف باسم « حجر الصين الحديدى » وفى الهند أمام كمباى توجد جزيرة بها حجر التوتيا ، ويرسل بكميات كبيرة لمختلف الأقطار الاسلامية . وتستخدم التوتيا بعد تنقيتها فى تحضير سوائل العلاج لأمراض العيون كما أنه نافع للقروح السرطانية (٧٥) .

أما الزعفران أو الكركم فقد عرف فى أوربا من مصادر فى شرق البحر المتوسط وايران . ويزرع منه نوع فى أسبانيا جلب بذوره العرب بعد فتح الأندلس ، وبذلك توفر فى أسواق أوربا دون الحاجة الى جلبه من الشرق وكانت مصر وقبرص أحيانا تستوردانه من أوربا . وزعفران أسبانيا يفضل عن غيره ، وان كان زعفران ايران أميز منه، ويعرف فى أسواق أوربا باسم زعفران أصفهان ، وزعفران همدان وزعفران حلوان . وأطباء العرب يعرفون الزعفران من قديم الزمان ويستخدمونه فى العلاج الطبى ، كما أن أطباء العصور الوسطى كانوا يصفونه كثيرا كعقار طبى (٧٦) . واستخدم كذلك فى الطهى والعطور وألوان الرسم لتعدد ألوانه بعد خلطه بغيرها (٧٧) . وتشير وثائق

---

(٧٥) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٧٨٤ .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ ــ ١٤٥ .

بزرك : عجائب الهند بره وبحره ص ١٧٢ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 674-675.
— Ferrind, Op. Cit. p. 586.

(٧٦)
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 668-669.
— Clerget, Op. Cit. p. 343.
— Clive, Op. Cit. p. 82.

(٧٧) « يستعمل الزعفران الأصفر النقى والزعفران العربى المسمى « الورس » فى التلوين ، وهو يشبه السمسم ويكثر باليمن ، وكانت جمال اليمن تحمل الزعفران الى الشمال فيصفر لونها بتأثير لون أحمالها من الكركم » .

العصور الوسطى المتأخرة الى كثرة غش الزعفران (٧٨) .

ومن السلع ــ ان صح أن تسمى سلعة ــ التى كانت تلقى رواجا فى شرق البحر المتوسط وخاصة فى دولة السلاطين المماليك ــ ازقيق ــ الأبيض والأسود . ويصل للقاهرة من أسواق آسيا الصغرى وأوربا وافريقية ، وقد لجأ المماليك الى شراء الرقيق الأبيض من مواطنه فى الشمال منذ منتصف القرن الثالث عشر لتكوين جيوش محاربة منهم بالاضافة الى رغبتهم فى تزويد قصور الحريم عندهم بالعنصر النسائى وتجديدهن من حين لآخر . ويرد ميعوثو المماليك كل الأماكن التى يستطيعون الحصول منها على الرقيق من الجنسين حتى من البلاد المسيحية ، ثم يعتنقون الاسلام ، وان كانوا أحيانا كثيرة يفضلون الرقيق من الأقطار الاسلامية فى وسط آسيا (٧٩) . على أن أهم مصادر هذا النوع من المتاجر ، ان حق أن يقال انه سلعة تباع وتشترى ، فهو بلاد الاغريق (٨٠) ، وحول بحر قزوين ، وأرمينيا ، ومناطق البحر الأسود ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وبلاد مابين النهرين وبلاد التتار ، وبلاد القوقاز والجركس . ومن عادة قبائل هذه البلاد بيع الآباء لفلذة أكبادهم وخاصة الفتيات اذا أعوزهم الجوع وثقلت

متز : المصدر السابق (مترجم) جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٧٨) كثرت الشكاوى اواخر العصور الوسطى من غش الكركم وقد فحص مفتشو مجلس مونتيبيه رسالة كركم واردة من قطالونيا وقرروا أنها مغشوشة وغير صالحة للبيع ، انظر :

— Lopez, Op. Cit. pp. 270-271. DOC. 141. Chap. 17.

(٧٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ١١ وما بعدها .

— Heyd, Op. Cit. 11. pp. 555.
— Clive, Op. Cit. pp. 78.

(٨٠) وصل منهم الى السلطنة خشقدم الرومى ٨٦٥/٨٧٢ هـ ١٤٦٠/١٤٦٧ وتمربغا فى جماد أول ــ رجب ٨٧٢ هـ ــ ١٤٦٨ م .

— Depping, Op. Cit. 11. p. 298.
— Heyd, Op. Cit. 11. p. 556.

عليهم الضرائب . ولم يلق رواجا منهم سوى سليمى البنية أو جميلى القسمات (٨١) ، وتركزت تجارة الرقيق فى ميناءى « كافا وتانا » على البحر الأسود ويخضعان للجمهوريات الايطالية التجارية، لذا كان اتجاه وكلاء سلاطين مصر الى هذين الميناءين وخاصة الأول منهما حيث خصصه الجنويون المسيطرون عليه لتجارة الرقيق وحده . ومارس الجنويون هذا النوع من التجارة لحساب السلاطين المماليك منذ القرن الرابع عشر وحصلوا على الرقيق من الشركس والقوقاز والروس والأمم الأخرى المجاورة وباعوهم بأسعار مرتفعة (٨٢) ولما بدأت تجارة جنوة تنهار بعد ضمها لفرنسا وانتقلت تجارة الرقيق الى البندقية تولى تجارها شراء العبيد بأسعار رخيصة وباعوهم للسلاطين بأسعار مرتفعة وربح مجز وكان هذا النوع من التجارة من عوامل ثراء البندقية وخاصة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر حين ازداد الطلب من السلاطين المماليك للعبيد لتزويد فرقهم وجيوشهم بهم (٨٣) . وكثيرا ما هدد السلاطين المماليك البنادقة والجنويين بتدمير تجارتهم اذا امتنعوا أو تلاعبوا فى توريد الرقيق (٨٤) . وبعد عودة العثمانيين من

---

(٨١) — Depping, Op. Cit. II. p. 298

— Heyd, Op. Cit. II. p. 556.

(٨٢) نصت المعاهدات بين السلطان برسباى والجنويين عام ١٤٣١ على ان تقوم جنوة بتزويد السلطان بالعبيد وتنقلهم على سفنها الخاصة ، وقد وصل الى كافا شخصية جنوية كبيرة ، وكان مقيما بالقاهرة ليقوم بصفة رسمية بتسهيل جمع ونقل العبيد لمصر .

— Dopp., L'Egypte Au Commençement Du 15ème Siècle Fo. 39 pp. 64-65.

— Depping, Op. Cit. II. p. 208.

(٨٣) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 557-558.

— Depping, Op. Cit. I. p. 56.

(٨٤) حدث خلال حكم السلطان برسباى ان حاول الجنويون التحكم فى هذه التجارة لصالحهم مما رأى معه برسباى حدوث أضرار بالنسبة للسلطنة ففرض غرامات ضخمة وهدد بتدمير وكالاتهم فى بلاده وبلغت الغرامات حوالى ١٦,٠٠٠ دوك .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.

أوربا عام ١٤٦١ الى آسيا الصغرى على عهد السلطان محمد الثاني العثماني، واستيلائهم على الولايات والامارات التركمانية في شمال العراق وأرمينيا ، وما نتج عن ذلك من سد الطرق والمنافذ للتجارة — ولا سيما بعد سقوط امبراطورية طرابيزون وموانيء التجارة على البحر الأسود في يدهم حيث مراكز تجمع الرقيق ثم سقوط ولايات كرمان ودلغادر ومرعش وغيرها على عهد السلطان بايزيد الثاني العثماني وسليم الأول العثماني ، وهي طريق مرور العبيد الى الشام — قبل ورودهم الى مصر . وكان هذا على رأس أسباب الجفوة بين المماليك والعثمانيين (٨٥) . ولما سيطر العثمانيون على هذه المناطق والطرق المؤدية الى مراكز جلب العبيد ، تحكموا في تجارتها واشترطوا ألا تحمل السفن رقيقا من المسلمين ، ورفضت جنوة من جانبها نقل العبيد من المسيحيين ووافقت على نقل المسلمين منهم على سفن مؤجرة لحساب سلطان مصر وعلى مسئوليته ويقتصر عملهم هنا على الشراء فقط . وبالرغم من ذلك وصل الى القاهرة أعداد كبيرة أحيانا من الرقيق المسيحيين والمسلمين على السواء (٨٦) .

على أن المتاجرة في الرقيق عامة والمسيحيين منهم بصفة خاصة كان مثار سخط ومعارضة البابوية في روما واتهم البابا يوحنا الثاني

---

(٨٥) عمل العثمانيون منذ استيلائهم على امبراطورية طرابيزون عام ١٤٦١ على منع توريد الرقيق للمماليك حتى لا يقوى جانبهم ، كما أنهم كانوا يعملون في الوقت نفسه على تزويد جيوشهم بحاجتهم من الانكشارية من هذا المصدر وعلم المماليك بما فعله العثمانيون الذين تعللوا كذلك بحجج واهية لمنع بيع الرقيق من المسلمين مما أدى الى مشاكل بينهما على عهد السلطان بايزيد الثاني وسليم الأول اللذين وضعا نصب أعينهما حرمان المماليك من هذا المصدر الذي يقوون به أنفسهم .

— Varthema, Les Voyages De..., pp. 17-18 & R .I.

(٨٦) كان الجنويون يعمدون كثيرا الى الخديعة والتحايل فيحملون على سفنهم رقيقا من الطائفتين ولكن يؤجرون هذه السفن للمصريين حتى يتفادوا سخط الاتراك المارة في موانيهم او في طرقهم البرية ، وسخط حكومتهم التي حرمت المتاجرة في الرقيق المسلمين . وكان للبنادقة أسطول خاص بالرقيق المصرح به والمهرب . وذكر قس جنوي عام ١٤٥٥ وهو Parthelemi Parete ان جنوة أجرت سفنا للمصريين تحمل رقيقا مسلمين ومسيحيين .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.

— Depping, Op. Cit. I. p. 208.

والعشرون تجار جنوة وحكومتها بأنهم بهذا النوع من التجارة يعززون قوة العرب العسكرية ضد المسيحيين الغربيين (٨٧) . وأدلى اليهـود بدلوهم فى هذه التجـارة فكانوا يشترون العبيد الروس والمغوليين والشركس من كافا ويبيعونهم بسعر يبلغ عشرة أمثـــال ثمن الشراء للمسلمين فى أسبانيا ، واضطر هؤلاء الرقيق الى ترك دينهم مما جعـل البابا يعلن حرمان من يقوم بهذه التجارة الشائنة من رحمة الكنيسة ، وأمر بترقيم ملابس اليهود المتهمين بممارسة هذه التجارة (٨٨) .

ومن مراكز تجارة العبيد البيض أيضا تركيا نفسها وبخاصة فى جاليوبولى ومنهم الألبان والسلاف والصربيون (٨٩) . وشملت هـذه التجارة كذلك رقيقا من افريقية ، ولصلة البرتغال الوثيقة بافريقيا فانه منذ عهد الأمير هنرى الملاح وتجارة الرقيق العبيد تأخذ طريقها الى أوربا برغم التحريمات البابوية ، وبرر ملوك البرتغال هذا العمل منهم بأن الرقيق وثنيون ، وانهم يعملون على تحويلهم الى المسيحية (٩٠) .

واذا كانت هذه التجارة قد قامت على أكتاف البنادقة والجنويين فاننا قليلا ما نجد هذه السلعة ضمن قوائم تجارة بيزا وفلورنسا لشدة تعلقهم بالبابوية ، واتباعهم نصوص تحريماتها . وفى البندقية كثر عدد الرقيق ، حتى أنهم مارسوا التجارة والصناعة المحلية فى البندقية ذاتها، ومنهم الشركس الذين اتخذوا صناعة الحلوى مصدر رزقهم وبلغـوا أقصى أعدادهم عام ١٤٦٣ م (٩١) .

---

(٨٧) ومما قالته البابوية فى هذا المجال « ان المتاجرة فى الناس هدر لآدميتهم وتقوية لأعداء المسيحية » .

— Pernaud, Op. Cit. p. 30.

(٨٨) — Depping, Op. Cit. I. p. 179.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.

(٨٩) — Dopp, Op. Cit. pp. 14-15.

(٩٠) — Day, Op. Cit. p. 79.

— Sonia, Op. Cit. p. 68.

(٩١) — Heyd, Op. Cit. II. p. 562.

والقاهرة والاسكندرية من أكبر مراكز تجمع الرقيق ، فيصلون عن طريق دمياط والاسكندرية فى أعداد ضخمة ، وتختلف أسعار العبد تبعا لحالته الصحية أو سنه أو مصدر جلبه أو وسامته اذا كانت فتاة، وكان أخيرهم وأعلاهم سعرا التترى حيث كان يصل سعره مابين ١٣٠ و ١٤٠ دوكا ، ويليه الشركسى من ١١٠ و ١٢٠ دوكا ، ثم الاغـريقى ابتداء من ٩٠ دوكا ، والألبان والسلاف ما بين ٧٠ و ٨٠ دوكا ـ والعبد الأسود يصل سعره مابين ١٥٠ و ٢٠٠ درهم . وقد يصل الى ١٠٠ دينار أحيانا ومن له مؤهلات أخرى كالجمال أو القوة أو الغنـاء أو المهارة بأنواعها فيصل ثمنه الى ٤٠٠ دينار . والشبان أكثر طلبـا من الرجال والفتيات أكثر طلبا من النساء . وفى القرن الخامس عشر كان يصل للقاهرة سنويا ما لايقل عن ٢٠٠٠ عبد (٩٢) . أما العبيـد الخصيان فكثر انتشارهم فى العالم الاسلامى ، وفى دولة سـلاطين المماليك ، ومعظم من كان يصل منهم من السودان والوجه القبلى كان يخصى (٩٣) . وبالقاهرة وكالة خاصة باسم الجلابة وهى مركز تجمـع الرقيق حيث يستطيع أى فرد أن يشترى ما يشاء من الرقيق الأسود. وخانهم بالقرب من جامع قايتباى ، أما البيض فكان سوقهم فى وكالة كشبك وخان جعفر، وكانت أسواق القاهرة عامرة بهم، ويتولى المحتسب مراقبة حركة البيع والشراء وكذلك استخدامهم (٩٤) . ويحصـل التجار المصريون على عمولة شحن عن نقل الرقيق وخاصة السود منهم، وبالاضافة الى أسواق القاهرة كانت هناك أسواق رئيسية فى الشام

---

(٩٢) — Clerget, Le Caire, pp. 340-341, 342.
— Heyd, Op. Cit. 11. pp. 558-562.
— Ency. Of Islam, Art. «Abd».
— Hakluyt Society, Vol. V. pp. 274 & Vol. VI. pp. 26.

(٩٣) — Clerget, Op. Cit. p. 242.

(٩٤) — Journal Asiatique, T. xvii pp. 30-37.

وفلسطين وآسيا الصغرى (٩٥) . وكان المسيحيون يمنعون من شراء العبيد من المسلمين أو استخدامهم (٩٦) ومنذ أن تشدد العثمانيون فى مرور شحنات العبيد عبر بلادهم الى مماليك مصر ، وهذه السلعة تقل فى أسواق مصر والشام ، كما أنها أصبحت تجارة محلية وتحت اشراف المماليك مباشرة ، فكان للسلطان المماليكى أمراء طبلخانات مختصون بشراء المماليك بأنفسهم ، ومنهم جان بردى التاجر على عهد السلطان الغورى ، وقد غضب عليه السلطان لتآمره مع غيره من الأمراء للتخلص من السلطان الغـــورى وقبض عليه ونفى الى الواح ثم عين « الأمير نوروز أغاث أزدمر الدوادار » وأقره بدل الأمير المغضوب عليه (٩٧) . ويبدو من هــذا الخبر الذى أورده ابن اياس أن كل شىء فى مصر المماليكية فى أواخر سنيها قد أصبح احتكارا حتى العبيد الذين تزود منهم السلاطين . ولجأ المماليك لهذا الاحتكار بسبب حجز العثمانيين للرقيق . ويقال ان من أسباب الحجز اضعاف المماليك ورغبة السلاطين

(٩٥) يعقد التجار فى فندقهم بالاسكندرية سوقا دائمة حيث يباع الرقيق من الرجال والسيدات والأطفال وتختلف أسعارهم حسب قيمة العبد وصحته ومصدره فى حدود ١٥ ـ ٢٠ ـ ٣٠ دوكات . وقبل شراء الرقيق يفحصون جيدا من أطهرانهم للتأكد من سلامة بنيتهم ثم يزايدون على أثمانهم ، وهذا بمثابة بورصة أسعار دائمة طول العام فى فندق التجار ـ وزار ، هارف خلال وجوده بالاسكندرية سوق العبيد بها ، وسجل ما شاهده فى جلسات المزاد .

— Clerget, Op. Cit. p. 343.
— Hakluyt Society, Op. Cit. Vol. V. pp. 275, 276 & Vol. VI. p. 27.
— Von Harff, Op. Cit. p. xxiii.

(٩٦) حاول أحد رفقاء الرحالة فابرى الذى زار الاسكندر وسوق العبيد بها وفندق التجار وهو الكونت سولمز Solms أن يشترى عبدا مسلما من الاسكندرية وحاول مثل هذه المحاولة فى زيارتهما للقاهرة حيث كان يتوفر العبيد المسلمون والمسيحيون من الجنسين ولكن ادارة السوق رفضت لأن الشريعة والقانون هنا يحرمان بيع العبد المسلم للمسيحيين وان كان العكس مقبولا مباحا .

— Fabri, Op. Cit. III. pp. 164-165.
— Harff, Op. Cit. p. 95, R. 5.

(٩٧) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٩٧ و ٩٨ حوادث ربيع آخر ٩١٢ هـ .
— Hsyd, Op. Cit. II. p. 562.

من آل‌عثمان فى الحصول على حاجاتهم من الانكشارية لتقوية جيوشهم لمواجهة أعدائهم المسيحيين فى أوربا ، والصفويين فى ايران والمماليك فى مصر والشام (٩٨) .

ولم تقتصر التجارة على التوابل والعقاقير فقط انما شملت كذلك العطور والبخور ومن أنواعها : عود الند ، والمسك ، وخشب الصندل، والعنبر ، والبخور ، واللادن ، والمصطكى ، والبان الجاوى، وقد ورد معظمها من أسواق الشرق الأقصى ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين فى العراق ، وتصل للقاهرة عن طريق البحر الأحمر والشام ، وسوقها رائجة فى القاهرة ويرث تجارتها المصريون أبا عن جد (٩٩) . وعلى رأس قائمة الأخشاب العطرية الشرقية « عود الند » ويرد ذكره أحيانا كثيرة فى سجلات تجارة الشرق والغرب فى العصور الوسطى ويصل منه للغرب قليل لكثرة استهلاك الشرق له . وأشهر أسواقه ميناء زيتون بالصين اذ كان الصينيون يكثرون حرقه فى معابدهم أمام الآلهة . وفى الهند يستعمل لنفس الغرض ، كما أن بعضه يذهب لخزائن الأمراء ، والبعض الآخر للأسواق ، ورغم أن الغربيين لم يقبلوا على عود الند ، كعطر من العطور ، مثل ما فعل الشرقيون فى العصور

---

(٩٨) يبدو أن منع العثمانيين للرقيق عن المماليك كان عمدا لاضعافهم كمقدمة لغزو مصر وكذلك لسد حاجة جيوشهم من الانكشارية وقد وضح هذا من خلال رسالة السلطان سليم الأول العثمانى للسلطان المماليكى الغورى الذى تسلمها عن طريق خاير بك . وفيها يقول للغورى « أنت والدى وأسالك الدعاء ... وانى ما زحفت على بلاد علاء الدولة الا باذنك .. أما التجار الذين يجلبون المماليك والجراكسة فانى ما منعتهم انما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم وان البلاد التى أخذتها من علاء الدولة أعيدها اليكم ، وجميع ما ترونه فعلناه » .

— ابن اياس : المصدر السابق جـ ٥ ص ٥٨ ـ ٥٩ حوادث ٩٢٢ هـ .

على أن الحوادث دلت على أن هذا الكلام خدعة من سليم الأول وخيانة من خاير بك قصد بها التعمية .

زيادة : نهاية دولة سلاطين المماليك ص ٢١٦ .

(٩٩) — Clerget, Op. Cit. pp. 355-356.

الوسطى حتى المتأخرة منها ، فان الند كان يدخل كذلك فى القوائم ضمن المواد المطلوبة للعقاقير الطبية ، كما كان يدخل فى صناعة الأثاث الفخم ، وكانت أهم أسواقه فى القسطنطينية البيزنطية والعثمانية ، وفى القاهرة ، ودمشق ، والاسكندرية ، وبيروت ، وفاماجوستا بقبرص ، حيث توافر فيها بكثرة حتى ان أحد الرحالة لاحظ وجوده فى دكان عطار بكمية تزيد على حمولة « خمس عربات كبيرة » (١٠٠) . أما مصادر هذا العطر الفخم فيذكر رحالة العرب وجغرافيوهم أنه من اقليم « كمرونى Kamrony بين الهندوالصين، ولعلها مملكة الهند القديمة. وهذا النوع هو أجود الأنواع على الاطلاق ، وذكر أن مصادره من آسام الغربية وهى لا تزال ليومنا هذا تنتج هذا العطر ، كما أن جزيرة سيلان تنتج أنواعا منه لاتقل أهمية وجودة عن عود ند آسام . وند جاوة أفخر الأنواع على الاطلاق ، ويحمل على ظهر الأفيال لمراكز التصدير ، وعرف هناك باسم خشب كاكولا Bois De Kakoula وهى وعلى كل حال فقد نقله العرب من مصادر انتاجه فى جزر الهند الشرقية وسيلان والهند الصينية الى مصر والشام والغرب الأوربى ، وشاهده البرتغاليون فى نفس هذه الأماكن وأطلقوا عليه اسم Kalam Bouk وهى احدى مناطق الهند الصينية (١٠١) .

ومن العطور النفاذة الزكية الرائحة : المسك وهو انتاج حيوانى يؤخذ من الحيوان المعروف باسم قط الزباد » (١٠٢) . ويوجد المسك

---

(١٠٠) — Heyd, Op. Cit. II. p. 581.

(١٠١) من فوائده علاوة على استعماله كعطر زكى الرائحة ، اضافته للنبيذ فيفيد فى تهدئة الانفعالات النفسية والأزمات القلبية .

— Heyd, Op. Cit. II p. 588.
— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(١٠٢) هذا الحيوان نوع من الظباء ويعيش فى التبت والصين ويرعى الحشائش وله نابان معقوفان كأنياب الفيل ويعرف باسم .

Moschferus — Musculus — Musc Male.

في غدة في بطن هذا الحيـوان عند سرته ، فاذا ما حكهـا في الحجر انفجرت وأفرغت ما بها ويخرج التجـار يجمعونه من رائحته العبقة الزكية . وأحيانا تصاد غزلان المسك بعد أن تنصب لها الشباك حيث توجد في المنطقة الممتدة بين التبت والصين . ومسك التبت يفضل مسك الصين لغنى مرعى التبت ، كما أن مسك الصين كثيرا ما يغش . وتوجد أنواع أخرى في سيلان وجاوة وجزر اليابان . ويرد كثير من تجار العرب الى الجزء الشرقي من الهند سعيا وراء أفضل الأنواع النقية وينقلونه الى أوربا سواء أكان نقيا أم مغشوشا (١٠٣) . والعرب والفرس يكثرون من استعمال المسك ، ويصل مسك الصين لغرب أوربا وآسيا برا وبحرا ، ولطول المسافة يفقد جودته أحيانا . أما مسك التبت فيصل بطريق البر وأحيانا بطريق البحر ــ وعدن سوقه الطبيعي . والمسـك الذى يصل لفارس يمر أولا بالتركستان ويفرغ حمولته في الخليج الفارسي في ميناء دارين Darin بالقرب من البحرين ، لذا كان يحمل اسم المسك الدارينى Musc Dariny (١٠٤) . وكميـات المسك التى تصل لغرب أوربا عن طريق غرب آسيا تسلك سـبيل القوافل والطرق البرية والبحرية التجارية وقد امتلأت أسواق المدن على هذا الطـريق بالمسك الزكي الرائحة (١٠٥) . ومع وجـود البرتغاليين في الهند الا أنه كان يصل عن طريق موانىء مصر وبيروت كذلك ، فينقل أولا الى ملقا ومنها يعاد تصديره الى عدن ، فالاسكندرية أو الخليج

---

(١٠٣) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٢٤١ .

ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٥ (يذكر فوائده الطبية) رينود ـ سلسلة التواريخ ص ١١٠ ــ ١١١ .

— Ferrand, Op. Cit. II. pp. 463-464.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 637.
— Depping, Op. Cit. I. pp. 41, 42.

(١٠٤) — Heyd, Op. Cit. II. p. 638.

(١٠٥) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٥ .

الفارسي وبيروت . ومناطق أخرى كانت تتبع الطريق البرى الى هرمز (١٠٦) .

ويحمل العرب خلال رحلاتهم الطويلة ــ تجارا أو رحالة ــ قطعا من مادة صلبة ذات لون رمادى تشبه الشمع لها رائحة زكية عطرة نفاذة اذا ما احترقت وهى التى تعرف باسم العنبر ، وتحتل مكان الصدارة بين أنواع العطور الممتازة . وقد اختلفت الآراء حول مصدرها : فكثيرا ما كان يعثر عليها بين أمواج البحر وعلى الشواطىء ووسط الصخور والأعشاب وفى أجسام الأسماك (١٠٧) . ويذكر بعض الرحالة العرب أنه يوجد فى قاع البحر وتلفظه الأمواج على شواطىء عدن ، ويذكر آخرون أنه ينمو فى قاع البحر كالاسفنج ويلقيه الموج على الشاطىء ، ويكتفى البعض بالقول بأن العنبر من مستخرجات السمك . ويذكر آخرون أنه موجود أصلا فى الأسماك (١٠٨) . والعنبر لدى العرب صنفان : أحدهما جيد والآخر ردىء ، وتقاس درجة الجودة والرداءة بالنسبة لجزء الجسم الذى وجد فيه العنبر فى الحيوانات البحرية ، ويؤكد سكان جزر الملدايف واللاكديف من مجموعة جزر أندمان ونيكوبار أن العنبر هو افراز طائر ضخم وأن رائحته ترجع لنوع الأعشاب التى يلتهمها هذا الطائر ، ويظل جزء منه فى هذه الجزر وهو الجزء الأفضل والباقى تحمله الرياح والأمواج الى الشواطىء الأخرى ، وجزء ثالث تبتلعه الأسماك فتحدث لها عسر هضم وتتقيؤه ،

---

(١٠٦) — Heyd, Ibid, II. pp. 639-640.

(١٠٧) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٣٢٥ ــ يذكر الجزرى « انه ينبت فى بحر الهند ويأكله السمك ثم يطفو فيصطاده الصيادون بالكلاليب الى الساحل ويأخذون العنبر من جوفه . انظر كذلك :

رينود : سلسلة التواريخ ص ١٢ .

(١٠٨) — Heyd, Op. Cit. II. p. 571.

وهو أردأ الأنواع (١٠٩) . ويذكر مؤرخو العرب قائمة طويلة للبلاد التى تنتج العنبر وتتاجر فيه ومعظمها فى المحيط الهنـدى على خط طويل يبدأ من الشاطىء الشرقى لافريقية عند بربرة والزنج وينتهى فى الصين وتشتهر جزر الساحل الافريقى بأشهر وأفخم أنواعه . أما مناطق انتاجه الغنية فى اقليم سوهار على شاطىء بلاد العرب الجنوبى حيث كان الأهالى يستعينون بالجمال وضوء القمر على اكتشـافه ثم جزر كوريا موريا والملدايف واللاكديف وجـزر نيكوبار على شـاطىء كروماندل شرقى الهنـد (١١٠) . وهنـاك نوع آخر يرد من سيلان يعرف باسم Verzin ويعرفه العرب باسم برسيلا (١١١) . ويصـل العنبر لأوربا بطريقين : أحدهما البحر الأحمر من المحيط الهنـدى ، ومركزه فى عدن وجدة ، والثانى الخليج الفارسى حيث كانت تزخر به أسـواق بغداد والبصرة . ويحصلون على أنواعه الفاخرة كذلك من أسـواق الاسكندرية وفاماجوسـتا وبيروت والقسطنطينية (١١٢) . ولا يقتصر وجوده على البحار الشرقية ، انما يوجد كذلك فى البحار الغربية فى أسماك المحيط الأطلسى وشواطىء البرتغال واسبانيا وبحر البلطيق وان كانت أنواعه غير ممتازة ، ويصدر لجميع البلاد حتى مصر نفسها (١١٣) . ويجهـز العنبر فى صورته التجـارية على هيئة قطـع

---

(١٠٩) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٤ – يقول ابن البيطار « ان العنبر روث دابة بحرية ، وينبت فى قاع البحر وتأكله بعض دواب البحر ، فاذا امتلأت منه قذفته رجيعا عطر الرائحة . وأجود أنواعه الأشهب القوى السلايطى ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر وهو أردؤه » وذكر مثل ذلك ابن الأثير الجزرى ٧٨٢ هـ ولكن ابن البيطار يسبقه ٦٤٦ هـ .

— Depping, Op. Cit. I. p. 141.
— Heyd, Op.. Cit. II. p. 572.

(١١٠) — Depping, Op. Cit. I. p. 141.
— Dopp, Op. Cit. p. 63.

(١١١) — Depping, Op. Cit. II. pp. 311, 312

(١١٢) — Heyd, Op. Cit. II. p. 573.

(١١٣) — Dopp, Op. Cit. p. 63.

صغيرة منتظمة الشكل وعلى هيئة المسبحة ، وهو يستخدم فى الطب، اذ أنه عطر الرائحة مقو للقلب (١١٤) . كما استخدم فى شتى الأغراض بكثرة فى العصور الوسطى فى الشرق . أما صنعه كعطر فكان هواية كبار الشخصيات فى أوربا ويوضع فى جفان خاصة أو أكياس او صناديق ، وفى الشرق تصنع منه العقود والمسابح والأزرار والتماثيل كما كان يطعم به الخشب المحفور فى بيوت الأمراء (١١٥) .

ومن أخشاب العطور التى شاع استعمالها بكثرة فى العصور الوسطى وخاصة فى الشرق الأدنى ، خشب الصندل الذى يحتوى على عطر طبيعى نفاذ . وتذكر المصادر من العصور الوسطى ثلاثة أنواع له: منه الخشب الأحمر والأبيض والليمونى ، والنوع الأخير هو العطرى، لذا كثر استعماله فى الشرق وخاصة فى البلاد التى تتبع طريقة حرق جثث موتاها ، فكانت تحرق بالخشب المعطر فى أثناء الاحتفال الدينى وتعطر بها الأجسام ضمن ما يوضع بها من عطور وروائح ، ولذا غلا ثمنه وقل غشه ، وخاصة المصدر منه للغرب اذ كان على رأس قائمة العطور الواردة من الشرق . وتزخر به أسواق سيراف بالخليج الفارسى وكالة بالهند وخاصة أنواعه الممتازة . ويذكر تجار ورحالة العرب أن أصله من جزر المحيط الهندى ، وبعد وصولهم للملايو وجدوا جزر تيمور تزهو بهذا النوع من الأشجار العطرية كما وجدت أماكن أخرى ينمو بها مثل جاوة وسومطرة وملقا والهند الصينية . وأنواع خشب الصندل الثلاثة من أصل واحد ، ويفضل الأوروبيون النوع الأحمر حين يفضل الشرقيون النوع الليمونى (١١٦) .

---

(١١٤) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٤ .

(١١٥) — Heyd, Op. Cit. II. p. 573.

(١١٦) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 585-586-587.
— Clerget, Op. Cit. p. 362.

ومن أنواع العطور كذلك البخور ، وهو العصير الأبيض الذى يسيل عند احداث شقوق فى لحاء أنواع معينة من الأشجار ، وتقدر جودته بدرجة نقائه وبياضه ، لذا يميز الردىء بخلطه بلحاء الشجر والتراب ، وأحسن أنواعه من بغداد وآسيا الصغرى أما بخور الاسكندرية فمن نوع ردىء وليس معنى ذلك أنه من انتاجها ، ولكنه يرد لها ويغمر أسواقها ،وتصل أحسن أنواعه الى الغرب عن طريق ميناء لاجاسو وقبرس . ويقترن اسم البخور دائما بجنوب بلاد العرب والصومال فى المنطقة المواجهة لبلاد العرب ، وأحسن مناطق زراعته المهرة وشبير جنوب بلاد العرب ، وكان لارتباط هذه البلاد بالعراق بقوافل التجارة أثره فى غمر أسواقه بهذه الأنواع من البخور . وفى اليونان كانوا يخلطونه ببعض أنواع أخرى ويباع تحت اسم البخور اليونانى (١١٧) .

واللادن أحد أنواع البخور ولا توجد هذه السلعة فى الشرق الأقصى ، كما أنها غير معروفة فى شرق البحر المتوسط ، ويكثر نموها فى جنوب أوربا وسواحل آسيا الصغرى وكان يظن أنها من قبرس ولكن ذكر التجار الوافدون لشرق البحر المتوسط أنها من محصولات كريت Candie وهو أفضل أنواعه وكذلك من بلدة أكبرا Akbara فى آسيا الصغرى ، وتعطى شجرته عصارة لونها بنى داكن وهو اللادن ثم ينقى ويجفف ويستخدم فى الطب وفى تعطير جثث الموتى (١١٨) .

ومن أنواعه كذلك المصطكى ويحصل عليها من جذع شجرة يكثر زراعتها فى بعض جزر البحر المتوسط وأهمها جزيرة خيو ، لذا يعرف

---

(١١٧) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 615, 616.
— Day, Op. Cit. p. 80.

(١١٨) بلدة أكبرا المذكورة بآسيا الصغرى هى بلدة Bali Kersi على الطريق الى برجام فى بروسة (ملاحظة ص ٦٣١ من هايد)
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 630, 631, 632.

هذا النوع باسم المصطكى الخيوسى نسبة اليها . ويعرفها الرحالة العرب باسم جزيرة المصطكى ، ويكثر نمو هذه الأشجار فى جنوب الجزيرة عند رأس Cape Nastice (١١٩) . كما يوجد فى هذه الجزيرة كذلك عشب له نفس الرائحة والطعم يعرف باسم Pistacia Lintiscua وتؤخذ مادة المصطكى بعد احداث شقوق فى لحاء الشجرة الا أن المادة المتجمدة على الشجرة نفسها أحسن وأفضل من النوع الذى يسقط على الأرض . ويصدر منها كميات وفيرة لبلاد شرق البحر المتوسط نفسها أحسن وأفضل من النوع الذى يسقط على الأرض ، وكذلك الى الشرق الأقصى للأغراض الدينية والطبية (١٢٠) . وله أسواق رئيسية فى القاهرة ودمشق والاسكندرية وقبرص ورودس وأرمينيا واليونان ولا يمر سائح أو رحالة بهذه الجزيرة الا ويحمل معه بعض المصطكى ذى الرائحة الزكية العطرة (١٢١) .

ويميزون من بين أفضل أنواع البخور « اللبن الجاوى أو عسل اللبن » وتكلم عنه مؤرخو ورحالة العرب كما ورد ذكره فى سجلات الجمارك والمؤلفات التجارية فى العصور الوسطى ، ويرد ذكره فى تعريفة جمارك بيزا عام ١٥٠٣ حيث كانوا يحصلون عليه ضرائب كثيرة . وحمل البرتغاليون كميات كبيرة منه الى أوربا من الهند ، وكان قبلا يصل لأوربا عن طريق الاسكندرية ، ولقيمته العالية استعلم فاسكودى جاما عن أسعاره بالاسكندرية ثم أغرق أسواق أوربا منه . واللبان الجاوى ضمن منتجات سومطرة والهند الصينية ويوجد فى

---

(١١٩) — Heyd, Ibid, II, pp. 633-634.

(١٢٠) ابن البيطار : المصدر السابق جـ٤ ص ١٥٨ — ١٥٩ .
الجزرى : المصدر السابق (ورقة ٤١٦) .

(١٢١) — Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.
— Dopp, Op. Cit. pp. 71, 72.

أسواق كلكتا وهرمز . وفى مصر يهـــدى للأمراء والملوك (١٢٢) . ويستخدم فى العقاقير الطبية ويؤخذ من الشجرة بعد شق جذعها فيسيل منها ويحمل فى أوان نظيفة (١٢٣) .

ومن السلع التجارية التى استخدمت فى الأغراض الصناعية وفى الطب كذلك الصموغ ، ومنها الصمغ وصمغ اللك . والصمغ نوع من العصارة تخرج من بعض النباتات عند احداث شقوق فى لحائها ، أو اذا انشق لحاؤها طبيعيا ويتجمد عند تعرضه للهواء وتكثر أشجاره فى اليونان ، وتركيا كما تشتهر شبه جزيرة المورة بنوع يعرف باســمها ويكثر وجوده فى أسواق أوربا ، ولكن أفضل الأنواع على العموم هو النوع الذى يرد من آسيا الصغرى الى أوربا عن الطريق المار بمدينة سميرنا . وفى القرن الخامس عشر كانت أهم مراكز تجارته فى آسيا الصغرى ، كما اشتهرت به أسواق قبرص والاسكندرية . وأفضــل أنواعه تصل من السودان ، ويصدر عن طريق مصر الى آسيا الصغرى وأوربا ، ويصل للقاهرة فى الربيع وهو من أنقى الأنواع ، ويزرع فى كردفان ويستخرج من شجر الأكاكيا . ويصل مصر كذلك أنواع من آسيا الصغرى والهند الصينية وفارس . وصمغ بلاد فارس يصل لمصر عن طريق البحر الأحمر وموانيه ، وعن طريق سينا وموانى الشــــام ويصلها فى الخريف ، وهو أقل جودة من صمغ السودان والصمغ على وجه العموم يستخدم فى بعض العقاقير الطبية كعلاج كما يستخدم فى

---

(١٢٢) كان ممن شملتهم هدايا السلطان من هذا العطر : ملكة قبرص ١٤٩٠ م. كاترين كورنارو . ومن قبلها دوق باسكوالى ماليبيرو عام ١٤٦٠ ثم دوق بارباريجو عام ١٤٧٦ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 580, 581.
— Day, Op. Cit. p. 80.

(١٢٣) بزرك بن شهريار الرامهرمزى : كتاب عجائب الهند بره وبحره . ص ١٧٠ .

تحضير مواد الصباغة وخاصة فى حالات تثبيت الألوان (١٢٤) .

أما صمغ اللك فهو من انتاج الهند والهند الصينية ويخرج من الشجر عندما تحدث فيه حشرة المن ثقوبا . ولونه أحمر ، ويتجمد حول الفروع مغطيا حشرة المن ذاتها ، وكان معروفا فى الماضى كنوع من أنواع الصبغة ، ومشهور الاستعمال فى العصور الوسطى وله ثلاثة أنواع ، ويصل للأسواق فى صورته الطبيعية ومختلطا بفروع الأشجار أو مسحوقا بعد تنقيته من الشوائب بالتسخين وأنواعه هى : الصمغ الأخضر والصمغ الأحمر الغامق ، والنوع الثالث وسط بين الأخضر والأحمر . ومصدر هذا النوع من الصمغ ، قاليقوط ، وكمباى بالهند، وساحل كروماندل ، وحوض الجانج ، ولكن أعظم مناطق انتاجه هى منطقة الهند الصينية ، وبورما ، وسيام ، وسومطرة ، ومعظم جزر الهند الشرقية ، وما يرد منه لأوربا من الهند يصل عن طريق عدن والبحر الأحمر والاسكندرية ويكثر استخدامه فى الطب والصباغة والأغراض الصناعية (١٢٥) .

ومن المواد التى كثر استخدامها فى الأغراض الصناعية عامة على اختلاف مراحلها وأنواعها مواد الصباغة . ومن أشهر المواد التى استخدمت فى الصباغة فى الشرق والغرب الفرة ، والنيلة ، ودودة القرمز ، والشب والتوتيا ، والقطران الطبيعى . وتزرع الفرة فى أوربا كما تصل بعض أنواعها لأوربا من الاسكندرية وقبرص وبلاد العرب. وفى أواخر العصور الوسطى كان يصل لأوربا أنواع من جنوب شبه الجزيرة العربية وعدن ، وتصدر للهند وفارس كذلك ، ويصدر من

---

(١٢٤) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 623-624.
— Clerget, Op. Cit. p. 357.

(١٢٥) راجع ما ذكر عن حشرة المن فى هذا الفصل .
— Heyd, Op. Cit. II. p. 626.

اقليم جورجيا أنواع أخرى الى الهند حيث يؤلفون منها لونا أحمر للصباغة لا يختلف كثيرا عن اللون القرمزى الذى للفرة (١٢٦) .

ومن مواد الصباغة كذلك النيلة ، وتكثر بأسواق بغداد ، وتعطى لونا أزرق غامقا والنيلة الواردة من الهند لها لون فاتح عن تلك التى ترد من فارس ، وتصل للغرب الأوربى عن طريق البحر الأحمر ومدن وموانىء شرق البحر المتوسط ، وقد لاحظ التجار العرب وجود النيلة بكثرة فى كولام ، وجوجيرات ، وكامباى ، وكابول ، وجنوب شرق ايران ، حيث يقوم أهالى كرمان بزراعته . كما يزرع فى هرمز بكميات ضخمة تصدر عن طريق الخليج الفارسى ولونها قاتم ويماثل نوع كرمان. وتصدر النيلة الواردة من الهند وكابل برا عن طريق بغداد وموانىء الشام الى أوربا . وفى قبرص يزرعون نوعا من النيلة أقل جودة من الأنواع الشرقية ، كما يزرع فى واحات مصر ، وان كانت أنواعه أقل من السابقة (١٢٧) .

وبذكر الصبغات لا يفوتنا ذكر أهمية الشب كعنصر رئيسى فى الصباغة فى العصور الوسطى ، وغير صحيح أنه لم يعرف فى أوربا الا فى أواخر العصور الوسطى ، والواقع أنه عرف منذ زمن بعيد ، وكان يصدر لأوربا من مراكش والجزائر منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر ولما استولت جنوة على جزيرة خيو من القرن الرابع عشر

---

(١٢٦) — Heyd, Ibid, II. p. 618.

(١٢٧) يباع فى مدينة كابل وما حولها من هذه المادة ما يبلغ الفى دينار سنويا كما يزرع بفلسطين فى بلدتى زغر وبيسان بالقرب من البحر الميت . ومن انواعه الطيبة ما ينمو بمصر ويبقى فى الأرض ثلاث سنوات ، وفى السنة الاولى يسقى كل عشرة أيام دفعتين ، وفى السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفى السنة الثالثة أربع دفعات . راجع متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

— Heyd. Op. Cit. II. pp. 627-629.

حتى عام ١٤٥٥ ، اتخذها الجنويون أكبر مراكزهم لاحتكار تجارة الشب وآقاموا فى شمال الجزيرة مدينة بنفس اسم الجزيرة وصاروا من اهم مصدرى الشب لأوربا نظرا لشدة الطلب عليه فى صباغة الصوف ، وكذلك فى شرق البحر المتوسط وشمال افريقية (١٢٨) . وفى ايطاليا ظهر هذا النوع من مواد الصباغة فى تولفا Tolfa واستغل مناجمه البابا بولس الثانى لحسابه وبواسطه اخصائيين جنويين لخبرتهم فيه ويصدر بكميات ضخمة للبندقية وفلورنسا والفلندرز . وقد سمح البابا للتجار بالاتصال بالشرق للتجارة فيه مستثنيا اياها من قانون التحريم الكنسى البابوى مع المسلمين . وفى عام ١٥٠٦ أصدر البابا يوليوس الثانى قرارا بتجديد الاستثناء مع الترخيص للتجار بالاتصال بمراكز انتاجه فى بلاد السلطان العثمانى . وكان الأتراك العثمانيون فى توسعهم بأوربا بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ قد سيطروا على مناجم الشب فى فوكيا Phocee وأجوار سيمرنا ومناطق أخرى على البحر الأسود وفى كوتاهية بآسيا الصغرى . وقد سهل التجارة فى هذه المناطق، قرب مناجم الشب من موانىء التصدير ، وكانت السفن الايطالية ترد مناجمه فى فوكيا ويحمل تجار جنوة منه سنويا مالا يقل عن ١٤ مليون كيلو . ومن أفضل أنواعه كذلك المستخرج من مناجم « قرة حيصار » التى استولى عليها العثمانيون فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، والانتاج هنا لا يقل عن عشرة ملايين كيلو سنويا . وفى كوتاهية حوالى ١٢ مليون كيلو ويصدر عبر بحر ايجة (١٢٩) . أما الشب المستخرج من أشباه الجزر والجزر الاغريقية فهو من النوع الطيب ويكثر تداوله فى أسواق الاسكندرية

---

(١٢٨) — Pernaud, Op. Cit. pp. 57-58.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 665-666.

(١٢٩) — Heyd, Op. Cit. II. p. 505.
— Depping, Op. Cit. II. pp. 221 & N.P. 342.

واستامبول وبيروت . وكان بالاسكندرية مخازن للشب الوارد لها من الوجه القبلي ومن بلاد العرب واليمن وباب المندب وجزيرة سقطرى ومنتجات هذه الأقاليم معروفة فى أوربا منذ أوائل العصور الوسطى حتى ظهر شب أوربا بكميات كبيرة واستعيض به عن شب الشرق . وفى حلب عرف نوع آخر جيد مصدره الرها (١٣٠) . وفى السودان استخرج نوع من الشب حول بحيرة تشاد وهو رأسمال هذه البلاد ويتجول به السودانيون حتى ينتهوا الى مصر والمغرب الأقصى (١٣١) . وفى مصر كان الشب احتكارا للدولة ويستخرج من أسوان والواحات ويحمل الى قوص وأخميم والبهنسا لينقل الى الاسكندرية حيث يصدر للخارج (١٣٢) . ويتدرج الشب فى أنواعه من النوع الممتاز الذى يشبه الثلج فى لونه وان شابته أحيانا بعض الألوان الباهتة كالأحمر والأخضر . أما شب الدرجة الثانية فيختلط به بعض الصخور ، والنوع الثالث هو شب الحفر الذى بعد تنقيته يصير شبه بلورات صافية ويوجد فى شمال افريقية وهو نوع غير نقى مختلط به بعض الصخور بنسبة ٢ ــ ٥ (١٣٣) . وفى بعض الأغراض الطبية يستخدمون نوعا من الشب السكرى وهو نقى مصهور مع ماء الورد وبياض البيض . وكثر ذكره فى سجلات العصور الوسطى (١٣٤) . ويستخدم كذلك فى تثبيت الألوان والصبغات على الثياب ، فيكسبها لمعانا شديدا كما كان يستخدم فى الرسم والتذهيب والصباغة ، والدباغة فى العصور

---

(١٣٠) — Day, Op. Cit. p. 82.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 567.

(١٣١) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(١٣٢) القلقشندى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٨٨ و ٤٥٩ .
— Blochet, Hist. de L'Egypte De Makrisi, p. 143. N. I.

(١٣٣) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 568-569.
— Lopez, Op. Cit. p. 353. Doc. 176.

(١٣٤) — Heyd ; Ibid, p. 570.

الوسطى . وزادت أزمة الشب خلال حروب البيزنطيين والعثمانيين وان انفرجت بعد ذلك ، حتى ان السلطان العثمانى كان يدخل خزائنه سنويا مالا يقل عن ١٠٠٠٠٠ قطعة ذهبية من بيع الشب الذى كان يشرف على انتاجه الايطاليون (١٣٥) .

ومن أنواع الصبغات كذلك خشب البرازيل ذو اللون الأحمر ويرد من جزر الهند الشرقية ويعرف باسم شجر البقم وموطنه الأصلى الملايو ولونه يشبه لون الفحم المتوهج وعثر عليه فيما بعد بغابات البرازيل بأمريكا الجنوبية ومنه حصل على اسمه الحالى . وقد عرفه الايطاليون باسم Berzi أو Barzi وأحيانا Verzi (١٣٦) . وخشب البرازيل على أنواع عدة حسب نوع الشجر الطبيعى أو المزروع منه — كما أنه يختلف حسب البلاد التى يزرع بها . وهو على ثلاثة أنواع: الأحمر الفاتح — والأحمر الفاقع ، والأحمر المشوب باللون الاصفر ، وهو يقسم هكذا لتمييزه عن خشب الصندل الأحمر. أما مناطقه فهى فى كولام بالهند ، كما يوجد كذلك فى غابات كلكتا وساحل ملابار . وهناك نوع منه ينسب الى جبل العمرى فى جنوب الهند فى مواجهة جزيرة سيلان وكان ينمو بكثرة مدهشة ، كما يوجد بجزيرة سومطرة وخاصة فى غربها فى مواجهة الهند وأفضل أنواعه يرد من الهند

---

(١٣٥) — Heyd, Ibid, p. 571.

(١٣٦) يذكر ابن البيطار ان خشب البقم (أو خشب البرازيل) شجر عظيم وورقه مثل ورق اللوز الأخضر وساقه وأفنانه حمر ، ونهايته بارض الهند والزنج . يوقف الدم المنبعث من أى عضو ويجفف الجروح .

ابن البيطار : المصدر السابق جـ١ ص١٠٣ .

—Ferrand, Op. Cit. T. I. p. 246.

وأطلق عليه الايطاليون اسم Verzine أخذا من كلمة « ورس» العربية التى كانت تطلق على الزعفران اليمنى الذى يشبه السمسم كما استخدم فى الصبغات والدهانات (راجع ما كتب عن الزعفران) متز : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٦٥ .

— Clive, Op. Cit. p. 81;

الصينية ، وملقا ، كما أنه ينمو بالصين وخاصة فى منطقة تناسيرين Tenasserin، ويستخدم هذا الخشب فى الصباغة ويصل لأسواق العرب على هيئة كرات صلبة ثقيلة ، وبعد نزع قشرتها يؤخذ قلبها وتستخرج منه الصبغة بعدة وسائل . وهى تستخدم فى صبغ الملابس والرسم الدقيق وخاصة الرسوم التى تزين المخطوطات فى العصور الوسطى ويكثر الطلب على النوع الأحمر الوردى كما يدخل فى صناعة الأثاث (١٣٧) .

ومن مواد الصباغة كذلك دودة القرمز ، وهى حشرة ذات لون بنفسجى تعيش فى جماعات وتجمع وتقتل ثم تصدر أو تباع لمادة الصباغة . وهى معروفة فى العصور الوسطى وان كانت مجهولة المصدر الحيوانى ، وعرفت فى أوربا فى لانجدوك بفرنسا واسبانيا والبرتغال وكانت تصدر الى الشرق . وفى شرق البحر المتوسط وجدت أنواع من دودة القرمز تصل عن طريق البندقية لأوربا ولها سوق رائجة فى اليونان واسبانيا والبرتغال ونالت جزيرة كريت بعض شهرتها من تجارة دودة القرمز فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبالجزيرة لجنة من الخبراء لفحص السلعة واستبعاد الفاسد منها ، كما كان يجمع من أجوار كورون باليونان أجود أنواعه . وتذكر وثائق فلورنسا من القرن الخامس عشر أن أفضل أنواعه يرد من المغرب واسبانيا والبرتغال ، وسعره مرتفع كما تذكر الوثائق نوع آخر ردىء ، وان لم نقطع بمصدره ، كما أنها نفت أنه من شرق البحر المتوسط . ومن أرمينيا يخرج نوع ممتاز يصدر للهند وشرق البحر المتوسط ويجمعونه من سفح جبل أرارات بأرمينيا بكميات ضخمة ، وتستخدم عندهم فى

---

(١٣٧) — Quatremere, Mommeire Sur L'Egypte.... p. 285.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 587-590.

الصباغة ، وتصل هذه الأنسجة المصبوغة لأوربا عن طريق بغداد ويعرف باسم الحرير القرمزى (١٣٨) .

ومن السلع التى كان يصدرها الشرق للغرب فى العصور الوسطى العاج وقد تضاربت الأقوال فيما يختص بمصدره ، فمن قائل انه من افريقية ، ومن قائل: انه من الهند وكتب العصور الوسطى التى تذكر العاج ومصنوعاته أغفلت ذكر مصادره . وقد حفلت به أســواق شرق البحر المتوسط فى الاسكندرية وفاماجوستا وبيروت ودمشق ويرد لعدن من افريقيا والهند والمواصلات بين عدن وشرق افريقية سهلة وميسرة وقصيرة كما ورد من افريقيا كذلك لسيراف ، وان كان هذا الميناء أقرب الى الهند . على أن مصادر العاج فى العصور الوسطى المتأخرة كانت من افريقيا وبالذات من اثيوبيــا اذ أن عاجها يفوق عاج الهند ، فهو أطول وأثقل ، ومع كثرته فى الهند الا أنهم يستوردون أجود الأنواع من أثيوبيا . ويقل صيد الأفيال فى الهند لأن بعض الطوائف تقدسه. ويشتد الاقبال على العاج فى الصين وخاصة الهندى ، لذا بدأ يقل فى أسواق مصر وبالتالى فى أسواق أوربا ، حتى أصبح مصدره الوحيد افريقية . وقد استخدم المماليك العاج الوارد لهم من الحبشة والهند فى التطعيم والترصيع ، وخاصة فى حشوات المنابر فى المساجد، وصنع قطع الأثاث الفخم ، كما صدرت ايران تحفا منحوتة من عاج منسوبة الى مدينة الرى وبها تحفة عبارة عن حشــوتين من العاج محفوظتين بالمتحف البريطانى ، عليهما رســوم آدميــة فوق أرضية نبــاتية . والمصنوعات العاجية الدقيقة ترد من أسواق الشرق العربى ومن الهند

---

(١٣٨) من كلمة قرمز العربية عرفت الكلمة الأوربية «Karmoisin or Crimson»
متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

— Clive, Op. Cit. p. 81.
— Heyd, Op. Cit. pp. 608- 609.

والصين ومنه تصنع تحف المعابد والكنائس والتماثيل وأيدى المقاعد والعصى ويقال : انه يطحن ويدخل فى بعض العلاجات الطبية (١٣٩) .

ويذكر السكر كأحد محصولات الشرق التى تصـدر للغرب ، والتى نقل العرب زراعتها خلال وجودهم فى اسبانيا وهو من حاصلات الهند والهند الصينية ، وقبل أن تنتشر زراعته فى الغرب كان عصيره يجفف على النار ، لأن صناعته لم تكن قد عرفت بعد على الوجه الحالى فى العصور الوسطى. وعرفت صناعته بطريقة بدائية فى مدن وجزر الخليج الفارسى بعد أن كان يزرع فى خورستان كما كانت له مصانع فى الأهواز وبغداد . ويرجع الفضل فى تصنيعه أصلا للعرب وعنهم انتقل للشرق والغرب ويصدر الانتاج هنا للغرب الأوربى . وان كان استهلاك الغرب من السكر الهندى والصينى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر قد قل لأن الغرب أصبح يحصل على حاجته منه من مصر وسوريا وقبرص وشمال افريقية والأندلس التى يرجع الفضـل للعرب فى ادخال زراعته الى هذه المناطق وكذلك زراعته . ومصر أكثر الدول فى انتاجه وأفضل أنواعه منها وخاصة سكر الصعيد ، ويكثر الطلب عليه فى أوربا حيث يعرف باسم السكر المصرى الأبيض (١٤٠). وهناك نوع آخر من السكر الغير نقى ولونه وردى أو بنفسجى ويرد من بغداد ويطلق عليه اسم « البغدادى » ويرد ذكره بكثرة فى سجلات الجمرك (١٤١) . ويباع السكر على أشكال مختلفة منـه البـلورى والمسحوق ، وهو فى احدى مراحله قبل التنقية يعرف باسم العسـل

---

(١٣٩) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٣ ص ٨ .
متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٩ .
زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.

(١٤٠) — Depping, Op. Cit. I. p. 140.

(١٤١) — Clive, Op. Cit. p. 80.

الأسود ، وينصح أطباء العصور الوسطى مرضاهم باستخدامه لأمراض الصدر ، وهو بين المواد العقاقيرية لدى صيادلة العصور الوسطى وان كان ثمنه اذ ذاك ، مرتفعا (١٤٢) . وتنتشر زراعته وصناعته على نطاق واسع فى قبرص ويعمل به ما لا يقل عن ٤٠٠٠ عامل ويصدر الانتاج كله الى أوربا بواسطة تجار البندقية (١٤٣) . وفى آسيا الصغرى أنتج الأهالى نوعا من السكر الفاخر توافر فى أسواق ستاليا ولاجاسور وزرعت أنواع منه فى رودس وكريت ويحصل الغرب على حاجته منه خلال فترات الانقطاع عن أسواق شرق البحر المتوسط (١٤٤) .

ومن السلع التى اشترك الشرق والغرب فى انتاجها الخزف والبورسلين ، والاختلاف هنا يرجع أساسا فى نوع الطينة التى يصنع منها . وأفضل أنواعها ما يرد من الصين ، ويحمل نفس الاسم وهو على درجات من الجودة والشفافية واللون والوضوح ، ويلاقى الانتاج الصينى رواجا فى أسواق الشرق والغرب على السواء . وتحفل به أسواق دمشق وحلب وبيروت والاسكندرية ورغم ارتفاع أسعاره فان الطلب يكثر عليه فى أوربا ويحمله اليها تجار البندقية وجنوة ، ويهدى سلاطين مصر أنواعا ممتازة منه لملوك وحكام أوربا . وقد أنتجت مصر فى العصر الاسلامى أنواعا ممتازة من الخزف لا يقل روعة عن ما أخرجته الصين وايران من هذه الأنواع وان كان يقل جودة فى نوع العجينة . وينسب للعصر المماليكى أنواعا منه ذات ألوان بيضاء وزرقاء وعليها رسومات زهور وطيور تقليدا للأنواع الواردة من الصين . ومن

---

(١٤٢) — Heyd, Op. Cit. II. p. 690.

(١٤٣) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب (مترجم) ص ٩٧ .

(١٤٤) — Dopp, Op. Cit. folio 39, pp. 66-67.
— Poston, Op. Cit. II. p. 281.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 281.

أشهر خزافى العصر غيبى التوريزى ، وغزال ، والمصرى ، وابن الملك وغيرهم . الا أنه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر غزت أسواق مصر أنواع ممتازة من الخزف الصينى البديع الصنع والرسم ، ولغلاء أسعاره لم يعد سلعة شعبية ، وحل محله أنواع محلية من فناجين وسكريات وصحون أقل جودة من المستورد من الصين ، وفقد الخزافون المصريون سوقا رائجة لصناعاتهم ، فقل اتقانهم وابتكارهم وعمدوا الى التقليد غير المتقن مما يشهد بتدهور هذه السلعة وضياع أسواقها فى الداخل والخارج . وقد عرف المصريون كذلك صناعة القاشانى لكسوة جدران المنازل من الداخل ، ومآذن المساجد ، ومعظمها من لون موحد ، وعليه كتابات بيضاء على أرضية زرقاء ، وعجينة هشة ورسوم غير متقنة . وتنتج أوربا أنواعا ممتازة وان اختلفت فى عجينتها عن الانتاج الصينى ، وكثر تداولها فى القرنين ١٥ و ١٦ م . ومعظم الانتاج الشرقى والغربى يتواجد فى أسواق شرق البحر المتوسط (١٤٥) .

وشملت قوائم السلع المتبادلة بين الشرق والغرب المنسوجات على اختلاف أنواعها ، فاستورد الغرب من الشرق المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط من الذهب والفضة ، أما الشرق فقد استورد من الغرب المنسوجات الصوفية من ألمانيا وانجلترا عن طريق فلورنسا وجنوة والبندقية ، وكذلك المنسوجات الكتانية وان كانت أقل قيمة مما يصنع فى مصر . وقد لقيت صناعة النسيج وتجارته فى الأقاليم الاسلامية المختلفة تشجيعا ورواجا عظيمين . وفى فترة النشاط التجارى الذى عم العالم الاسلامى فى العصور الوسطى وخاصة المتأخرة منها كانت المنسوجات القطنية والتيلية والحريرية

---

(١٤٥) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٢٢ الى ٣٢٥ ـ ٣٢٧ .

— Clerget, Op. Cit. p. 370-371.
— Depping, Op. Cit. I. p. 59.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.

تصدر من مصر والشام وايران الى سائر الأقطار الاسلامية وأوربا والشرق الأقصى ، والهند . وقد أنشأ المسلمون عديدا من مصانع النسيج وخاصة مصانع الحرير ، وبعض انتاجه يحمل أسماء أماكنها فمنها الحرير الدمشقي Damaskas « الدمقسى » والموسلين Muslin من الموصل . ونوع آخر يعرف باسم جرينادين Grenadines من غرناطة بالأندلس . ومعظم دور النسيج كانت حكومية وتعرف باسم « دور الطراز » والدور الخاصة تعمل للخليفة ورجال بلاطه والأمراء ، وتعطى منه هدايا للأمراء والملوك الأجانب — أما الدور العامة فتنتج لأفراد الشعب . ويصنع بالدور الخاصة كذلك كسوة الكعبة الشريفة واشتهرت بذلك تنيس والاسكندرية ودمياط وديبق وأخميم وأسيوط والفيوم . وأمراء المماليك يفضلون الأصواف والأجواخ الواردة من أوربا على المصنوعة محليا ، كما أن البندقية وردت لأسواق شرق البحر المتوسط وخاصة فى مصر وسوريا أنواعا فخمة من الحرير والتيل والأنسجة المطرزة . ولما زاد ثراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر بعد سقوط القسطنطينية وتحول التجارة اليهم من البحر الأحمر ، لم يعودوا يهتمون بالانتاج المحلى ، واقتصر استخدامهم للأثواب المستوردة التى ترد بكثرة وانتاجها ممتاز . وترد من الفلاندر وشمال أوربا ملابس جند المماليك . ومن الهند يرد أنواع فخمة من المناديل والقطنيات والحرير ، والشيلان الكشمير ، وترد كلها بطريق البحر الأحمر . وقد برع الأوربيون فى نسج الصوف والكتان وتصديره للخارج ، وخاصة الى أقطار آسيا وان كان انتاجهم من المنسوجات القطنية والكتانية قليل ، برغم ازدياد الطلب عليه لحاجة رجال الدين ويرد القطن والكتان الخام لأوربا من شرق البحر المتوسط . وقبل نهاية العصور الوسطى تمت صناعة الأنسجة الحريرية بكثرة فى ايطاليا ، وصدرت منها كميات كبيرة الى الشرق العربى ، والشرق

الأقصى ، كما صدرت أوربا الى الشرق عامة الصوف والأنسجة الكتانية الرائعة المنسوجة فى انجلترا والفلاندرز (١٤٦) .

وفى القرون الأولى للعصور الوسطى كانت الكنيسة تحرم التزين ولبس الحرير وتدعو للتقشف والحرمان ، ولكن بمرور القرون أصبح هذا التحريم حبرا على ورق ، وكان رجال الدين هم البادئين ، فارتدوا الحرير وتزينوا بالجواهر . وامتلأت حوانيت ومتاجر غرب أوربا بواردات الشرق من هذه السلع ، وعليها رسوم غزلان وسباع وزرافات ووحوش وأشخاص ، ومعظمها كان يرد من الهند والصين وليس من أقطار مسيحية أو اسلامية ، اذ أنهم لا يميلون الى هذا اللون من الرسوم على الملابس (١٤٧) . على أن المنسوجات الحريرية كانت ترد الى أسواق أوربا عن طريق الشرق المسيحى وان لم تكن مصنوعة فيه فوردت من القسطنطينية البيزنطية ، وان كان هذا لم يمنع وصولها من القسطنطينية العثمانية ومن الاسكندرية كذلك ، مع ازدهار صناعته بالأندلس بعد حكم العرب فيها أواخر القرن الخامس عشر . وكثر الطلب فى أوربا على حرير الشرق المعروف باسم البروكار ، والذى كان يجلب من الاسكندرية وطرابلس ودمشق وأنطاكية وقبرص وآسيا الصغرى والصين وايران وان كان الاتصال بين الأسواق الأخيرة وأوربا قليلا لبعد المسافة . وعن الصين عرف الغرب تربية دودة القز وكذلك صناعة نسج الحرير ، واشتهر بها أهل صقلية والأندلس ، ومع ذلك ظل الشرق هو المورد الأساسى لهذه السلعة التى لم يكن يضارعه

---

(١٤٦) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠ ـ ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .
— Clerget, Op. Cit. pp. 538-539.
— Clive, Op. Cit. p. 82.

(١٤٧) — Heyd, Op. Cit. II. p. 694.

فيها أى نسيج آخر (١٤٨) . ومن مصادر الحرير كذلك حول بحر قزوين ، وطبرستان ، ومحمود أباد ، وجورجيا ، ووصل الجنويون فى بحثهم عن حرير الشرق الى شيروان فى القرن الخامس عشر قبل الغزو العثمانى ، وخلفهم فيها البنادقة بعد انهيار تجارة جنوة الشرقية (١٤٩) . ووصل لأوربا من بغداد أنواع من الحرير المطرز ، وحاول الأوربيون تقليده ، ولكن أفضل الأنواع كان يصل دائما من موانى شرق البحر المتوسط . وحتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر لم ينقطع تبادل المنسوجات الحريرية بين الشرق والغرب وان قل استيراد الغرب لأنواعه الشرقية نظرا لوفرته واتقان صناعته فى مدن أوربا . ووصل للشرق مناديل حريرية وأثواب فخمة مطرزة من البندقية ، كما صدرت فلورنسا كميات منه الى تركيا العثمانية ومصر . ولدى وصول البرتغاليين للهند لاحظوا وفرة الأنسجة الحريرية الفخمة الواردة اليها من دمشق وسوريا عامة ومن أوربا كذلك ، ومنذ بداية القرن السادس عشر أخرجت المصانع فى أوربا أنواعا فخمة من الحرير أجود من الشرق ما لبثت أن غزت أسواق الشرق (١٥٠) .

---

(١٤٨) عرف العرب وسكان جزيرة قبرص عنهم صناعة المنسوجات المعروفة فى العصور الوسطى باسم « البروكار » وتصنع من خيوط رفيعة من الكتان ومحاطة بطبقة رقيقة من أمعاء الخراف (والخنازير فى قبرص) ومغطاه بقشرة من الذهب وتطرز بها الملابس العربية ، وعرفت كذلك فى جنوة حيث أنتجت مصانعها أنواعا ممتازة مرتفعة الأسعار مما جعل الحكومة تضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يضار بسببها الطبقات المتوسطة والفقيرة نتيجة لكثرة الطلب وبالتالى التغالى فى أسعارها كما أن بعض المصانع لجأت الى تقليدها وتزييف بعض الأنواع المتشابهة . وللبندقية وسيلان نسيجهما المشابه .

— Heyd, Ibid, II. pp. 694-695, 677-678.

(١٤٩)
— Depping, Op. Cit. I. p. 58.
— Clerget, Op. Cit. p. 356.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 351, 352.
— Day, Op. Cit. p. 82.

(١٥٠) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٦٩ الى ٣٧٨ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 709-710.
— Poston, Op. Cit. II. p. 94.

وانتاج أوربا من الكتاب يسد حاجتها من هذه السلعة ولكنها لم تستطع الاستغناء عن كتان مصر لأنه كان على درجة عالية من الجودة ، والكتان المصرى ينمو على ضفاف النيل وداخل الدلتا والجانب الكبيرة منه يستهلك محليا كما يصدر الى شمال افريقية وقبرص ، والملابس الكتانية أكثر الملابس شيوعا فى مصر بين الطبقات الوسطى والفقيرة ، ويتقنه النساجون فى مصر حتى يبدو وكأنه من الحرير ، ويباع بأسعار مرتفعة (١٥١) .

وكان البابوات المتعاقبون فى العصور الوسطى وخاصة بعد سقوط القسطنطينية وعكا قد وضعوا القطن من بين المواد المحرم التعامل بها مع العرب ، ووجهوا نظر التجار الى وجوده فى أماكن أخرى كاسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية وكريت وأرمينيا ومالطة ، وقبرص . وهذه الأنواع من القطن الغربى كانت منخفضة السعر وخاصة قطن صقلية وأقل جودة من الأنواع التى تزرع فى شرق البحر المتوسط فى الشام ومصر (١٥٢) . ويليها أنواع أخرى تزرع فى أرمينيا ونوع ثالث فى قبرص وعكا واللاذقية . وفى القرن الخامس عشر وخاصة بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ عادت التجارة لتزدهر مرة أخرى بين الشرق والغرب بطريق عدن وموانى البحر المتوسط وكانت معالم هزيمة عكا ١٢٩١ قد بعدت عن أذهان الأوربيين فخفف البابوات من شدة القوانين التى تحرم التعامل مع المسلمين ، وبدأ ينقل لأوربا الأنواع الممتازة من قطن مصر والشام. وفى القرن الخامس عشر انتشرت زراعته ، وخاصة الأنواع الممتازة فى مصر وان كانت لم تذكر من قبل

---

(١٥١)
— Clerget, Op. Cit. p. 358.
— Clive, Op. Cit. p. 82.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 696.

(١٥٢) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب وخاصة فى العصور الوسطى ـ ترجمة فؤاد حسنين على ص ١٤ .

لقلة ما كان يزرع منها وللبندقية ســفن خاصة لنقل القطن ترد كل عام لموانى صور وصيدا ، ولهم بها وكلاء لتسهيل شحنه (١٥٣) .

وفى العصور الوسطى استخدم الشرق أنواعا من الخشب المحلى فى صناعة السفن وفى المبانى والأثاث ، ويصل منه الى مصر كميات كبيرة بالاضافة الى أخشاب الغرب وله وكالة قرب النحاسين حيث يباع بالميزان بالاضــافة لأنواع أخرى ممتــازة ترد لصنع أثاث المنازل . أما خشب السفن فتصنع منه ألواح هياكلها وأفضل الأنواع هو خشب الساج أو جوز الهند وأحيانا يعرف باسم خشب النارجيل ، وهو من نفس الأنواع من الأخشاب الشرقية وأمتنها، « ومتى تم اعداده فلا ينشق ولا يتقلص ولا يتغير شكله ويزيده الحديدمتانة » . ومناطق نموه غابات فى جنوب الهند وبورما وسيام وجزر الهند الشرقية ، ويصدر كذلك الى مدن الخليج الفــارسى لعمل الســفن وبنــاء المنــازل وخاصة أسقفها (١٥٤) . ومن أنواع الأخشاب الفخمة الأبنوس ، وأفضل أنواعه الحبشى وهو أســود وليس فيه طبقــات أو كسر وهو كثيف ويلدغ اللسان . ويرد من الهند أنواع أخرى فيها عروق ما بين أبيض وياقوتى، ولكن الحبشى أفضــله ، ويستعمل فى صناعة التحف والأثاث الفخم

---

(١٥٣) تزخر أسواق مصر بانواع ممتازة من النسيج الايرانى وخاصة فى العصر الصفوى تنسب الى مدن تبريز وســلطانية وهرات ويزد وقاشان واصفهان وشروان كما أنتجت مصانع الطراز فى الأندلس انسجة بها رسوم نجمية الشكل واشرطة متداخلة كانها بلاط قشانى ـ ويرد من تركيا وكذلك من ايران أنواعا ممتازة من الســجاد ذى الألوان المتناسقة أصوافها من اغنام معتنى بتربيتها ونظافة أصوافهــا ويدخل فيها خيوط من الذهب والحرير والفضة .

زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٧٨ ـ ٣٨٤ ـ ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ـ ٣٩٩ ـ ٤٠١ .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 611-614.
— Day, Op. Cit. p. 82.

(١٥٤) حورانى : العرب والملاحة والمحيط الهندى ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧ .

— Clerget, Op. Cit. p. 632.
— Ency. Brittanica, Art. TEAK.

حيث يطعم به ويقال ان مسحوقه يدخل فى بعض العقاقير الطبية لعلاج القروح وأمراض العيون (١٥٥) .

تقول الأمثلة العامة فى العصور الوسطى « عظيمة هى فضائل التوابل ولكن أعظم منها الأحجار الكريمة » وفى ذكر الأحجار الكريمة لا يعطى الاعتبار هنا لمصادرها من قاع البحر أو من بين حصى الأنهار أو من باطن الأرض والصخور ولكن قيمتها كما كانوا يعتقدون « أنه اذا شرف جوهرها حلت فيه بركة الخالق العظيم ، وبالتالى عظم قدرها وقيمتها » . وطغى هذا الاعتقاد فى العصور الوسطى على عقول الناس، حتى فهم أن بعض أنواعها يطرد الأرواح الشريرة وأن البعض الآخر يضفى على الفرد سلامة الجسم والعقل (١٥٦) . وآسيا مصدر الأحجار الكريمة فى العصور الوسطى واشتغلت مناجمها بصورة أوسع منذ وصول الأوربيين الى الشرق الأقصى فى مطلع القرن السادس عشر حيث تم استغلال مناجمها وخاصة مناجم جبال أورال . وفى مصر اشتهر صعيدها بوفرة مناجم الزمرد وصدر الى أوربا وآسيا والحبشة . وتقع مناجمه على الحدود بين مصر والنوبة فى منطقة توازى الجبال بين النيل والبحر الأحمر ، وكان انتاج هذه المناجم ملكا للسلاطين المماليك حتى سقوط دولتهم ونضب معينها من كثرة ما استغلت (١٥٧).

---

(١٥٥) ابن البيطار : المصدر السابق جـ ١ ص ٨ .

(١٥٦) — Sonia, Op. Cit. pp. 16-17.

(١٥٧) ابن الوردى : المصدر السابق ص ١٣١ يذكر « أن الزمرد أخضر شفاف يدخل فى علاج من سقى السم وأفضل أنواعه الذبابى » أما القلقشندى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٦ فيذكر أن أصله ياقوت تعرض للسواد ولعوامل أخرى فاصبح أخضر وهو على أربع أنواع الذبابى شديد الخضرة والريحانى نسبة الى لون الريحان والسلقى نسبة الى نبات السلق فى اللون والرابع الصابونى نسبة الى الصابون الأخضر وأفضل أنواعه الذبابى ويرد من صعيد مصر . فى جبل بين أسوان والسودان — راجع كذلك : ابن البيطار : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 651-652.
— Darnes, Op. Cit. II. pp. 225-226.

وهناك أنواع أخرى تأتى من ساحل افريقية الشرقى والحبشة ويباع فى أســواق الهند وخاصة قاليقوط ، والمزيف منه تظهر فيه فقاعات هوائية ، أما النوع الممتاز فهو مضىء مرتفع الأسعار (١٥٨) . ويتكون من معدن الزمرد جوهر آخر هو الزبرجد ويعتقد كثيرون أنه نوع منه ولكنه فى الواقع أقل جودة ويستخرج من الآثار القديمة بالاسكندرية ، والجيد منه يمتاز بصفاء لونه وخضرته والنوع الأقل هو الأصــفر ويوجد فى سيلان (١٥٩) .

ومن هذه الجواهر كذلك الفيروز ، ويرد من كرمان وخراســان ونيسابور (١٦٠) . واللازورد من بلوخستان ، والهند الصينية (١٦١) . أما الياقوت فيرد من مصادره فى بلوخستان والهند ، وأثمانه مرتفعة جدا وأجود أنواعه الأحمــر الذى لا يتكلس بالنار بعكس الأصفر والأخضر ، ويفحص النقى منه بوضعه فى الشمس فلا تظهر فيه أى شوائب ، ويرسل من الهند وسيلان خاما الى مصانع شطفه وتهذيبه فى قاليقوط ، ويكثر عليه الطلب فى أسواق الشرق والغرب على السواء. وأفضل أنواعه ما يرد من سيلان (١٦٢) .

أما العقيق فمصــادره الهند فى جندهار وبشــاور وليمادورا ، ولونه أحمر بأحجام مختلفة ويزداد مضاء وجلاء باحاطته بالنار ويشكله الصناع المهرة حسب الطلب ويرصع به الســيوف والخناجر والعقود

---

(١٥٨) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .
المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص ٢٧٣ .
(١٥٩) القلقشندى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٧ و ٣٤٨ .
(١٦٠) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(١٦١) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 653-654.
(١٦٢) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٣١٨ .
ابن الوردى : المصدر السابق ص ١٢٩ .
القلقشندى المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٢ ــ ٣٤٣ .
— Darnes, Op. Cit. II. pp. 217-218-219-220.

وينقل الى آسواق مصر والاسكندرية ليباع للأوربيين. ونقل البرتغاليون كيمات كبيرة منه الى البرتغال بعد وصولهم للهند (١٦٣) . وتوجد أنواع منه فى أفغانستان وصنعاء باليمن (١٦٤) . وتذكر مراجع العصور الوسطى أنواعا أخرى ممتازة مصادرها من الشرق الأقصى والأدنى ويكثر عليها الطلب فى الشرق والغرب على السواء . وتجد طريقها بسهولة للطبقات الغنية ، وينظر الأوربيون لمصر وآسيا كمصدر من مصادرها . ومنها الفيروزج والسافير ، والرميات ، والفيروز ، والماس ، واللؤلؤ ، والمرجان ، وعين الهر ، والذهب (١٦٥) . ومن أظهرها اللؤلؤ ، ومصايده فى المضيق الذى يفصل الهند عن سيلان وفى الخليج الفارسى ، كما يوجد مغاص له فى بحر عمان ، والبحر الأحمر . وأفضل أنواعه العمانى والفارسى ، وأقله الهندى والقلزمى (١٦٦) وتدخل المراكب لصيده فى مواسم معينة ويصدر معظمه للخارج . وكان ملوك وأمراء الهند يعتبرون مغاص اللؤلؤ فى قاع المحيط من أملاكهم ، ولما وصل البرتغاليون للهند كانت سفنهم تصل مرتين كل عام الى مضيق سيلان والهند لحمل اللؤلؤ ويقال ان حصيلة كل ثلاث سنوات لا تقل عن حمولة ٤٠٠٠ قارب . أما لؤلؤ

---

(١٦٣) — Darnes, Ibid, pp. 136-142-143, & N. I. p. 137. T.L.

(١٦٤) من أنواعه ما يستخرج من أفغانستان واليمن « وكان من اراد العقيق يشترى قطعة أرض بصنعاء فربما خرج له شبه صخرة أو اقل وربما لم يخرج له شىء » .

الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٥ .

متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

(١٦٥) متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

— Day, Op. Cit. p. 80.
— Ferrand, Op. Cit. II. p. 562.
— Darnes, Op. Cit. II. p. 224.

(١٦٦) الجاحظ : المصدر السابق ص ١٣ .

متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

القلقشندى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤١ — ٣٤٢ « يذكر ان افضل أنواعه ما يستخرج من الخليج الفارسى عند جزيرة حرك بين قيس والبحرين » .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 648.

منطقة كولام ، فيصاد لحساب التجار العرب ويرسلون أحسنه لأمراء الهند ويصدر الآخر للخارج (١٦٧) . أما المرجان فمصايده غربى البحر المتوسط على طول الساحل الافريقى وهو من السلع التى يصدرها الغرب للشرق وأفضل مناطق صيده سبتة بالمغرب ومرسى الخرز قرب رأس بون فى تونس ، ومصايد شمال افريقية مشهورة منذ القـدم ولا تقل جودتها عن مصايد سردينيا ، وكورسيكا ، وصقلية ، وتصدر أحيانا الى أوربا لتكمل أجزاء من المجوهرات ، وأكثرها يصدر للهند والهند الصينية فى مقابل غلاتهم للغرب . ويهوى أهالى كشمير المرجان ويذكر البرتغاليون شدة ولع الهنـود به . وتحمله الى مصر سـفن قطالونيا وفلورنسا والبندقية ومنها يصدر للشرق (١٦٨) .

وفى ذكر المعادن النفيسة لا يمكن اغفال ذكر الذهب والماس . فالذهب أكثر المعادن الثمينة شيوعا بين الناس غنيهم ، متوسـطهم وفقيرهم ، وفى مصر توجد مناجمه بالصحراء بين أسوان وعيذاب . وأكبر مدن انتاجه العلاقى ، ويتجول العمال ليلا فى الليالى غير القمرية ويعلمون المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا ، فاذا ما أصبحوا حملوا أكوام الرمل الى الآبار لغسلها واستخراج التبر منها ، وتحمله قوافل السودان فى طريقها الى مصر (١٦٩) . أما الماس الطبيعى فمصادره فى العصور الوسطى الشرق الأقصى ووسط الهند ، وهو نوعان : البلورى وهو أفضله ، والديتى والذى يخالط بياضه صفرة ، ومن خواصه

---

(١٦٧) متز المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٩ .

ابن الوردى : المصدر السابق ص ١٢٩ .

— Depping, Op. Cit. I. pp. 146-147.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 649-650.

(١٦٨) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٥ .

— Heyd, Ibid, II. pp. 668-669.

(١٦٩) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

أنه يقطع غيره من الجـواهر ولا ينكسر . ويشـطف لاستعماله فى التزين (١٧٠) .

واستخدم النحاس الوارد فى سك العملة وتغطية أبواب المساجد وقصور الخلفاء والسلاطين وصناعة التحف ، كما عرفت صناعة التكفيت بالبرونز والنحاس والذهب والفضة . وأكثر المماليك من صنع الأوانى والحلى من الذهب والفضة وزينوها بالكثير من النقوش والكتابات واستوردت مصر من أوربا أدوات حديدية وذهبا خاما للسك والحلى . ونقل الأوربيون عن المصريين الأوانى المعروفة باسم « أكوامانيل » وهى أباريق كثر استعمالها فى الكنائس والمنازل ــ كما اشتهرت بلاد القوقاز بالصناعات الدقيقة من البرنز والذهب والفضة وتصدر كلهـا لأسواق شرق البحر المتوسط وأوربا (١٧١) .

وبلغت صناعة الزجاج والبلور أوج عظمتها فى مصر والشام فى العصر المماليكى، وامتلأت أسواقها بالتحف البلورية والزجاجية المموهة بالذهب والميناء والبريق المعدنى واذا كانت الزعامة فى هذه الصناعة للشام ومصر ، الا أنها عرفت من قبل فى العراق . ومن أبرز ما وصل الينا منها المشكاوات المموهة بالميناء، وكانت تعلق فى المساجد والمنازل، وعليها كتابات تاريخية ومنسوخة بخط من العصر المماليكى . ويرجح أن صناعتها قامت فى مصر اقتصادا للنفقات وتجنبا لخطر الكسر عند نقلها (١٧٢) .

---

(١٧٠) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٣ .
القلقشندى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦ .
(١٧١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٥١٥ ــ ٥١٨ و ٥٥٢ ــ ٥٥٦ .
سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٥ .
(١٧٢) زكى حسن : المصدر السابق ص ٦٠٧ .

الفصل الخامس

النظم التجارية

سبق الشرق فى نظم التجارة ونقل الغرب عنه :

اتخذت النظم التجارية فى العصور الوسطى صفة المحافظة على القديم واستمراره جنبا الى جنب مع ما يستحدث من نظم ، فالقوانين التى نظمت التجارة فى القرن الثانى عشر مثلا ، استمرت سائدة وسارية حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الى جانب ما استحدث من النظم اذ ذاك . واذا أشارت الوثائق الى تعديل ما ، فهى تذكر القديم ومعه ما استجد من تعديلات ، وعلى هذا فان الحياة الاقتصادية فى القرن الخامس عشر استمرت على نفس النظم والقواعد السابقة (١) .

ويجب ألا يغرب عن البال ونحن نورد هنا بعض الوثائق الخاصة بالنظم التجارية أواخر العصور الوسطى أننا نتكلم عن عصر جامد تسوده التقاليد والمحافظة على القديم وعن فترة من التاريخ لم تتطور الا بعد جهود جبارة ، فقانون الملاحة البحرية التجارية مثلا ظل كما هو دون تغيير منذ القرن الثانى عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر ،

---

(١) — Vaillet, J., Histoire Des Faites Economiques Des Origines Au XXe siècle, p. 147.

وقد ذكر صاحب هذا المؤلف النص الآتى ص ١٤٧ :

— « La Vie Cconomique Continue au XVème siècle sur les bases anterieures.»

فى حين أضيفت اليه تعديلات جديدة لم تفقده أصوله بقدر ما تعدلت لتلائم حركة الكشف الجغرافى التى اشتد ساعدها منذ منتصف القرن الخامس عشر بدخول رواد البحر الأوربيين بحار ومحيطات جـديدة بالنسبة لهم ، بل ان بعضها لا يزال سائدا الى اليوم ، والقياس هنـا مع الفارق بالنسبة لطبيعة الملاحة فى القرن الخامس عشر وفى القرن العشرين (٢) .

وقام بالنشاط التجارى بين الشرق والغرب فى العصورالوسطى تجار شرق البحر المتوسط وغربه ، اذ نقلها تجار شرقه من مصـادرها فى الشرقين الأدنى والأقصى ووزعها تجار غربه فى أوربا . لذا كانت معظم القوانين والنظم التجارية من وضع حكومات وهيئات التجارة فى المنطقتين ، كما طبق كلاهما نفس الأنظمة الى حد كبير وان اختلفت أحيانا فى مظهرها الا أنها تشابهت فى جوهرها ، ومظاهر الاختلاف هنا تعود الى تباين الحياة الاجتماعية فى كليهما . (٣) ولتجار مصر والشام وكلاءومندبون فى الشرق الأدنىوالأقصى ولتجـار الغرب مثـل ذلك فى شرق البحر المتوسط وبلغ النظام درجة راقية على يد القناصل التجاريين الغربيين فى مصر والشـام حيث طبقوا فى وكالاتهم وفى فنادقهم وعلى سفنهم فى عرض البحر النظام السائد فى أوطانهم مع عدم الاخلال بالنظم المحلية . ويبدو أن تجار الغرب قد عرفوا معظم النظم المالية والتجارية من الشرق ابان اتصالهم به للمتاجرة وتأكد ذلك

---

(٢) — Maillet Ibid, p. 138.

— Horn, Paul V., International Trade, Principales & Practices, p. 82.

(٣) مفهوم كلمة الشرق والغرب فى هذا البحث وفى هذا الفصل بالذات هو شرق البحر المتوسط وغربه . وفى هذا المعنى أنظر :

بداية الفصل الثانى والملاحظة بالهامش وكذلك توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) البحث الخامس ، لروبرت لوبيز ص ١٤٢ ملاحظة (١)

خلال الحروب الصليبية ، فدمشق مثلا كمركز من أكبر مراكز تجارة شرق البحر المتوسط فى العصور الوسطى .. « ارتقى أهلها بالصناعة البحرية فوضعوا قوانين الملاحة ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر كما شرحوا الكفالة المالية وأنشئوا المصارف ووضعوا السفاتج المألوفة بل هم باعثو روح الحركة المالية فى مصارف الشام الحديثة ، كما مهدوا الطرق وأنشئوا المدن ومراكز التجارة والفنادق والرباطات ..» (٤) وقد أدى هذا كله الى استحداث نظم جديدة نابعة من متطلبات الحياة التجارية فى شرق البحر المتوسط وغربه (٥) .

بعض المشكلات التى واجهت تجار العصور الوسطى :

ولم يكن الطريق أمام تاجر العصور الوسطى ممهدا سهلا ، بل كان محفوفا بالكثير من المخاطر والمتاعب ، أكثر بالطبع مما يلاقيه تاجر العصور الحديثة ، فوسائل النقل اذ ذاك بطيئة وقليلة ، وكثيرا ما آذاه أتباعه وعملاؤه ومنافسوه بالخيانة أحيانا والمعاملة السيئة أحيانا أخرى،

---

(٤) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٦١ .

— Archer, The Crusades, pp. 438-439.

— Lopez, R. Ned. Trade in the Mediterranean World pp. 221, 222 CHP. 12 DOC. 111.

— Depping, G.B., Hist. Du Commerce Entre Le Levant et L'Europe, T. 1. pp. 81, 82, 83.

(٥) « اذا كان التفوق الاقتصادى للغرب على الشرق لا يزيد عمره على ١٠٠٠ سنة فان تفوق أهل الشرق يرجع الى أربعة آلاف سنة ق.م. ان لم يكن قبل ذلك » .

توفيق اسكندر : المرجع السابق ، البحث الخامس ص ١٤٢ .

« ولما كان الشرق هو رائد التجارة منذ العصور الوسطى المبكرة فانه يمكن ان يقال ان الشرق هو الذى مهد لأحداث التطور الذى شمل النظم التجارية التى سادت العالم منذ انتهاء العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة » .

— Maillet, Op. Cit. p. 136.

— Wiet, G., Preçis de L'Histoire, T. 11. pp. 274-275.

— Clerget, Le Caire, Etude De Geographie... p; 309.

بل انه فى كثير من الأحيان كان يلقى معاملة تتسم بالقسـوة والخشونة من الحكومات والشعوب الأجنبية . وقد بذل جهودا جبارة دون أى ملل أو كلل ولكنه كان ينتهى أحيانا بالفشل السريع المفاجىء ، وكثيرا ما كانت تصفى تجارته تبعا لقوانين التفاليس الصارمة ، ومـع ذلك استطاع تاجر العصور الوسطى أن يتغلب على كثير من العقبات ويعوض خسائره بابرام عقـود التأمين ودافع عن نفسـه وتجارته باستخدام نفـوذ حكومته فى التخفيف من أثر قوانين البـلاد الأجنبية على تجـارته وأرباحه (٦) . وتنشأ المنازعات عادة بين التجـار الأجانب والوطنيين والسلطات المحلية لأسباب كثيرة قد تتعلق بوجود السلعة ، أو سعرها أو العملة ، أو نحو ذلك . وفى مصر كان القضاء المحلى هو المسئول عن فض المنازعات بين التاجر الوطنى والأجنبى ، ويفصل بينهما القاضى أو أمير المدينة أيا كان نوع النزاع . والقرار هنا بمثابة حكم محكمة الدرجة الأولى الابتدائية ، وللمتنازعين أن يستأنفوا الحكم وفى هذه المرة يكون الاستئناف أمام السلطان نفسه بالقاهرة أو من ينيبه عنه ويسافر اليه الطرفان المتنازعان . واذا كان النزاع بين أجنبيين فقنصلاهما مختصان بفض هذا النزاع ولكن يحق لهما الاستئناف أمام السلطات المحلية وأمام السلطان نفسه . وقد نص على ذلك فى المعاهدات المبرمة

---

(٦) موضوع العلاقات بين التجار الأوربيين والسلطات المحلية فى مصر والشام قديم قدم الاتصال التجارى بينهما ــ ولا يمر عام دون وصول بعثة دبلوماسية للتفاوض فى شـأن تخفيف القيود على التجار الأجانب وحل مشاكلهم مع الهيئات المشرفة على التجارة بالجمارك او بخصوص الضرائب ومختلف الرسوم المفروضة ، وفى كل الحالات تقريبا كانت تستجيب السلطات الحاكمة فى مصر مما نشط التجارة وخفف العبء فعلا على التاجر الأجنبى .

انظر الفصل الثانى « العلاقات التجارية الخارجية » . Lopes op. cit. p. 238

بين السلطات المماليكية وحـــكومات التجار الأجانب (٧) . واختص

---

(٧) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤١٥ « تعتبر المحكمة العليا فى عصر المماليك محكمة الاستئناف وتعقد برياسـة السلطان يومى الاثنين والخميس فى دار العدل أو فى الديوان ومن أعضائها ناظر الحسبة فى القاهرة أو فى الثغر حسب موضوع القضية • وأعضاء المحكمة هم : عن يمين السلطان يجلس قاضى الشافعية والمالكية وعن يساره قاضى الحنفية والحنبلية ثم الوزير وكاتب السر ـ أما قضاة العسكر الثــــلاثة فيجلسون عن يمين المالكية وهم الشافعى ، فالحنفى ، فالمالكى ، ووكيل بيت المال ، ثم المحتسب ـ وللاسكندرية محتسب خاص بها » •

وقد تضمنت المعاهدات نصوصا بخصوص التقاضى كالآتى :

(١) معاهدة بين سلطان مصر وملك أراغون برسباى ١٤٢٢/١٤٣٨ الفونسو الخامس ١٤١٦/١٤٥٨ فى رمضان ٨٣٣ ـ ٨٦٣ هـ•

(أ) اذا كانت الخصومة أو النزاع بين تاجر أراجونى وآخر مصرى ، وارتضى الخصمان أن يوفق بينهما القنصل ، كان لهما ذلك • ويمكن القنصل من أداء هذه المهمة القضائية ، واذا لم يرض أحدهما بذلك « أصبح الأمر من اختصاص ملك الأمراء أو ناظر الديوان » (راجع المعاهدة فصل ٣٦) •

(ب) الجرائم والمنازعات التى تقع بين أفراد الجالية الواحدة الأجنبية والمرجع فيها لقنصلهم وحده دون تدخل من السلطان أو من أمير الأمراء (راجع •• المعاهدة فصل ٣٦) •

(جـ) يفصل بين الأراغونيين والمصريين السلطان نفسه ، أو أمير الأمراء أو الناظر فى الديوان • ومن حق التاجر الأراغونى أن يصل الى السلطان اذا لم يرتض بحكم الحاكم أو القاضى المحلى فيرفع دعواه الى السلطان نفسه أو أمام قاضيه ، على الا يؤدى ذلك الى الانتقام منه أو التعصب عليه أو تعقبه • انظر المعاهدة فصل ١١ •

المعاهدة منشورة بعدد المجلة ٤٥ السنة الرابعة سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ وعدد ٤٩ : يناير ١٩٦١ السنة الخامسة ص ٨٣ •

٢ ـ بالملحق نص لاتفاقية تريفيزانى/الغورى ١٥١١ ـ ١٥١٢ من
M. Reinaud, Journal Asiatique, TOM. IV.

بخصوص التقاضى فى بلاد السلطان ، وخاصة فى دمشق ، وموافقة نائب السلطان عليها فى دمشق (فقرة ٤) لا يحق لأى حاكم أن يعاقب البنادقة أى عقاب على الأقل بعد أخذ اذن من السلطان نفسه) •

٣ ـ بالملحق نص بمعاهدة البنادقة مع السلطان سليم الأول بالقاهرة ١٤ من فبراير ١٥١٧/٢٢ من المحرم ٩٢٣ هـ المادة ٥ ـ القنصل دون سواه هو الذى يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت فى الأمور لصالحهم •

(أ) أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل فلا يسمح له ولا يحق للقاضى استقباله ••
— Wiet, Preçis De L'Histoire D'Egypte T. III. pp. 96 ff.

القضاء كذلك بنظر الدعاوى بين طوائف التجار الأجانب بصفة عامة شرقيين أو أجانب ، فقد حدث عندما انضمت بيزا الى فلورنسا أن طالبت الأخيرة بفندق البيزيين فى الاسكندرية ، ولكن السلطات كانت قد منحته لطائفة التجار الأتراك ، ولما عرض النزاع على قاضى الاسكندرية حكم بعدم شرعية اعطاء الفندق للفلورنسيين بعد أن سكنه الأتراك المسلمون .

ومثل هذا الحكم كان نهائيا لا يقبل الاستئناف (٨) . ومعظم القضايا أمام المحاكم الابتدائية والمستأنفة بين الأجانب شرقيين وغربيين، أو بينهم وبين الوطنيين كانت قضايا تجارية عن الخلاف فى بيع التوابل أو السلع الشرقية والغربية وما قد يحدث خلال ذلك من خلاف على السعر أو النوع أو العمليات المالية والمعاملات المصرفية أو المقايضة أو بين التجار وهيئة الجمارك نفسها (٩) .

= بالملحق معاهدة بين السلطان قايتباى ولورنزوميدتشى حاكم فلورنسا ١٤٨٨ من

— Amari, I Diplomi Arabi XLV pp. 363-369.

المادة (٥) اذا حدث خلاف بين تاجر من الفرنتيين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب أن ييسر لهما الأمر وفى حالة غيابنا ينوب عنا الحاكم أو نائبه أو الكاتب (كاتب الديوان) .. وألا يمنع أى شخص من المثول أمام السلطان للمقاضاة وخاصة من التجار الفرنتيين .

٥ ـ وكذلك المعاهدة الشاملة بالملحق بين فلورنسا والسلطان قايتباى ٢٢ من فبراير ١٤٩٦/١٨ من ذو القعدة ٩٠١ هـ فصل ٢٢ و٣٣ ، وكذلك فصل ٥ وفصل ١٠ بنفس المعاهدة (ويشير كذلك الى حق الاستئناف الممنوح كذلك للبنادقة أمام السلطان « ان كنا بالأبواب الشريفة أو النايب ، أو الحاجب أو المباشرين بالثغر »

— Amari, Ibid, XL. pp. 184-209.

(٨) انظر الفصل الثانى فى جزء العلاقات بين السلطان اينال والفلورنسيين «العلاقات التجارية الخارجية»

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 488-489.

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٤ ص ٩٨ : يذكر فى حوادث شهر ربيع الآخر ٩١٢ هـ .. وفيه وقع أن شخصا من الأتراك يسمى ماماى الداودى ـ ابن الأمير أبا يزيد أحد المقدمين ـ ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بغل ، فلما ضربه سال دمه وتطلع التاجر وشكا الى السلطان فرسم لنقيب الجيش بالقبض عليه ، فلما قبض عليه نقيب الجيش هرب من عنده فحل على النقيب مالا خير فيه .. =

نظام النقل البحرى فى التجـارة :

ومن أهم ما كانت تهتم به الحكومات والهيئات الموكل اليهـا الشئون التجارية الخارجية هى « عمليات النقل البحرى التجارى » . وقد نظمت هذه الهيئات والحكومات فى شرق البحر المتوسط موضوع النقل البحرى ، فعدلت القوانين القديمة ووضعت القوانين الجـديدة الثابتة لتتلاءم مع روح العصر . ويرجع قانون النقل البحرى التجارى فى العصور الوسطى الى أيام الحروب الصليبية حين بدا واضحا مدى الحاجة الى قوانين تنظم نقل الحملات الصليبية ورحلات السفن التجارية للشرق . وظلت هذه القوانين بعد تعديلها سائدة حتى أوائل العصـور الحديثة ، بل انها كانت « قاعدة للكشوف الجغرافية والتى احتضنها الأمير هنرى الملاح فى القرن الخامس عشر وآتت ثمـارها أواخره وأوائل القرن السادس عشر ، وعندما اتخذت التجارة مظهرها الجديد بعد « داجاما وكولمبس » انتهى أثر الحروب الصليبية بمعناها العام المعروف وهو « المعنى الدينى » الى معناها الحقيقى وهو الاستعمار الذى شمل القرون من السابع عشر الى التاسع عشر (١٠) . وقد اتبعت الدولة البيزنطية ومن بعدها الدولة العثمانية والجمهوريات الايطالية والهيئات التجارية البحرية التى لها مصالح فى بلاد السلطان المماليكى ، وخاصة فى موانىء مصر والشام قانونا بحريا لم يتغير كثيرا منذ القرن

= ويستطرد ابن اياس بأن السلطان لم يقبل الشفاعة فى الهارب ولا فى النقيب وعاقبهما ورد الحق لصاحبه .

ويذكر المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٣٦٠ « ان بعض تجار العجم استأنفوا وتظلموا للسلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون بدار العدل عام ٧٥٣ هـ من حكم القاضى الحنفى جمال الدين عبد الله التركمانى فى خلافهم مع بعض تجـار القـاهرة ، ولما حقق السلطان فى القضية أمر بالافراج عنهم ورد أموالهم » .

(١٠) — Archer, Op. Cit. p. 438.

الثالث عشر مأخوذا من قانون بحرى لجزيرة رودس (11) التى كانت تمتلك اذ ذاك أسطولا ضخما له نظمه وتقاليده وقوانينه ، ومن أهم بنـــوده : ــ

١ ــ قوانين خاصة بملكية السفينة وطاقمها .

٢ ــ مسئولية قائد السفينة (القبطان) عن ســـلامة الســـفينة والركاب وودائعهم .

٣ ــ فى حالة غرق المركب فعلى صاحبها أن يدفع تعويضـــات لأصحاب السلع بما يوازى خمس القيمة من البضائع المحمولة اذا كان التعويض فضة ، والعشر اذا كان التعويض ذهبا ، والحمولات العادية البسيطة لا تعوض .

٤ ــ الاذن باســـتثمار الأموال بطريقة عملية فى شحنات النقل البحرى عن طريق القروض البحرية التجارية . وبخصوص هذا البند نلاحظ أن الهيئات المختصة بالتجــارة فى الحكومات فى العصـــور الوسطى فى البحر المتوسط كانت تسمح بهذه القروض البحرية ، وبهذا

---

(١١) وهو معروف باسم «The Rohdisian Laws»

— Thenaud, Voyage D'Outre Mer. p. 116.

ــ بخصوص رعاية السفن وقت العواصف فانها ذكرت فى رسائل وبمعاهدات ، العصور الوسطى .

— Senato Secreta, Rag XLIV. f. 92 V.

— Instructions à Dominico Trevisan Ambassadeur Au Sultan 31-12-1511.

يذكر فى فقرة (٩) طلبنا فى عدة مرات فى حالة مفاجأة الزوابع لنا ليلا أن يؤذن للسفن بأن تلجأ للميناء وبدون استئذان وهو مطلب عادل وممكن الحصول عليه الملحق برقم (٨) وبخصوص السلع الغارقة « السلع التى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لاصحابها البنادقة ــ أما السلع التى تقذفها الأمواج للشاطىء بعد غرق السفينة فهى ترد لأصحابها .. » الملحق رقم (١٥) مادة (١٠)

— Wiet, Op. Cit. 11. pp. 274-275.
— Poston, H., Camb. Med. Trade, Vol. 11. pp. 96-97.

النوع من النقل البحرى مع فائدة تصل الى حوالى ١٦٫٦٦٪ من رأسمالها وهو سعر أكبر مما كان يتبع فى غرب أوربا (١٢) .

وبخصوص القروض البحرية التجارية كاحدى النظم السائدة فى عمليات النقل البحرى فان تاريخها كالقروض العادية يرجع فى نظامه الى العصور الوسطى المبكرة ، وربما الى عهد الرومان والاغريق. وتنص عقودها على تعهد المقترض هنا فى التجارة البحرية بسداد القرض فى حالة عودة السفينة الحاملة للمبلغ المقترض أو البضائع المشتراه به سالمة ، والقرض اليحرى اما أن يكون لرحلة الذهاب فقط ، أو لرحلة الاياب ، أو لهما معا . « ولما كان القرض البحرى يتضمن مخاطرة من جانب المقرض فانه فى العصور الوسطى حتى المتأخرة منها أقرت السلطات الدينية فى بعض الحالات شرعية الحصول على نسبة معلومة من الربح على القرض ، وهو ليس كفائدة بقدر ما اعتبر تعويضا عن المخاطرة والمغامرة ولتفادى تحريمات الكنيسة تقرر عدم ذكر أى ربح أو نسبة تعويض صراحة ، بل نسبة لضمان تعويض المقرض بحيث لايمكن الاعتراض عليه ولو ذكر مقدما » (١٣) .

---

(١٢) عن نظام تأجير السفن الذاهبة للشرق أنظر أيضا

— Lopez, Op. Cit. pp. 239-244. DOC. 123.

وبخصوص السفن الغارقة الوارد ذكرها فى القانون فانه كان ينص فى المعاهدات والاتفاقيات من العصور الوسطى على أن السلطات تنقذ السفن التى تغرق للتجار فى مياهها وترد اموالها لأصحابها او للقنصل التابع له ، وقد نص على ذلك فى المعاهدات مع السلاطين المماليك . وأصل ذلك انه كان يطلق عليه اسم Jus Naufragii ، أى طرح البحر ، أو ما يلقيه البحر للشاطىء . ولم يكن فى البداية قانونا بل هى عادة متبعة ، الا اذا غرقت سفينة فى بحر أو نهر فان سلعها المنقذة هى ملك السكان المحليين فى المياه الاقليمية للدولة التى أنقذت السفينة كذلك البحارة والتجار يفقدون حريتهم . ولكن منذ القرن التاسع اتفق دوق نابل وحاكم سالرنو على ملافاة هذا ، وأيدهم فى ذلك البابوية لحماية السلع والسفن وكل ما يتعلق بالسفن الغارقة .

— Lopez, Op. Cit. p. 304 & R. 3.

(١٣) فى هذا يذكر لوبيز أن نسبة الربح صراحة برغم تحريمات الكنيسة موجودة =

ومن الأسباب التي دعت التجار الى استخدام عقود القرض البحرى فى التجارة ما كانت تتعرض له السفن التجارية والعمليات التجارية البحرية من أخطار كثيرة وخاصة فى القرن الخامس عشر بعد دخول العثمانيين البحر المتوسط منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واشتداد الصراع بينهم وبين الجمهوريات التجارية الايطالية وفرسان رودس ، وكذلك منذ نمو القوى الوطنية فى قشتالة وأراجونا والصراع بين هذه القوى وعرب الأندلس ، بالاضافة الى العواصف والأنواء والقرصنة والمصادرة فى موانىء الأعداء ، لذا لجأ التجار الى نظام القرض البحرى كوسيلة لنقل أموالهم التى تتعرض لهذه الخسارة والأخطار الى شخص آخر مسئول عن ضمانها فى صورة قرض ، ثم حل محله بالتدريج منذ القرن الرابع عشر حتى العصور الوسطى المتأخرة عقد التأمين البحرى ، وفيه يتعهد صاحب السفينة بنقل سلع لأحد التجار ، وثمن السلع قرضا للتاجر وعند وصول البضائع سالمة يرد التاجر القرض ، واذا حدث أى ضرر جزئى ، يلتزم بالتعويض مع عدم ذكر أى اشارة عن ربح تفاديا لتحريمات الكنيسة ، وان كانت هناك أنواع مستترة من الربح تدفع فى صورة مكافآت (١٤) .

= ويعتبر بعض المؤرخين آن نسبة التعويض هذه ان هى الا شكل بدائى للتامين ، لأنها اتخذت فيما بعد أساسا للتعويض وخاصة فى حالات التامين البحرى ، بالرغم من ان التامين البحرى لم يظهر الا فى وقت متأخر من العصور الوسطى . وينص أحيانا على اعتبار جزء من البضائع المحملة بالسفينة والتى اشتريت بالقرض ضامنة لسداد هذا القرض .

— Lopez, Op. Cit. pp. 168-169. DOC. 78, p. 169.

(١٤) كان ينص فى عقود تأجير السفن على عدد بحارتها المسلحين للدفاع ضد القراصنة ، وينص على حقوق وواجبات كافة البحارة وما يجب على أصحاب السفن من امساك دفاتر بشأنهم كما يضم لهذه الأوراق بوالص الشحن ويذكر فيها أنواع السلع المحملة على السفينة وخطابات للجهة المتوجهة اليها . وبخصوص عقود التامين فانها حتى ذلك الوقت المتأخر من العصور الوسطى الذى لم تتضح فيه الافكار بعد بخصوص اساليب وقوانين النقل البحرى ، فان التامين كان يعتبر نوعا من المغامرة والمقامرة . وقد لجأ أصحاب شركات التامين الى اشراك الكثيرين فى التوقيع على الصفقات لضمان توزيع خسائر المخاطرات .

— Lopez, Op. Cit. pp. 239-247.

نظام سفن المدة فى النقل البحرى التجارى :

ويتصل بموضـوع النقل البحرى التجـارى فى البحر المتوسط نظام قوافل السفن الموسمية ، ولا تكاد تخلو معاهدة من معـاهدات العصور الوسطى من الاشارة اليها فى مجال عددها ومواعيدها ونظمها وهى المعروفة فى تاريخ البندقية التجارى البحرى باسم نظام « المدة »، وهو يقابل كلمة (قافلة) بحرية تجارية . ويؤدى التعبير الكثير الوارد فى الوثائق والمعاهدات باسم « مراكب المدة » معنى « القافلة الدورية » أو قافلة الموسم ، ومن ثم اختفت كلمة « مراكب » وصارت كلمـة « مدة » تعنى « القافلة الدورية » أو مدة القافلة ، وتطورت بعد ذلك لتؤدى معنى أوقات وصولها ورحيلها، فمدة سبتمبر مثلا تعنى القافلة التى ترحل من البندقية فى هذا الشهر بحرا ومحدد لها مواعيد وصول للشرق ومواعيد عودة للغرب . وتطور التعبير فيما بعد ليشمل أنواعا من « السلع » التى تشحن فى تاريخ محدد وتصل كذلك فى تاريخ محدد أى من تاريخ شحنها حتى تاريخ وصـولها ميناء التسليم • ومن ذلك قطن الاسكندرية الذى كان مسموحا بتصديره فى مدة موحدة تبدأ من سبتمبر من كل عام وتنتهى فى مارس من العام التالى وقد تمتد حتى ١٥ من أبريل . ومثل ذلك بالنسبة لقطن الشام ، فتبدأ سفن مدته فى الوصول فى شهر أغسطس الى ميناء بيروت لحمل القطن ومواعيدها محددة وان توافقت فى كثير مع مواعيد هبـوب الرياح السائدة فى المنطقة . ويحتفظ أرشيف البندقية بتفاصيل وافية عن نظام المـدة فى

= عن ترك السلع لصاحب السفينة دون مصاحبة أو حراسة أنظر :
Lopez, op. Cit. — DOC. 125 p. 245.

عن (حراسة مسلحة للسفينة) انظر :
Lopez, op. cit. — Doc. 126 p. 240

عن الغاء أجر الشحن بسبب تحطيم السفينة انظر :
Lopez. Op. Cit. — DOC. 127 p. 247.

عن استخدام أساليب اللف والدوران فى ذكر الربح أنظر :
Lopez, Op. Cit. — DOC. 136 p. 256-260. 261.
— Maillet, Op. Cit. p. 139.

تجارة العصور الوسطى ، وكان من أهم النظم التجارية البحـــريه في تاريخ البندقية ، وبالأخص فى تجارتها مع شرق البحر المتوسط. ولما تشعبت مجالات تجارة البندقية استعيرت كلمة «المدة» لتعنى الطرق البحرية التى تبدأ منها وتنتهى عندها طرق الملاحة والتجارة بين البندقية ومناطق نشاطها التجارى . وهذه الطرق كانت مأمونة بفضل الأسطول الحربى البندقى ، ففى بداية الربيع تنزل سفن المدة محملة بالسـلع الغربية ومتجهة الى شرق اليحر المتوسط حيث موانىء مصر والشـام والسفن خلال هذه الفترة تؤجر لشركات تجارية . وللبنادقة فى كل عام ستة أساطيل تتكون من : ـ

١ ـ أسطول قطالونيا ويسافر اليها فى الفترة من ١٥ الى ٢٠ من ينـاير .

٢ ـ أسطول انجلترا والفلاندرز ويسافر اليهما فى الفترة من ٨ الى ٢٥ من أبريل .

٣ و ٤ ـ أسطولا اليونان والبحر الأسود ويسافران اليهما فى الفترة من ٨ الى ٢٠ من يوليو .

٥ ـ أسطول الشام عامة وميناء بيروت خاصة ويسافر اليهما فى الفترة من ٨ الى ٢٥ من أغسطس .

٦ ـ أسطول الاسكندرية خاصة ومصر عامة وكذلك بلاد المغرب ويسافر اليها فى الفترة من ٨ الى الى ٢٥ من سبتمبر .

وكان بامكان أسطول الشام وبيروت أن يمر على الاسكندرية ، كما أن أسطول الاسكندرية يستطيع السفر الى بيروت . وتحـدد الحكومة عدد ملاحى كل سفينة وحجم الهلب ونوع الشراع والحبال

وكانت تحدد دائما خطا معينا للسفر ووقتا محــددا للشحن (١٥) . ووصول سفن المدة لشرق البحر المتوسط يتبع أحيانا مواقيت هبوب الرياح فى البحر المتوســط . وقد سجل ذلك الرحالة ابن جبير فى رحلته (١٦) . وقد رتبت البندقية مواعيد ســفر سفنها التجارية الى مصر والشام بما يتفق الى حد كبير مع أوقات هبوب الرياح ومع ترتيب عقد الأسواق ، الموسمية فيها . وانتظمت رحلات سفنها فى أربع مراحل ، ففى الرحلة الأولى تخرج السفن من البندقية فى شهر يناير لتصل الى موانىء شرق البحر المتوسط فى شهر مارس ، ثم تقوم من هذه الموانى بعد توسيق سفنها فى شهر ابريل لتصل للبندقية فى شهر يونيو ولدى عودتها للبندقية تتجهز للرحلة الثالثة التى تبدأ فى شهر يوليو وتصل لمقصدها فى شهر سبتمبر ، وتعود فى شهر أكتوبر لتصل البندقية فى شهر ديسمبر ، وتتجهز للرحلة فى شهر يناير ، وهكذا . أما وصول التوابل للاسكندرية فكان لا يتغير أبدا ، فهى تصل فى شهر سبتمبر من كل عام حيث يسمح فيضان النيل بدفع الســفن من القــاهرة

---

(١٥) كلمة « مدة » العربية انتقلت الى البندقية بلفظها Muda OR Muddah لتؤدى معنى الفترة أو المقصود من السفن التجارية والسلع ومواعيد سفرها وعودتها وطرقها وخلافه واقترن هذا النظام بالبندقية بالذات فى العصور الوسطى وسنتخذها مثالا لذلك .

— Nuovo Archivie, Veneto XXXII. 1906. p. 106.

من الدكتور توفيق اسكندر . انظر كذلك :

— Cioli, Hist, Economique. pp. 115-116.
— Camb. Med. Hist., Vol. 1. p. 277.
— Depping ; Op. Cit. I. p. 158 & T. II. p. 319.

(١٦) يقول ابن جبير فى كتــاب الرحــلة « ان الريح الشرقية لا تهب الا فى فصل الربيع والخريف والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون فى البلاد العربية الا فى هذين الفصلين ، والسفر فى الفصل الربيعى من نصف ابريل وفيه تتحرك الرياح الشرقية وتطول مدتها الى آخر مايو ، والسفر فى الفصل الخريفى من نصف اكتوبر ومدته قصيرة . والمسافرون للمغرب وصقلية وبلاد الروم ينتظرون الرياح الشرقية فى هذين الفصلين .

ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٨/٢٥٩ .

ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ (نشر عزيز سوريال عطية) .

للاسكندرية فى فرع رشيد وقنا فوة (١٧) . وينتظر أهالى وتجار البندقية وأوربا عودة قوافل المدة من الشرق بفارغ الصبر ، ويتفق هذا مع موسم الأسواق الكبرى التى تعقد فى عيد الميلاد فى أواخر ديسمبر وفى عيد الفصح فى شهر أبريل . وأحيانا تتغير هذه الرحلات فتبدأ فى فبراير بدلا من يناير وتتأخر تبعا لذلك باقى المراحل شهرا ، وفى هذه الحالة تقصر مدة بقاء السفن فى موانى الشرق . وتقدر مدة الرحلة من البندقية الى موانى مصر والشام بحوالى مائة يوم ضمنها فترة البقاء فى الاسكندرية أو بيروت التى قد تستمر ثلاثة أسابيع . والسفن التى تصل قبل المدة الى الاسكندرية لا تجد مطلبها من السلع الشرقية وعليها الانتظار لوصول التوابل من القاهرة والمواعيد هنا لا تتغير أبدا . وكثيرا ما كانت سفن البندقية تعود محملة بالبضائع من الاسكندرية وبيروت تاركة ما يزيد على حمولتها ووجدت أخيرا حلا لهذه المشكلة دون أن تترك هذا الفائض للمدة التالية ، ودون أن تخل بحقوق أصحاب السفن وحقوق الدولة ، فكانت ترسل مراكب خاصة مع مراكب المدة لحمل هذا الفائض تعرف باسم مراكب فائض المدة ، وهذه السفن بحمولتها تخضع لضرائب خاصة ، وقصدت البندقية من ذلك اخراج هذا الفائض من مخازن الاسكندرية حتى لا يفسد أو يصادر لحساب السلطات المحلية اذا حدث أى نزاع ، وكذلك حتى لا يدفع عليه أرضية ضخمة وسفن الفائض تؤجر لفترة محدودة لترافق سفن المدة (١٨) .

---

(١٧) انظر الفصل الثالث ـ الطرق والمراكز التجارية ـ وكذلك :

— Poston, Op. Cit. II. p. 332.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 447 .
— Depping, Op. Cit. I. p. 160.

(١٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (مترجم) ص ٢٨ و ٢٩

— Heyd, Op. Cit. II. p. 447.

انظر مراكب فائض المدة فى الفصل التالى .

وموضوع الاعتداءات على سفن التجارة فى البحر المتوسط كان مما أولته المدن التجارية فى العصور الوسطى اهتماما خاصا ولا سيما البندقية لدرء خطر تهجم القراصـــنة واعتداءاتهم على الركاب ونهب السفينة وما عليها من سلع لذا لم تخرج سفن التجارة ، دون حراسة ويقوم بالحراسة الأسطول الحربى ، كما لجأت أحيانا الى تزويد السفن بأساليب الدفاع عن نفسها ضد أى اعتداء ، ومن ثم أصبحت مسألة حماية المدة اجراء عادى تمارسه الحكومات وتجهز حملة الحراسة مع كل مدة ، فلكل أسطول تجارى أسطول حربى وسفنهما تختص بكل بحر وتحتاط لكل نوع من العواصف المعروفة أو الرياح السائدة . والأساطيل التجارية الأهلية غير الحكومية كانت تدفع للسلطات ضريبة خاصة بالحماية أنفقت فى بناء السفن الحربية والترســانات والأبراج والحصون . وفى حالة الحرب أو تهديد الحرب يصير نقل الســلع على ســفن الحكومة وحدها التى تحرسها الأســاطيل الحربية ، أما الأفراد فيدفعون ٥٪ ، وأحيانا ٧٪ رسم حماية ودفاع . ولشدة مراس الأسطول البندقى كان يمنع القراصنة من دخول مياه قبرص للتموين قبل أن تشرف البندقية على الجزيرة اداريا ، وظل هذا قائما بعد اشرافها عليها منذ عهد السلطان قايتباى (١٩) .

ولم تقتصر وظيفة الحكومة هنا على تنظيم وحراسة سفن المدة بل عينت لكل أسطول تجارى قنصلا بحريا يرافقه ، من وظائفه فض المنازعات التى قد تنشـــأ على ظهـــر الســـفن كما كان بعض هؤلاء القناصل يقوم بعمليات مسك الدفاتر وعمل حسابات السفن وحسابات السلع وحسابات التاجر بدلا من أصحاب السفن لامكان تقدير الضرائب

---

(١٩) عن جواز نهب السفن الجانحة انظر سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦

— Poston, Op. Cit. II. p. 332.

— Depping, Op. Cit. I. p. 156, 160 ; 163 ; & II. pp. 314-315.

انظر كذلك ملاحظة رقم ٢١٣ بعده ووثيقة رقم ١٠٩ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ من أوبيز

المطلوبة ، وعهدت اليهم الحكومات والهيئات المشرفة على التجـارة ملاحظة المخالفات على ظهر السفن وتوقيع الجزاءات والغرامات التى تبلغ أحيانا ربع أو ثلث الحمولة ، كما أن القنصل وأعوانه يكونون ما يشبه البوليس الحربى البحرى على ظهر السفن . ويبدو أن وظيفة القناصل البحريين كانت معروفة لدى شعوب البحر المتوسط منذالقرن الرابع عشر ، وزاد الاهتمام بهـا فى القرن الخامس عشر لاتساع نطاق التجارة وخاصة فى مصر والشام (٢٠) .

نظام النقـل التجارى البرى :

ولم تكن النظم التى وضعت لكى تختص بالتجارة البحرية فقط بل وضعت نظم أخرى تختص بالتجـارة والنقل التجارى على الطرق البرية . ولم يقدر لهذا النوع من النقل الازدهار الذى حازه النقل البحرى فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، نظرا لما سـاد منطقة آسيا الصغرى ، وشرق البحر المتوسـط فى الشـام من اضطرابات بسبب الحروب والصراع بين البيزنطيين والعثمانيين ، ثم بين هؤلاء والمغول والتركمان والصفويين ثم المماليك ، واذا أضفنا الى ذلك انتشار قطاع الطرق ، فان كل هذا انطبع على الطرق والتجارة ولم تعط الحكومات وخاصة العثمانية اهتماما بالتجارة لانصرافها الى الفتح والتوسع وتأمين أطرافها . على أن بعض هذه الطرق كان يقع تحت سطرة حكومات قوية ، وكان محروسا بالجند المحليين أو الجند المرافقين للقوافل التجارية منها طريق القـاهرة/السـويس ، والطور أو القلزم ، وطريق قنا/القصـير أو عيذاب . كما أن التنافس الشديد

---

(٢٠) — Lopez, Op. Cit. p. 246 & DOC. 126.
— Depping, Op. Cit. II. pp. 335-336.

بين الأسواق دفع الحكومات الى تحسين وسائل المواصــلات البرية وطرقها ، وعملت بالتالى على تخفيض الجمــارك والمكوس المختلفة وتشديد الحراسة تشجيعا لارتيادها وبالتالى ازدهار تجارتها (٢١) .

وازاء كل هذا فضل تجار الطرق البرية اتباع نظام المشاركة فى التجارة ، والدخول فى الشركات التجارية ، كنوع من أنواع الحماية وتفادى الأخطار ، وكذلك لما امتازت به الطرق البرية بعمرانها بالمدن والأسواق مما يزيد فرصة المتاجرة والربح ووجود وكلاء للشركات والتجار على طول الطريق لتسهيل العمليات التجارية والمالية ويشترك التجار معا فى تمويل التجارة برءوس أموالهم ، كمــا يشتركون فى الادارة والسفر والاقامة ، ويتحمل كل شريك نصيبه فى الخســارة والتضحية ، أو ينال نصيبه فى الربح مثل باقى الشركاء (٢٢) .

ونظام الشركات الذى ســاد مصر فى العصور الوسطى المتأخرة امتد اليها من القرون الســابقة ، والقاعدة هنا أن النظم لا تبطل انما تستمر مع ما استحدث عليها فقد عرف مبدأ المشاركة لأكثر من واحد فى التجارة ، وعرف الشركاء باسم « المضاربين » والمضاربة أو القراض أو القــراضة نوع من أنواع الشركات ، وفيهــا يدفع الشخص مالا لآخر ليتاجر فيه ، ويتضمن عقد الشركة نصا على أن يكون الربح بينهما حسب العقد والخســارة على صاحب رأس المال . وقد يكون الربح النصف أو الثلث أو الربع للتاجر ويعتبر رأس المال هنا أمانة لدى التاجر الذى هو فى نفس الوقت وكيل صاحب رأس المال وعقد الوكالة بينهما غير ملزم، فيستطيع أحدهما أن ينسحب من الشركة بعد حصوله على حقوقه . وأحيانا ينص فى العقد على أن يكون الربح أو الخســارة

---

(٢١) — Poston, Op. Cit. II. p. 333.

(٢٢) — Jacob, Legacy of Middle Ages, p. 444.
— Poston, Op. Cit. pp. 334.

كلها لصاحب رأس المال ، والوكيل أو التاجر هنا ليس سوى أجير بالراتب والعمولة . وقد استمر هذا النظام قائما فى مصر حتى نهاية العصور الوسطى (٢٣) .

ولم تكن العمليات التجارية بالشركات والعقود مقصورة على الوطنيين فيما بينهم ، بل شملت كذلك الوطنيين والأجانب ، بل ان تجار الكارم أنفسهم كانوا فى وضعهم التجارى أحيانا وكلاء لشركات ووكلاء بالعمولة والمشاركة فى الأرباح ومن أمثلة هذا عقد شركة بين تاجر كارمى وتاجر فرنجى ، ونص فى العقد على أن يكون ثلاثة أرباع رأس المال للتاجر الكارمى والربع للفرنجى وتشغيل المال للفرنجى والربح بنسبة رأس المال مع عمولة للفرنجى (٢٤) .

وكان لهذا النظام مثيل فى أوربا عرف باسم العقود الشخصية والعقود الثنائية، وأساس هذا النظام التجارى وجود شريكين أو أكثر أحيانا ، أحدهما متجول والآخر مستقر . والغرض من هذا النوع من النظم التجارية هو تسهيل العمل على التاجر الذى قد تمنعه ظروف

---

(٢٣) ابو شامة : الروضتين فى اخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٣ يذكر عن ابن الأثير .. خرجت سفن من مصر والشام فأخذ الفرنج فى اللاذقية مركبين مملوءين بالأمتعة ، وكان لوالدى فى المركب تجارة مع شخصين فلما أعادوا للناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع ، فكلف من كان اسمه عليه أو على ثوبه أخذه وكان فى الناس من يأخذ ما ليس له وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة ، وكان نصرانيا فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته .

الجزيرى : تاريخ الفقه على المذاهب الاربعة ج ١ ص ٤٣ .

— Lopez, Op. Cit. p. 215. DOC 105. & p. 216. DOC. 106.

(٢٤) داين التاجر الافرنجى السلطان بستة عشر ألف دينار ودفعها له الكارمى ، ويستردها فيما بعد من السلطان ، ثم دفع الفرنجى أربعة آلاف ليصير رأس المال للشركة ٢٠ ألف ونص فى العقد على أن ثلاثة أرباع رأس المال للكارمى والربع للافرنجى مع حق تشغيل واستثمار المبالغ والربح بنفس النسب .

المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٢٠٤ .

مختلفة من القيام بالرحلة بنفسه ، ثم تطور الى نظام يتضمن استثمار الأموال بدلا من تركها عاطلة في التجـارة الخارجية ، ولدى عـودة الشريك أو الشركاء ببضاعة قومت وبيعت لتقسم الأرباح بينهما حسب نصوص الاتفاق . ويحدد في هذا النوع من الشركات مدة « مضاربة » أو استغلال رأس المال في مدى عامين أو ثلاثة أعـوام • وكنص العقد يعيد الشريك رأس المال مع نصيب الأرباح ويبلغ عادة النصف ، ويتحمل المستثمر الخســارة التي تنقص من رأس المال ، والتاجر المتنقل يخسر أتعابه أو المكافأة اذا لم تنتج التجارة ربحا. وفي بعض عقود الشركة المذكورة في هذا النظام ينص على أن رأس المـال يكون مشـتركا والمسئولية بالتضامن بين الشركاء وهذا النوع من الشركات عرف باسم الشركات التجارية البرية Societas Terrea (٢٥) وقد اشتق من النظام المعروف في الشرق .

ومن أنواع الشركات أيضا « الشركات الأخـــوية Fraterna Compania » والتعاقد هنا يضم أعضاء الأسرة الواحـدة الراغبين في الاشتراك برءوس أموالهم في التجارة كما ضمت في بعض الأحيان من لهم علاقة بالأسرة عن طريق النسب والزواج وقد اسـتخدمت المدن الايطالية هذا النوع من الشركات في تجارتها في البحر المتوسط في الملاحة البحرية بعد أن نجح في نظام التجارة البرية (٢٦) . وتطـورت بعد ذلك لنجاحها لتضم أغرابا عن الأسرة في شركة تعرف باسم «شركة التوصية المساهمة Commenda Compania » وينقسم أفرادها الى قسمين قسم يشترك برءوس الأموال وهو Commendator ، والقسم الثاني يشترك بجهده وهو Tractator أي الفئة العاملة وينص في

(٢٥) — Lopez, Op. Cit. p. 16. DOC. 93. p. 189.

(٢٦) — Lopez, Ibid, pp. 185-186. DOC. 91. pp. 187-188.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 324.
— Jacob, Op. Cit. p. 443.

العقد بأن يكون ربع الربح للعاملين وثلاثة أرباع الربح لأصحاب رءوس الأموال (هذا النوع هو الذى تحدث عنه المقريزى) . وتطور بمرور الوقت الى أن الشريك العامل يستطيع أن يبقى نصيبه من الربح ليتجمد ويصير مبلغا ضخما يضيفه لرأس المال فيصبح حينئذ مشتركا فى الشركة برأس مال وتصير له وظيفتان وربحان . وكذلك حرية أكثر فى توجيه رأس المال . ويستطيع أصحاب رءوس الأموال أحيانا أن يشتركوا فى عدة شركات ويوزعوا أموالهم على هذه الشركات ، لأنه فى اعتقادهم أن وضع رأس المال كله فى صفقة واحدة وعلى سفينة واحدة يعرضه للضياع اذا ما أصيبت السفينة بكارثة أو اذا أفلست التجارة ، ولذا نرى صاحب رأس المال يوزعه على عدة شركات لضمان عدم ضياعها كلها (٢٧) .

وتطورت الفترة المتأخرة من العصور الوسطى تطورا فى أنواع الشركات يهدف الى تكوين اتحاد من مجموعة شركات متجانسة تتاجر فى نوع واحد من السلع تفاديا للمضاربات الضارة بين الشركات المتفرقة ، وقد عرف اذ ذاك باسم « اتحاد الشركات » وظهرت أهميتها فى تطور التجارة بازدياد حجمها وتنظيم المنافسة بين الشركات المتجانسة لنوع واحد من المتاجر . وكان من مصلحة هذه الاتحادات أن ترسل سفنها متجمعة فى أسطول واحد وفى حراسة واحدة ليسهل الدفاع عنها ضد القراصنة ، ويتفقون على المنافع والفوائد ولهم مقاييس ونظم لضمان حقوق الأفراد المساهمين ، كما أن الاتحاد مسئول عن أعضائه وهم بدورهم يخضعون لنظامه فيضحون بجهودهم وأحيانا بحريتهم على مذبح المصلحة العامة للاتحاد (٢٨) . وكلما زادت

---

(٢٧) — Clive, Op. Cit. pp. 116-117.

(٢٨) « كان من قوانين هذه الاتحادات أن افرادها لا يبقون كلهم فى مكان واحد ولا يسافرون كلهم الى مكان واحد ، وخاصة فى التجارة البرية . ويفوض الاتحاد أحد الأعضاء العاملين بالسفر ويصاحبه محاسب واتبع مثل ذلك فى التجارة البحرية القصيرة =

رءوس الأموال فى الشركات المتحدة زادت فرص المتاجرة وبالتـالى فرص الربح . وقد صاحب ظهور هذا النوع من الاتحادات التجارية تطور المصارف (٢٩) .

نظام تجارة العبور فى مصر والشـام :

وحتى نهاية العصور الوسطى ظلت مصر والشام منطقتى عبور للتجارة الشرقية والغربية وعرف هذا النظام باسم « تجـارة العبور أو الترانسيت » فتصل السفن الأوربية لموانىء شرق البحر المتوسط المماليكية حيث تجد تجار المنطقة وقد جلبوا المتـاجر الشرقية من الهند والشرق الأقصى ووسـط آسـيا وافريقية فيتولون نقلها الى أوربا . والقناصل التجاريون ووكلاء الهيئات التجارية يقومون بعملية تسهيل تجارة العبور وتجبى السلطات المماليكية والتجار الأوربيون من هذا النظام أموالا طائلة كل عام (٣٠) . هذا بالاضافة الى أرباح التجار الوطنيين .

= أما فى التجارة البحرية البعيدة فكان خروج الأعضاء جماعات لضمان الحراسة من هجمات القراصنة » .

— Pirenne, Hist. of Europe, p. 383.
— Clive, Op. Cit. p. 115.

(٢٩) تطور بنك سان جورج فى جنوة وفروعه فى آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود وفى الشام والقسطنطينية ومختلف مراكز التجارة بالبحر المتوسط ـ نتيجة لهذا النوع من الاتحادات والشركات ـ بصورة واضحة للتوسع المالى والتجارى المصرفى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وان كان تكوينه نتيجة لأعمال مالية ضرائبية أخرى ـ (وهذا النوع من الاتحادات لا يقارن بما حدث بعد ذلك فى القرن السابع عشر وما بعده من قيام شركات التجارة المتحدة الهولندية فى أندونيسيا والانجليزية فى الهند فهو فى العصور الوسطى كان نظاما محدودا على نطاق ضيق وان كان قاعدة لظهور الاتحادات المذكورة فيما بعد) .

— Jacob, Op. Cit. pp. 444 &449, 450.

(٣٠) ليس أدل على هذا المعنى من أن هيئة التجار الأجانب فى مصر وعلى رأسهم قنصل البندقية ، استطاعوا بفتاهم الفاحش من تجارة الترانسيت أن يدفعوا ١٠٠,٠٠٠ جنيه فدية لجانوس ملك قبرس عندما أسرة المماليك » . =

ولم تكن موانىء شرق البحر المتوسط هى وحدها التى تقوم بعمليات التجارة العابرة ، بل ان موانىء مصر على البحر الأحمر كانت تقوم بهذه العملية كذلك فتنافست موانىء ومدن الطور والسويس والقلزم والقصير وعيذاب ودهلك وسواكن وجدة فى جذب البضائع اليها ، وان كان محرما على الأجانب ورود هذه الموانىء ، ولكن كان مسموحا بذلك العرب والمصريين . ويقوم بعمليات تجارة العبور تجار الكارمية منذ العصر الفاطمى حتى نهاية عصر السلطان قايتباى، وتحصل جمارك الموانىء على ذلك رسوما عالية ، يضاف اليها عشر قيمة البضائع أحيانا (٣١) . ولأهمية هذه التجارة بذل السلطان الغورى منذ توليه السلطنة جهودا جبارة ضد البرتغاليين فى بحر الهند ومدخل البحر الأحمر الجنوبى عندما أدرك خطورتهم على التجارة عامة والعابرة خاصة ، اذا أنها كانت تمثل برسومها مصدرا رئيسيا من مصادر ثروة البلاد (٣٢) .

على أن جميع جمارك الدول التى تمر بها التجارة الشرقية الى

= سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١١٤ ــ ١١٥ .

ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ (مخطوطة) ورقة ١١٢ .

— Maurice Schemeil, Le Caire, p. 185.
— Atiya, The Crucades, Op. Cit. p. 115.

(٣١) لين بول : سيرة القاهرة (مترجم) ص ٢١٦ .

« لم تكن الجمارك وحدها هى مصدر ثروة مصر فى العصر المماليكى ، بل كانت رسوم تجارة المرور ، وخاصة لسلع الغرب الذاهبة للشرق الأقصى أو للتصريف فى بلاد المماليك» .
— Ziada, Foreign Relation, p. 209.

(٣٢) « نالت فلورنسا على عهد السلطان خشقدم عام ١٤٦٥ امتيازا لم يعط لغيرها من المدن التجارية بموجبه أعفيت سفنها من التفتيش ومن رسوم العبور اذا حملت سلعا لبلاد أخرى ولم تفرغها فى موانىء السلطان وكانت السلطات المماليكية تفرض رسم عبور فى مثل هذه الحالات . راجع الفصل الثانى وكذلك :
— Ziada, Ibid, p. 245.
— Clive, Op. Cit. p. 99.

انظر كذلك معاهدة السلطان قايتباى وفلورنسا ١٤٨٨ عن عدم دفع رسوم للسلع المارة ولا تفرغ فى موانىء السلطان .

الغرب أو العكس كانت تستفيد من تجارة المرور فيها ، وتشمل هذه الفائدة تاجر الجملة والوسيط ، وتاجر التجزئة اذ تزداد الأسعار بعد كل رسم ترانسيت (٣٣) . وكانت القسطنطينية من أكبر مراكز المرور لسلع الشرق الأقصى والبحر الأسود وبلاد الروس ، والصقالبة الى غرب أوربا ، وكذلك سلع غرب أوربا وشرقها والبحر المتوسط للشرق الأقصى وفى فترة انكماش الامبراطورية البيزنطية بسبب اندفاع العثمانيين نحو الغرب نقلت السلطات مهمة الاشراف على تجارة العبور للوكالات التجارية الايطالية كالبندقية وجنوة نظير رسوم اضافية . وقد توقفت تجارة العبور خلال الحروب التي انتهت بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م ، ثم استؤنفت مرة أخرى ، وان كان عن طريق أرمينيا وموانيء الاسكندرونة واياس فى قليقية الشرقية . ومنذ عام ١٤٦١ بعد أن اتجه العثمانيون لاخضاع الجيوب الباقية على البحر الأسود والتجار يتجهون بأعداد كبيرة الى مصر والشام لتتركز «تجارة العبور» فيهما حتى نهاية دولة سلاطين المماليك (٣٤) .

---

(٣٣) « فرضت حكومة المماليك ضرائب عدة على التوابل التى تمر بالحجاز فى طريقها للشمال ، ومنها ضرائب العبور وتجبى فى بدر وحنين والعقبة وجسر الحسى » . ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .

واذا وصلت الى موانيء عيذاب أو الطور أو السويس أو القلزم أو القصير جبت عليها الحكومة مكوسا أخرى للعبور غير ضرائب الجمارك وتقدر قيمتها على ما كانت عليه فى العصر الأيوبى » .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٩ .

وقد حدد المماليك قوانين الضرائب فى دولتهم على أساس تجارة المرور التى كانت ترتفع بالتدريج تبعا لاحتياجات الدولة من المال وعلى قدر طلب الغرب للتوابل ومقدار مايرد منها لأسواق مصر والشام .

المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٩ .

— George Dunbar, A Hist. of India, Vol. 1. p. 151.

(٣٤) « فرض السلطان برسباى ١٤٢٨ م على تجار الشام أن يدفعوا قيمة المكوس على بهارهم العابر من مكة الى الشام ٣٪ دينار عن كل حمل ، واعفاه ما يحملونه لمصر =

المنشآت والمرافق التجارية :

ويخدم التجارة مجموعة من المنشآت والمرافق الحكومية والأهلية منها الأسواق والوكالات والقساريات والخانات والفنادق .

الأسواق :

ونظام الأسواق فى شرق البحر المتوسط خضع الى حد كبير لتطورات السياسة والحرب والتقلبات الاقتصادية فى المنطقة . فمنذ أن أغلقت القوات العثمانية الطريق التجارى البرى من وسط آسيا عبر آسيا الصغرى الى أوربا والشام ، والأسواق على هذا الطريق ينضب معينها من السلع الشرقية شيئا فشيئا نتيجة الأعمال العسكرية المتصاعدة ، كما قل مرور قوافل التجارة على مدنه وموانيه لتزايد أخطار الحرب . وظل الأمر كذلك فترة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ حتى هدأت الأحوال لتفتح الأسواق أبوابها من جديد ولكن لم تدم هذه الفترة أكثر من سبع سنوات ، اذ ما لبث القتال أن تجدد مرة أخرى حين عملت القوات العثمانية على اخضاع الجيوب التركمانية والرومانية الباقية فى شرق آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود . ومنذ ذلك الحين والأسواق تهجر ويتجه تجارها بأعداد هائلة الى مدن ومناطق أخرى أكثر أمنا واستقرارا ، وهى أسواق الشام ومصر . والواقع أن الصراع فى أسواق القسطنطينية ومدن طرابيزون وأماسترى وبروسة وأطنة وغيرها من مراكز التجارة فى آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود كان صراعا بين استمرار التجارة من ناحية ونجاح الجحافل

= بالذات ، وان كان يتحصل منهم مكس آخر فى دمشق انما مكس مكة هو رسم عبور »
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦٢٨ (طبعة كاليفورنيا)
— Poston, Op. Cit. II. p. 95.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 384.
— Lane Poole, Hist. Of Egypt in The Middle Ages, CHP. IV. p. 158.

التركية المتقدمة نحو الغرب حتى عام ١٤٥٣ ونحو الشرق عام ١٤٦١ من ناحية أخرى . ولم ينته الصراع الا بعد أن تم للأتراك العثمانيين النصر وخضعت المنطقة كلها لهم ، وبدأوا يستقبلون الأعضاء القدامى للأسواق من جديد ولكن فى ظل سيد جديد .

وفى مصر والشام ركز المماليك جهودهم على ازدهار أسواقهم واستعدوا فعلا لنتائج الحدث الذى شــل حركة الأسواق فى مدن وموانىء العثمانيين عام ١٤٥٣ فدعموا الأمن والاستقرار والحراســة فى الأسواق وعملوا على توسيع نطاق التجارة فيها لامكان استقبال أكبر عدد ممكن من التجار الأجانب ومنح طوائفهم الامتيازات ، كما أبقوا على ما كان فيها من نظم تجارية اعتاد عليها التجار ، وأجازوا النظم المستحدثة فى نطاق مصالحهم التجارية والعسكرية . ونتيجــة لذلك امتلأت أسواق مصر والشام بهؤلاء التجار الأجانب الذين تاجروا فى ظل حكومة قوية وأسواق منظمة وموانىء آمنة . وأعطيت التعليمات لعمال الموانىء والجمارك بحماية الأسواق ورعاية التجارة والتجــار الأجانب خاصة ومنع الغش أو نهب التجار . وكان العقاب الشــديد يقع على الوطنى الذى يثبت أنه استغل الأجنبى استغلالا سيئا ، ويلحق بالمباشرين للأسواق عقاب مماثل ، ونص على هــذه التعليمات فى كل المعــاهدات (٣٥) .

والواقع أن الأسواق هى أقدم أشكال النظم التجارية ، وهى ثلاثة أنواع : أسواق محلية وموسمية ، وسنوية ، ومعظم أسواق الشرق الداخلية محلية ودائمة ، ولها أيام معينة فى الأسبوع ، وان

---

(٣٥) — Gayet, Le Coure, Hist., Du Commerce, T. II. p. 310.

القلقشندى : صبح الأعشى جـ١١ ص٤٢١ وجـ١٣ ص ٤٠١ وما بعدها ٠ راجع ما كتب عن هذا الموضوع فى الفصل الثانى ٠

— Thenaud, Voyage D'Outre Nor, p. 122.

كانت في وقت مبكر من العصور الوسطى قد اتخذت صفة التخصص ببيع أنواع معينة من السلع ، فهذا سوق البزازين ، وذلك سوق العطارين ، وسوق الفرائيين ، وسوق الحريريين ، وسوق العنبريين. ولكن لما اشتدت حركة التجارة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر لم يعد هذا التخصص يحترم وان كان سوق العطارين بالاسكندرية اقتصر على التوابل وحدها ، وشمل كل سوق أنواعا مختلفة من السلع . وتجار هذا النوع من الأسواق اما مستقرون لهم حوانيتهم ومخازنهم ، واما متنقلون يبقون بالسوق لفترة متأخرة من النهار ثم يبارحونه ليعودوا اليه ثانى يوم . ومراقبا السوق المحتسب والجهبذ ينهيان عملهما برحيل هذه الطائفة من التجار عن الأسواق (٣٦)

وللأهمية الفائقة للسوق فى نظم التجارة كآخر مكان تستقر فيه البضائع والسلع الشرقية المصدرة للغرب أو العكس ، كان لا بد من نظام ضبط وربط دقيقين للأسواق منعا للتلاعب فى الموازين أو الأسعار أو جباية الرسوم أو غش السلع ، وقد أوكل هذا العمل للمحتسب وعماله . ويسير نظام الحسبة والقائمين عليه فى الأسواق وفق قوانين عامة وثابتة وقوانين متطورة حسب ما يستجد . والمحتسب

---

(٣٦) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٠٣ و جـ ٣ ص ٤٩ ـ ٥١ و ٥٢ .
المقريزى : الخطط جـ٣ ص١٥٩ ـ ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص٢٩٦ و ٢٩٧ .
سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص٨٦ .
متز : الحضارة الاسلامية (مترجم) جـ٢ ص٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
— Clerget. Op. Cit. pp. 307-317, 318.

« ولعل التخصص هذا كان من أبرز عيوب الأسواق فالمشترى الذى يريد عدة أصناف كان عليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجته ، لأنه لن يجد فى السوق الواحدة سوى نوع واحد من السلع ، وفى نفس الوقت كان لهذا النوع من التخصص محاسنه فلا يستطيع التاجر ان يرفع سعر السلعة حتى لايشذ بذلك عن أسعار التجار لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى اذا لم يعجبه سعر السلعة وصنفها استطاع أن يجد ما يريده بسهولة عند غيره » .

وأعوانه يشرفون على عمليـات البيع والشراء والصـــفقات الكبيرة بأنفسهم ، وبالاضافة الى باقى مهامهم فهم يقـومون بجمـع ضريبة « المشاهرة والمجامعة » من الأسواق (٣٧) . ويراعى المحتسب كذلك التسعير الجبرى والأسعار التى تختص بأنواع معينة من السلع لا يحق التغالى فيها ــ والتفتيش هنا يكون ليلا ونهارا . ويختار المحتسب من ذوى الرأى والمهارة ورعاية شئون الناس والا يقع عليه العقاب (٣٨) .

أما الأسواق الموسمية فكانت تعقد فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين لأسواق مصر والشام وجدة ومكة ، وتخضع فى ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ، وتصل فى مواعيد سنوية لا تتغير ، وفى نفس الوقت تصل السفن الأوربية من الغرب لحملها فى مواعيد ثابتة وتعقد فى ذلك الوقت المزادات . وفى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ترددت شكوى التجار الأجانب من اجبار عمال الجمرك لهم على الرحيل قبل شراء كل ما يلزمهم وطالبوا بمد فترة المدة الموسمية ، وقد أجيبوا الى طلبهم ، ونص على ذلك فى كل المعاهدات من العصور الوسطى والمتأخرة (٣٩) .

---

(٣٧) المشاهرة والمجامعة ضريبة غير ثابتة وعندما تفرض وتجمع يترك المحتسب ورجاله الرقابة على الاسواق فيرفع التاجر الأسعار لامكان التعويض عما يدفعونه ، واذا الغيت قلت الرقابة ثانية وبلغ ما جمع منها على عهد السلطان قايتباى حوالى ١٠٠٠ دينار شهريا وعلى عهد السلطان الغورى حوالى ٢٧٠٠ دينار شهريا .

أبو المحاسن : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٢ و ١٣ و ٥٩ و ٩٣ .

عن المحتسب انظر ــ المقريزى : الخطط جـ١ ص٤٦٣ و ٤٦٤ .

ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

(٣٨) «كما حدث للمحتسب «بدر الدين مزهر» الذى وقع عليه السلطان قايتباى العقاب لفصله فى نظام التسعيرة الذى فرض على بعض السلع ولم يقبله الناس وارتفعت الأسعار .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٣٩ (بولاق) .

(٣٩) انظر بعده عن اجراءات الموانىء بشأن التجارة .

والنوع الثالث من نظام الأسواق هو الأسواق السنوية وقد كانت محلية وعالمية واشتهرت بها مدن وموانيء العصور الوسطى عامة فى الشرق والغرب ، وتعقد فى مناسبات معينة . ففى مكة وجدة كانت تعقد فى مواسم الحج حيث يصلها أعداد كبيرة من تجار الشرق والغرب العربى . ووقت تجار أوربا فى البداية مواسم ورودهم لشرق البحر المتوسط بمواعيد هذه الأسواق فى الأعياد الاسلامية ، ولكن لما زاد الطلب حددوا وقت ورودهم بنظام المدة ، لأن نظام الأسواق السنوية فى الأعياد كان يختلف تبعا لمدار السنين ، وهو ما لا يتفق مع مواعيد أوبتهم ورحيلهم ومواعيد أسواقهم فى أوربا عامة وايطاليا خاصة . وقد تطورت هذه الأسواق لتصير نصف سنوية وربع سنوية ، وتعقد فى هذه الأسواق صفقات البيع والشراء والمبادلة بالنقد والمقايضة والحساب الجارى والبيع المؤجل الدفع ، وتخضع حركة المتاجرة وتفادى ما قد ينجم من مشاكل من التعامل المالى ، وكذلك لامكان حساب مطلوب الحكومة من العوائد وضرائب تجارة المرور (٤٠) .

= وبخصوص الأسواق الموسمية كانت تعقد بها مزادات علنية ، فى العصر المماليكى كان ورود التوابل بكميات هائلة سببا فى اتساع نطاق البيع بالمزاد العلنى وهو نوع من أنواع المعاملات التجارية . ومن أهم مراكز المزاد العلنى سوق خان الخليل وتعقد مزاداته يومى الخميس والاثنين من كل أسبوع منذ الصباح الباكر وينفض السوق بعد الظهر ويقود البيع الدلال نظير عمولة تحصيل من صاحب المزاد وهو مكلف بالاعلان عن السلع وارشاد من يريد الشراء الى مكان البيع .

— Horn, Op. Cit. p. 79.

— Clerget, Op. Cit. p. 39.

(٤٠) بخصوص البيع المؤجل الدفع ، انظر أبو المحاسن : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (مخطوطة) بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٩٧ تاريخ المجلد الأول الجزء الاول حيث يقول «اعتاد تجار مصر التعامل بالاجل مع تجار الشام وهم يسمون هذا النوع من التعامل التجارى باسم «الجديدة» وقد أدى هذا الى غلاء أسعار بعض الاقمشة كالقماش البعلبكى والزموط . وشكا بعض المماليك السلطانية من ذلك الى السلطان فكلم هذا الشيخ على العجمى المحتسب وأغلظ عليه مما جعل المحتسب يتشاور ، فقفلت التجار حوانيتهم أياما وكتب=

وأسواق مدينة القسطنطينية فى العصر العثمانى منذ عام ١٤٥٣ كانت على نسق أسواق مصر والشام فى كثير من مميزاتها ، وهى أسواق واسعة ورائجة منذ أن كانت للبيزنطيين ، ومن أشهرها سوق « البازستان » ، وهو مبنى بالحجارة وتفتح أبوابه فى ساعات معينة من النهار وفيه أقدم تجار المسلمين وأغناهم ، وتباع به جميع البضائع الشرقية والغربية ، كما أن لكل سلعة ركنا خاصا . والسوق منظم ليسهل مراقبة حركة البيع والشراء فيه ، وقد وصل هذا النظام للعثمانيين من البيزنطيين وبقى كما كان عليه من الدقة والنظام بعد أن آلت المدينة للعثمانيين . وتزدحم السوق طول العام وان كان يقل التعامل فى فصل الشتاء بسبب سد الجليد للطريق من تراقيا لآسيا الصغرى (٤١) . وبقيت كذلك الأسواق فى سالونيكا عامرة بعد الفتح العثمانى لها حتى أن سوقها كان من أكثر أسواق شرق البحر المتوسط ازدحاما وعمرانا طوال القرن الخامس عشر وفترة من القرن السادس عشر وأسواقها موسمية بالنسبة للمتاجر الشرقية وسنوية للسلع الغربية والدائمة ويحضرها طوال العام التجار المسلمون لبيع الحرير الدمشقى والقطن المصرى ، ويحضرها كذلك الايطاليون للشراء (٤٢).

واشتهر كذلك من بين الأسواق السنوية سوق مدينة ليون بفرنسا ، وكان لويس الثانى عشر قد أعلن فى سوق المدينة فى عيد الفصح من عام ١٥١١ عن وصول رسالة السلطان الغورى له بفتح أسواق بلاده فى مصر والشام للتجار الفرنسيين ومنحهم تسهيلات

= عليهم المحتسب قسائم أنهم لا يشترون البعلبكي من تجار الشام بالجديدة (يعنى بالأجل فى الدفع) تأمر ذلك بحال التجار قاطبة » ورقة رقم ٣٣٢

— Lionelle Cioli, Hist. Economique, p. 102.
— Horn, Op. Cit. p. 80.

(٤١) سليمان خليل بن جاويش التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ص ٤١ – ٤٢.

(٤٢) — Poston ; Op. Cit. II. pp. 97-98.

واعفاءات جديدة وتسهيل وصول حجاجهم لبيت المقدس [٤٣] .

ولا تقل أسواق الهند وقاليقوط خاصة ، وأسواق الصين، وعلى الأخص خانقو عن هذه الأسواق ، وان كانت تفوقها فى بيع السلع الموسمية فى نطاق واسع ونظام الأسواق هنا أدق وأحكم نظرا لضخامة ما كان يباع كل عام من التوابل وغيرها [٤٤] .

ويؤدى مهمة الأسواق كذلك الوكالات والقيساريات والخانات والرباع التى فوقها ، ثم الفنادق والأحياء التى تحمل اسم المستعمرات. وترجع أهمية الوكالات فى التنظيم التجارى الذى ساد العصور الوسطى بشرق البحر المتوسط الى طبيعة عمل القاطنين فيها سواء فى التجارة المحلية أو الدولية . ومعظم العاملين فى هذه الوكالات من الشباب الذى هجر وطنه بحثا عن الثروة من التجارة واكتساب الخبرات [٤٥] . ومعظم مؤرخى العصور الوسطى من العرب لم يفرقوا كثيرا بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق ، اذ لم يجدوا بينها فروقا واضحة ، ولاحظوا أنها تتشابه فى وجود حوش فى وسطها وحول الحوش ممر يصل الى المخازن ، وقد تكون دورين ، كما أن بها دكاكين ومساكن لكل مفتاح خاص . وبحث المقريزى فى هذا الموضوع وخرج بنتيجة أنه لا فرق يذكر بين الوكالات والخانات

---

(٤٣) انظر الفصل الثانى وكذلك

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 539-540.

(٤٤) انظر الفصل الثالث عن الطرق والمراكز التجارية .

(٤٥) « كان البنادقة يلحقون أبناءهم بالتجار الرحل الى شرق البحر المتوسط فاذا عادوا كانت الثروة والشهرة فى ركابهم ولطول ترددهم على الأسواق والوكالات لم يعد هناك مبرر للتفرقة بينهم وبين الوطنيين فى مصر والاسكندرية ، فهم يختلطون بهم كتجار يعملون لصالحهم وصالح غيرهم بالعقود وخطابات التوصية .

— Poston, Op. Cit. II. p. 308.

« كما أن تجار الكارمية كانوا يلحقون أبناءهم بتجارتهم المتنقلة والمستقرة ، لاكتساب الخبرة حتى أصبحت تجارتهم تجارة أسرية » (انظر بعده عن الكارمية) .

والفنادق والقيساريات ، وانها جميعا : مساحات ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة النزل ومحل الاقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم ، كما أنها تؤدى مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئة ، فتوزع ما يرد اليها من الأسواق . وقد جرت العادة أن يبنى فوق هذه المؤسسات رباع تؤجر لطوائف معينة من التجار اقتصرت على المسلمين فقط (٤٦) . ومن الوكالات الوطنية وكالة قوصون حيث يخزن التجار السوريون الزيت والسمسم والصابون واللوز والجوز والحلويات وكل أنواع السلع ، وبها محال تجارية وفوقها حجرات وهى التى جعلت المقريزى لا يفرق بينها وبين الخان والفندق لتشابه نظامها . ووكالات القرن الخامس عشر شغلت قصور المماليك القديمة والمهجورة وبقى منها حتى أواخر القرن الخامس عشر وكالة بشتاك ووكالة قايتباى ووكالة الأمير ماماى والحجرات فوق الوكالات هى « الرباع » وبلغت حجرات وكالة قوصون حوالى ٣٥٠ حجرة (٤٧) .

وقد تطورت الوكالات من مراكز للتخزين والبيع والشراء الى مجموعة أبنية تؤدى معنى الحى أو المستعمرة وخاصة بالنسبة للتجار الأجانب الغربيين ، وفى بداية ظهورها كان عدد القاطنين بها قليلين . ولما زاد عددهم وكثرت تجارتهم ، وأقاموا فى الفنادق وأصبح للجالية

---

(٤٦) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ١٥١ ومابعدها .

— Clerget, Le Caire, p. 309.

(٤٧) يذكر المقريزى أن عدد سكان رباع وكالة قوصون كان حوالى ٤٠٠٠ نفس بين رجل وامرأة وصغير وكبير .

المقريزى : المصدر السابق ج ٣ ص ١٥١ ومابعدها ويقول ده ساسى فى تعليقه على رحلة البغدادى انه يفضل وضع كلمة لوكاندة هنا لاسم الربع ، كما يمكن أن نعتبره فندقا مفروشا Hotel Garni ويستدرك ليقول الا انه ليس هناك اى مجال للمقارنة بين فنادقنا المفروشة الحالية ومثيلاتها فى العصور الوسطى ، وان الربع يمثل الحى الرومانى القديم المعروف باسم :

— De Sacy, Silvestre, Relations De L'Egypte. pp. 303-401. 402.

الواحدة حى خاص بها وأشهر الجاليات التى كان لها هذا البنادقة ولهم حى فى الاسكندرية يضم وكالتهم وفندقين وحماما ومخبزا وكنيسة وهى فى مجموعها تعرف باسم المستعمرة . ويحتفظ فيها التجار بسلعهم ويدفعون عنها رسوما للحكومة ويمارسون حياتهم فيها بحرية أوسع . وانتشر هذا النظام فى مصر والشام وأسبانيا الاسلامية وآسيا الصغرى وايطاليا (٤٨) .

والفندق كمنشأة تجارية ومؤسسة لخدمة التجار هو قمة ما وصلت اليه طاقة المشروعات التجارية فى مصر والشام فى العصور الوسطى حتى نهايتها وفترة من العصر العثمانى. كما أنه ذروة ما وصل اليه اجتهاد القوامين على التجارة حكومة وتجارا، وطنيين وأجانب (٤٩) والفنادق فى مصر المماليكية والشام هبة من الحكومة للتجار الأجانب، وينص على ذلك فى المعاهدات ، وتستطيع الدولة أن تستردها وقتما

---

(٤٨) يطلق على مجموع المبانى اسم المستعمرة من معنى الاعمار والتعمير وليس بمفهومها الدارج الآن ـ وربما تؤدى كذلك نفس ما يمنح الآن للسفارات الأجنبية من وجهة النظر الدولية اذ تعتبر هذه السفارات جزءا من وطن السفارة يمارسون فيها حريتهم وكان للايطاليين هذه المستعمرات فى الشام والاسكندرية وعلى البحر الاسود ، وكذلك فى القسطنطينية حتى سقوطها واستمرت بعد ذلك تعمل على نفس النظام ، ولكن تحت الرقابة وفى ظل قيود الدولة العثمانية .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 307.

(٤٩) اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandokeion ونقلت الى اللغة الايطالية لتدل على المبنى الذى أسفله مخازن وأعلاه حجرات نوم لسكنى الأجانب : ـ متز : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

وفى أسبانيا والبرتغال عرف باسم Fondach or Alhondigaje وتطلق الآن على مخازن الغلال ولاتزال مستعملة حتى اليوم فى ريف المغرب .

انظر : المجلة عدد يناير ١٩٦١ ص٨٩/٩٠ .

كما ذكر الاسم فى مخطوطة سورية قديمة .

— Wiet, Preçis, II. p. 274.

ـ صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ص ١٢ .

المجلة التاريخية المصرية ـ مايو ١٩٥٢ ـ وتعرف فى مصر باسم فندق وفى بعض الأحيان وكالة وفى سوريا باسم الخان وكذلك فى تركيا .

— Thenaud, Voyage, p. 22 R. I.

تشاء (٥٠) . وتتبع هـذه الفنادق ادارة الجمـارك بالموانى ، ويشرف على الفنـدق موظف يعرف باسـم « الفنداقى » وقنصـل الدولة مسئول عن الفندق وعن تسديد رسوم التجار للسلطان يرصد جزء منهـا للاصـلاحات والصـيانة للمبنى ونص على ذلك أيضـا فى المعاهدات (٥١) . وفى الاسكندرية كانت توزع الفنـادق كالآتى : اثنان للبنادقة ، وواحد لكل من الجنويين والبيزيين ، وفيما بعد سمح للفلورنسيين بالحصول على فندق آخر ، وآخر لتجار أنكونا ولبالرمو ونابلى بالاشتراك مع تجار جايتا .

أما الفرنسيون فكان لكل من مرسيليا وناربون وراجوزا ومعهم قطالونيا فندق خاص بهم وفندق لتجار كريت رغم أنها كانت مستعمرة للبنادقة . وقبل سقوط القسطنطينية كان لافريقيا فندق بالاسكندرية، وآخر للقبارسة ، وثالث للألمان سكان السواحل ، كما كان للاتراك فندق ، وكذلك للمغاربة ، ثم التتار ، اذ كانوا يتاجرون فى العبيد ويعقدون صفقات بيعه فى فندقهم (٥٢) . واتصفت فنادق الاسكندرية بمبانيها المربعة ، ولبعضها أكثر من طابق ، كما أن لكل فندق حوشا داخليا سـماويا ويفتح عليه الطابق الأرضى حيث توجد المخازن ، ويستخدم فى حزم وتفريغ السلع. أما الدكاكين به فهى مقبية وتستخدم كمخازن كذلك . وفى الحجرات العليا حجرات متعددة لاقامة التجار ، ويحيط بالفندق حديقة يزرع بها التجار أشـجارا من أوطانهم تعطى

---

(٥٠) المجلة : مقال طاهر احمد مكى ص٨٩/٩٠ عدد يناير ١٩٦١ .

نص فى كافة المعاهدات بمنح الجاليات الاجنبية فنادق واعطى لهم حق صيانتهـا واعمارها ، ومن حق الحكومة استرداد الفندق فى اى وقت كما حدث لفندق بيزا الذى منح للاتراك ورفض قاضى الاسكندرية منحه للفلورنسيين .

(٥١) — Heyd, Op. Cit. II. p. 341.

(٥٢) — Ziada, Op. Cit. p. 213.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 433.

منظرا فريدا ألفوه فى بلادهم ، لذا كان المبنى كله يعتبر قطعة من الوطن الأم يجدون فيه الحرية والأمن والحماية لهم ولسلعهم . ويحرم عليهم شرب الخمور جهارا وان سمح لهم بذلك فى الفندق (٥٣) .

والفندق ملك للسلطات المحلية ولكن يسمح لبعض الفنادق أحيانا بايواء الأجانب المارين بمصر أو الاسكندرية أو الشام أو الحجاج لبيت المقدس وسيناء لبعض ليالى نظير أجر معلوم يدفعون جزءا منه للحكومة ويسرى على هؤلاء ما يسرى على القاطنين فيه (٥٤) . وعلى عهد سلاطين المماليك كان يحرم على الأجانب داخل الفندق مبارحته ليلا أو يوم الجمعة وقت الصلاة ، واذا جن الليل أغلق الفندق من الخارج ببوابات ضخمة فتنقطع الصلة تماما بين سكانه وبين المدينة ، ويحذر الأجانب من التأخر أو الوصول بعد غلق البوابات . وتلجأ السلطات الى هذا الاجراء خشية حدوث أى تصرف من الأجانب قد

---

(٥٣) — Pernaud, Les Villes Marchands Aux XIVe — XVe Sieçles, p. 46.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 433-434.
— Thenaud, Op. Cit. II. pp. 22 N. I.

كان يسمح لهم بادخال الخمور واستعمالها فى فنادقهم فقط ، واذا ضبط أحدهم خارج الفندق يحتسى الخمر أهين وعوقب ، ومن ذلك «انه فى شعبان من عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩م) اجتمع العوام بالاسكندرية وهاجموا أماكن الفرنج وكسروا لهم ٣٠٠ بتية خمر ثمنها عندهم ٤٠٠٠ دينار ، ثم أراقوا ما وجدوه من الخمور فى أماكن الفرنج الأخرى » ابن حجر : أنباء الغمر (مخطوطة) ورقة ٢٥٥ جـ ٢ .

وفى عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) صدر قرار بمنع الفرنج من حمل الخمور من بلادهم ثم بعد مدة عادوا به الى البلاد الشامية والمصرية فصدر أمر السلطان باراقة الخمور وشدد فى ذلك ، وكتب به الى البلاد الشامية وغيرها ، وكتب الى الاسكندرية بالزام الفرنج باعادة ما يجلبوه من الخمر الى بلادهم ..

ابن حجر انباء الغمر (مخطوطة) جـ ٢ ورقة ٤٤٧ و ٤٥٣ .

(٥٤) كان فندق ناربون أول من قدم خدمة ايواء الحجاج لبيت المقدس والتجار ، العابرين بتصريح من السلطات المحلية نظير رسم معين .

— Harff, The Pilgrimage Of . . . p. 93.
— Sonia, Op. Cit. p. 99.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 431-433-434.

يتنافى مع عـادات وتقـاليد الوطنيين او يؤذى شـعورهم وقت الصـلاة مما قد يؤول فى غير صالح الأمن بالمدينة ، كما أن حجزهم داخل الفندق منذ الغروب كان لأمنهم من جانب ، وخوفا من تعديهم حدود المتاجرة من جانب آخر (٥٥) . وعنـدما ازداد نطـاق التجارة بشرق البحر المتوسط أواخر العصور الوسطى ، واعتبر الفنـدق قطعة من الوطن الأصلى حيث يجتمع مواطنو كل بلد على حدة ، مارس التجار وسكان الفندق حياتهم بحرية ، وامتلأ الفندق بالمتاجر الغربية والشرقية ومنها أصواف وأجواخ الفلاندرز وايطاليا والحرير من شامبين بفرنساء والفراء من أقصى شمال أوربا والبلطيق والقرم والبحر الأسـود ، والعنبر من شواطىء روسيا (٥٦) . أما السلع الشرقية المشـتراة من أسواق الاسكندرية والقاهرة فيسير حزمها فى أفنية الفندق ثم تنقل الى الميناء لتقدير رسوم الجمارك وتشحن بعدها الى السفن استعدادا للرحيل (٥٧) وبالفندق قاعة عامة تستخدم كديوان لعقد الاتفـاقيات الخاصة بالتجارة مع الوطنيين والأجانب كذلك ، والصفقات التى تعقد بهذه القاعة تتخذ الصفة الرسمية اذا ما أبرمت داخل القاعة باعتبار أن الفندق قطعة من الوطن الأم للأجنبى المتفاوض مع الوطنى أو الأجنبى مثله . ولذا كان الفندق يعتبر بمثابة بورصة تجارية فى مواسـم التجار (٥٨) . وتذكر وثائق العصور الوسطى وخاصة الغربية منها أن سلاطين المماليك سمحوا باقامة يوم فى الفنادق للصـلاة رعاية من السلطان للشئون الدينية والروحية للتجار ، وان لم يمنع هذا وجود

---

(٥٥) — Pernaud, Op. Cit. p. 47.
— Poston, Op. Cit. II. p. 307.

(٥٦) — Pernaud, Op. Cit. pp. 48-49.

(٥٧) — Sonia, Op. Cit. p. 99.

(٥٨) Harff, Arnold von, The Pilgrimage Of. . . . Syria, Egypt. . . ., 1495-1499 p. 96.
— Pernaud, Op. Cit. p. 47.

كنائس فى الشام مثل كنيسة القديس نيقولا للبيزيين وكنيسة القديسة ماريا للجنويين وكنيسة القديس ميشيل للبنادقة ، ويعين البابا كاهنين يرافقان القنصل الذاهب الى الشرق وينص على ذلك فى المعاهدات، كما كان للبنادقة كذلك كنيسة بالاسكندرية وجبانة لدفن موتاهم وسمح لهم بالدفن فى جبانات اليعاقبة الوطنيين (٥٩) .

ولم يكن للأجانب فنادق بالقاهرة ، والحالة الوحيدة التى سمح فيها باقامة فندق كان لتجار بيزا عام ١١٥٤ ، كما كان للسياح والحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة وكذلك التجار خان خاص لمبيتهم ، وليس فندقا بالمعنى المعروف بالاسكندرية ، وبه مكان لأمتعتهم وسلعهم . وقلة هذه الأبنية للأجانب بالقاهرة ترجع الى أن السلاطين كانوا يحرمون عليهم شراء التوابل والسلع الشرقية من أسواق القاهرة ، لذا لم يكن هناك داع لوجودهم فترة طويلة بالقاهرة ، وان كان مبعوثوهم السياسيون يمكثون فترات تتفاوت طولا وقصرا حسب مدة البعثة . ومبيتهم فى الخان المذكور أو فندق بيزا (٦٠) . أما الأجانب من العرب والشرقيين فكانت لهم فنادق فى القاهرة ، وهى أجزاء من وكالات أو خانات ، وأهمها : فندق الملك السعيد بدار الرمان وتعلوه

---

(٥٩) يذكر «هايد» أن القنصل كان يقوم أحيانا بمراسيم الصلاة ولكن هذا أمر مشكوك فيه لأن صلاة القداس مقصورة على الكاهن فقط .

«Le Consul pourra faire officier à l'église ou dans sa maison»

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 462-463.

كان الكاهن ان وجد يقيم بصفة دائمة فى الفندق ويذكر «برايدنباخ» أن قسا من رهبان برشير «Lordre des Freres Prech» اقام قداسا بفندق البنادقة فى ٢٥ من اكتوبر ١٤٨٣ م أثناء وجوده بالاسكندرية .

— Breydenbach, Les Saintes Peregrinations De... pp. 67-69 & pp. 73-75. & N. I.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 340-341-344
— Depping, Op. Cit. II. pp. 47-49.
— Ziada, Op. Cit. pp. 212-213. 215. R. I. p. 214.

(٦٠) — Heyd, Op. Cit. II. p. 435.

رباع واسعة ، وفندق عمارة حيث ينزل تجار الشام ، وفندق دار التفاح لتجارة التجزئة فى سلع الفاكهة الواردة من الشام والتى تصله من وكالة قوصون . وحوانيت الفنـادق مسقوفة (٦١) . وكذلك فنـدق مسرور وظل باقيا حتى أواخر العصـور الوسطى (٦٢) . وللتجـار الكارمية فندق بالقاهرة على شاطىء النيل تجاه الفسطاط حيث ترسو مراكبهم المحملة بسلع الشرق ، وقد أوقف الفندق لسكناهم ، وكان عاملا من عوامل انتظام نشاطهم التجارى بمصر (٦٣) .

ومن المنشآت أيضـا « الخان » وهو مبنى ضخم يحتوى على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومسـتودعات للبضـائع ، ويتوسط الخـان فناء ضـخم فى هيئـة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ، ويجدون فى الخان المأوى لهم ولدوابهم خـلال رحلتهم . وحتى القرن الخامس عشر تعددت هذه الخانات وكثرت وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية . وكان كبار رجال الأعمال والتجار وأمراء المماليك يتبارون فى بناء المنازل والقصور الفخمة الضخمة يحولونها الى خانات ووكالات وقيـاسر ويؤجرونها للهيئات أو للتجار بالحجرة بأسعار خيالية وبداخل الخانات مسـاجد صغيرة ، وخزينة عامة . ويؤدى الخان وظيفة حى قائم بذاته وتزدحم طرقاته وحاراته الضيقة بالناس خلال مزادات التجارة ، ويتكون الخان

---

(٦١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٥٢ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٤٠ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٢٦ .

(٦٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٣ (طبعة القاهرة) .

(٦٣) يرجع أصل فندق الكارمية هنا الى عهد تقى الدين عمر بن أخ صلاح الدين الأيوبى الذى تولى حكم مصر بالنيابة عن أخيه ٥٧٩هـ/١١٨٣م وهو الذى بناه للكارمية ـ أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٥١ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٥ ـ ٤٠ .

أحيانا من ثلاث طباق (٦٤) . أما « التجار العابرون » ، فقد كانت لهم منشآتهم من فنادق وخانات خارج المدن على الطرق التجارية ، وهى الخانات الأصلية التىأخذت عنها الخانات الداخلية وانتشرت بكثرة فى القرن الخامس عشر وازدهرت فى القرن السادس عشر فى العصر التركى العثمانى . وهى فى مظهرها ليست أكثر من خان وفندق معا ، والفرق الوحيد أنها خارج المدن لكى تلائم الغرض من بنائها وهو ايواء التجار بسلعهم ودوابهم وعرفت فى العصور الوسطى فى الشرق باسم « فنادق مبيت القوافل Caravanserails » حيث يستريح التجار ودوابهم . ومن هذا النوع خان يلاصق جامع برقوق وآخر عند بركة الحاج على طريق السويس القاهرة ، وكذلك خان البريد وبه مسجد صغير وبوسطه نافورة وأحواض للمياه وسوق صغيرة يجد فيها المسافر ما يحتاج اليه ، فضلا عما يلزم عماله من غذاء (٦٥) .

واذا كانت فنادق الاسكندرية قد شملت قاعات واسعة لعقد الصفقات التجارية والمعاهدات والاتفاقيات فانه فى القاهرة كانت الخانات تؤدى هذا العمل . وأصبح الخان فى القرن الخامس عشر محط رجال الأعمال الوطنيين والأجانب الشرقيين الوافدين فى تجارات

---

(٦٤) الخان كلمة فى الأصل فارسية استعملت بكثرة فى مصر والشام وذكرها المؤرخون العرب فى عصر الفاطميين والايوبين والمماليك ـ وكان السلاجقة أسبق الى بناء نوعين من المبانى على جانبى الطرق فى آسيا الصغرى : نوع يسمى الرباط وهو فندق المسافرين ـ والثانى يسمى الخان وبنى على أطراف المدن وعلى الطرق الرئيسية للبريد أو لاستراحة التجار ثم استعيرت لتؤدى ما تؤديه الفنادق فى الموانىء بالنسبة للأجانب الغربيين .

المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٤٩ ـ ١٥٢ .

فييت : مصر الاسلامية ص ٤٤ ومابعدها .

— Wiet, Precis, II. p. 275.

(٦٥) ابن دقماق : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٠ .

— Clerget, Op. Cit. pp. 315-316.
— Wiet, Precie, II. pp. 270-271.
— Wiet, Ibid, II. pp. 275.

العبور والاستيراد . كما أن الخانات أدت أعمال المصارف فى القاهرة فأودع التجـار ما يملكونه من ذهب وفضة لدى أمين الخان ومن أشهر الخانات التى قامت بهذه العمليات التجارية والمصرفية « خان بلال وخان مسرور وخان الخليلى » (٦٦) .

وفى الشام ، وجدت خانات فى معظم مدنه وموانيه ، وأشهرها خان البندقية بدمشق ، وهو ــ علاوة على استقباله التجار بسلعهم ــ كان يستقبل الحجاج ، وهو مثل فنادق الاســكندرية ، وله مفتاح وباب يغلق على سكانه ليلا وأوقات الصلاة يوم الجمعة (٦٧) .

وفى القسطنطينية كانت خانات التجار الوافدين والمارين مجانية ، وشجعت الحكومة وصول التجار لتنشيط التجارة ، وهى مبنية من الحجارة ، ولها أبواب حديدية (٦٨) .

ومن الأبنية التى شاع اســتعمالها فى مصر للأغراض التجارية كذلك القيساريات ، وهى فى العصر المماليكى من المنشآت التى يبنيها الأمراء المماليك وقياسر التجار للكسب واستثمار الأموال ، وتعلوها الرباع للتجار والصناع ، كما أنها مسقوفة ، وهى غير الســوق الذى

---

(٦٦) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٦ .

في خان مسرور الصغير كانت تقام مزادات لبيع العبيد .

— Maurice, Op. Cit. pp. 187-188.

وفى خان الخليلى وجدت مكاتب لوكالات التجار الأجانب ووجودهم كان مؤقتا ويتركون وكلاء عنهم من الوطنيين . وبهذا الخان مكان خاص للتجار المسيحيين الوافدين ، ومكاتب لوكلائهم الدائمين بالقـاهرة والوكلاء من الوطنيين لقلة التصـاريح للأجانب بالوصول للقاهرة ، لذا كان خان الخليلى بمثابة بورصة العصور الوسطى . المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٥٠ ومابعدها .

(٦٧)

— Dopp, P.H., L'Egypte Au Commencement Du XVe Siecle p. 98.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 465.

— De Sacy, Op. Cit. p. 303.

(٦٨) سليمان خليل بن جاويش : المصدر السابق ص ٤١ .

لا يشترط فيه أن يكون مسقوفا (٦٩) . وفى القياسر تنتشر المصانع الصغيرة ، وان كانت كذلك تعرض السلع للبيع بالجملة ، ولكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين وقد ظهرت فى الشام قبل مصر ولعلها مأخوذة من كلمة قيصرية Cesarie (٧٠) ومن أشهر القيساريات حتى ذلك الوقت المتأخر من العصور الوسطى : قيسارية الشرب ، وقيسارية الفاضل ، وقيسارية بيبرس ، وقيسارية بكتمر (٧١) .

طوائف التجار :

وفى القرن الخامس عشر تطورت النظم التجارية تطورا كبيرا فى مختلف فروع التجارة ، وكانت هذه التطورات قد بدأت منذ الثورة التجارية الكبرى فى القرن الثانى عشر . ومن بين من تناولهم التطور، طوائف التجار . وفى مصر كانوا يؤلفون طبقة مقربة الى سلاطين المماليك الذين أحسوا بأن التجارة أضحت المصدر الأساسى الذى يمدهم بالأموال . وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا فى عصر المماليك بثروات ضخمة ، وهذا أمر طبيعى فى عصر كانت مصر فيه حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومركزا للنشاط التجارى ، وان كان الثراء قد جعلهم دائما مطمع سلاطين المماليك الذين طالما صادروا ثرواتهم فضلا عن اثقالهم بالرسوم والضرائب منذ أواخر القرن الخامس عشر ، لذلك لم يطمئن التجار فى عصر المماليك أحيانا على أموالهم

---

(٦٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ .

(٧٠) — De Sacy, Ibid, pp. 303-304.
— Wiet, Precis, II. p. 274 & pp. 269-270.

يذكر فييت ان حوش القيسارية سماوى غير مغطى بعكس السوق الذى يشترط ان يكون مغطى . وده ساسى يذكر نقلا عن البغدادى ان القيساريات لابد أن تكون مسقوفة أما التى لا يبنى فوقها مساكن فتكون مكشوفة ورأى البغدادى أصوب ويؤيد ذلك المقريزى فى الخطط جـ ٢ ص ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ويؤكد انها مسقوفة .

(٧١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٠ ـ ١٤٤ ـ ١٤٧ .

وتجارتهم وكثيرا ما كانوا يطلبون « أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات » (٧٢) .

وبالرغم من وجود طوائف عـديدة من التجار الا أن التـاجر المتجول كان عماد التجارة . وظل كما كان يمارس عمله متجولا فى الأرض أو فى البحر فى رحلات طويلة أو قصيرة قد تستغرق أحيانا سنوات عديدة . ثم ما لبث هذا النوع من التجار أن اقتصر عمله على ورود أسواق شرق البحر المتوسط لجلب السلع الواردة من الشرق الأقصى ونقلها الى الغرب الأوربى ، بمعنى أن حياته أصبحت أكثر استقرارا عن ذى قبل بعد أن كان يصل بنفســه الى وسط آسيا عن طريق آسيا الصـغرى ، وقـد أثرى من ذلك ثراء عظيما (٧٣) . ثم ما لبث هذا النوع من التجـار أن اسـتقر بوطنه ليقوم غيره بعمله السابق . وباسـتقراره ظهرت طبقة جـديدة من التجـارة هى طبقة البرجوازيين وهذه الطائفة من التجار هى عماد عصر النهضة الأوربية التى ازدهرت بصورة واضـــحة فى القرن الخامس عشر وخاصة فى نصفه الثانى ، والتى أسهمت بنصيب وافر فى نقل العالم من العصور الوسطى الى العصور الحديثة (٧٤) .

---

(٧٢) ابن حجر : انباء الغمر ج ١ ص ٣٦٥ و ٥٢٩ .

المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣١٢ .

(٧٣) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٣٩٦ .

— Clive, Op. Cit. pp. 113-114.

(٧٤) تخصص هؤلاء التجار فى أنواع معينة من السلع فمنهم : تجار البهار ، وتجار الفراء ، وتجار الخشب ، وتجار الصوف ، وتجارالاحجار الكريمة .

ابن خلدون : المصدر السابق ص ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦

— Clive, Op. Cit. pp. 114-115.
— Maillet, Op. Cit. p. 153.

والواقع أن فرص الكسب والربح انما تكون فى صف التاجر المتنقل ، لأن كل جهده له أكثر من التاجر المستقر الذى قد ينقص ربحه بقدر راحته . والتاجر المتنقل يدير بنفسه مشروع تجارته وكل من يكل له ببعض ماله لتشغيله أن يوافق على قراراته دون مناقشة وهو يتمتع بمفرده بمكاسب أمواله التى لا تقل عن ٢٥٪ ، وكذلك أرباح المشاركة فى المشروعات الأخرى (٧٥) . أما التاجر المستقر فى بلده فيدير تجارة خارجية واسعة عن طريق فروع شركته ووكلائه ويستعمل العقود والتسهيلات المصرفية ويوفر على نفسه المال الذى يتقاضاه التاجر المتنقل من ربح وعمولة ومن هؤلاء التجار التاجر الفرنسى « جاك كير » الذى كان لشركته فروع فى كافة موانى ومدن شرق البحر المتوسط وغربه (٧٦) .

على أن ظهور طبقة البرجوازيين من التجار المستقرين المتخصصين أتى معه بفئة جديدة من التجار الذين عرفوا بالتجار الدوليين والذين تاجروا برءوس أموال غيرهم ورءوس أموالهم ورءوس أموال الشركات، ونقلوا مختلف السلع بين الشرق والغرب وأدى ذلك الى ظهور أنواع جديدة من النظم التجارية والمعاملات المالية لتسهيل المتاجرة ونقل الأموال وتحويلها . ولما ازداد نفوذ التجار الدوليين وسيطروا على تجارة الشرق والغرب تنبهت الحكومات المحلية الى خطورتهم على التجار المحليين ، وصار من واجب الحكومات حماية التجار الوطنيين،

---

(٧٥) يقول ابن خلدون فى المقدمة جـ ١ ص ٣٩٦ ومابعدها «كذلك فان نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرقات .. يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم ربحا .. لأن السلعة المنقولة تكون قليلة معوزة لبعد مكانها لذا نجد المسافرين من بلادنا الى الشرق لبعد المشقة أيضا يثرون بسرعة » . نلاحظ أن تاجر الكارمية كان فى بداية عمله تاجرا متنقلا بين مصر واليمن والهند انظر بعده عن التجار الكارمية .

— Pernaud, Les Villes, p. 27.
— Poston, Op. Cit. pp. 335.

(٧٦) انظر ما كتب عن التاجر « جاك كير » فى الفصل الثانى وكذلك .

— Poston, Ibid, II. p. 335.

وخاصة من لا رأس مال له ، وصدرت القوانين التى تمنع التجار الدوليين من المتاجرة فى القطاعى وترك ذلك للوطنيين (٧٧) . وفى مصر تنبهت حكومة سلاطين المماليك لهذا الخطر ، فقصرت ورود التجار الأجانب من هذه الفئة على الموانىء والمدن الساحلية الشمالية دون دخولهم القاهرة وغيرها من المدن الداخلية ، وكذلك مدن وموانىء البحر الأحمر لهذا السبب ولأسباب أخرى تتعلق بالأمن وبالنواحى الدينية وخاصة منذ الحروب الصليبية ، وذلك حماية للتجارة وللتجار الوطنيين ، وان كان يسمح للقلة منهم دخول القاهرة بتصاريح مؤقتة لعدة ساعات أو أيام قليلة وتحت المراقبة (٧٨) . وكان على التاجر أن يحمل تجارته لمواطنيه ولا يبيعها فى الطريق وان أباحت الدولة أحيانا بيع الجملة لبعض السلع . والتاجر الدولى كالتاجر المتنقل كان يستطيع أحيانا الاستقرار فى الاسكندرية أو موانىء الشام مدة قصيرة قد تصل لثلاثة شهور لتصريف ما معه من سلع أو تسويق ما يريده من سلع الشرق وفى البداية لم يكن بامكان التاجر الأوربى التعامل مع المصرى الا اذا كان له رصيد من المال فى مصر وخاصة فى حالة شراء « التوابل الشريفة » ولكن بتوالى السنين ومن كثرة تردد التجار الأجانب على مصر أصبحوا معروفين للمصريين ، حتى ان التاجر المصرى كان يقبل أى ضمانات تضمن له أمواله عن سلعه المباعة وزادت الثقة بينهما لطول التعامل (٧٩) .

---

(٧٧) انظر كذلك الملحق برقم (١٤ جـ فقرة ١٠) عن ترك بيع القطاعى للمواطنين دون كبار التجار والاجانب .

(٧٨)
— Maillet, Op. Cit. pp. 129-135-136.
— Harff, Op. Cit. pp. 102-103.

(٧٩) من مظاهر هذه الثقة قيام شركة مقارضة بين التاجر الكارمى والتاجر الفرنجى فى حدود ٢٠ ألف دينار ، انظر ـ المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٤٠٢ .

بخصوص المعاملات المالية للتجار الأجانب فى مصر ، أنه أواخر القرن الخامس عشر فرض=

وفى بعض دول أوربا ومدنها التجارية لم يكن يسمح لبعض طوائف التجار بممارسة العمليات التجارية المختلفة الا بعد دراسة ومران كافيين ، بل ان أهالى جنوة والبندقية كانوا يرسلون أبناءهم فى صحبة التجار المتنقلين ليتعلموا منهم أصول الحرفة وأسرارها حتى اذا ما شبوا كانوا فى عداد التجار البارعين . وتطلبت العمليات التجارية التى مارسوها أنواعا من المكاتبات والمراسلات فكان التاجر فى القرن الخامس عشر يرسل تعليماته الى وكلائه فى الخارج كتابة ويمسك عليهم سجلا ، وفى امكانه كذلك أن يستخدم خطابات تحويل مالية قابلة للصرف من أوربا الى موانىء ومدن البحر الأسود وآسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط وقبرص ، ولتجارته علامات مميزة ، كما اتسع نطاق التعامل فى البنوك والبيوتات المالية (٨٠) .

وفى القسطنطينية اختلف نظام فئات التجار بها عنه فى شرق البحر المتوسط ففى القسطنطينية كانت المتاجر تصل برا بطريق البر يحرسها تجار من مواطنى الدولة صاحبة المتاجر ، وهناك فئة أخرى تذهب بنفسها لشراء ونقل هذه المتاجر ومنهم تجار الشام وطائفة من البلقان وجد تجارها — فى مدينة سالونيكا وفى القسطنطينية كذلك — مجالا طيبا لبيع سلعهم ومنتجات بلادهم ، وخاصة «للمنظمات النقابية» The Gild Organaization » الموجودة هناك . ويدفع للتجار الأجانب

= السلاطين على تجار البندقية شراء قدر معين من توابل الذخيرة الشريفة بنسبة معينة الى السلع الأخرى (حمل من التوابل عن كل الف دوكة من السلع الأخرى) . وقد أدى هذا الاجراء الى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة التجار البنادقة التى كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خلت . وظلت على هذه الحال حتى عام ١٥٠٦ م .

انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة — المجلة التاريخية مجلد ١٩٥٧/٦ م ص ٤٤ م ١٠ .

(٨٠) انظر قبله ملاحظة ٤٥ فى هذا الفصل بخصوص تمرين التجار لأبنائهم على التجارة .

— Pernaud, Op. Cit. pp. 27-28.
— Poston, Op. Cit. p. 308.

الرسوم الجمركية ، ويعفى منها التجار المحليون الوافدون للجمارك للشراء أو البيع . واستمر هذا النظام معمولا به فى العصر العثمانى منذ عام ١٤٥٣ م ، ولقى طائفة التجار الروس معاملة خاصة لأهمية تجارتهم وتمتعوا بالسكن والمأوى المجانى والحمام ــ وان كان سكناهم فى حى خاص بالمدن ــ وبقوا كغيرهم من التجار الأجانب تحت رقابة الدولة (٨١) .

أما فئات التجار الشرقيين فيرى المؤرخون أن انتشار الاسلام من شرق البحر المتوسط الى الشرق الأقصى ثم الى جنوب وجنوب غرب أوربا ، كان عاملا من عوامل زيادة التجارة ، فقد عمل الفرس والعرب وسطاء تجاريين بين أوربا وافريقية وآسيا ، قبل الاسلام وبعده، وهذه الصلة بين الشرق والغرب التى قامت على أكتاف المسلمين أوجدت نوعا من الوحدة أنقذت التجارة العالمية من الانهيار . فكان بامكان التجار المسلمين السفر من الأندلس الى الهند دون أن يشعروا بأنهم يخترقون بلادا غريبة عنهم ، كما أن الحاجة الملحة للتوابل والعطور والبهار كانت مدعاة لنمو التجارة حتى أواخر العصور الوسطى على يد هؤلاء الوسطاء غير مبالين بالمخاطر والصعوبات التى قد يتعرضون لها فى الطرق الخارجية أو فى البحار ، وهذه الصعوبات فى نظر بعض المؤرخين المحدثين كانت جديرة بأن تدمر التجارة فىأوربا الكاثوليكية ولكن كانت تزيد من تصميم العربى فى مخاطراته التجارية (٨٢) . ومن بين الطوائف الشرقية المذكورة :

١ ــ فئة التجار المصريين ومنهم تجار الكارمية الذين اعتبروا من

---

(٨١) — Poston, Op. Cit. II. p. 96.

(٨٢) يبدو أن كلمة Risk المخاطرة فى اللغة الانجليزية مشتقة من الكلمة العربية رزق Risk والتى تدل على السعى فى طلب العيش والرزق بالاضافة الى ما كان يقابله من المخاطر فى البحر أو قطاع الطرق أو عداء بعض الحكومات . انظر :

— Clerget, Op. Cit. p. 320.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 284-285.

أمهر وأكثر التجار دراية بعملهم ، ويسافرون للشرق الأقصى والهند ، ولهم وكلاء فى اليمن وموانىء الهند، أما التجار المحليون فلا يسافرون، بل يتاجرون في السلع الاستهلاكية محليا ، وان كان لهم عملاء فى الخارج ويبيعون بالجملة والتجزئة (٨٣) . وقد أتيح لمصر بوساطة التجار الكارمية أن تحتل مركز الزعامة والصدارة فى العالم الاسلامى فى العصرين الأيوبى والمماليكى ، فقد كانت طائفتهم التى أطلق عليها المؤرخون اسم المصريين هم دعامة البناء الاقتصادى فى مصر فى العصور الوسطى ، كما لا يمكن اغفال دورهم الدولى القيادى فى التجارة بين الشرق والغرب وخاصة فى جلب المتاجر الشرقية من الهند والصين الى اليمن ومصر فأوربا . وكان مجال اتصالهم فى البداية من قوص للقاهرة عن طريق ميناء عيذاب والقصير على البحر الأحمر ، ولهم مستودعات ضخمة وفنادق وخانات فى موانىء البحر الأحمر وعدن والهند ، ولم يثبت وجود صلة مباشرة لهم بالهند الصينية الا عن طريق الوكلاء ، وخط ملاحتهم الرئيسى من ساحل الملابار وكروماندل الى الخليج العربى والبحر الأحمر ، وهم الذين جلبوا اليها البهار والعنبر والبخور والتوابل والعقاقير والأصباغ والجواهر وجوز الهند وخلافه . من الشرقين الأدنى والأقصى ، حتى ان كلمة تجار الفلفل والبهار والتوابل كانت لا تطلق الا عليهم . ويبدو أنهم فى القرن الخامس عشر لم يعودوا يذهبون بأنفسهم الى الهند ؛ انما كانت تصلهم المتاجر على سفن الهنود والصينيين عن طريق وكلائهم (٨٤) .

---

(٨٣) — Mopp, Op. Cit. p. 98.

(٨٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٤١ و ٤٦١ و جـ ٤ ص ٣٢ — ١٨٧ .

المقريزى :السلوك جـ ١ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١٧ ـ ١٢١ و ٥٧١ (كاليفورنيا)

— Walter, Journal Of Economic and Social History of the Orient, Vol. II. p. 161-162.

ووصلت رحلاتهم التجارية كذلك الى شـــاطىء افريقية الشرقى حتى موزمبيق ، ولهم بموانيه وكلاء ومندوبون محليون ، وليس هناك دليل على أن هؤلاء التجار الكارمية كانوا ينافسون بعضهم بعضا بل الواضح أنهم كانوا يكونون رابطة وطائفة تحتكر التجارة الشرقية المجزية لتوريدها عبر بلاد شرق البحر المتوسط الى غرب أوربا (٨٥). وحتى القرن الخامس عشر كانت التجارة الشرقية احتكارا لهم ، حتى ان البحر الأحمر كان يعتبر بالنسبة لهم بحيرة اسلامية بعد أن منع التجار الأجانب عن الوصول اليه . وكان هذا من عوامل نمو واتساع تجارتهم ، وكان كذلك بامكانهم ممارسة التجارة تحت حماية المماليك أنفسهم مع اليمن ودمشق مما جعلهم يبلغون القمة حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر مما أتاح لهم فرصـــة التدخل فى الشـــئون السياسية والمالية لدولة ســـلاطين المماليك (٨٦) . ومن مراكزهم فى اليمن كانوا ينطلقون بالسلع الواردة من الهند الى البحر الأحمر ، ولهم مواعيد منتظمة معينة تتفق مع مواعيـــد الرياح وكذلك مواعيد

---

(٨٥) — Goiten, S. D., New Lightes On The Begining of The Karim Merchants, Journal of the Economic.... Vol. 1. p. 179. R. 4.

لم تكن هيئة تجار الكارمية فى البداية شركة تقوم بعملية مبادلة التجارة ولكنها نوع من الهيئات البحرية أو البحارة التى تتولى نقل سلع خاصة بالتجار تحت رعاية من أصحاب المتاجر أو وكلائهم كما كان يحدث تماما فى سفن الناخذاه التى لا يمتلكها الكارم ثم مارسوا العمل التجارى بأنفسهم .

— Moreland, M. Indian Shipping, p. 74.

يذكرهم مورلند بالعرب مرة والمصريين مرة أخرى وهو يقصد الكارمية ، ويقول ان لهم وكلاء فى الهند على ساحل افريقية الشرقى ويكونون وحدة فى شركة بأنصبة متساوية وهو نوع من الشركات المساهمة فى العصور الوسطى .

(٨٦) عنيت حكومة سلاطين المماليك عناية خاصة بتجار الكارمية لكثرة مصالحهم معهم ، وانشأت من أجلهم وظيفة « نظر البحر الكارمى » انظر بعده فى هذا الفصل عن الهيئات التى أشرفت على التجارة فى العصور الوسطى وكذلك ـ

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٢ ـ ٦٤ ومابعدها .

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ ملاحظة (١) نشر زيادة .

— Fischel, Walter, Journal, Op. Cit. T. 11. pp. 160, 161.

وصول السفن الأوربية للاسكندرية ، الا أنه منذ الربع الثاني من القرن الخامس عشر انتقلت أهمية ميناء عدن الى جدة ، وكان هذا مقدمة لنقل احتكار التجارة من الكارمية الى سلاطين المماليك (٨٧).

وكان للكارمية أسطول بحرى ونهرى خاص بهم ، وذكر فى مؤلفات العصور الوسطى عبارة « مراكب الكارمية » وذكر كذلك قيام السلطات المحلية فى مصر بحماية سفنهم وتجارتهم من القراصنة (٨٨) . وهذه الحماية كانت لقاء رسوم يدفعها الكارمية للحكومة عن طيب خاطر ، وهذا يفسر لنا نمو تجارتهم فى البحر الأحمر (٨٩) . وكانوا يدفعون الزكاة وكل ما يطلب منهم عن طيب خاطر مما يدل على عظم ثرائهم وتقديرهم لرعاية السلطان لهم ولمصالحهم التجارية ، بل انهم كانوا يقرضون الملوك والسلاطين فى اليمن ومصر كلما طلبوا منهم ذلك (٩٠) .

وقد حرص الكارمية كطائفة تجارية ترتبط مصالحها ارتباطا تاما بمراكزها فى الهند واليمن ومصر على أن يكونوا على علاقة طيبة مع حكام هذه المناطق ، وكانوا يتحاشون الدخول بالتأييد لأى الطرفين فى النزاع الذى طالما نشب بين أمراء اليمن وسلاطين المماليك بل على العكس شاركوا فى حل الأزمات السياسية والاقتصادية ، وكان سلاطين مصر يختارون سفراءهم لليمن من بين كبار تجار الكارمية الذين رحبوا

---

(٨٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠

— Heyd. Op. Cit. I. P. pp. 67-68.

(٨٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٥ و جـ ٤ ص ٣٢ ؛

— Fischel, W., Op. Cit. II. pp. 162-163. Vol. I.

(٨٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ جـ ٧ ص ٤٥١ .

— Goiten, (Journal) Op. Cit. II. p. 102. (Vol. I.)

(٩٠) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٣ و ٧٤ و جـ ٢ ص ١٠٣ .

فييت : مصر الاسلامية ص ٣١ .

بهذا التكليف حماية لتجارتهم (٩١) . وأكثر الكارمية غنى ومقاما كان يتولى رياسة طائفتهم ويخضع له كل تجار الكارمية حتى أكابرهم وكان له في بلاط الملوك والسلاطين مركز مرموق ويلي رئيس الكارمية وظيفته على قدر ما يقدمه من خدمات للسلطان وللدولة (٩٢) .

أما التجار المحليون المصريون فهم عدة فئات ، وكل فئة تتاجر فى سلعة بعينها ، ومن بينهم فئة بائعى البخور والعطور وفئة تجار الشمع والصابون ، ولكل منهم سوق معينة . وتراقب الحكومة أسواقهم وموازينهم ومكاييلهم بوساطة المحتسب وأعوانه ، ثم تجار خيوط الغزل والتوابل وكل أنواع السلع الشرقية والغربية . وفى عصر المماليك كان تجار التوابل والنسيج من الطبقات الثرية التى تماثل الطبقات البرجوازية المستقرة فى أوربا وان كانوا قبلا تجارا متنقلين (٩٣) .

٢ ـ والفئة الثانية هى فئة التجار المغاربة من سكان شمال افريقية ومسلمى الأندلس حتى عام ١٤٩٢ م ، وكانوا من أكثر الفئات اتصالا بمصر ، ومونوا أسواقها بسلع شمال وغرب ووسط افريقية ، وأحيانا من أوربا ويجلبون كذلك الذهب وبه يدفعون أثمان سلعهم (٩٤) .

---

(٩١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٨ ص ٧٢ ـ ٧٦ .
المقريزى : المصدر السابق ـ السلوك جـ ٢ ص ٧ .

(٩٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ص ٢١١ و الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٨٢ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩١ .
— Heyd, Op. Cit. II. p. 59.

(٩٣) المقريزى : المواعظ جـ ٢ ص ١٠٣ .
المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٥٩ ـ ١٦٦ .
سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ٨٦ .
محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٢٦ (انظر بعده عن الذهب والسياسة النقدية)
— Poston, Op. Cit. pp. 109-385.
— Noppe, Op. Cit. p. 98.

(٩٤)

٣ ـ والفئة الثالثة تشمل تجار أوربا المسيحيين وعلى رأسهم البنادقة والجنويون والفلورنسيون ، وتاريخهم مع شرق البحر المتوسط قديم ولهم قناصل ونواب قناصل لتسهيل أعمالهم ويمارسون وظائفهم بموافقة السلطات المماليكية بموجب معاهدات واتفاقيات وينتظـرون وصول السلع الشرقية لينقلوها الى أوربا ، ووصولهم كان مشروطا ومقيدا بالمدن الساحلية فقط ولهم وكالات وفنادق وأحيانا كنـائس خارج الفنادق غير كنائس الفنادق. وكان للشئون السياسية والعسكرية دخل كبير لما يلاقونه أحيانا من معاملة (٩٥) .

٤ ـ والفئة الرابعة هي فئة المسلمين الشرقيين من الأتراك والفرس وعرب شبه الجزيرة والسوريين والعراقيين والسودانيين وكلهم فئات كانت القاهرة معتادة رؤيتهم والتعامل معهم ولا يحظر عليهم ما كان يحظر على الأوربيين ، كما أن لهم خانات وقياسر ، ومدة بقائهم بالقاهرة مفتوحة ، بل ان بعضهم آثر الاستقرار فى القاهرة وأصبح من فئات التجار المستقرين البرجوازيين واتسعت تجارته . ومنهم أيضا اليمنيون والهنود (٩٦) . ويتبع هذه الطائفة التجار العرب الذين سافروا الى الشرق الأدنى ، وكان لانتشار الاسلام فى الهند والصين أثره فى تنشيط المشروعات العربية فيهما ، وقد تبلورت الجهود العربية فى المياه الشرقية لأقصى طاقاتها حتى نهاية القرن الخامس عشر وجذب هذا النجاح أعدادا كبيرة من الشعوب الأخرى من غير العرب كالاغريق والترك والجراكسة وبعض فئـات من شرق البحر المتوسـط ، ثم الأوربيين حين تم لهم الوصول للهند بحرا فى أواخر القرن الخامس

---

(٩٥) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١١ ص ٤٢١ وجـ ١٣ ص ٣٤٠ .
— Heyd, Op. Cit. II. p. 411.
— Clerget, Op. Cit. pp. 323-324.

(٩٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٤٥ .
— Clerget, Op. Cit. p. 322.
— Nopp, Op. Cit. p. 91.

عشر وعرف الأجانب في الشرقين الأدنى والأقصى باسم الروم . لذا فان المنافسين للبرتغاليين في الهند لم يكونوا جميعا من العرب الخلص من شبه الجزيرة العربية انما بعضهم ممن عرفوا باسم الروم . وان كان البرتغاليون يطلقون عليهم جميعا بلا تمييز اسم المغاربة Moors وهؤلاء بالاضافة الى الهنود والمصريين هم الذين قاوموا الغزو البحرى الهند أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وان خضعوا لهم فى النهاية (٩٧) . ولم يكتف العرب بالمتاجرة فقط بالشرق الأقصى ، بل ان فئات منهم استقرت بجزر الهند الشرقية وفئات أخرى استقرت بالصين حيث قوبلوا فيها بالترحاب وسمح لهم أباطرة الصين باقامة مراكز تجارية لهم وأحياء لطوائفهم وسيدا منهم يفصل فى المنازعات بينهم ويدير شئونهم وهو بمثابة القنصل فى شرق البحر المتوسط . وظلت تجارة هذه المنطقة حتى القرن الخامس عشر وفترة من القرن السادس عشر احتكارا لفئات من التجار العرب . ولدى وصول البرتغاليين الى قاليقوط هجرها معظم تجارها من العرب والأفارقة متجهين الى ملقا التى أصبحت سوقا للسلع الشرقية المصدرة للغرب ، ولم يلبث البرتغاليون أن غزوها هى وسيلان ليخرج منها العرب نهائيا (٩٨) .

٥ ــ والفئة الخامسة هى فئة تجار الأرمن والاغريق والقبط ، وهم مسيحيون شرقيون ، وعملوا فى التجارة ، ومنهم مهرة الصناع ، وقوافلهم تجوب البلاد العربية من حلب ودمشق وعمان وبيروت كما

(٩٧) — Camb. Med. Hist. I. p. 27.

(٩٨) ابن خرداذبه : كتاب المسالك والممالك ص ٧١ .
المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٨ .
ابن بطوطة : عجائب الآثار ج ٢ ص ١١٦ .
متز : الحضارة العربية فى القرن ٤ هـ (مترجم) ج ٢ ص ٣٠٥ ــ ٣٧٦ و ٣٧٧ ؛
— Camb. Med. Hist. I. p. 28.
— Steiger, Hist. Of The Orient, pp. 215-216-217.

تاجروا فى سلع أرمينيا وجورجيا وفارس ، وكان لهم دور كبير فى تجارة الهند قبل وصول البرتغاليين . ولكثرة ورود التجار الاغريق لمصر منحوا حق وجود قنصل لهم بالاسكندرية لرعاية شئون التجار (٩٩) .

٦ ـ والفئة السادسة هم مجموعة التجار اليهود الذين أسهموا بنصيب كبير فى تجارة مصر والتجارة الدولية فى العصور الوسطى المبكرة ، وكان بمصر منهم عدد كبير من المعروفين «بالطائفة الرذانية» وبدأوا تجارتهم مع ظهور الاسلام وانتشاره فى فارس ، وكان طريقهم التجارى من دمشق للقاهرة والقيروان وطنجة وتاجروا فى الأسلحة والتوابل والفراء والحرير والعبيد ، كما وصلوا الى البحر الأسود ؛ بل يقال انهم تاجروا مع مدن الخليج الفارسى حتى ان ميناء سيراف كان يحكمه فى وقت ما يهودى (١٠٠) . كما اعتنق كثير منهم الاسلام. وما لبث السوريون والمصريون ـ بعد قيام الدول المستقلة فى مصر والشام ـ أن سيطروا على التجارة التى تحكم فيها اليهود فترة ، كما أنه فى الغرب الأوربى قل عمل اليهود بعد أن أتقن المسيحيون الغربيون العملية التجارية ، وكانت البابوية قد أصدرت تعليمات متجددة مع كل بابا يلى كرسى روما الدينى ، يتحدد فيها أنواع التجارة

(٩٩) ابن حجر : انباء الغمر جـ ١ ورقة ٢٢٣ (انظر قبله ملاحظة رقم ٩٧).
— Mopp, Op. Cit. p. 99.

(١٠٠) ابن خرداذبه : ص ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ ويذكر أنهم فى العصور الوسطى المتقدمة كانوا يركبون البحر الشرقى (البحر الاحمر) من القلزم الى الجار وجدة ثم يمضون الى السند والهند ـ انظر كذلك (سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ ٢ ص ٩٤ ويذكر أن تاجرا كان يؤدى معنى يهودى (Judes — Mercator)
— Poston, Op. Cit. II. p. 287.
— Clerget, Op. Cit. p. 320-321.

ويسميهم ابن خرداذبه كذلك باسم الرذانية من بلاد الفرنج الغربى . ويذكر كلرجيه انهم ينتسبون لمدينة الرى Ragha = Rai بالقرب من طهران (المصدر السابق نفس الصفحات) .

الخاصة التى يمكن لليهود أن يمارسوا العمل فيها ، الا أن اليهود ما لبثوا أن اتجهوا نحو التوسع فى أرباح السلف ، بعد أن حرمت الكنيسة الكاثوليكية هذا النوع من التعامل المالى ، وأصبحوا مقرضى أموال بأرباح عالية . ومع هذا كانوا فى مركز مزعزع ، لأن القانون لا يمنحهم الحماية ، كما أنهم كانوا معرضين للنهب من الأمراء الاقطاعيين (١٠١) . وقد شاع بين بعض الكتاب المحدثين أن فئة التجار الكارمية من اليهود (١٠٢) ، ولكن حقيقة الأمر أن طائفة الكارمية كانت هيئة متماسكة جعلت الاسلام أساس وحدتها وعصبيتها فلم يوجد بين الكارمية أى يهودى ، وان لم يمنع قبولهم للتاجر اليهودى الذى يعتنق الاسلام ويتوارثه عنه أبناؤه كما يتوارثون التجارة . وليس أدل على ذلك من أن فنادقهم كان بها مساجد تحمل أسماءهم وينفقون عليها من جهدهم الخاص (١٠٣) .

وقبل أن ننهى موضوع الفئات المشتغلة بالتجارة فى العصور الوسطى ، وخاصة المتأخرة منها ، يبدو أن من المفيد عقد مقارنة بين جهود التاجر الكارمى عماد التجارة فى الشرق والتاجر الايطالى عماد التجارة الأوربية فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، فكما كان الايطالى مفخرة الحركة التجارية الوسيطة فى البحر المتوسط ، فان التاجر الكارمى فى البحر الأحمر ، وفى المحيط الهندى كان أكثر فخارا واجتهادا . ولقد شق كلاهما طريقه فى عصر امتلأ بالكثير من

---

(١٠١) — Clive, Op. Cit. pp. 117-118.

(١٠٢) — Clerget, Op. Cit. pp. 317-321-322.

(١٠٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٣١ .
ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .
النويرى : نهاية الأرب جـ ٤ ص ٦٢ مخطوطة برقم ٥٩٢ معارف عامة بدار الكتب .
ابو المحاسن : النجوم جـ ١٠ ص ٥٦٤ (كاليفورنيا) .
— Fischel, F., Op. Cit. (Journal) p. 163, 166.

المصاعب ، فمن تحمس دينى ملأ العصور الوسطى شرقا وغربا ، وطرق تتهددها الأخطار برا وبحرا ، الى حكومات يتزايد جشعها للمكوس والضرائب ، ومع ذلك فقد وصل التاجر الايطالى الى شمال أوربا بحرا وبرا ووصل بعضهم الى الصين (ماركوبولو) . والتاجر الكارمى كذلك سيطر بتجارته على البحر الأحمر والمحيط الهندى ووصل الى الصين وتعمق فى افريقية حتى بلاد التكرور ومع ذلك ظلت نقط ارتكاز الايطالى فى البحر المتوسط والكارمى فى البحر الأحمر . ولا نعدو الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان الايطالى والكارمى سواء أكانا متنقلين أو مستقرين أو دوليين ـ فهما دعامتا تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب (١٠٤) .

نظام الهيئات المشرفة على التجارة :

ومنذ تطور مركز مصر الدولى فى التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى حتى أواخرها ، تطلب هذا التطور ظهور نظم جديدة فى التجارة أظهرها نظام « المراصد » التى هى قوائم الأسعار والضرائب على الصادرات والواردات . وقد سادت هذه النظم مدن مصر والشام وموانيهما فى البحرين الأحمر والمتوسط ، وأنشئت لذلك الجمارك فى موانىء جدة والقلزم والسويس والطور وعيذاب والقصير ، وقوص وبولاق على النيل ، ودمياط والبرلس والاسكندرية ، على ساحل البحر المتوسط المصرى وفى بيروت وصور وصيدا وعكا وطرابلس على ساحل البحر المتوسط الشرقى (١٠٥) . وديوان الجمارك

---

(١٠٤) صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٢٨ و ٢٩ .
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 429-430.

(١٠٥) ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .
ابن مماتى : قوانين الدولة ص ٣٤٩ .
— Cierget, Op. Cit., p. 330.

على هذه الموانىء أهم الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية ، وحصيلة أمواله من التجارة المارة والمصدرة والمستوردة ، ولما زادت الأعباء المالية فى العصر المماليكى ، واحتاج السلاطين الى المزيد من المال لمواجهة الأخطار للحرب مع المغول ثم العثمانيين ، والتوسع الاقتصادى والعمرانى الذى شمل مصر والشام فى عهدهم والنقص المالى الذى نتج من افلاس النظام الاقطاعى فى القرن الخامس عشر ، كانت رسوم الجمارك واحتكار توزيع السلع الشرقية هما المصدران اللذان اعتمدوا عليها . ورفع المماليك الرسوم الجمركية على هذه السلع ، فكان رسم الجمارك بالاسكندرية على توابل الهند يساوى خمسة أمثاله فى قاليقوط ، ثم ان سعر النقل زاد ثلاث مرات قدر ما كان عليه سابقا، ودفع مرافقو قوافل مكة رسوما عالية عن أنفسهم وعن كل جمل رسما يتراوح ما بين درهم ، وثلاثة دنانير . ورسوم جمارك جدة من التجارة الهندية ١٠٪ زيدت على عهد السلطان برسباى فتحولت المتاجر عنها الى عدن فاضطر للقنوع بالعشر ولكن كانت تتضاعف رسوم الجمارك اذا ثبت أن السفن مرت قبل دخولها جدة بعدن وأطلق على جمارك جدة اسم « شاد جدة » وزادت هذه الضرائب على بعض السلع الى ١٥٪ من أثمانها وفى أواخر العصور الوسطى بلغت حوالى ٣٥٪ من أثمان السلع (١٠٦) .

وجمرك الاسكندرية أكبر جمارك مصر على البحر المتوسط (١٠٧).

---

(١٠٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٦٠ .

— Thenaud, Op. Cit., p ; 27.
— Clerget, Op. Cit., pp. 332-333.
— Dopp, Op. Cit. pp. 45-46.

(١٠٧) تزعمت قوص وعيذاب وجماركهما النشاط التجارى الاسيوى والافريقى ، على حين ان دمياط والاسكندرية وجماركهما تزعمتا استقبال السفن الأوربية وجزر البحر المتوسط ، وخوفا من قدوم حملة صليبية على مصر من دمياط فقد تم ردم مخرج النيل عند فم بحر دمياط ، وأصبحت السفن ترسو بعيدا ، وتتولى السفن النيلية الصغيرة نقل =

ويقع خلف بابها الشمالى الذى يفتح للميناء فى أكبر أحياء المدينة ، وهو مهبط التجار من وطنيين وأجانب وبه فنادقهم . وللمدينة ميناءان ، وبالتالى جمركان : والميناء الأول هو مرسى البرج ، وأخذ اسمه من برج على صخرة للمراقبة ، وترسو فيه سفن التجارة الأوربية ، كما تدخله سفن تركيا وجزر البحر المتوسط للمتاجرة وللاحتماء من الأنواء ، أما الثانى فهو مرسى السلسلة ، وتدخل اليه سفن بلاد المغرب وخاصة تونس وجزر البحر المتوسط (١٠٨) . ورسمت ادارة الجمارك بالاسكندرية رسوما معينة فى كل جمرك ، فهى فى جمرك البرج الخاص بالأوربيين المسيحيين ١٠٪ ، وفى جمرك السلسلة الخاص بالمغاربة المسلمين ٥٪ (١٠٩) . ويفيد الوطنيون بالاسكندرية من التجارة الأجنبية المسيحية والاسلامية ، ولكن معظم أموال جماركها يذهب لخزائن السلطان ، وكان القنصل يذهب بنفسه للقاهرة لحمل رسوم الجمارك للسلطان (١١٠) .

= البضائع ، ومن ثم اختيرت الاسكندرية لتحل محل دمياط ، وأصبحت منذ ذلك الحين — أكبر موانىء البحر المتوسط .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٠٤ .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ .

(١٠٨) — Leo Africanus, The History and Description of Africa, Vo.l III. pp. 861, 862 & R. II. p. 908 R. 10. pp. 907-908.

(١٠٩) كان المغاربة يدفعون ثلث سلعهم مكوسا على حين ان الفرنج يدفعون العشر ولما شكا المغاربة للسلطان ناصر فرج ١٤١١ م أمر بالا يؤخذ من المغاربة الا العشر .

ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٢٨ .

ويذكر Thenaud ان السلطان كان يحصل سنويا على حوالى ٢٥٠,٠٠٠ اشرفى رسوم جمارك على السلع التجارية فى جمارك الاسكندرية وتصل رسوم الجمارك أحيانا الى ١٠٠ ٪ من مشتروات الأجانب مما حدا ببعضهم الى الرجوع دون شراء أى شىء .

— Thenaud, Op. Cit. p. 27.

(١١٠) — Depping, Op. Cit. I. p. 62-63 & I. p.p. 160-161.

وخضـعت السـفن التجارية لنظام تفتيش دقيق فى جمـرك الاسكندرية واجراءات حكومية عدة ، ومنحت ادارة الجمـارك لجمهوريات ايطاليا التجارية مخازن كبيرة بالاسكندرية ، وهى مخازن مسقوفة يحمل القنصل مفاتيحها وتتولى هيئة الجمارك حراسة السلع الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للحكومة ، وللتاجر الحرية فى أن يترك بضاعته أو يحملها معه الى الفندق . أما تجارة المرور عبر مصر فكان رسم الجمارك عليها يتراوح ما بين ٢ — ٢ ١/٢ ٪ (١١١) . ولدى وصول السفن الغربية الى الموانىء المصرية يصعد اليها عمـال السلطان ويبدءون فى مباشرة أعمالهم وهى على ثلاث مراحل :

الاجـراء الأول : (١) معرفة جنسية السفينة (٢) احصاء بعدد المسافرين عليها (٣) كتابة قائمة بأسمائهم والسلع التى يحملونها (٤). تبليغ كل هذه المعلومات لأمير الاسكندرية الذى يتولى بدوره تبليغها للسلطان فى القاهرة بواسطة الحمام الزاجل (١١٢) .

الاجراء الثانى : بعد أن تدخل السفينة الميناء ترفع عنها أشرعتها ودفتها وتحفظ لدى السلطات المحلية لحين التحقق من بياناتها ودفع ما عليها من رسوم ثم السماح للقبطان والركاب بالنزول للميناء بعد

---

(١١١) — Heyd, Op. Cit. II. p. 451

(١١٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩١ — ٣٩٢ .
المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١١ — ٢٣١ .
ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ .
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٦٣ .
فييت : مصر الاسلامية ص ٤٤ — ٥٤ .
— Harff, Op. Cit. p. XXIII.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 429.

أخذ اذن أمير المدينة . وفى حالة العداء بين الفرنج والمماليك يتشدد عمال السلطان فى التفتيش خوفا من وجود الأسلحة (١١٣) .

الاجراء الثالث : تبدأ جباية الرسوم المقررة وهى (١) جزية الرأس دوكتان لكل فرد وخمسة اذا كان من الحجاج. (٢) رسم دخول يساوى ٢٪ من قيمة السلع المحمولة ومحاولة المراوغة هنا من الأجانب كان مصيرها العقاب الصارم (٣) ١٠٪ للجمرك من قيمة السلع (١١٤) . وبالجمرك موظف سلطانى يقوم بتحديد ما تريد الحكومة شراءه من سلع غربية كالخشب والقطران وغير ذلك للمتجر السلطانى فى القاهرة (١١٥) . وموظف آخر يتولى استجواب التجار أو الوافدين والعابرين عن الحالة العامة فى أوربا والظروف السياسية التى تمر بها كما يسألهم عن وظائفهم ، فان كانت له صفة دبلوماسية استجوب عن مقاصده وعن أمراء وملوك أوربا وعن حملات صليبية جديدة (١١٦) . فاذا تمت كل هذه الاجراءات سمح لهم بدخول المدينة للمبيت فى فنادقهم وفرزسلعهم ، وكانت السلطات المماليكية لا تسمح الا لقنصل

---

(١١٣)
— Harff, Op. Cit. p. 84-92.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 430.

« يذكر هارف ان الأشرعة والدفة لا تسلم الا بعد استيفاء رسوم الجمارك ثم يصرح للسفينة بالرحيل • ويقول كذلك أمرا غريبا آخر وهو «ان تجار الاسكندرية يترصدون الحمام الزاجل ويفحصون مابه من رسائل لكي يعرفوا نوع وكمية السلع الواردة للاسكندرية وعدد السفن حتى ينظموا عملية الشراء ثم يعيدوا اطلاق سراح الحمام ليكمل رحلته للقاهرة» •

— Harff, Op. Cit. p. 181.

(١١٤) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٠ •

— Ziada, Op. Cit. p. 211.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 428, 430.
— Depping, Op. Cit. II. pp. 303-306-307.
— Harff, Op. Cit. p. 92.
— Sonia, Op. Cit. pp. 97-98.

(١١٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ نشر عزيز سوريال عطية •

(١١٦)
— Harff, Op. Cit. p. XXIII.
— Sonia, Op. Cit. p. 98.

فرنسا بمرافقة عمال السلطان فى عمليات التفتيش (١١٧) .

أما ميناء السلسلة فيمر منه تجار ومسافرو المغرب والفئات الأخرى الشرقية من أتراك أحيانا ويمنيين وهنود وفرس وتجرى معهم الاجراءات الآتية :

١ ــ يصعد عمال السلطان للسفن لقيد كميات وأنواع السلع .

٢ ــ استحضار جميع من بالسفينة من المسلمين واحدا واحدا وكتابة أسمائهم وصفتهم وأسماء بلادهم .

٣ ــ سؤال كل فرد عن حيازته من سلع أخرى ليؤدى عن الجميع زكاة دون أن يسأل هل حال عليها حول أم لا (١١٨) .

٤ ــ من كان منهم ذا صفة سياسية طيف به على المسئولين تحت الحراسة للقاضى وأهل الديوان وحاشية السلطان وفى كل مرة يستجوب ثم يطلق سراحه .

٥ ــ انزال السلع للديوان وتفتيشها لتقدير الجمارك عليها .

---

(١١٧) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٠ .

(١١٨) « هذا فى الواقع ليس زكاة بل هى ضرائب وتأخذ صفة الزكاة الواجبة على كل مسلم والدليل على ذلك عدم اهتمام السلطات بمرور حول على الزكاة السابقة أم لا انظر : ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

مثل هذه الأموال كانت تعتبر مكوسا غير شرعية لا سند قانونى لها ، لم تكن من ابتكار المماليك بقدر ما كانت موروثة عن عصور سالفة ، ومنها مقرر المراكب ، وهو ما يؤخذ عن كل مركب وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ عن الرجل من زكاة ماله ولو عدم ، واذا مات يؤخذ من ورثته : أنظر ــ المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ١٠٦ طبع بولاق وكذلك ــ سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

كما تحصل الحكومة من متجر الكارمية فى اى مدينة زكاة معلومة كلما حال عليه الحول ولم يحدد المؤرخون المعاصرون قيمة هذه الزكاة ومنهم القلقشندى الذى ذكر « انها تجرى مجرى سائر متحصل الاسكندرية المباشرة وغيرها » .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦١ وكذلك :

المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٥١٠ و ٥١١ حاشية رقم (٤) للدكتور زيادة .

٦ — أحيانا بدل (اقرارات الحيازة) يصير استحلافهم بالقسم المغلظ هل عندهم غير ما وجد .

وفى كل موانىء وجمارك مدن مصر والشام تتم الاجراءات هذه (١١٩) .

الا أن هناك بعض اجراءات اضافية كانت تتبع منها :

١ — عند تقييم حمولة السفينة لمعرفة قيمة الضرائب المقررة عليها تدفع السفينة رسما اضافيا للفندق .

٢ — تتعدد الضرائب بتعدد السلع وتزيد احداها على الأخرى، حسب أهميتها ، كما أن الضرائب تتفاوت تبعا للعلاقة مع دولة التجار .

٣ — فى الجمرك يوجد موظف أجنبى بمثابة قنصل تجارى تعينه حكومته بموافقة السلطان ويقتصر نشاطه على دائرة الجمرك ويراعى أن مواطنيه التجار لا يدفعون فى السلعة أكثر من ثمنها ومرة واحدة ، ويمسك سجلا للمبيعات والمشتريات لمواطنيه لمقارنته بسجل السلطات المحلية ويعمل أحيانا كضامن للتاجر من مواطنيه الذى قد يترك المدينة وعليه ديون للجمرك أو له أو عليه أموال للتجار الوطنيين .

٤ — تحديد حمولة السفينة وأماكن الفراغات بها لتحديد كميات السلع التى يمكن أن تحملها فى حدود امكانياتها حتى لا تتعرض للغرق . والتاجر الغربى هنا لا يجبر على شراء أو بيع أية سلع اذا لم

---

(١١٩) تصل الضرائب أحيانا ٢٠ و ٣٥ ٪ وتقل عن ذلك بالنسبة للمسلمين من المغاربة والاندلس . انظر ابن مماتى : المصدر السابق ص ٣٣٦ — ٣٤٩ .

القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٦٤ .

ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

— Sonia, Op. Cit. p. 98.

ان اجراءات التفتيش كانت تسرى على الأجانب والوطنيين الوافدين للتجارة الخارجية وكذلك من المغاربة المسلمين وهى من حقوق السيادة للدولة .

يعجبه السعر وان كان يجبر فى أواخر العصور الوسطى على شراء « توابل الذخيرة الشريفة » (١٢٠) .

٥ ــ فى أغلب صفقات البيع كان يوجد سمسار ومترجم . ويتقاضى السمسار عمولة معقولة يحددها القانون حسب نوع السلعة وجنسية البائع ، كما كان للسماسرة نقابة تتولى شئونهم ونظام السماسرة كان معروفا فى وكالات القاهرة .

٦ ــ لم يكن الجمرك هو المنطقة الوحيدة التى تتم فيها عمليات البيع والشراء فى قاعاته التى تشبه الى حد كبير بورصات العصر الحاضر ، ولكن كان يحدث التعامل أحيانا على ظهر السفينة وفى الفنادق فى قاعات خاصة بذلك . وفى كل هذه الحالات كانت القوانين الوضعية هى القوانين السائدة .

٧ ــ اذا تم البيع خارج دائرة الجمرك على غير ما يوافق البائع حق له أن يلجأ للقضاء الوطنى ، وكثيرا ما لجأ التجار الأجانب للقضاء الوطنى اذا ما أهينوا أو أضيروا بسبب تأثير ذوى النفوذ من رجال الادارة والجمارك . وتعمد ادارة الجمرك أحيانا الى شراء السلع لحسابها ثم اعادة توزيعها على التجار مع ربح معقول (١٢١) .

---

(١٢٠)
— Ziada, Op. Cit. p. 213.
— Pernaud, Op. Cit. pp. 48-49.

(١٢١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٧ .

المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤١٥ .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٢٩ .

— Pernaud, Op. Cit. p. 47.
— Harff, Op. Cit. p. 95.
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 451, 452.

انظر كذلك الملحق عن اتفاقية التجارة بالاسكندرية فقرة ٣ و ٤ (يتحصل من الضرائب ١٠٪ بسمسرة و ١١٪ اذا حدث تغيير . فى السوق الحر ١٠٪ مناصفة بين السمسار والترجمان . فى المبيعات الصغيرة ٤٪ لكل ١٠٠ دوكات للسمسار ، ومثلها للترجمان بشرط الانتهاء من البيع نهائيا . . . .

٨ ــ فيما يختص بسلع الشرق الأقصى جعل المماليك جمارك مينائى جدة والطور لها ، أما الاسكندرية فقد اختص جمركها بسلع أوربا والمغرب الواردة والمصدرة لها وفى دمياط اختص جمركها بضرائب الصادر من السكر الوارد من الخشب من أوربا وآسيا الصغرى والشام . وقيمة الضرائب على الخشب وصلت الى حوالى ربع الثمن (١٢٢) .

٩ ــ سمح للقنصل بالاسكندرية بتحصيل ٤٫٥٪ من الرسوم المتحصلة لصالح القنصلية و ٢٪ على الوارد ومثلها على الصادر للقنصلية أيضاً و ½٪ لصالح القنصل نفسه. وفى القرن الخامس عشر بلغ جملة ما يحصله القناصل لأنفسهم ١٪ فى الاسكندرية وفى دمشق ٣٪ بحيث لايزيد على ١٠ دنانير ، أى فلس لكل ١٠٠ دوكات تقريبا (١٢٣) .

وفى موانىء النيل النهرية اتبع فى بولاق بالقاهرة نفس النظام من حيث التفتيش وتحصيل الرسوم على التجار ورسوم الحجاج (١٢٤). وفى جمرك ميناء منية بن خصيب كانوا « يقسمون الأيمان الحرجة » على ما بأيديهم وما عندهم وهى بديل «الاقرارات الجمركية» الحالية وان اتبعوا معهم وسائل قاسية أحيانا (١٢٥) . وفى عدن أظهر حكامها

---

(١٢٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٣ ــ ١٠٩ .
القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٦٩ ــ ٤٧٠ .
ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .
ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٨٤ .
— Depping, Op. Cit. II, p. 77.

(١٢٣) — Depping, Op. Cit. II, p. 54.

(١٢٤) انظر الفصل الثالث ــ بخصوص ميناء بولاق النهرى وجمركه ، فيتواجد به رجال الحكومة بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار ولجمركها باب خاص ، بالمسافرين لفحص حقائبهم ويدفعون ١٠٪ مما بها ، ودوقتان للمسافر العادى ، وخمسة للحاج :
— Thenaud, Op. Cit. p. 121.
— Clorget, Op. Cit. p. 169-170.

(١٢٥) المقريزى: الخطط جـ١ ص١٠٨ ــ ١٠٩ يصعد عمال الجمرك السفن ويفتشون=

تعسفا مع التجار فى الجمارك ، ففرضـوا عليهم الضرائب المتعددة ، وينزع عمال الجمرك قلاع ودفة السفن حتى يتم دفع الرسوم ، ويتم التفتيش بدقة حتى النساء وجدت عجوز تتولى تفتيشهن ، ولا يبارح التجار المرفأ الا بعد التأكد من تصفية كل عملياته (١٢٦) . وقد تأرجحت رسـوم الجمارك فى ميناء عدن وجـدة تبعا للتطورات السـياسية والاقتصادية ، فرفعت فى جمرك ميناء جدة الرسوم على السفن التى يثبت أنها مرت بعدن فى طريقها لجدة كما يدفع الحجاج اليمنيون لدى عودتهم من مكة رسوما عالية فى عدن لديوان الجمرك على ما يحملونه من الحجاز (١٢٧) .

وجمرك القسطنطينية به جهاز ضخم يعمل على التأكد من جنسية كل سفينة ويقدر ما تستحقه من ضرائب ، وكان على السفن أن تدفع مجمـوعة من الضرائب منها ضريبة على مسـاحتها وحمولتها ونوع السلع التى تحملها . ويذكر عن هذا الجهاز من الموظفين أنه لم يسمع عنهم أنهم أساءوا أو ارتشوا نظرا للرقابة الشديدة عليهم ، وان كانت بعض الجاليات تحاول التهرب أحيانا من دفع بعض الرسوم الجمركية ، ويحصل فى جمرك القسطنطينية ٢٪ رسوم مرور و ١٪ للقنصل. وبقى هذا النظام قائما فى العصر العثمانى بلا تغيير ، وان كان قد اتخـذ شكلا أكثر حزما نظرا للظروف العسكرية التى أحاطت بالمنطقة منذ عام ١٤٥٣ م (١٢٨) .

= الركاب وسلبهم حق النساء بطريقة وصفها المقريزى (بطريقة قبيحة وشنيعة) كما يجسون بمسالهم جميع ما يحملون من غرائر ويحل بالمسافرين والتجار والحجاج من العنف وسوء المعاملة مالا يوصف .

(١٢٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ ١ ص ٥٨ .

(١٢٧) الظاهرى : المصدر السابق ص ١٣ ــ ١٤ .

ابن اياس : نشق الأزهار (مخطوطة) ورقة ٨٣ .

— Lane Poole, Hist, of Egypt. p. 340.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 445-446 & 500, 504.

(١٢٨) بعد أن أصبح العثمانيون سادة القسطنطينية ثم سوريا ومصر وقبرص =

ومن الجمارك التى كان لها اتصال بتجارة شرق البحر المتوسط : جمارك الصين والهند ففي جمارك الصين وخاصة فى جمرك ميناء خانفو (كانتون) كانت أسماء ربابنة السفن الأجانب تقيد فى ديوان التجارة البحرية ، ويطالب الديوان بحق تفتيش المراكب قبل السماح لها بانزال ما تحمله الى البر ، ويحصلون رسوم تصدير وتحميل . وصار من المحظور تصدير الأشياء النادرة ، وكل من يعمد الى التهريب يسجن وربما تكون قد أنشئت فى العصور الوسطى مكاتب تجارية ، داخل دائرة الجمرك لتسهيل أعمال التجار المسلمين وتسهيل تحصيل رسوم الجمارك للسلطات الحاكمة والرسوم تقدر بنسبة ثلاثة أعشار القيمة للسلعة . ويستطيع السلطان أن يشترى ما يشاء بثمن مجز (١٢٩) .

وفى الهند فانه لدى وصول السفن الى موانيها يصعد اليها مندوبو الملك لكى يلقوا نظرة على البضائع الموجودة بها ويثمنون حمولتها . وفى ميناء قاليقوط يعين الملك من رجال الجمرك ثلاثة موظفين لحراستها ، وعمل حساباتها فى الجمرك ، وتنظيم عمليات البيع والشراء والضرائب والموجبات ورسوم الدخول والخروج ، وثالث سمسار لتسويق ما يطلبه التجار من سلع محلية أو بيع مالديهم

= والحجاز وضعوا وحددوا الرسوم بنسبة ٢٪ فى قبرس والقسطنطينية و ٣٪ على البحر الاسود ودمشق و ١٪ فى بيروت للصادر و ١½٪ للوارد وما بين ٤ ـ ٦٪ فى حلب ثم رفعت رسوم الاسكندرية لتوازى جمارك الشام حتى يمكن التعاشيها .

— Depping, Op. Cit. II. pp. 54 & 167.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 102-103.

(١٢٩) متز : الحضارة الاسلامية (مترجم) جـ ٢ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

يذكر ابن بطوطة : الرحلة ، عجائب الأخبار جـ٣ ص ١٦١ « ان الجنوك الصينية اذا ما بارحت الميناء يكتب القبطان اقرارا منه بعدد ركابها وخدمها وبحارتها وسلعها ، فاذا ما عاد يقدم اقرارا بمن تخلف ، سالما أو ميتا ـ والا يؤخذ فيه ـ ثم يقدم اقرارا بالسلع التى فى حوزته . وبعد انزالها اذا ظهر أى اختلاف صار الجنك وما فيه من مال وسلع ملكا للسلطات المحلية .

من سلع نظرا لمعرفة السمسار بلغة وطباع أهلها وأسعار السوق حتى يطمئن التاجر تماما لعدالة وصحة الاجراءات . ويدفع التاجر أو أصحاب السفن ــ ان كانوا هم التجار ــ مرتبات هؤلاء الموظفين بسخاء ، ولهم عمولة شراء وبيع تبلغ حوالى ١٦٪ من مجموع المشتريات (١٣٠) . وتتغير الرسوم الجمركية بتغير الحكام . ويحصل رسم حراسة قدره ربع قيمة المبيعات والمشتريات ولا تحصل عوائد اذا عادت السفينة دون مشتريات (١٣١) .

أما فى جمارك غرب البحر المتوسط ، ففى البندقية كان التاجر الأجنبى يراقب مراقبة شـديدة ودقيقة ، ولا تترك له حرية اختيـار مسكنه، بل يوضع فى فندق خاص بالأجانب، وفيه يصير تخزين سلعه. وبالجمرك مركز ادارة الأجانب الوافدين . وتنزع كذلك منه أسلحته وتعمـل قائمة بما فى حوزته من سـلع حتى يمكن تقدير الضرائب الجمركية المطلوبة منه ، ويقوم بهذا العمل مفتش أو كشاف ، وهو يعـاون التاجر فى شراء لوازمه ويرافقـه كظله لكى يتـأكد من أنه لا يخالف القوانين ولا يتهرب من الرسوم الجمركية . ولا بد للتاجر أن يبيع مالديه ، لأن السلطات تحصل الرسوم على البضائع بيعت أم لم تبـع (١٣٢) .

جملة القول أنه حتى نهاية العصور الوسطى لم يسمع عن جمارك مصر والشام ما يشين القائمين عليها ، وظلت الجمارك مثـالا للدقة

---

(١٣٠) — Darnes, The Book of Duarte Barbosa, Vol. II. p. 77-75.

« يذكر بربوزا أن عمولة هؤلاء الموظفين هى أربعة أرطال زنجبيل لكل ٢٥ رطلا مشتراة ، أى حوالى ١٦٪ من قيمة المشتريات » .

— Camb. Mod. Hist., Vol. I. pp. 25-26.

(١٣١) — Moreland, Indian Shipping, p. 198.

(١٣٢) — Clive, Op. Cit. pp. 94-95-96.

والأمانة ويلقى فيها الأجانب الأمن والرعاية . وليس أدل على ذلك مما ذكر عن قصة البرتغـاليين الفونسو بايفا وكوفلهام مبعوثى ملك البرتغال لملك الحبشـة فى أواخر القرن الخـامس عشر ، وكيف أن سلعهما ردت اليهما كاملة ، فى الوقت الذى ظن فيه البعض أنها سرقت بفعل عمال الجمرك حين مرضا وبدا أنهما فارقا الحيـاة ولمـا انجلت غمتهما ردت اليهما بضاعتهما . وشهدا هما بذلك، ولقيا كذلك مثل هذه الرعاية والأمان فى موانىء الهند « حتى ان التجـار الأجانب يتركون بضائعهم فى السوق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء اعلان قيمتها المادية ، لأن حرس وموظفى الجمرك مسئولون عن حمايتها (١٣٣) .

على أن مسألة الرعاية فى الجمارك تعدت كذلك الى تخفيض الرسوم على بعض الجاليات دون غيرها لعوامل اقتصادية أو سياسية، وخاصة اذا كانت الحاجة ماسة لأدوات الحرب (١٣٤) . الا أن هنـاك رسوما اضافية لا ينالها التخفيض ، تدفع لصالح الحمالين والسماسرة والمترجمين ولديوان القبان ، وهذه الرسـوم سـادت جمارك مصر والشام والهند والصـين وبلاد المغرب (١٣٥) . ومنذ أوائل القـرن السادس عشر وجمارك مصر تتدهور بشكل ملحوظ وخاصة فى مينائى جدة والاسكندرية ، ويعلل ابن اياس ذلك « لأن السفن الأوربيـة (يقصد البرتغاليين) بدأت تتوغل فى البحر الأحمر وتجاوز عددها العشرين . وكانت تطارد سفن الهند المحملة بالسلع الشرقية وتصادر

---

(١٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ .

سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ٧٨ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

— Sonia, Op. Cit. pp. 97-98.

(١٣٤) — Heyd, Op. Cit. I. pp. 391-392.

(١٣٥) ابن مماتى : قوانين الدولة ص ٣٢٧ (نشر عزيز سوريال عطية) .

— Mas Latrie, Traites De Paix Et de Commerce, pp. 106-107.

ما تستولى عليه منها » (١٣٦) . واذا كان قد نسب لعمال الجمارك اذ ذاك التشدد فى جمع الرسوم وتحصيلها ، أو دقة التفتيش ، أو التحقق من شخصية الوافدين ، فهذا يرجع لحالة الحرب بين مصر والبرتغاليين فى المياه الهندية ، وليس هذا الا حرصا من الحكومة على مصالحها وأمنها (١٣٧) .

القناصل التجاريون :

ومن الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية كذلك هيئة القناصل التجاريين ، وقد ظهرت الحاجة الى هذه الوظيفة فى تجارة شرق البحر المتوسط عندما اتسع مجالها شرقا وغربا وتركز القناصل فى مصر والشام والقسطنطينية لتغطية تسويق وعبور المتاجر الشرقية والغربية . ولما كانت ظروف التجار فى كثير من الأحيان تحتم عليهم الاقامة فى المدن والموانىء التجارية العربية لفترة طويلة وممارسة التجارة فى ظل القوانين المحلية ، لذا أصبح من الضرورى وجود هيئة تتولى الاتصال بين هؤلاء التجار ، والسلطات المحلية . هذه الهيئات وأفرادها هم « القناصل التجاريون » وأطلق عليهم أحيانا اسم « المندوبون التجاريون » . وفى الاسكندرية كان يطلق عليهم اسم « مدير المبيعات » أو « المندوب التجارى » . ولكل مجموعة تجارية بالمدينة مندوب من هذا النوع يمارس مهام منصبه بعد موافقة السلطات المصرية (١٣٨) . وقد عرف شرق البحر المتوسط نظام القناصل التجاريين

---

(١٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٠٥ .
فييت : مصر الاسلامية ص ٤١ .
(١٣٧) — Poston, Op. Cit. II. p. 334.
(١٣٨) ابن حجر : انباء الغمر : جـ ١ ورقة ٢٢٣ (مخطوطة) .
ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .
— Heyd, Op. Cit. II. p. 454.
— Depping, Op. Cit. II. pp. 20-21.

قبل الحروب الصليبية ، واستمر هذا النظام قائما حتى نهاية العصور الوسطى ، وان كان من الصعب أن نجزم أى الموانىء الشرقية استقبلت قبل غيرها قناصل التجارة ومتى استقبلتهم . الا أنهم كانوا فى القرن الرابع عشر هيئة رسمية تعترف بها الدولة وتمارس أعمالها الاشرافية على التجارة (١٣٩) . وقد عرف العــرب هذا النظام فى الصين منــذ انتشار الاسلام وازدياد التجارة بين شرق آسيا وغربها ، ولما زادت الجالية العربية فى « كانفو » عين امبراطور الصين هيئة من قنصــل ــ حسب الاسم الذى عرف به فيما بعد ــ وقاض وكتبة ، لرعاية شئون هذه الجالية التجارية والمدنية والدينية (١٤٠) .

ويعاون القنصل فى مهام وظيفته هيئة تتكون من موثق العقود وترجمان بمرتب سنوى ، وقد يكون من الوطنيين الذين يتقنون لغة الأجانب ، أو أجنبيا أتقن لغة الدولة التى يعمل بها ، ووكيلا للقنصل. ويحرم على القنصل الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحساب غيره أو يعمل مندوبا لدولة أخرى الا باذن خاص من السلطات المحلية . ويرشــح لوظيفة القنصل أفراد من الأسر الكريمة ، ولو أن هذه العادة تعدتهم للتجار وخاصة من كان له صلات قوية بالعــرب أو من بقى بين ظهرانيهم سنوات عدة . وتجــدد المــدن التجارية قنــاصلها فى شرق البحــر

---

(١٣٩) يبدو أن نظام القناصل كان سابقا للحروب الصليبية بوقت قصير فى مصر والشام ، ولاسيما فى حالة النزاع بين أوربيين وكان لا يجوز للقضاء الوطنى الفصل فى مثل هذا النزاع حسب الشرع ، لذا يرجح وجود مندوب من الجاليات الأوربية يتولى هذه العملية وعملية الاشراف التجارى على مواطنيه عرف فيما بعد باسم القنصل . ويبدو كذلك أن السلطات رحبت بمثل هذه الوظيفة لتسهيل عملية الاشراف على التجارة .
— Depping, Op. Cit. II. pp. 20-21.

(١٤٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦٩ ــ ٧٠ .
سلمان الفارسى : أبازيد السيرافى : سلسلة التواريخ ، الكتاب الاول رحلة الى الصين ص ١٣ .
ابن اياس : نشق الازهار (مخطوطة) ورقة ١٢٨ .
— Pirenne, Mod. Cities, p. 188.

المتوسط عاماً بعد عام ، وقد يستقر القنصل فى وظيفته ثلاث سنوات ، اذا زكاه مواطنوه التجار . وكانت بعض الجمهوريات التجارية الايطالية وخاصة جنوة والبندقية ، ترسل لمراكز نشاطها التجارى ثلاثة قناصل ، بحيث يحل كل واحد مكان الذى تنتهى مدة خدمته ، وتهدف من هذا الى تفادى اشكالات الموت المفاجىء ، أو صعوبة المواصلات أحيانا ، وكذلك لزيادة مران القنصل فى وظيفته (١٤١) . وفى العصـــور الوسطى المتأخرة صار القنصل ممثلا لدولته سياسيا وتجاريا ، وسمح لهم بتحصيل رسوم اضافية على التجار لصالح القنصلية ولصـالح القنصل نفسه (١٤٢) . ولدى وصول القنصل يقدم نفسه ومعاونيـه للسلطان الذى يحدد لكل منهم عمله حسب خطاب الاعتماد ويتلقى تعليمات السلطات المحلية ، وعليه أن يطبقها بدقة (١٤٣) . ومنذ سقوط القسـطنطينية ١٤٥٣ م ، تعين قنصل عام للشـام وآخـر لمصر ، والأول مركزه بيروت ، والثانى مركزه الاسكندرية ولهما نواب فى المـدن والموانى كافة ، وهو مسئول عن مواطنيه وعن رسم الجمارك (١٤٤). المطلوبة للسلطات المحلية . ويختص القنصل ومعاونوه كذلك بفض المنازعات التى قد تنشب بين بعض الأجانب وبعضهم ، بل ان من بين هيئة القنصلية موظفا يقوم بعملية الدفاع عن مواطنيه أمام القضـاء المحلى ، كما يمثل القنصل مواطنيه أمام السلطان أو نائبه فى قضايا

---

(١٤١) — Depping, Op. Cit. pp. 94 & pp. 39, 40-43

(١٤٢) انظر قبله عن رسوم الجمارك لصالح القنصليات وكذلك .
المجلة : عدد يناير ٤٩ لسنة ١٩٦٠ ص ٩٠/٩١ .
— Ziada, Op. Cit. pp. 213-314..

(١٤٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٩٤ .
ابن حجر : ابناء الغمر جـ ٢ (مخطوطة) ورقة ٢٥٥ وورقة ٤٤٧ وورقة ٤٥٣

(١٤٤) — Depping, Op. Cit. II. p. 43.

الاستئناف (١٤٥) . ويرفع طلبات مواطنيه ودولته للسلطان . وقناصل جنوة والبندقية وفلورنسا كانوا أكثر القناصل اتصالا بالسلطان فى مصر ويتمتعون بميزة « أكثر الدول رعاية » (١٤٦) . وتحدد الوثائق ظهور قنصليات جنوة فى شرق البحر المتوسط فى القرن الثانى عشر فى نفس الفترة التى ظهر فيها هذا النظام للبنادقة فى الشام (١٤٧) . ولأهل بيزا فى الاسكندرية وفى القاهرة (١٤٨) . وبدأت جنوة قنصلياتها التجارية فى الاسكندرية فى القرن الثالث عشر ، الا أن قنصلياتها على البحر الأسود سبقت ذلك بقرون عدة (١٤٩) . وقناصل البنادقة فى الاسكندرية من أبرز الشخصيات الأجنبية فى بلاد السلطان المماليكى ، وبقيت قنصلياتهم حتى عهد السلطان العثمانى سليم الأول ونالوا منه امتيازات جديدة فى معاهدة تجارية (١٥٠) . ولم يكن للبنادقة أو لغيرهم من الجاليات الأوربية قنصليات فى القاهرة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر (١٥١) . وتمتع قناصل فلورنسا فى الدولة المماليكية بمركز ممتاز لهم ولمواطنيهم التجار ، ويعقد القناصل معاهدة تجارية كلما ولى السلطنة فى القاهرة

---

(١٤٥) انظر قبله عن القضايا التجارية بين الوطنيين والأجانب بعضهم بين بعض ، والقضايا الاستئنافية فى القاهرة .

(١٤٦) — Heyd, Op. Cit. I. p. 391-392 & 411, 412 & II. p. 454.
— Dopp, Op. Cit. p. 76.
— Depping, Op. Cit. II. pp. 21-22.
— Sonia, Op. Cit. p. 99,

(١٤٧) محمد كرد على : خطط الشام ج ٤ ص ٣٦٧ «ان أول ما ورد اسم القنصل فى جملة النزالة الجنوية التى كانت فى عكا ، كان فى أواسط القرن ١٢ م ومنها انتشرت فى سائر الأماكن وعرفوا بالقناصل » .

(١٤٨) — Heyd, Op. Cit. I. pp. 392-393.
— Beazley, Dawn Of Modern Geog., II. p. 431.

(١٤٩) — Depping. Op. Cit. II. pp. 33-36-37-40.

(١٥٠) انظر الملحق ومعاهدة البنادقة مع السلطان سليم الأول العثمانى — راجع الفصل الثانى العلاقات التجارية الخارجية .

(١٥١) — Heyd, Op. Cit. II. p. 436.

حاكم جديد (١٥٢) . وفى القسطنطينية شجع السلاطين العثمانيون وصول التجار الفلورنسيين وقنصلهم لبلاده ، بل ان معاونى ومستشارى السلطان كانوا منهم . ويتولى القنصل رعاية مواطنيه التجار ، والضرب على أيدى العابثين منهم ، ويساعده فى عمله مسجل العقود ونائبه (١٥٣) .

ولما كانت معظم المشاحنات الدولية فى شرق البحر المتوسط تتعلق بالتجارة أو هجوم السفن الأجنبية وسفن القراصنة على بلاد السلطان المماليكى واغتصابها الأموال والأنفس ــ فان الاجراء الذى كانت تتخذه السلطات اذ ذاك هو حبس كل التجار الأجانب ومصادرة أموالهم وحجز القناصل ، لحين عودة المأسورين ، أورد ما اغتصب ، أو تعويضهم عما لحقهم من أضرار . ومن هذا ما حدث على عهد السلطان قايتباى من غارة قراصنة البروفانساليين على ميناء الاسكندرية ١٤٧٦ وأسر تجار السلطان ومنهم ابن علية ، ولم يطلق سراحهم الا بعد عودة ابن علية الذى افتدى نفسه وزملاءه بأموال عدة (١٥٤) . وامتلأ عهد الغورى بمثل هذه الحوادث ، وفى كل مرة كان يلقى القبض على التجار والقناصل حتى تنتهى الأزمة ويطلق سراحهم (١٥٥) وأحيانا كان السلطان يرسل بعثات دبلوماسية من كبار رجال الدين المسيحيين ، للتفاوض بالطرق الدبلوماسية على حل الأزمات (١٥٦) .

---

(١٥٢) بالملحق برقم (١٨) حتى رقم (٣٠) عدد من المعاهدات خاصة بتجارة فلورنسا وامتيازات تجارهم .

(١٥٣) — Heyd, Op. Cit. p. 344.
— Depping, Op. Cit. II. p. 40.

(١٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٠ ــ ١١٥ (طبعة كالة) انظر كذلك .. ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٢٢ (طبعة بوبر) .

(١٥٥) ابن اياس : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٨/١٤٦/١٩١/١٩٩/٢٠٥ .

(١٥٦) — Depping, Op. Cit. II. p. 196. & T. I. pp. 79-80.
بخصوص هذا الموضوع انظر : ابن فضل الله العمرى : الرسالة ص ٩/١٠ . =

والواقع أن المماليك والأجانب كان يحدوهم أمل واحد هو المصلحة الخاصة لكل منهم ، فلا يكاد السلطان يحبس تجارهم وقنصلهم حتى يسارعوا بارسال البعثات الدبلوماسية ، ولا يمر العام الا ويشاهد ديوان القلعة بالقاهرة وفود الدول الأجنبية ومبعوثيهم جاءوا ينشدون ود السلطان لحل المنازعات ويطلب معاهدة جديدة . والملاحظ أن أى عداء بين السلطان وطائفة من طوائف التجار الأجانب كان يقع عبؤه على كل الأجانب وقناصلهم دون استثناء .

ومن الوظائف الاشرافية الأخرى على التجارة وظيفة « مباشرى الختم » ، وقد استحدث المماليك هذه الوظيفة لضمان استيفاء الضرائب النوعية على السلع الصادرة والواردة ورسوم الجمارك وغير ذلك ، ولمنع غش السلع . وعامل الوظيفة يتولى ختم الحمولات من البضائع ، والختم دليل على استيفائها الرسوم المطلوبة ، وأختام أخرى دليل على نقاوتها وأنها مرت على رقيب فحصها . وجماعة مباشرى الختم يوجدون فى الجمارك والأسواق العامة (١٥٧) . ومنها أيضا وظيفة ناظر الخاص وهى وظيفة قديمة ترجع لأيام الفاطميين وأن متوليها لم يبلغ من جلال القدر ما بلغ اليه فى دولة المماليك الأتراك (الجراكسة) . (١٥٨) وقد اتخذت هذه الوظيفة صفة هامة خلال حكم سلاطين المماليك المتأخرين، وصاحب الوظيفة هو الوزير المقرب للسلطان، وفى الشئون التجارية الخارجية كان يوكل اليه السلطان أمر مراعاة مطالب التجار

= خليل ابن شاهين الظاهرى : المصدر السابق ص ٤١ .
ابن حجر : أنباء الغمر جـ ٢ ورقة ٤٦٦ (مخطوطة) .
— Ziada, Op. Cit. pp. 213-214.

(١٥٧) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٣٩ .

(١٥٨) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦٧٠ – ٦٧١ .
المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٦٩ .

الأجانب وقناصلهم فيعطى تعليمات على لسان السلطان بمنع الأضرار بهم وتمكينهم من البيع والشراء بحرية والتخفيف من شدة القيود المفروضة عليهم وهو وعماله يجوبون الأسواق لمراعاة تنفيذ هذا. ويتبع ناظر الخاص وظيفة « نظر البحار الكارمى » وقد ارتبطت هذه الوظيفة بالكارمية لكثرة مصالحهم مع دولة سلاطين المماليك وترتبط ارتباطا وثيقا بتنظيمهم الادارى وتجارتهم فى البحر الأحمر ومصر . ولأهمية هذه الوظيفة فقد أضيفت لاشراف ناظر الخاص وأحيانا أخرى تنفرد عنها وذلك حسب مايراه السلطان (١٥٩) . ومن اختصاص هذه الوظيفة كذلك متحصلات مقايضات البهار ورسم البهار الوارد للطور من ميناء جدة (١٦٠) . ويقابل هذه الوظيفة فى غرب البحر المتوسط وظيفة « هيئة قناصلة البحر فى قطالونيا وفلورنسا والبندقية » وغيرها من الدول التجارية ، وتختص برعاية مصالح التجار العاملين فى المجال الخارجى بحرا ، وهى صلتهم بالحكومات ، وكان لهيئة تجار قطالونيا صفة رسمية ويعود اليها الفضل فى اعادة العلاقات التجارية بين قطالونيا ومصر على عهد الملك الفونسو الخامس ١٤١٦ ــ ١٤٥٨ والسلطان الأشرف اينال المماليكى ، بعد أن انقطعت هذه العلاقات منذ عهد السلطان برسباى بسبب تهجم القراصنة على السفن والسواحل المصرية (١٦١) .

وعلى رأس الادارات التى كانت تشرف على تجارة الكارمية ادارة عرف صاحبها باسم « مستوفى البهار والكاريم » . وقد وضع المماليك هذه الوظيفة لتتناسب مع توسع الكارمية التجارى ولتنظيم جباية الضرائب منهم ورعاية مصالحهم ، فمن واجبات صاحبها مراقبة واردات

---

(١٥٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢ .

(١٦٠) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ .

(١٦١) المجلة : العدد ٤٥ . سبتمبر ١٩٦٠ ص٤٨ ــ ٤٩ ، العدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١ ص ٨٨ ومابعدها .

متاجر الكاريم من مستودعاتهم باليمن وعدن وجدة ، وكذلك الاشراف على فنادقهم وتسهيل تعاملهم مع الوطنيين والأجانب (١٦٢) . وقد وجدت ادارات أخرى تختص بالاشراف التجارى على الكارمية ، منها وظيفة المراقب ، ووظيفة المفتش ثم موظف ثالث يختص بالزكاة من الكارمية والمراقب هو الاستادار المماليكى ويتولى هذه الوظيفة بجانب اشرافه على شئون بيت السلطان ومطابخه وغلمانه ، وهو أو من ينوب عنه يقوم بعملية مراقبة تحصيل الضرائب والعوائد على الكارمية ، ومقابل ذلك يرعى السلطان مصالحهم فى البر والبحر (١٦٣) . ويبدو أن وظيفة المتحدث هى همزة الوصل بين الكارمية وبين السلطان وهو مسئول عن كل ما له صلة بتجارتهم أيضا .

ومن الوظائف الاشرافية على التجارة وظيفة المحتسب فى الأسواق المحلية والأسواق الموسمية ، ويعمل المحتسب ورجاله على منع التلاعب فى الأسعار والموازين ، أو غش السلع . ويراعى فى اختيار المحتسب أن يكون ذا صرامة وخشونة فى الدين ، اذ أن سمعة دولة المماليك فى الخارج تتركز الى حد كبير على سلامة التعامل فى الأسواق . لذا حرصت الدولة المماليكية على ألا تتعارض مهام وظيفة

---

(١٦٢) لكل ديوان من الدواوين ناظر ومستوف ، والمستوفى من كتاب الاموال ويعاون الناظر وهو هنا يتولى استيفاء متحصلات الضرائب على البهار والضرائب الأخرى المختصة بجماعة الكارمية . بخصوص الدواوين المماليكية عامة ـ انظر القلقشندى : صبح الاعشى جـ٥ ص ٤٦٦ وبخصوص وظيفة مستوفى البهار والكاريم أنظر :

— Fischel, W., Journal, Vol. I. Part II. p. 167.

(١٦٣) — Fischel, Journal, p. 168.

وظيفة الاستادار أساسا من وظائف أرباب السيوف ويتولى صاحبها الاشراف على بيت السلطان ومطابخه وغلمانه ، ويبدو أنه قد عهد اليه عملية الاشراف على تحصيل ضرائب الكارمية وقد ضمن الاستادار محمودعلى عهد السلطان برقوق وفاء ما استدانه السلطان من الكارمية لتجهيز حملة ملاقاة تيمورلنك .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠ و جـ ٥ ص ٤٥٧ .

ابو المحاسن : النجوم جـ ٨ ص ٢٣٢ دار الكتب .

ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

الحسبة ونظامها مع القوانين والأصول التجارية المرعية ، وخاصة مع الأجانب الوافدين على أساس أن ايرادات الأسـواق من التجـارة الخارجية أصبحت مصـدرا رئيسـيا لمالية الدولة منذ افلاس النظام الاقطاعي المعتمد على الزراعة . وجرت العادة عند المماليك أن يولوا للوظيفة الرئيسية فى هذا الجهاز التفتيشى أحد العلماء من رجال القلم وأحيانا يجمع بين الحسبة والقضاء . ولو أنه فى أواخر العصر المماليكى ولى عليها أمير منهم هو « منكلى بغا الشمسى » على عهـد السلطان المؤيد شيخ « وجان بردى الغزالى » زمن « الغـورى » « وماماى المماليكى » خلال سلطنة « طومانباى الثانى » القصيرة (١٦٤) .

نقابات التجار :

أما الهيئات الأهلية المشرفة على التجارة ، فهى هيئات مهنيـة تجارية على رأسها هيئة « نقابة التجار » ، وقد عرفت هذه النقابات فى الشرق والغرب ، ففى غرب البحر المتوسط كانت « نقابة تجار القطالنة » لها الكلمة الأولى المسموعة فى التجارة الخارجية ، وهى التى دفعت الملك الفونسو الخامس لاستعادة علاقاتهم التجارية مع مصر على عهد السلطان اينال (١٦٥) . وفى جنوة والبندقية وفلورنسا وجدت هذه النقابات ، ولعل أشهر نقابات أوربا نقابة هيئة تجار الهانسا فى

---

(١٦٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٦٨ ـ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧

المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤١٥ ـ المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤ .

« عدد المحتسبين فى الدولة ثلاثة واحد للقاهرة والوجه البحرى وواحد للفسطاط والوجه القبلى والثالث خاص بثغر الاسكندرية ومحتسب القاهرة أعظمهم وله حق حضور جلسات الاستئناف العليا فى دار العدل والديوان » .

(١٦٥) المجلة عدد سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ ـ ٥٦ عدد يناير ص ٨٨ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 482-483.

— Depping, Op. Cit. I. p. 26.

شمال وغرب أوربا ودورها الهام فى نقل التوابل من البندقية ثم من لشبونة أوائل القرن السادس عشر . وأعضاء نقابات التجار هم التجار المحليون والخارجيون واقتصرت فى بداية الأمر على تجـار المدينـة الواحـدة ثم توسعت لتشمل تجارا خارجها . وأصبحت حتى أواخر العصور الوسطى الصلة بين الحكومة وهيئات التجـار ، وتطورت لتصبح صورة من صور الغرف التجارية الحالية بمعناها المهنى ، وكذلك نواد تجارية واتحـادات قومية تجـارية . وقد بدأ ظهورها منذ القرن الحادى عشر وبتوالى القرون تطورت لتشمل خدماتها التجار والشركات وأصحاب رءوس الأموال والحكومة نفسها (١٦٦) . كما أنها تسـدد عن التجار أموال الحكومة من ضرائب ورسوم جمارك . ويخضع تجار الهيئة النقابية لقوانين الدولة التى يتعاملون معها بيعا وشراء ، كما أنهم أحيانا يقصرون أعمالهم مع التجار المهنيين مثلهم ولا يتعاملون الا فى تجارة الجملة تاركين القطاعى لصغار التجـار غير المهنيين لهيئـات مماثلة (١٦٧) . ويذهب البعض الى أن نمو المدن وظهور طوائف الحرف المهنيين التجاريين صنوان . بل يؤكدون أن نقابات التجار هى وطوائف الحرف الأخرى كانت القاعدة فى التنظيم الادارى والسياسى فى الدولة، وان لم تؤيد الوثائق بالدليل القاطع وجود علاقة بين طوائف الحرف

---

(١٦٦) — Jacob, Op. Cit. pp. 444-445.

(١٦٧) «Merchants Guilds» أو نقابات التجار كلمة Guilds الانجلوسكسونية التى تعنى الدفع To pay استعيرت فى العصور الوسطى لتدل على الهيئة التى يقوم أفرادها بعمل معين فى التجارة أو الصناعة وانتشرت فى الشرق والغرب على السواء لتصبح الآن ما يعرف باسم « الغرف التجارية » ، وكانت قبلا هيئات مغلقة لايسـمح لأفرادها بالانضمام لهيئات أخـرى ـ كما خضـع التاجر المهنى المنضم للهيئـة لرقابة الحكومة حتى لا يتهرب من الضرائب وحفزهم للانضمام للهيئة ما كانوا يحصلون عليه من امتيازات مالية والتصريح بالعمل فى الخارج اذ لا تمنح التصاريح الا لأعضاء النقابة .

— Webester, Hist. of Civilization, Ancient & Mod. p. 498-500.

توفيق اسـكندر/بحوث فى التـاريخ الاقتصـادى ـ مقال لوبيز عن طوائف الحرف ص ١٦٠ .

التجارية والمجالس النيابية (١٦٨) . وفى مصر جمعت أحيانا طائفة التجار والصناع نقابة واحدة ، اذ كان الصانع يبيع ما يصنعه بنفسه ، مما أدى الى آن تمارس نقابة الحرف التجارية مهمة التفتيش لصالح الحكومة على الصناع . وعلى أية حال فان هذه الطوائف اندمجت فى اتحادات عامة ولم يبق للطوائف القديمة سوى ظل من الأثر وهذا الانتقال لم يأت فجأة ولكن تدرج تلقائيا ما بين القرنين ١٤ ، ١٥ م . ونقابة تجار الكارمية فى مصر فى العصور الوسطى مثال واضح لهذه الهيئات الأهلية المشرفة على تجارة الشرق ، وهم يكونون اتحادا طائفيا مغلقا يجمع أفرادهم ولا يقبل غيرهم . وسعوا الى تكوين هذا الاتحاد، لأن فردا واحدا مهما بلغت قدرته لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل بمفرده . كما أنها كانت تنظيما عائليا يعبر من الأب الى الابن وهم يدربون أبناءهم على هذا العمل من صغرهم (١٦٩) .

ومن هذه الهيئات الأهلية كذلك « نقابة المنتجين » ، وهى تمثل اتفاقية بين بعض التجار لغرض التحكم فى الأسعار العامة ، بالدفع أو التثبيت لتحقيق أعلى ربح ممكن للهيئة ولأعضائها ، ولو على حساب البلاد المنتجة والشعب المستهلك ، وهى التى عرفت باسم « هيئة الكارتل » ، وهى فى الواقع نوع من الاحتكارات تتحد فيها عدة شركات لمصالح أفرادها . وظهرت هذه «الكارتلات» الاتساجية فى فلورنسا وبين هيئة تجار « الهانسا » وشملت عملياتها التجارية الملح والشب وقد أصاب هذه الهيئات التدهور فى فترة الازدهار الذى نتج عن وصول السلع الشرقية بكميات وفيرة ، بأسعار رخيصة لأوربا

---

(١٦٨) — Webster, Op. Cit. p. 498.
— Henry, Higgs, Dictionary of Political Economy. Vol. II.: Matter : «Gild & gild Merchant»

(١٦٩) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ١٣٢ – ١٣٣ – ابن حجر : الدرر الكامنة جـ٤ ص ٢٠٤ – ٢٥٧ .

Fischel, Op. Cit. (Journal) p. 164-165.

أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بعد وصول البرتغاليين للهند بحرا (١٧٠) .

نظام الاحتكار التجـارى :

لعل من أهم الأسباب التى أضرت بتجارة مصر الخارجية ما لجأ اليه السلاطين الجراكسة فى القرن الخامس عشر منذ عهد الســلطان برسباى الى سياسة احتكار التجارة الخارجية بعد أن كانوا قد احتكروا بعض السلع فى التجارة الداخلية ، ويفسر هذا الاتجاه فى الاحتكار التجارى الى حاجة السلاطين الماسة الى المال لكثرة الحملات الحربية من جانب ولتعويض الخسائر المادية التى حلت بهم بسبب اختلال النظام الاقطاعى من جانب آخر . وكان على الدولة أن تعمل جهدها لتوازن ضعف انتاجها الزراعى الذى كانت تعتمد عليه كممول لماليتها ، فاتجه السلاطين المماليك الى الاشتغال بالتجارة واتبعوا سياسة الاحتــكار التجارى لتعويض هذه الخسائر . وبلغت سياسة الاحتكار أشــدها منذ عهد السلطان برسباى ، اذ احتكر صناعة السكر وتجارته الداخلية ثم تجارة الخشب والمصنوعات المعدنية (١٧١) . ثم ما لجأ اليه السلاطين من المتاجرة الشخصية فيما عرف باسم «المتجر السلطانى» وفيه تنافس السلاطين بتجارتهم أرباب الأعمال وتحكموا فى أرزاقهم وعملوا لهذه التجارة ديوانا عرف « بديوان المتجر » (١٧٢) . على أن أخطــر اتجاه اتجهته الدولة وأدى بها الى نهايتها المحتومة هو احتكارها للتجارة الشرقية مع عدم وجود الخبرة الكافية فى هذاالمجــال ، فاشــتغل السلطان وأمراؤه بالتجارة مع علمه بما قد يجره هذا من مخاطر على

---

(١٧٠) — Jacob, Op. Cit. p. 449.

(١٧١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٢٤٣ .

(١٧٢) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٤٤٤ .

الدولة . وكان السلطان الأشرف برسباى قد أغرته المكاسب فتوسع فى احتكار التجارة الشرقية ، ففى عام ٨٣٢هـ/١٤٢٩ م « أمر السلطان بتجهيز مال الى جدة ليشترى به، وحجز على الفلفل أن يشترى لغيره، وألزم جميع التجار ألا يتوجه أحد ببضاعته الى الشام ، ولا غيرها ، بل الى القاهرة ، ولا يباع الا بالاسكندرية بعد أن يكتفى السلطان.. وألزم الفرنج بشراء الفلفل بزيادة ٥٠ دينارا على السعر الواقع . فاشترى الفرنج شيئا ورجعوا بأكثر بضاعتهم وما معهم من النقد الى بلادهم ، فلم يحصل للسلطان مقصوده ، وحصل على التجار من الغلاء ما لا يوصف ، وتمادى الأمر على ذلك ، وظل يزداد فى كل سنة شدة (١٧٣) » . ولم يلبث برسباى أن حذر الكارمية من بيع توابلهم الا له ، بعد أن لاحظ التجاوب بينهم وبين التجار الفرنج ، وهو ما يمكن أن يفسر بتجاوب بين البرجوازية الكارمية والبرجوازية الغربية الممثلة فى هؤلاء التجار ، وهو بهذا الحظر يجبر تجار الفرنج على شراء التوابل من متجره وبالسعر الذى يحدده (١٧٤) . ثم ما لبث أن أصدر مرسوما أعلن فى أسواقه الكبرى فى الشام والحجاز والاسكندرية ، أن بيعها لا يكون الا فى متاجر السلطان ، وعاد الى التهديد باجبار الكارمية بشراء التوابل فيما عرف باسم « الطرح » أو « التوابل الشريفة » (على عهد السلطان قايتباى) بسعر يزيد ثلاثين دينارا للحمل من الفلفل عما اشتراه به منهم (١٧٥) .

---

(١٧٣) ينتقد ابن خلدون هذا العمل من السلاطين ... لأنه فى هذا مضايقة للتجار وتفسير ذلك أن الرعايا متكافئون فى اليسار ومتقاربون فى مزاحمة بعضهم بعضا ،واذا رافقهم السلطان فى ذلك وماله عظيم .. فلا يكاد واحد منهم أن يحصل على غرضه فى شيء من حاجاته . ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد . ويستطيع السلطان أن يسيطر على السوق بماله ، ولا يوجد من ينافسه فى شرائه ، فيبخس ثمن ما يشتريه ويرفع ثمن ما يبيعه » .

ابن خلدون : المقدمة جـ ١ ص ٢٨١ (طبعة بيروت) .

(١٧٤) صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٥ .

(١٧٥) ابن حجر : انباء الغمر جـ٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ أ .

على أن سياسة الاحتكار التى وضع السلطان برسباى أساسها، أضحت نظاما اقتصاديا سار عليه خلفاؤه من سلاطين المماليك ، حتى الغورى . وبلغ سعر الحمل من « التوابل الشريفة » السلطانية احتكار السلطان ما بين ١٢٠ ــ ١٣٠ دينارا ، بعد أن كانت تباع بالقــاهرة بسعر ٥٠ دينارا وفى الاسكندرية بثمانين ، مما ضج معه تجار الغرب، واحتجت حكوماتهم ، وعادت سفنهم عدة مرات دون شراء ما يلزمها ، اذ أن عمال السلطان كانوا يجبرونهم على شراء « التوابل الشريفة » قبل حصولهم على حاجتهم من السوق الحر وهــو أرخص (١٧٦) . وكثيرا ما كان يؤدى سوء العلاقات بسبب سياسة الاحتكار الى القبض على تجار الفرنج وقناصلهم وحجزهم فى فنادقهم ، أو جرهم الى ديوان الجمرك واجبارهم على شراء « التوابل الشريفة » أولا بالسعر الذى يحدده السلطان ، ويضطر القنصل وهيئة التجار الى الانصياع لرغبات الســلطان ، ثم تتوالى البعثــات الدبلوماسية والمفاوضات ، وفى عام ١٤٩١ م استقر الرأى على أن يباع قنطار الفلفل بثمانين دوكات، ونص على ذلك فى كل المعاهدات (١٧٧) .

والواقع أن ســياسة الاحتكار التى اتبعها المماليك لم تكن فى صالحهم ، ولا صالح الاقتصاد الوطنى ، فقد عجز المماليك عن تقــدير الضرورة اللازمة لبقاء طبقة الكارمية فى مكانها ووظيفتها كوســيلة

= شارل ديل : البندقية ص ١٤٥

— Dunbar, Op. Cit. p. 151.
— Wiet, Histoire De La Nation Egyptienne, T. IV. pp. 574-575 576.
— Mauris Op. Cit. p. 185.

(١٧٦) أبو المحاسن منتخبات من محاسن الدهور ج ٢ ص ٢٤٧ .

توفيق اسكندر : نظام المقايضة ص ٤٢ ــ ٤٤ وملاحظة ص ٤٤ (انظر الفصل الثانى) .
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 491-493 & pp. 525-526.

(١٧٧) انظر الفصل الثانى «العلاقات التجارية الخارجية» وكذلك بالملحق معاهدات تريفيزانى الغورى وملاحقها برقم ١٣ ومابعدها .

ضرورية للحفاظ على مكانتهم واستقرار الاقتصاد المصرى . ولم تسىء هذه السياسة الى الكارمية فقط بعد أن أبعدوا نهائيا عن هذه التجارة ليتولاها تجار السلاطين ، بل انها أساءت كذلك الى العلاقات بين التجار الأجانب والدولة المماليكية ، مما حدا بهؤلاء التجار الى البحث عن طريق آخر للتجارة الشرقية وتم ذلك عام ١٤٩٧م ، وان لم يكن الاحتكار هو السبب الوحيد لاتجاه الأوربيين لطريق آخر غير مصر (١٧٨) .

الراسمالية فى النظام التجارى :

يرجع المؤرخون ظهور النظام الرأسمالى فى تجارة العصور الوسطى الشرقية والغربية الى القرن الثالث عشر ، ورائده فى مصر التاجر الكارمى ، وفى أوربا التاجر الايطالى ، ويؤيد هذا الرأى غنى تجار الكارمية الفاحش ، ومعونتهم للسلاطين فى تجريد الحملات الحربية

---

(١٧٨) سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٣ .

منذ عام ١٤٥٥ والتجار الكارمية لا يظهرون بكثرة فى الأسواق حتى أنهم عام ١٤٨٤ لم تذكر المصادر عنهم شيئا وان ذكر بدلهم بعض تجار السلطان ، مثل «ابن عليبه» الذى أسره الفرنج مع بعض التجار عام ٨٨١ هـ/١٤٧٦ م .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٥ (طبعة كالة) وكذلك ص ٢٠٢ - والواقع أن الكارمية منذ ذلك الوقت وهم مجرد موظفين لدى السلطان أو مندوبين له بالاسواق يكسبون عيشهم فى ركابه بعد التحكم فى مصيرهم ، واختار السلطان بدلهم بعض أفراد من العائلات الكبيرة ، الا أن جهدهم اقتصر على حدود وظيفتهم لقلة خبرتهم ثم داهم مصر وصول البرتغاليين للهند ومنع جلب الرقيق بسبب حجز العثمانيين لهم والنزاع المسلح على الأطراف الشمالية . واقتصر عمل التجار للسلطان على الأسواق المحلية ويبرز هذا ابن اياس فى وصف مصر قبل الفتح العثمانى من أن التجار أحد اثنين اما تاجر لحوم يسعى لجلبها من البلاد المختلفة واما بائع لها يوفرها لسكان القاهرة مما يدل معه على انهيار مكانة التاجر المصرى .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٢٠ و ٣٣٩ و ٤٨٠ (طبعة كالة) .

واقراضهم بهم الأموال أحيانا (١٧٩) . وكانت فترة الحروب الصليبية بالنسبة للاوربيين أفضل فترات ثرائهم وظهور الرأسمالية البرجوازية بينهم ، وعاصرت ظهورها فى مصر على يد الكارمية الذين بجهودهم حملوا متاجر الشرق ، والايطاليون ببراعتهم نقلوها للغــرب وكــون كلاهما من البيع والشراء ثروات ضخمة. والرأسمالية البرجوازيةالغربية الممثلة فى التاجر الايطالى كافحت سياسيا ودينيا عداء البابوية لها ، وأعلن البنادقة صراحة أنهم تجار قبل أن يكونوا مسيحيين ، وفشلت جهود البابوية فى أثنائهم عن التعامل مع مصر ، كما فشلت فى أغراضها من الحروب الصليبية ، مما أكد لها أن قوة مصر دعامة لتجارتها ، وان هذه التجارة تعتمد الى حد كبير على جهود الرأسمالية الكارمية . لذا استمرت سياسة أوربا التجارية حتى أواخر العصور الوسطى قائمة على اجتلاب ود المماليك لاستمرار التجارة واستمرار الحصول على المزيد من الاعفاءات والامتيازات التجارية . ومن ناحية سلاطين المماليك فهم يستجيبون لهذا بالقدر الذى تبديه هذه الدول من حسن النية والرغبة فى المتاجرة ، بل أكثر من هذا ظلت العلاقات ودية كذلك بين الكارمية كتجار والأوربيين وهيئاتهم التجارية ، بل قامت بينهما شركات مقارضة رأس المال فيها للكارمى والجهد للأوربى (١٨٠) . وقد صاحب ظهور

---

(١٧٩) وتذكر المراجع العربية أسماء عشرات التجار الكارمية واسعى الثراء ، منهم ناصر الدين محمد بن مسلم الذى بلغ رأس ماله عشرة ملايين دينار ومات وهو لا يعرف قدرها .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٥٠ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٠٥ ـ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١٠ ص ٣٠٢ ـ ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ .

(١٨٠) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ابن حجر : الدرر الكامنة جـ١ ص ٤٠٢ .

أبو المحاسن : النجوم جـ ١٠ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

الرأسمالية فى الشرق والغرب ونموها حتى نهاية العصور الوسطى أمران : الأول تكدس رءوس الأموال على شكل نقد وسلع ثم قيام جهود مطردة للتنافس وتحسين أساليب التعامل المالى فى الأسواق . والثانى قيام حركات مضادة للرأسمالية البرجوازية التجارية فى أوربا ومصر (١٨١) . ففى أوربا وقفت البابوية موقف العداء الصريح للرأسمالية ، اذ طبقت الكنيسة تعاليم المسيحية بصورة دقيقة وحازمة ضد الرأسمالية ، فالبرجوازيون عندها يمثلون طبقة بغيضة قد لاتقل بغضا عن طبقة الكتبة والفريسيين فى عصر المسيح عليه السلام والذين طردهم من الهيكل قائلا : بيتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص . وهى فى نظر الكنيسة تمثل طبقة عباد المال بكل مساوئها ، كما أنهم طبقة نامية خطيرة بالنسبة لمركز رجال الدين السياسى الذين خشوا منهم على مركزهم السامى بين أفراد الشعب . أما فى الشرق فقد وقفت السلطات المماليكية موقف الغيرة من تجار الكارمية الذين يمثلون الرأسمالية البرجوازية ، ثم موقف المصالح الخاصة بعد أن انهار النظام الاقطاعى الذى قام عليه النظام المماليكى . وتطلع المماليك الى تجارة الكارمية واحتكارها مما أدى الى فقدانهم مراكزهم وصفتهم ليندثروا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر . ويؤرخ هذا أيضا بداية الانهيار فى التجارة المماليكية الذى أدى فى النهاية الى انهيار الدولة نفسها بعد أن وصل البرتغاليون الى الهند بحرا . الا أن ظهور البرتغاليين فى الهند والذى أنهى دولة المماليك فى مصر والشام والتى أنهت بدورها برجوازية العصور الوسطى قابلها غير ذلك فى أوربا . فان النهضة الايطالية وما صاحبها من ظهور القوميات فى أوربا وحركات الاصلاح الدينى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، قد حد من سلطة البابوية الكبيرة

(١٨١) — Poston, Op. Cit. II. pp. 320, 321, 322 324.

فى الشئون الدينية والسياسية وأوقف محاولاتها للقضاء على الطبقة البرجوازية الأوربية النشطة التى لم تندثر بل ازدهرت لتبلغ أوجها فى عصر الثورة الصناعية (١٨٢) .

المعاملات المالية فى التجارة :

النظام المصرفى :

وقد اقتضى تطور الأعمال المالية والتجارية فى العصور الوسطى ، تأكيد أهمية وجود المصارف فى المعاملات المالية وكان لمعظم الجمهوريات الايطالية التجارية فى القرن الثانى عشر بنوك ضخمة لها فروع فى كل أنحاء مراكز نشاطهم التجارى فى الشرق والغرب ، عملت على تسهيل التعامل المالى والتجارى النقدى وغير النقدى بالسندات وخطابات الاعتماد بالشيكات والاستبدال النقدى ، ومارست البندقية وجنوة هذه العمليات منذ أواخر القرن الثانى عشر (١٨٣) . كما أسهمت أشهر عائلات البندقية البرجوازية بنصيب وافر فى نمو الحركة

---

(١٨٢) الحقيقة ان البرجوازية المصرية الممثلة فى التجار الكارمية فى العصور الوسطى عجزت عن الدفاع عن نفسها أو الوقوف فى وجه انتزاع التجارة منها بعكس البرجوازية الأوربية ويرجع ذلك لعدة عوامل أبرزها قوة المماليك وتحكمهم فى البلاد ونجاحهم الرائع فى القضاء على مغول الشرق وصليبى الغرب ، وهم وان كانوا فى الحقيقة يدافعون عن كيانهم وحياتهم ومصالحهم الخاصة ، فانهم ضحوا بها بهذه الطريقة عندما أفسدوا الحياة الزراعية بعكس ما حدث فى أوربا التى استطاع برجوازيوها الدفاع عن أنفسهم ومصالحهم ضد الامبراطورية والبابوية وساعدهم فى ذلك تطور الأحداث ونمو القوميات فى أسبانيا والبرتغال التى بدأت تتفوق بحريا لتكلل هذا التفوق بالوصول للهند بحرا وتحويل تيار التجارة من البحر المتوسط للمحيط الأطلسى .

انظر : صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢ .

(١٨٣) «من ذلك أيضا أن البابا انوسنت الرابع عهد الى بنك البندقية عام ١٢٦٤ فى تحويل مبلغ ٢٥٠٠ مارك فضة لأحد رجال الطبقة الوسطى البرجوازية فى فرانكفورت» .

— Depping, Op. Cit. II. pp. 175.
— Maillet, Op. Cit. p. 138.

الاقتصادية التي شملت العالم في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى من بينها بيوت الأخوة مورسيني أكبر بيوتات التجارة في البندقية ، وعملت بنشاط فروعها في الشرق على تطوير عمليات المصارف والتعامل المالي ، فكان لها فروع في قبرص وبيروت وحلب ودمشق (١٨٤) .

وأسهم الجنويون واللومبارديون، وكذلك الفلورنسيون في مصر والشام والدولة البيزنطية والدولة العثمانية في هذه العمليات المصرفية، وفي الوظيفة المصرفية بنشاط وافر ، فكانوا يستبدلون العملات ، ويتاجرون في التوابل والسلع الأوربية بالنقد والأجل ، ويتقبلون الودائع وصكوك «شيكات» الدفع ويتساهلون في منح القروض ، للعملاء (١٨٥) . واعتبرت عمليات الصياغة واستبدال النقد كذلك بداية الأعمال المصرفية ، حتى انه أواخر العصور الوسطى عرفت أنواع من الشيكات والحوالات المالية تسحب مقابل ودائع معينة من المعادن الثمينة (١٨٦) .

ولم تكن الأعمال المصرفية حدثا جديدا بشرق البحر المتوسط ، فقد عرفت منذ أن كان للمسلمين دول ، وفي الشام والعراق ومصر . فكان لبلاط الخليفة أو السلطان صرافان رسميان ، في حين أن النظام المصرفي في أوربا لم يتطور الا خلال الحروب الصليبية بعد أن نقله الأوربيون عن الشرق العربي (١٨٧) . وقد لاحظ الرحالة ناصر خسرو

---

(١٨٤) شارل ديل : البندقية ص ٦٥ .

(١٨٥) — Jacob, Op. Cit. p. 443.
— Allan, Op. Cit. p. 279.

* من أشهر هذه المصارف في فلورنسا Bardi & Peruzzi وفي البندقية Tiepolo وفي جنوة بنك St. George الذي كان أعظم بنوك العصور الوسطى قاطبة وخاصة بفروعه على البحر الأسود .

(١٨٦) — Horn, Op. Cit. p. 82, 83.

(١٨٧) — Fischel, Jews in the Economic .... p. 12.

فى القرن الثانى عشر حين أشاد بمدينة أصفهان أن بها ما لا يقل عن مائتى صراف رآهم فى سوق لهم يسمى سـوق الصرافين (١٨٨) .
وكان التعامل المالى بها يجرى على يد الصيارف ، فيعطى التاجر المال للصراف ، ويحصل منه على صك بما دفعه ، وكلما اشترى بضائع سدد ثمنها بهذه الصكوك محولة على الصراف ، وهى ما تعرف الآن باسم الشيكات المحولة . ويبدو أنها كانت أرقى ما وصلت اليه المعاملات المالية فى الدول والولايات الاسلامية (١٨٩) . وقد نقل الأوربيـون هذا النظام ليتطور الى نوع من التعامل المالى الأرقى ، وفيها يضمن المتعامل وصـاحب رأس المـال حقوقه بلا عناء ، ومن هذه الأنواع السفتجات المتطورة وخطابات الضمان والسندات وأذون الدفع (١٩٠) .
كما أنهم كانوا يسجلون هذه الأوراق المالية لدى الموثقين العموميين فى سجلات التوثيق ، والوثائق التى وصلت الينا من العصور الوسطى تعطينا فكرة عن نظامها ، فهى تارة بخط أصحابها، وتارة بخط الموثقين.
وقد لجأ أصحاب العمليات المالية الىالموثقين الرسميين لكتابة سنداتهم، برغم معرفتهم الكتابة ، حتى تكون الصيغ القانونية خالية من الأخطاء، وغير قابلة للطعن أو النقص (١٩١) . وقد عرف الشرق منذ وقت بعيد نظام دفاتر أو سجلات الحسابات ، بل ان القضاء الاسلامى اعتبر دفاتر الماليين حججا على أصحابها من تجار وصيارف لاتقبل النقض (١٩٢)

---

(١٨٨) ناصر خسرو : الرحلة ص ١٢٨ .

(١٨٩) متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢١ .

(١٩٠) — Lopez, Op. Cit.

عن الكمبيالات وثيقة ١١٨ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ عن خطابات الضمان الائتمانية وثيقة ١١٩ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ وعن السندات وثيقة برقم ١٢٠ ص ٢٣٤ وعن أذون الدفع وثيقة برقم ١٢١ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ وثيقة ١١٧ ص ٢٢٩/٢٣٠ .

(١٩١) ص ٢٣١ وثيقة ١١٥ ، وثيقة ١١٧ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ .
— Lopez, Op. Cit. pp. 229, 230. 231

(١٩٢) ابن حجر : انباء الغمر جـ ٢ ص ١٣٢ .

وقد ساد شرق البحر المتوسط التعامل بالسندات المالية والقراطيس، بعد أن بدا للناس أنها أفضل الوسائل لحماية أموالهم التى جنوها من التجارة وخاصة الشرقية. وكانوا يخشون فى كثير من الأحيان مصادرات الولاة لهذه الأموال فيما عرف فى العصور الوسطى باسم « مصادرة الربح الخاص » وانتشر هذا النوع من المصادرة فى مصر المماليكية، وخاصة فى القرن الخامس عشر، لحاجة السلاطين الى الأموال للحرب أو لتقويم النظام الاقطاعى . فعمد الناس الى ايداع أموالهم لدى كبار التجار للمتاجرة فيها ، وهؤلاء التجار هم فى نفس الوقت القائمون بالعمليات المصرفية ، ولهم مباذ خاصة بهم هى المصارف . ويمسك المصرفيون دفاتر خاصة بالحسابات الرسمية للحكومة وغير الرسمية للعملاء (١٩٣) ومن أشهر صرافى العصور الوسطى فى الشرق الاسلامى : اليهوديان يوسف بن فنياس وهارون بن عمران (١٩٤) . ومن هذه الأنواع أيضا نظام «السندات المالية المحولة للغير» التى اقترن ظهورها بزيادة النشاط التجارى ، وكان المسلمون أسبق من الغربيين فى استخدامها وسندات هذا النوع قد تكون مؤجلة الدفع ولكن ترد دفعة واحدة . وقد تكون مقسطة وهنا تدخل ضمن نظام « خطابات الاعتماد الائتمانية » وردها مقسطة يتطلب استخدام الشيكات المصرفية المعروفة باسم السفتجات . وهذه الطريقة المالية - بالاضافة الى صفتها المصرفية - فهى أضمن طريقة لحفظ المال من الضياع أو المصادرة ، ويتولى هذه العمليات المصرفيون . وأصبح بامكان التجار ايداع مالهم لدى صيارف البنوك ويحصلون على سندات بقيمتها واجبة الدفع ، للمكان القاصدين اليه . ولعب اليهود فى هذا المجال دورا هاما ، بل انها كانت فى غالب الأحيان من أهم اختصاصاتهم

---

(١٩٣) ابن حجر : نفس المصدر والورقة ، وكذلك انظر
— Lopez, Op. Cit. p. 213. DOC. 103.

(١٩٤) — Fischel, Op. Cit. pp. 12-13-14.

لمعرفتهم باللغات الشرقية والغربية ، ثم مارسها عنهم العرب حتى أواخر العصور الوسطى . وتعدت هذه العمليات النواحى التجارية الى المعاملات المالية الشخصية [١٩٥] . وفى مصر استخدم تجار الكارمية هذه الوسيلة فى المعاملات المالية والتجارية ، وعرفوا التعامل بالنقد والائتمان المصرفى فى نقل الأموال ، وعقد القروض للسلاطين فى مصر ، والملوك فى اليمن ، وفى بلاد التكرور [١٩٦] . واستلزمت عملياتهم المالية والتجارية ايجاد « مصرف عام » لهم [١٩٧] . وفندقهم بالقاهرة يقوم بهذه العمليات المالية ، كما كان فندق بلال يؤدى هذه الوظيفة فى حدود معينة [١٩٨] . كما كانت بنوك الكارمية تمنح القروض للسلاطين [١٩٩] والأفراد [٢٠٠] . لقاء خطابات الضمان ،

---

(١٩٥) — Fischel, Ibid, p. 17.

(١٩٦) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٧١ و ٢٧٢ (دار الكتب) .
ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤٠٥ .
— Fischel, Journal, Op. Cit. p. 170.

(١٩٧) — Fischel, Op. Cit. Journal, pp. 169, 170 & Ency. Of Islam, II, Art. Egypt.

(١٩٨) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٥٠ ومابعدها وبخصوص فندق بلال يذكر المقريزى ان أرباب الأموال كانوا يودعون فيه سلعهم وأموالهم ويقول «كنت أدخل فيه فاذا بداره صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ولا يفصل عنها من الفندق سوى ساحة صغيرة بوسطه تشتمل على صناديق من الذهب والفضة ما يجل وصفه » .

(١٩٩) اقرض الكارمية « برهان الدين المحلى » و «شهاب الدين مسلم» و «نور الدين الخروبى» السلطان برقوق مليون درهم لمدافعة تيمورلنك ١٣٩٤ واستلموا من بيت المال صكوك ضمان بالمبالغ على خزينة الدولة على هيئة صكوك أو مساطير كتبها بخطه وبضمانة الاستادار محمود بن على .
أبو المحاسن : النجوم جـ٦ ص ٢٧٧/٢٨٦ (طبعة بوبر (كاليفورنيا) .
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .
ابن حجر : أنباء الغمر جـ ١ ص ٣٦٥/٣٦٦ .

(٢٠٠) حجز السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ١٢٨٧/٦٨٧ م بعض أثرياء دمشق الى القاهرة وألزمهم بدفع غرامات ضخمة ورفض اطلاق سراحهم الا بعد الدفع ولما كانوا لا يملكون المال المطلوب وخوفا من أن يعودوا الى دمشق ويتهربوا من الدفع حث السلطان تجار الكارمية على منح قروض ضمان بالمبلغ لهؤلاء التجار على أن يردوها لهم لدى =

كما تضمن هذه البنوك عمليات المقارضة بين الكارمية والأجانب (٢٠١)

وعرفت كذلك عمليات التمويل التجارى بالسندات المالية « المؤجلة الدفع » على آجال طويلة أو قصيرة ، فقد لجأ التجار المصريون والشاميون الى هذه العمليات ، لامكان استغلال جزء كبير من رءوس أموالهم فى التجارة ، ويتم التسديد فى معظم الأحايين بعد البيع ، وقد اقتبسوا هذا النظام من تجار الغرب الوافدين الى مصر والشام ، ويرد التاجر أصل المال وربحه بعد البيع وضمانا لصاحب رأس المال المقرض ، فانه يسحب شيكات أو سفتجات على المقترض ، ويقوم بعملية تحصيل المبالغ المطلوبة الصيارف لقاء مرتبات أو عمولة (٢٠٢) وهذا النوع من الشئون المصرفية لم يقتصر على أفراد الشعب ، بل انتفع به رجال الدولة الذين لجئوا الى المصارف والتجار للاقتراض بآجال طويلة وبالقسط مع فائدة معينة ، وصاحب رأس المال هنا أيضا يعطى الصراف الأذونات ليقوم بتحصيلها لحسابه

= عودتهم لبلادهم . ودفع الكارمية المبلغ بعد أن حصلوا على صكوك بمديونية لصالحهم من هؤلاء التجار والزمهم القاضى بكتابة هذه المساطير بالمبالغ المقترضة خوفا من الا يؤدون ما اخذوه بعد عودتهم .

(٢٠١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢٠٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور (مخطوطة) ص ٣٣٢ انظر ماقبله ملاحظة ٤٠ .
— Maillet, Op. Cit. p. 142.
— Maurice, Op. Cit. p. 187.

المصرفى هو فى الشرق الاسلامى الجهبذ وجمعها جهابذة وهو خبير المال ، والتجارة معا وهو يكتب الشيكات والسفتجات ويتقاضى على قيامه بالعمل المصرفى عمولة بمعدل درهم لكل دينار ونسبتها حوالى ٦٦ر٦٪ ويرجح أن السفتجات التى يكتبها الجهبذ ، وتختص بالدفع المؤجل ، هى التى تعرف الآن باسم (الشكك Shukuk) ومنها كلمة شيكات Cheques
— Poston, Op. Cit. II. p. 285.
— Fischel, Jews .... pp. 24-25.

يذكر الدكتور عبد الرحمن فهمى : «النقود العربية ، ماضيها وحاضرها ص ٨٣» ان الظروف المالية استدعت تداولا أسرع واعظم للعملة فابتكرت الأوراق المالية الخاصة بقيد ما للعميل من حساب فى المصارف credit وصار للهيئات مصارف للايداع والتسليف واستعملوا لذلك الصكوك : الصك كلمة عربية من أصل فارسى أخذها الأوربيون من العرب فاصبحت فى الانجليزية باسم Check .

نظير جعــل معين ويســتفيد من هــذه العملية المقــرض والمقترض والمصرفى (٢٠٣) .

وعرف كذلك فى العصور الوسطى نظام بنوك الودائع للتسليف على ودائع عينية وبضامنها ويلجأ اليها التجار اذا احتاجوا الى أموال اضافية لتجارتهم . ووجدت أمثلة منها فى برشلونة وجنــوة وفيرونا بايطاليا (٢٠٤) . وفى مصر كان فندق بلال يقوم بهــذه العملية الى جانب وظائفه المالية الأخرى ، ووظائفه التجارية والاسكانية (٢٠٥) .

وبخصوص الفوائد على المبالغ المقترضة للاســتثمار التجــارى أو القرض بصفة عامة فان قوانين الكنيسة كانت تحرمها فى أوربا فى العصور الوسطى ، الا أن المتعاملين كانوا يتحايلون لتفادى قرارات التحريم فضمنوا عقود الصرف أرباحا مستترة ضمن المال الواجب دفعه كأنه أصل الدين ، وبهذه الوسيلة لا يمكن معرفة قيمة الفوائد . وزيادة فى الحرص كان يذكر فى العقد المبلغ الواجب دفعه خارج الوطن والمبلغ

---

(٢٠٣) «استدان الوزير العباسى على بن عيسى مبلغا من المال من بعض التجار على هيئة قرض قيمته ١٠٫٠٠٠ دينار ، وكان الضمان هو خطابات أو اذونات تحويل «سفتجات» تدفع فى مواعيد محددة من كل شهر بفائدة ١٪ من الفضة لكل دينار بحيث تصل الفوائد شهريا الى ٢٫٥٠٠ درهم وقد تم الاتفاق على ذلك بحضور اليهوديان المصرفيان الجهبذان يوسف بن فنياس وهارون بن عمران صرافى القصر ووكلائهما ومدة القرض ١٦ سنة فى حياتهما وبعد موتهما» .

— Fischel, Jews, Ibid, pp. 21-24-25-26.
— Poston, Op. Cit. II. p. 287.

(٢٠٤) بلغت أرباح القروض فى فيرونا عام ١٢٢٨ م ١٢٪ وفى مودينا ١٢٧٠ م ٢٠٪
— Allen, Hist. of Civilisation, p. 379.

وكذلك انظر عقد ايداع وثيقة رقم ١٠٣ من لوبيتز ص ٢١٣ .

(٢٠٥) يذكر المقريزى أن فندق بلال كان مصرفا للودائع كذلك ــ انظر قبله وكذلك المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ١٥٠ وما بعدها .

الذى يستحق داخل الوطن لتفادى ما يحدث عند تغيير العملة ، وفى كلتا الحالتين يستتر الربح أو الفوائد ضمن أصل المبلغ المطلوب رده (٢٠٦) . وفى الشرق الاسلامى تحرم الشريعة الحصول على فوائد للأموال المقرضة ، وان كانت تجيز الربح المشترك فى الأموال المستثمرة فى التجارة ، وتحرم العقيدة تحريما قاطعا أرباح الربا مهما تكن أو التى يشتم فيها رائحة الربا المستتر . وقد ورد فى كتب بعض الفقهاء فى الدولة العربية الاسلامية أنه ليس عيبا أو محرما أن يدفع أحد الأفراد اضافة المال عليه بشرط أن يكون ذلك بمحض اختياره ، ولا يفرض عليه أى كتابة . ومع ذلك ظلت الاضافات قائمة على فوائد الأموال المقترضة ، وتشدد البعض ليشمل التحريم كذلك فوائد القرض المستثمر فى التجارة ، وان كان الغرب المسيحى اعتبر أن ربح رأس المال المقترض للاستثمار التجارى أمر لا غبار عليه ، ونال التجار فوائد لأموالهم ، فى حين أن اليهود لم يقيموا هذه الاعتراضات على المبالغ المقترضة سواء أكانت للأغراض الشخصية أم للاستثمار التجارى (٢٠٧) . وذكر مثلا أن أحد الأثرياء يعطى للتاجر مبلغا من المال ليتاجر به ، أو يعهد اليه بتجارته لتسهيل تسويقها ، ويكتب عليه الصك أمام الكاتب العمومى الرسمى (وهو يقابل الموثق فى الغرب) ــ وله صفة رسمية ، ويبدأ التاجر فى المتاجرة أو توزيع السلع المعهود اليه بها ، ويمر عليه صاحب المال يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو أى وقت

---

(٢٠٦) — Lopez, Op. Cit. pp. 162-163 & 169.

وثيقة ٧٥ ص ١٦٥ ووثيقة ٧٦ ص ١٦٦ وثيقة ٧٧ ص ١٦٦ وثيقة ٨٠ ص ١٧١ وكذلك وثيقة ٧٢ ص ١٦٢ وكذلك وثيقة ٧٣ ص ١٦٤

متز : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ .

(٢٠٧) — Poston, Op. Cit. II. p. 286.

عند العرب يباح ربح المتاجرة فى عقود المضاربة أو القراض والتى فيها يدفع احدهما مالا يتجر به الثانى والربح بينهما بالنصف أو الثلث او الربع ويسجلون هذا فى عقود توصية ، أما اذا كان الربح كله لصاحب راس المال والخسارة عليه فالشريك بالجهد أجير ، ولا تعتبر مقارضة ولا مضاربة ، بل هو وكيل لصاحب راس المال بالأجر .

الجزرى : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة . جـ ٣ ص ٤٣ .

يحدد فى الصك ليحصل على نسبة من الأرباح ، وكانت تتراوح أحيانا ما بين ٧ر١٢٪ من أصل رأس المال ، وعند توافر المبلغ يرد لصاحبه نقدا أو مؤجلا بأقساط السفتجات (٢٠٨) .

وبخصـــوص الأموال المقرضة للاســـتثمار التجارى ، فقد انتشر نظامها فى شرق البحر المتوسط وغربه فى العصور الوسطى وهو ثمرة التطور البطىء فى النظم التجارية والمصرفية الوسيطة وعرف نظامها باسم نظام « عقود التوصية » وعقــد التوصية يحمــل فى طيــاته معنى « الشركة » ، وان كان أقرب ما يكون للقروض العادية ، والعلاقة بين الطرفين تشبه العلاقة بين « المقترض والمقرض » ويحدد العقد لمدة رحلة واحدة وينتهى بعد اعادة المبلغ ، وتقسم الأرباح والخســائر بنسب حســب ما يتفقان عليه . وعقود التوصية فى العصور الوسطى شرقا وغربا ، كان الشريك الأول فيها يشترك برأس المال كله ، والشريك الثانى يشترك بالجهد ، وسادت نسب الربح فى فترة ما ٢ ــ ٣ ، والأكثر للتــاجر الشريك المتنقــل ويكفى الآخــر رأس ماله وربح معقــول (٢٠٩) .

---

(٢٠٨) متز المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ــ وصل الربح فى بعض المناطق حوالى ٢٠٪ ومارسه اليهود والمسيحيون وبعض المسلمين .

وبخصوص التاجر الذى يعهد بتجارته لسماسرة لتسويقه قصة الشاب الذى نزل قيصرية جركس وقابله شيخ السماسرة ونصحه بان يعهد بتجارته للسمسار ويســتخدم كاتبا وشاهدا وطوافا ويحصل على أرباح تجارته يومى الخميس والاثنين من كل أسبوع نظير عمولة لكل مستخدم منهم ويحصل هو بعد ذلك على رأس ماله وربح بنسبة قطعتين من الفضة لكل قطعة . ــ لين بول : سيرة القاهرة ص ٢١٩ .

— Clerget, Op. Cit. p. 307.
— Maurice, Op. Cit. p. 187.
— Lopez, Op. Cit. p. 174.

(٢٠٩) — Maillet, Op. Cit. pp. 136-137.

يذكر الجزيرى : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة جـ ٣ ص ٤٣ « أن المضاربة أو القرض تعنى أن يدفع شــخص مالا لآخر ليتجر فيــه على أن يكون الربح بينهما على ما شرطا ، والخسارة على صاحب رأس المال ..» «وعند الفقاء هى عقد بين اثنين» يتضمن أن يدفع =

ويرجع انتشار النظم المالية هذه فى التجارة بشرق البحر المتوسط — الى أن السلطات كانت لا تسمح للأجانب بالبقاء فى ولاياتها مـدداً طويلة ، واتبعت الدولة البيزنطية مثل هذا أحيانا بالنسبة للمسيحيين الغربيين الكاثوليك ، لذا لجأ أصحاب رءوس الأموال وكبار التجار الى وسيلة « المقارضة » فى شكل عقود توصية كوسيلة لاسـتثمار الأموال ، وظلت هذه الوسيلة قائمة طوال العصور الوسطى ، وفى أواخرها لم يعد يسمح للتاجر الا برحلة واحدة كل عام تقريبا . خشية ضياع أمواله ، وكذلك للاقلال من الخسائر التى تتعرض لها السفن أو التجارة بالطريق ، لهذا لم يكن بوسع التجار انشاء علاقات تجارية دائمة بهذه العقود (٢١٠) . ومن أنواع هذه العقود . عقد التوصية ذى الجانب الواحد » ويعرف « بعقد التوصية الأصلى » والشركاء فيه اثنان : صاحب رأس المال والتاجر المستثمر ونسبة الربح ٣ — ٤ لهما واستخدم البنادقة هذه العقود بكثرة فى تجارتهم مع شرق البحـر المتوسطة (٢١١) . والنوع الثانى يشترك فيه التاجر المتجـول بثلث

= أحدهما للآخر مالا يملكه فيتجر فيه بجزء شائع معلوم من الربح كالنصف ، أو الثلث، أو الربع ، أو نحوهما ، بشرائط مخصوصة .

انظر قبله ملاحظة ٢٤ وعقد الشركة بين الكارمى والفرنجى عقد مقارضة .

المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

وهو نوع من أنواع عقود التوصية باسم Commanda Contracts

(٢١٠) — Poston, Op. Cit. II. pp. 324.

— Lopez, Op. Cit. pp. 175-176.

(٢١١) — Lopez, Ibid, pp. 175-176.

وثيقة (٨٥) ص ١٧٩ عن عقد توصية ذى جانب واحد) .

وثيقة (٨٩) ص ١٨٢ وفى الشرق العربى اصطلح عند الشافعية امكان استقلال الشريك الوكيل بالتصرف فى العمل حسب المصلحة وان عقد المقارضة لا يوقت بمدة معلومة بعكس الغرب حيث كانت العقود لرحلة واحدة والحكومات لا تصرح باكثر منهـا خشية مخاطر الطريق . انظر

الجزرى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٣ .

ومعروف فى الغرب الأوربى فى الرحلات البرية باسم Societas Terrea والرحلات البحرية باسم Societas Maris. ولكل منها عقود معينة وفيها يبقى صاحب رأس المال فى بلدته ويقوم بالجهد برا وبحرا الشريك المتنقل « انظر قبله ملاحظة ٢٥ » .

رأس المال المستثمر وصاحب رأس المال بالثلثين ، والأرباح هنا بنسبة رأس المال لكل منهما أو مناصفة ، كما يتحمل كلاهما الخسائر ، ويعرف هذا النوع باسم « عقد التوصية » ذى (الجانبين) واستخدمه بكثرة تجار جنوة فى تجارتهم مع شرق البحر المتوسط (٢١٢) . ويعمد أصحاب رءوس الأموال الى استغلال أموالهم بالعقود الفرعية والعقود المزدوجة لأكثر من تاجر فى أكثر من مكان (٢١٣) .

وبخصوص تحويل الوحدات النقدية اشتغل الجهابذة فى الشرق ومراقبو النقود المحترفون فى الغرب باستبدال هذه الوحدات بما يعادلها من وحدات نقد أخرى . ويتقاضون فى ذلك عمولة درهما لكل دينار ، أى بنسبة ٦٦ر٦٪ وهم بذلك يقومون بأعمال المصارف فى حدود معينة (٢١٤) .

---

(٢١٢) — Lopez, Op. Cit. pp. 174-170.

وثيقة رقم ٨٥ ص ١٧٩ — عقد التوصية ذو الجانب الواحد يعرف باسم Collegentis وعقد التوصية المشترك ذو الجانبين يعرف باسم وثيقة رقم ٨٤ ص ١٧٩ . Societas

(٢١٣) — Lopez, Op. Cit. p. 176 & p. 182 DOC. 89.

ظهرت بعض أنواع غريبة من العقود شاعت فى تجارة البحر المتوسط ، وتبدو غرابتها فى حد ذاتها ، أما لصفتها القانونية الغريبة واما لنواحى النشاط التى استخدمت فيها . ومن هذا النوع من العقود والاتفاقيات اتفاق بشن حروب خاصة كأحد أنواع النشاط الاقتصادى ، فكان يجوز للأفراد امتلاك سفن حربية خاصة بترخيص من الحكومة لغرض شن الحرب بها على العدو وسلب تجارته وسفنه التجارية كما يفعل القراصنة . والواقع أن القرصنة فى العصور الوسطى — كاحدى وسائل اغتصاب ما يملكه الغير — هى فى كثير من الأحيان نوع من أنواع النشاط الاقتصادى ، فكان يجوز للأفراد امتلاك سفن حربية لهذا الغرض . ان حياة المغامرة التى كان يحياها القراصنة كانت فى الواقع لونا من الوان المشروعات الاقتصادية ، بل ان أعرق القراصنة كانوا رجال أعمال ومن المحاربين فى نفس الوقت ، وكان أغلبهم يتنقل بين القرصنة والتجارة المشروعة ولدينا وثيقة من القرن ١٣ تدل على أنه كيف كان تمول حملة من القراصنة وكيف كان الممولون ينالون أرباحهم عنها .

— Lopez, Op. Cit. p. 221 & DOC 109. pp. 222, 223.

(٢١٤) عملية الاستبدال النقدى لا تحتاج لعقود طالما أنها تستبدل من يد ليد وفى مكان واحد — وقد تحول الصراف فى بعض الأحيان الى مقرض نقود وبضمان الودائع ، وهو يقوم بأعمال البنوك فى نطاق ضيق ولذا كان فى حيازته دائما مبالغ ضخمة لمواجهة طلبات =

تنظيم طرق المحاسبة فى التجـارة :

واستلزم التوسع التجارى فى العصور الوسطى وازدياد حجـم التجارة بين الشرق والغرب الى ايجاد نظام دقيق للمحاسبات التجارية . وقد عرف هذا النظام بطريقة مبسطة فى الشرق ، الا أنها كانت أساسا لما عرف فيما بعد باسم « دفاتر الأستاذ » ، فعرف الـكارمية هذه الدفاتر لتنظيم حسابات تجارتهم ، وذلك قبل الحمـلات الصليبية ، واعتبر القضاء الاسلامى دفاتر الماليين حججا على أصحابها من تجار وصيارف وسماسرة . كما كان للخلفاء والسلاطين كتاب يمسكون لهم حساباتهم ، وكذلك للأفراد التجار العاديين (٢١٥) . ومنذ أواخر القرن الرابع عشر وتنظيم المحاسبة يشمل حســاب الدائن والمدين ، ويقيد حساب كل منهما منفصلا عن الآخر فى دفاتر الأستاذ ويخصص لكل عميل من عملاء التجار حساب خاص فى الدفتر ، ثم أضيفت فيما بعد بيــانات عن الحسابات غير الشخصية ورءوس الأموال واعتبر بداية لظهور هذه المحاسبات المزدوجة . وفى الغرب يقال ان بداية ظهــور هذا النظام الحسابى كان فى جنوة وتسكانيا منذ أوائل القرن الرابع عشر ، وكان بمدن ايطاليا الأخرى دفاتر حساب أستاذ مشابهة ترجع الى ما قبل هذا القرن ، وان كانت الممالك الأخرى أبطأ فى استعماله . وهذا السجل فى حد ذاته وثيقة متماسكة الأجزاء كوحدة واحدة «

= الصرف المتزايدة وخاصة فى المدن التجارية والوكالات واصبح الصراف يعرف بحكم مهنته باسم Banker أو Bankererius من الكلمة اللاتينية . Bancum وكذلك Trapezita من الكلمة Trapeza الاغريقية وهى التى كان الصراف يضع عليها نقوده وفى الشرق قام الجهابذة بهذا العمل والأقراض ، بالأرباح والودائع والمتاجرة بالعقود والشيكات وربحه هنا درهم لكل دينار بنسبة ٦٫٦٦٪ .

وثيقة ٧٣ ص ١٦٤ من Lopez وكذلك

— Poston, Op. Cit. II. pp. 286.

(٢١٥) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٨٢ .

— Ahurice, Op. Cit. p. 187.

وكانت الشركات والبنوك الكبرى من أوائل القرن الرابع عشر تعمل على استخدامه وتحسين وسائل استعماله (٢١٦) .

الضرائب التجارية :

وتعددت الضرائب المفروضة على عصر المماليك الذين قسموا موارد بيت المـال الى موارد شرعية وأخـرى غير شرعية ، والضرائب على التجارة الداخلية والخارجية ، وخاصة ضرائب الثغور على التجـار الواصلين للبلاد ، وضرائب دار سك النقود على العملة الخام الواردة للسك والمواريث الحشرية ، وخاصة لمن يقضى من التجار الأجانب فى مصر بلا وريث واعتبرت من المـوارد الشرعية للدولة ، كما كانت الايرادات الشرعية تشمل كذلك ما يتحصل من احتكار معادن البلاد وما يتأتى من المتجر السلطاني .

ويتصل بالتجارة فى هذا النوع من الضرائب ما يدفعه التجار على ما يدخلونه الى البلد من ذهب وفضة والضريبة هنا حوالى ٢٪ أو ٢ ١/٣٪ فى بعض الأحايين وقد نص فى المعاهدات مع طوائف التجار الأجانب على وصول كميات معلومة من الذهب والفضة والنحاس لدار سك النقود ، وخصت الحـكومة هذه الكمية من المعدن بضرائب جمركية قليلة « تقل عن الضريبة المفروضة على السلع الأخرى » ، كما فرضـت ضرائب نوعية على سبائك الذهب اذا أعطاها أصحابها

---

(٢١٦) Clive, Op. Cit., p. 93.
Jacob, Legacy, pp. 442-443.
Lopez, Op. Cit., pp. 359-360 and pp. 47-377.

« الف بنيدتوكورتوجلى مؤلفا يشرح فيه عملية القيد بدفتر الأستاذ واليومية وتدل نصوص القيد بالدفتر على نوع من السجلات الراقية التنظيم والدقيقة والتى كانت أساسا للنظم الحديثة فى المحاسبة . وقد الف عام ١٤٥٨ وطبع عام ١٥٧٣ ـ انظر لوبيز : السابق ٣٧٦/٣٧٧ .

لدار سك العملة لتضرب دنانير عربية لحسابهم بعد ضبط عيارها (٢١٧) .

ومن المصادر الثابتة : الأموال التى تدفع للسلطات على هيئة زكاة واجبة ، ودفعها تجار الكارمية دون تذمر أو ملل لتقديرهم السليم لرعاية السلطات المماليكية لهم ولتجارتهم فى البر والبحر ، وضرائب أخرى على أهل برقة الواردين للبلاد بالأغنام والابل عند وصولهم الى البحيرة للرعى (٢١٨) . ثم ضرائب على السلع الواردة الى جمرك الاسكندرية الخاص بالمغاربة ، بالاضافة الى زكاة يدفعونها دون أن يسأل صاحب السلعة هل حال عليه حول أم لا (٢١٩) .

ومن الأبواب الثابتة فى ايرادات الدولة ضرائب جمارك الاسكندرية ودمياط والقاهرة وعيذاب وجدة ، وكلها تتراوح ما بين ١٠ ــ ٢٥٪ من قيمة البضائع الواردة ، وبلغ ما جبى من بعض السفن حوالى أربعين ألف دينار (٢٢٠) . وتخفض الضريبة الى النصف على تجار المسلمين والمغاربة . وترفع نهائيا اذا وجد أن بلاد المسلمين فى حاجة الى نوع معين من السلع المستوردة (٢٢١) .

---

(٢١٧) توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ــ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧ ص ٣٨ .
سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٤ ــ ٢١٥ .
المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٤٤ .

(٢١٨) حصل صلاح الدين الأيوبى من تجار الكارمية على زكاة أربع سنين مقدما .
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٣ ، ٧٤ ــ أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ ص ٥١ ــ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٩ وما بعدها .
Fischel, Journal, p. 168

(٢١٦) ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ انظر قبله فى نظام الجمارك وضرائبها .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦١ ــ المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٥١٠ ــ ٥١١

(٢٢٠) المقريزى : جـ١ ص ١٠٩ .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٥٩ ــ ٤٦٠ .

(٢٢١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٣ .

آما مال من يورث وليس له وارث من الوطنيين والأجانب فيحمل ارثه الى بيت المال . وقد نص فى جميع المعاهدات على أن تنفذ وصية التاجر الافرنجى الذى يموت بالبلاد فتئول تركته الى قنصله ، والا فتصادر لحساب الدولة . وقد عرف باسم « المواريث الحشرية » ، ولها ديوان وناظر يولى من قبل السلطان (٢٢٢) .

ويتصل بالضرائب على التجارة موارد غير شرعية ، ويقصد بها المكوس ، وهى ليست لها سند شرعى ، انما ورثوا فرضها من عصور سابقة ، وتعرف فى المراجع المعاصرة العربية بهذا الاسم . وتحصل لديوان السلطان ، أو لأصحاب الاقطاعات ، ومنها ما يؤخذ فى الثغور البحرية والعربية على التجارة الواردة من الخارج . ومنها كذلك مكس القوافل التجارية ومكس البهار ، ومكس الفنادق وخاصة فندق القطن، وكانت زمن المقريزى تبلغ حوالى سبعين آلف دينار ، كما كانت تحصل ضرائب على التجارة العابرة (٢٢٣) وقيل فى وقت ما ان الحكومة كانت تجبى ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن ، وتفرض رسوما كذلك على التجارة المارة بالحجاز ، ومنها مقايضات البهار ورسم البهار الوارد للطور من جدة (٢٢٤) . وقد ظلت الضرائب هذه حتى نهاية عصر المماليك (٢٢٥) .

---

(٢٢٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٣ .
ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ .
(٢٢٣) سفر نامة : ناصر خسرو ص ٧٢ ترجمة يحيى الخشاب .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٨ ــ ٤٧١ .
المقريزى : المواعظ جـ ١ ص ٨٨ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٦
سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ .
وانظر قبله ملاحظة ١١٨ .
(٢٢٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .
(٢٢٥) ابن مماتى : قوانين الدولة ص ٣٢٧ (نشر عزيز سوريال عطية) .
القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٩ و ٤٧٠ .
المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٠٣ و ١٠٩ .

وقد تحددت السياسة الضرائبية فى مصر على أساس أن التجارة هى المصدر الرئيسى لموارد البلاد المالية بعد فساد النظام الاقطاعى المعتمد على الزراعة ولكن مع ذلك لم تذكر المراجع العربية بوضوح قيمة هذه الضرائب وأنواعها الكاملة ، وخاصة المفروض منها على الكارمية فى البحر الأحمر باعتبارها المصدر الأكبر لايرادات الدولة . وذكر أن مكس ما أحضره أحد تجار الكارم فى سنة واحدة بلغ أربعين ألف دينار (٢٢٦) .

ويدفع التجار ضرائب على السلع القاصدة اليمن ، مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الحار والزيتون والملح والنقل وعسل النحل ، هى مما تحتاج اليه اليمن ، تدفع هذه الضرائب فى القاهرة (٢٢٧) .

وعلى أى حال فالملاحظ أن السلاطين لم يسيروا على سياسة ضرائبية ثابتة لكى يطمئن التاجر على أمواله وتجارته ، بل خضعت فى أحيان كثيرة لتطورات الأمور العسكرية أو المشاكل المالية (٢٢٨) .

---

(٢٢٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٤ « يذكر المقريزى أن هذه الضرائب وصلت الى المماليك من أيام الأيوبيين » .

ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٣٨٤ .

Fischel, Journal: pp. 167-168.

(٢٢٧) المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٢٢٨) اتجه برسباى عام ١٤٢٧ الى التشدد فى فرض الضرائب على التجار بسبب حملته الى قبرص وحصل على مكوس فى القاهرة وفى الشام بلغت فى مكة حوالى ٣٪ ، مع عدم مرور السلع على القاهرة ، وتتجه مباشرة للشام حيث يدفعون عليها مكسا آخر . واذا مرت على القاهرة حصل عليها على رسوم أخرى .

ابن تغرى بردى : النجوم جـ٤ ص ٦٢٨ (كاليفورنيا) .

نظام الدفع فى المعاملات التجـارية :

لما اشتد الطلب فى أوربا على السلع التجارية الواردة من الشرق الأقصى ، وكثر ورود التجار الأجانب لموانىء ومدن مصر والشام ؛ وصار لزاما أن ينص فى المعاهدات والاتفـاقيات التجارية على تنظيم حسـابات الدفع والتعامل المـالى ، وقام الأجانب بتنفيذ نصـوص الاتفاقيات بدقة لا تقل عما تفعله السلطات المماليكية الحاكمة . ومع أن الذهب كان قاعدة التعامل المالى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، الا أنه فى القرن الخامس عشر عادت المقايضة لتحتـل مكانا بارزا فى المعاملات التجارية بين الوطنيين والأجانب ، ونص عليها كذلك فى المعاهدات باشتراطات معينة .

ولأهمية الذهب فى المعاملات التجارية فى العصور الوسطى ، كانت تقوم به بقية النقود من فضة ونحاس . وفى العصر المماليكى تعرضت العملة الذهبية للتلاعب فى عيارها ، وتغيير وزنها ، وتعديل حجمها ، مما جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار (٢٢٩). ويعزى الاضطراب الذى سـاد العمـلة الذهبية المماليكية منذ القرن الخامس عشر الى مسئولية بعض السلاطين ، ومنهم السلطان برسباى ؛ فبعد أن احتكر بعض أنواع المتاجر الداخلية والتوابل الشريفة عمد الى انقاص معدل العملة ، سواء من الذهب أو الفضة أو النحاس ، مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية ، كما استبعد العملات الأجنبية المتداولة فى السوق ، والتى يجلبها تجار البنادقة وجنوة وفلورنسا ، ثم جمعها

---

(٢٢٩) القلقشندى : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٤١ يذكر القلقشندى تفسيرا لذلك بقوله « وانهم جعلوا نقصها نظير كلفة ضربها » .

وبخصوص ظهور نظام المقايضة فى معاهدات أواخر القرن الخامس عشر انظر معاهدة فلورنسا مع قايتباى ١٤٨٨/١٤٨٩ بالملحق برقم (٢٥) من أمارى .XLV وكذلك توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٩ .

بالثمن المخفض ، وأعاد سكها ذهبا بالنقص ، مما ألحق الخسائر المادية بالتجار الأجانب والوطنيين على السواء ، وان كان قد أضاف الى الحكومة ايرادا جديدا لمواجهة الظروف الحربية التى ظهرت على عهده (٢٣٠) . وكان بامكان السلاطين المتعاقبين أن يحجموا عن عمليات انقاص وزن العملة وتغيير عيارها الا أنهم اتبعوا أساليب السلطان برسباى حتى نهاية عصر الدولة المماليكية . وقد ثبتت قيمة العملة اذ ذاك على ٣٣٫٨ حبة (٢٣١) . بما يوازى ٣٫٤٧ من الجرام ، أى حوالى نصف جنيه تقريبا . وعرفت العملة الجديدة « بالدينار الأشرفى » واشتهرت بهذا الاسم حتى عام ١٥١٧م .

وقد شجعت عمليات التغيير ، نشاط مزيفى النقود المعروفين « بالزغلية » ، ففى عهد السلطان الأشرف اينال عام ١٤٥٣ ثبت سعر الذهب الأشرفى على ٣٣٥ درهما فى الصرف و ٣٤٠ درهما فى المعاملة ، والمنصورى ٢٩٥ درهما و ٣٠٠ درهم فى المعاملة ، وهو الدينار الذى كان قد ضربه السلطان المنصور جقمق (٢٣٢) . ولكن بعد ذلك بيومين قبضت السلطات على عشرة من الزغلية لجئوا الى انقاص وتغيير العملة وتزييفها . وفى محاولة لوقف هذه العملة التى أضرت بالتجار تقرر جمع النقود من الدولة من عهد المؤيد شيخ الى عهد جقمق ، ثم اعادة سكها ، وتم ذلك عام ١٤٥٨ . ومع أن هذه العملية أطاحت بثروات مزيفى النقود وكشفت طائفتهم ، الا أن الناس شكوا من سوء سك

---

(٢٣٠) ابن حجر : أنباء الغمر ورقة ٤٥٤ جـ ٢ .

لبيت : مصر الاسلامية ص ١٠١/١٠٢ (ديفونشير) .

Lane Poole, Egypt in the Middle Ages, pp. 332-342
Clive, Op Cit., pp. 118, 119

(٢٣١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٢٢ (بولاق) .

(٢٣٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ص ٢٧٨ .

العملة الجديدة ، وفساد عيارها وأساءوا الى ناظر الخاص ظنا منهم أنه المسئول عن ذلك ، وخاصة فى الفضة (٢٣٣) .

وعلى عهد السلطان قايتباى نودى بتثبيت سعر الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة وسعر الدينار الذهب بثلاثمائة والفضة الجديدة كل أشرفى بخمسة وعشرين نصفا عددية جيدة من خالص الفضة وأبطل سائر المعاملات من الفضة المغشوشة التى كان قد وصل الدينار منها الى ٤٦٠ درهما ، فخسر النـــاس من هذا ثلث أموالهم . وكان السلطان قاسيا مع الزغلية ، فكان يوسط ويقطع كل من يقع فى يد السلطان منهم ، فوقع الرعب فى قلوبهم ، وكان ذلك من أسباب انصلاح حال العملة حتى عهـــد الغورى (٢٣٤) . وكان ناظر الخاص على عهد السلطان قايتباى قد ضرب فلوسا جديدة ، وقصد أن يخرجها بأعلى من الفلوس العتيقة فثار العامة واستقر الرأى على أن تكون الفلوس العتيقة والجديدة بالميزان بستة وثلاثين ، الرطل (٢٣٥) .

وكان عهد الغورى وما صاحبه من اضطراب التجارة الخارجية مجالا صالحا للزغلية وفساد العملة ، بل ان دار السك نفسها أخرجت عملة مزيفة لتوفى ما عليها من التزامات . وساد كل أنواع العملة الزغل والفساد « ولم يعد يحل بها بيع ولا شراء ولا معاملة » (٢٣٦) .

---

(٢٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٥٦ ــ ٥٧ ــ ٦١ .
Poliak, Les Révoltes Populaires, p. 252

(٢٣٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٢ ص٦١ حوادث عام ٨٦٢ هـ (بولاق) .

(٢٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٢١٠ يذكر الرحالة هارف أنه خلال زيارته للاسكندرية دفع (واحد مدين) Maidine رسم دخول مغارة القديسة كاترين والعملة المذكورة فضية تختلف قيمة ما بها من فضة باختلاف الزمان والمكان ــ ولدى المواطنين عملات من الذهب وهى الأشرفى العملة الرسمية وتزن ٥٣ قمحة وتساوى دوقات أو ١٢٠ Aspers والدين المذكور يساوى $\frac{1}{26}$ من الأشرفي ويسك بالقاهرة .
Harff, Op. Cit., p. 94 R. 5

(٢٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٣ ص ٥٩ .

ومنذ الوقت الذى اعترى فيه الخلل العملة المماليكية ، وخاصة الذهب والفضة ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء ثم الزغلية ، بغية الربح ، أو موازنة نفقات الدولة ، استخدمت فى مصر عملة البنادقة المعروفة بالدوقات ، وكانت البندقية تستعمل قبلها الافرنتى ، ثم سكت العملة الذهبية خاصة منذ عام ١٣٩٤ ، وتمتاز بوزنها الثابت الصحيح ، وعيارها غير المتغير ، وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين (٢٣٧) . وتضمنت الأوامر السلطانية والمعاهدات بين الافرنج والمماليك فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اعتبار الدوقات البندقى عملة رسمية ثم الفلورنسية بعد أن زاد تعاملهم مع مصر والشام وكانوا يعلنون عن عملتهم المسكوكة بالقاهرة «أنها على زنة الدنانير الافرنتية» بمعنى أن يكون وزنها ثابتا وبزنة مثقال تماما (٢٣٨) . ومع ذلك كانت العملة المصرية تنقص فى أحيان كثيرة عن العملة الأجنبية حسب مقتضيات الظروف ولم تعد تقوى على منافسة الدوكات البندقى فانحطت قيمتها فى الأسواق الحرة عن قيمة البندقى مما حدا ببعض

---

(٢٣٧) صبح الأعشى : القلقشندى جـ٣ ص٤٤١ يصف القلقشندى هذه العملية بأنها معلومة الوزن وكل دينار منها بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط .. وعلى أحد وجهيها صورة الملك وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس حواريى السيد المسيح عليه السلام . ويعبر عنهما كذلك بالأفرنتى وأصله افرنسى .. ويعبر عنهما كذلك بالدوكات . وهذا الاسم فى الحقيقة لا يطلق عليه الا اذا ضرب فى البندقية لأن ملكهم اسمه الدوك ، وكان البنادقة قد استعملوا العملة الفلورنسية الذهبية ، وهى الفلورين أو الفرنتى أو الأفرنطى ، حتى سكوا عملتهم الدوكات عام ١٢٩٤ .

ديل : البندقية ص ٦٦ ـ توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٨ .

(٢٣٨) المثقال هو الدرهم وذانتين ونصف ويساوى ٢٤ قيراطا وهو خمس وثمانون حبة أما الدرهم الشامى فهو ستون حبة الظر ـ البغدادى : عبد الرحمن نصر بن محمد : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ورقة (٧) مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٥٣ ، والملاحظ أن الدوكات البندقى كانت العملة التى يقبلها السلاطين ، ويقال له حتى الآن فى مصر بندقى ، وذاع بجانب الدوقات استعمال العملة الفلورنسية نظرا للعلاقات الطيبة بين مصر وفلورنسا ، ثم صممت الدنانير المماليكية على مقاس البندقى ، وحملت اسم الدينار المؤيدى ، وسادت على عهد السلطان قايتباى .

Dopp, Op. Cit, p. 49

السلاطين الى جمعها واعادة سكها بالنقص للانتفاع بفرق كمية الذهب فزاد التذمر منها (٢٣٩) .

وقد نص فى المعاهدات على تخفيض ضرائب الجمارك على كميات الذهب الواردة لدار السك ومثل ذلك بالنسبة للسبائك التى تعطى لدار السك ، ويؤرخ القرن الخامس عشر استخدام السبائك والمعادن الخام والمجوهرات عملة متداولة وخاصة فى التجارة الخارجية لمواجهة ازدياد الطلب على السلع الخارجية (٢٤٠) .

أما العملة الفضية وهى الدراهم فكان المفروض فيها أن يكون ثلثاها من الفضة والثلث من النحاس ولكن هذا أيضا لم يخل من الغش منذ أواخر القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر ، وزادت نسبة النحاس لتصل الى الثلثين والثلث أو أقل من ذلك بالنسبة للفضة، وفضل الناس استعمال الفلوس النحاسية بدلا منها (٢٤١) . والفلوس النحاسية هى أقل أنواع العملات مع ذلك لم تسلم من الغش ، وتناولها السلاطين بالنقص والتبديل وأرغموا الأهالى على التعامل بها وفق القيمة التى تحددها السلطات وكان هذا من عوامل الاضطراب فى الأسواق (٢٤٢) .

---

(٢٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٢ ـ عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٩٨ .

(٢٤٠) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٨ .

Heyd, Op. Cit. II, p. 453
Pernaud, Op. Cit., p. 34.
Maillet, Op. Cit., pp. 139-144.

يذكر هارف أن كمية الفضة المسكوكة التى ترسلها أوربا كل عام لمصر تبلغ حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ دوقات سنويا ، وهى تلقى رواجا عجيبا فى أسواق مصر والشرق عامة .
Harff, Op. Cit., p. XXIV

(٢٤١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٤٤٣ .

(٢٤٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

المقريزى : اغاثة الأمة ص ٤٧ (نشر زيادة) .

المقريزى : السلوك ج٢ ص ١٧ ، ج٣ ص ٨٢ ـ ٨٣ .

نظام المقايضة فى التجارة :

ومنذ أواخر القرن الرابع عشر والعملات الذهبية تشح من المدن الايطالية ، وتأثرت تبعا لذلك أسواق مصر والشام ، اذ أن المدن الايطالية كانت تدفع بها مشترواتها من السلع الشرقية ، وذلك وفقا لما اشترطته السلطات المماليكية من أن يكون نصف المدفوع ذهبا ، واستخدم البنادقة فى ذلك الدوكات كما استخدم الفلورنسيون الفلورين ، هذا بالاضافة الى ما كانوا يجلبونه من الذهب والفضة الخام لسكها بدار السكة بالاسكندرية والقاهرة (٢٤٣) .

وترجع أزمة الذهب التى ظهرت فى مصر والشام منذ القرن الخامس عشر الى قلة ما يصل من هذا المعدل الى شمال افريقية من السودان . ففى القرن الثالث عشر تفكك المغرب الى مدن تجارية مستقلة ودويلات تشبه الجمهوريات الايطالية ، وأخذ التجار المسيحيون والمغامرون يفدون اليها . وحتى القرن الخامس عشر كانت المغرب هى الممول الرئيسى لذهب الغرب مما أنعش فيه التجارة ، وأدى هذا الى أن تدفع هذه الجمهوريات أثمان سلع الشرق بالدوكات البندقى وبالافرنتى كما ترد كميات معلومة لدور سك العملة . الا أنه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر وتبر السودان يقل وروده الى أوربا من مدن شمال افريقية بعد أن وصل البرتغاليون الى ساحل غانا عام ١٤٦٠ وبدءوا فى مقايضة الأهالى بسلعهم على ذهب السودان ، وبدأ هذا الذهب يتجه منذ ذلك الوقت الى المحيط الأطلسى ، وليس الى البحر المتوسط ، فشحت العملات الذهبية من مدن ايطاليا ، وبالتالى من مصر ، وأدى ذلك الى حدوث أزمة فى عملة مصر الذهبية (٢٤٤) .

---

(٢٤٣) توفيق اسكندر : المقايضة (المصدر السابق) ص ٤٣ .

(٢٤٤) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) المقدمة ص (و) ثم ص ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ .

ولكى يوازن السلاطين بين قلة ورود الذهب وحاجتهم الى المال عمدوا الى تغيير وزن العملة مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية ، كما عمدوا الى الحصول على كميات معلومة من ذهب البندقية الذى لم يتأثر كثيرا لهذا الحادث وظلت على ما هى عليه « ملكة الذهب فى العالم » ، ففرضوا قدرا معينا من التوابل باسم « توابل الذخيرة الشريفة » ، أو التوابل السلطانية ، ليشتريها البنادقة بعملتهم الذهبية الثابتة العيار والوزن والحجم مع بقاء معاملاتهم مع الأفراد حرة . كما فرضوا عليهم قدرا معينا من الفضة يوردونه لدار السكة كل سنة ، وفى دمشق كان هذا ٤٠٠ درهم سنويا حتى عام ١٤٧٥ وغرامة ٣ دوكات لكل درهم ينقص عن الكمية (٢٤٥) .

وبخصوص الفضة ، ففى عام ١٤٠٧ سكت البندقية عملة فضية خاصة بتجارة الشام الا أن السلطات الحاكمة والتجار رفضوا قبولها عملة للمتاجرة ، وأصروا على التعامل بالذهب مما أدى الى تكدس العملة ثم جمعتها البندقية وسحبتها من الأسواق ، حتى كان الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حين شحت العملة الذهبية والفضية بصـورة واضحة ، واضطر السـلطان الغورى الى مفاوضة البنادقة وخاصة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، لدفع ثمن التوابل نحاسا وقد اضطر السلطان الى ذلك لحاجته الى العملة ، واشتداد الأزمة النقدية ، ووضوح الخطر العثمانى (٢٤٦) .

أما من ناحية البندقية ومدن جمهوريات ايطاليا فقد عالجت نقص الذهب والعملة الذهبية باستخدام طريقة التعامل التجارى بالمقايضـة حتى تتفادى ما يترتب على نقص العملة الذهبية من قلة ما يحصلون

---

(٢٤٥) توفيق اسكندر : المقايضة (المصدر السابق) ص ٤٥ .

(٢٤٦) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٥ .

Horn, Op. Cit., pp. 78-81.

عليه من التوابل والسلع الشرقية ، وفى معاهدات القرن الخامس عشر ذكرت بنود تنظيم عملية المقايضة ، وكانت قبلا تصدر على شكل أوامر سلطانية فردية ، حتى اذا ازدادت الأزمة فى أواخر القرن الخامس عشر، نص فى المعاهدات على اعتبارها احدى نظم عمليات الدفع فى التجارة (٢٤٧) .

والواقع أن نظام المقايضة فى التجارة كان غرما لا غنم فيه، وقد لجأ اليه المصرى لقصور العملة الذهبية والفضية عن الوفاء بأثمان السلع وخاصة البسيطة ، بدلا من تكدسها لدى التاجر العربى والبندقى على السواء . وقد وجد كلاهما أن المقايضة خير وسيلة للتعامل التجارى ، وهى فى الحقيقة نتيجة من نتائج ظهور الأزمة المالية فى القرن الخامس عشر . وقد اتبع البنادقة هذه الوسيلة بعد أن سنت الحكومة قانونا يمنع فيه التجار من الاستدانة أو الاقراض أو الشراء بالعقود المؤجلة الدفع ، ولما كانت لهم رغبة فى الربح والكسب فقد لجئوا الى المقايضة (٢٤٨) .

ومن المبادىء القانونية التجارية التى نظمت عملية المقايضة النص بالتزام وتعهد السلطات المماليكية بعدم قبول الرجوع فى صفقة تمت بالمقايضة تبعا لارتفاع أو انخفاض السعر رغم ما ينال التاجر المصرى من أضرار ، اذ أنه مما يشجع على الرجوع صفقات التوابل بالمقايضة أن ثمن التوابل نقدا أقل من ثمنها فى حالة المقايضة ، فكان التاجر الأجنبى يحاول الرجوع فى المقايضة الى النقد لأنه المشترى ، كما كان زميله المصرى يحاول الرجوع عن سعر المقايضة لأعلى منه بسبب تذبذب الأسعار . لذا نص فى المعاهدات مع فلورنسا على عهد السلطان قايتباى ١٤٤٨ « على تمييز سعر الأصناف فى المقايضة عن

---

(٢٤٧) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٩

(٢٤٨) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٠

النقد » ، أى الزيادة فى أسعار السلع بالمقايضة عن النقد . وكانت التوابل كذلك تقايض بالعسل وزيت الزيتون والصابون والبندق واللوز (٢٤٩) .

والى جانب نظام المقايضة وجد نظام نصف المقايضة ، وفيه تدفع ثمن السلع نصفها نقدا والنصف الآخر سلعا . ولعل من المفيد ــ أن تقول انه أثر فعلا فى ارتفاع الأسعار ارتفاعا مصطنعا ، فسعر سلع المقايضة يزيد على سعرها النقدى ، كما أنه خلال نصف قرن تضاعف سعر التوابل بالمقايضة لضعفين ، وكذلك سعرها النقدى أصبح ثمانين بدلا من أربعين ، وثمن الثلاث سفن عام ١٤٥٠ بقدر حمولتها آخر هذا القرن بثمن ست سفن (٢٥٠) .

ومما هو جدير بالذكر أن البرتغاليين الذين نقلوا ذهب السودان الى بلادهم استخدموه فى تمويل حركة الكشوف الجغرافية وخاصة للهند . فلدى وصولهم للهند كانوا فى السنوات الأولى يترصدون السفن العربية ويصادرون حمولتها من التوابل . ولكن بعد ذلك بدأ الذهب يتدفق بين أيديهم بكميات كبيرة ، فاشتروا به التوابل وسلع الهند والهند الصينية والصين ولم يعودوا يترصدون سفن العرب ، بل انه بالرغم من أن سفن البندقية لم تحمل عام ١٥٠٤ أى حمل من الفلفل فانه قبل سقوط دولة المماليك شوهدت مرة أخرى كميات من الفلفل والتوابل فى ميناء طرابلس وفى الاسكندرية ، ولعل هذا راجع الى استحالة اغلاق المحيط الهندى أمام السفن العربية ، وان كان يرجع أساسا الى أن الطريق عبر البحر الأحمر أقصر ولا يتعرض فيه الفلفل المباع فى البندقية الى رحلة طويلة قد تفسده ، كما كان يحدث بالنسبة

---

(٢٤٩) انظر الملحق معاهدة فلورنسا وقايتباى عام ١٤٨٨ برقم (٢٥) .

(٢٥٠) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٢ و ٤٣ .

للفلفل الوارد من طريق رأس الرجاء الصالح فى رحلة طويلة الى لشبونة، بالاضافة الى خبرة العرب فى فرز الأصناف الجيدة من هذه التوابل من الرديئة مما لا يتوافر للبرتغاليين ، ثم لجوء البرتغال الى سياسة رفع الأسعار بعد تحكمهم فى تجارة الشرق واحتكارهم لها بلا منافس. وعلى أى حال فان هذا التحول فى سياسة رفع الأسعار كان انقاذا للموقف السيىء الذى تعرضت له تجارة الشرق منذ وصول البرتغاليين للهند بحرا عام ١٤٩٨ م (٢٥١) .

(٢٥١) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ٨٨ ، ٨٩ .

الفصل السادس

خاتمة

كشف طريق راس الرجاء الصالح
ونهاية دولة سلاطين المماليك

كانت الأحداث التى أدت الى غلق الطرق التجارية القديمة ، من شرق آسيا ووسطها الى غربيها ، قد ساعدت على ازدهار الطريق التجارى البحرى من الصين والهند الى البحر الأحمر ومصر والشام ، ولكن لم يلبث أن انهار هذا الطريق أيضا أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، منذ نجاح البرتغاليين فى الدوران حول افريقية والوصول الى الهند . وكان هذا الانهيار ايذانا بسقوط دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز فى يد الدولة العثمانية عامى ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ولم يعد الطريق والدولة بعد ذلك سوى ذكرى فى أخيلة المؤرخين .

على أنه لم تكن الحروب ، ولا دخول البرتغاليين الى الهند ، وحدهما هما اللذان أضاعا الطرق التجارية التقليدية . وخاصة طريق البحر الأحمر عبر مصر والشام ، ولكن الضعف الذى سرى فى دولة سلاطين المماليك كان المعول الذى هدم الدولة وأضاع الطرق ، ويرجع هذا الضعف الى جذور عميقة ، على رأسها :

أولا : <u>فساد النظام الاقطاعى</u> الذى قام على أساسه الحكم المماليكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه : فالدولة المماليكية دولة اقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين

وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك للسلطان توزع اقطاعيات على جنده ، وأى هزة زراعية معناها انهيار النظام ، وبالتالى الدولة . لذا حرصت الدولة ، عندما عجزت الأرض التى أهملوها عن الايفـاء بمطالبهم ، على البحث عن موارد مالية جديدة تتمثل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدما (١) ، ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضا عن هذا النقص البادى . وقد ساعدهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائنهم . وكلما زادت احتيـاجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة واحتكارهم لكل مصادرها ، فأقصـوا عنها الـكارمية ، وتسلموها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسرا وبالسعر الذى يحددونه ، والويل والعقاب للممتنع عن الشراء ، مما أدى الى تذمر الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبوارها (٢) . فكان هذا ، بالاضافة الى فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الاقطاعى الزراعى ، وجهل المماليك بالنظام التجارى ايذانا بالانهيار القريب للاقتصاد وللدولة ، ولم يبق الا وضع النقط على الحروف واعلان الانهيار ، وتم هذا فعلا فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالحدثين الخطرين : تحول التجارة ، وسقوط دولة سلاطين المماليك (٣) .

ثانيا : العوامل الداخلية التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختل نظامهم الاجتماعى والحربى ، لاهمالهم الأسـس التى قامت عليهـا تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صـغارا يتعلمون الطاعة

---

(١) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، المصدر السابق ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٤٦ .

(٣) صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٣ ـ انظر كذلك الفصل الثانى « العلاقات الخارجية » وكذلك الملحق برقم ١٣ عن التوابل الشرقية .

ويتحلون بالدين والأخلاق ، ويتدربون على الحرب وفنونها ، بل وصلوا شبانا تتنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب، ففقدوا روح النظام والطاعة ، وحل محلها العصيان والتمرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعيات والمقايضة بها من الباطن ، وخربت الأراضي والذمم ، وانقسم المماليك شيعا وأحزابا ، يتجسسون بعضهم على بعض ، ويعمدون الى حوادث النهب والسلب ، ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباى ١٤٩٦ حتى تولى الغورى السلطة عام ١٥٠١ ، وتأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهورا وأياما ، مما يعطى انطباعا صادقا بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة ، حتى ان كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفا من القتل ، كما فعل قنصوة الغورى الذى اشترط لقبوله الحكم ألا يقتلوه اذا أرادوا عزله ، ولكن كانت الأحداث السياسية والاقتصادية أقوى من أمنياته، حتى ان مماليكه الجلبان كثيرا ما عصوه بسبب النفقة (٤).

ثالثا : العوامل الخارجية: التى تضافرت جميعها لهدفين أساسيين: أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها ، ووقع الهدف الأول على عاتق القطالنة والبرتغاليين ، فى حين وقع الثانى على عاتق العثمانيين ، مع ما بين الطرفين من تباعد وتناقض وان اتحدت الأهداف . ويقترن العمل الأول كذلك بنمو القوميات فى أوربا ، وخاصة فى البرتغال واسبانيا، ونجاح الأخيرة فى انهاء الحكم العربى فى الأندلس عام ١٤٩٢ . أما محاولة

---

(٤) المقريزى (ـ السلوك جـ٣ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ـ ابن اياس : بدائع الزهور جـ٣ ص ٥٩ (بولاق) أبو المحاسن = النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٥ ـ ٢٧ .

تعقب العرب فى عقر دارهم ، فقد وقع عبؤه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق المماليك ، وفى سبيل ذلك داروا حول افريقيا، ووصلوا للهند، وأوقعوا بالأسطول المماليكى فى وقعة ديو البحرية ١٥٠٩ ، وأنهوا السيطرة المماليكية على الميـاه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر (٥) . أما الهدف الثانى فقد وقع على عاتق العثمانيين الذين ما لبثوا ــ بعد أن أوقفوا التوسع الشيعى الصـفوى ، فى وقعة جالديران ١٥١٤ ــ اتجهوا لهـدفهم الأسمى ، وهو السيطرة على الأراضى الاسلامية المقدسة بمكة والمدينة والقدس ليصبح السـلطان العثمانى حامى حمى الدين ومقدم ملوك الاسلام ، وتم هذا على يد السـلطان سليم الأول فى وقعتى مرج دابق ١٥١٦ ، والريدانية ١٥١٧ (٦) .

وأخيرا فانه كان على العثمانيين ــ وقد دخلوا مصر والشـام والحجاز ــ أن يرثوا عن المماليك مدافعة البرتغاليين عن المياه الشرقية لاستعادة السيطرة على التجارة الشرقية ، ولهم من قواتهم العسكرية وأساطيلهم خير معين ، الا أنهم حرصوا على تأكيد سيطرتهم على مابقى خارج سيطرتهم من العالم العربى ، فضموا العراق وشمال افريقية ماعدا مراكش ، تاركين الفرصة للبرتغاليين ومن بعدهم الانجليز للتهجم على البلاد العربية ، ثم احتلالها منذ القرن ١٩ م مما لازلنا نعانى آثاره للآن .

---

(٥) ابن اياس = بدائع الزهور جـ٢ ص ٢٣٧/٢٤٦ (بولاق) . عبد الله عنان . مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٤٠/١٤٦ ـ شارل ديل = البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٤٨/١٤٩ بن بول = العرب فى أسبانيا (ترجمة على الجارم) ص ٢٠٩/٢١٣ .

(٦) ابن اياس = بدائع الزهور جـ٤ ص ٣٩٦ الى ٤٠٠ (كالة) ، جـ ٥ ص ٧٠/٧١ ابن زنبل الرمال = آخرة المماليك (مخطوطة) ورقة ٤ ، وورقة ١٤ .
حسن عثمان = تاريخ مصر العام (بالاشتراك) ص ٢٤٤/٢٤٧ .
سعيد عاشور العصر المماليكى ص ١٧٩/١٨٠ .

ملحق رقم (١)

اتفاقية التــوابل الشريفة بين البنادقة والسلطان احمد ابن السلطان الأشرف اينال عام ١٤٦١ م

DEPPING, HISTOIRE DU COMMERCE
T. II, p. 218 and ff.

أرسل السلطان الملك المؤيد أحمد بن السلطان الأشرف اينال عام ١٤٦١ م . خطابا الى دوق البندقية فى أعقاب الاتفاقية بين البندقية والسلطان تتعلق بتحديد تعريفة الجمارك فى ميناء الاســكندرية . وموانىء الشام . وقد أكد السلطان فى الخطـــاب مراعاة السلطات المماليكية لرعايا البندقية فى بلادها مراعاة تامة ، سواء المقيمون اقامة دائمة أو الوافدون للتجارة وتأمين المنح الممنوحة لهم من قبل ، وزاد من اعفاءات الجمارك ، ثم استقبل سفير البندقية الفخرى وهو Moffeii Michiel وصرح له السلطان بأنه يسره دائما وصول سفراء من قبل الدوج لبلاده ، وقد تفاوض السفير مع السلطان فى شأن اعادة بعض الحقوق التى اغتصبت من البنادقة فى فترة تدابير الأمن الداخلى التى أعقبت سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وطالب منحهم تعويضات مجزية واعفاءات جمركية لبعض السلع . ورغم طول المفاوضات فانها لم تنجح فيما يتعلق بتنزيل أسعار التوابل والبهار ، فبقيت أسعار عود الند ، وخشب البرازيل الأحمر ، والبورسلين ، والسجاد ، والبلسم ، كما هى . وتصر السلطات المماليكية على ابقاء سعر التوابل الشريفة ١٠٠ دوكات للحمل الواحد دون تنزيل ، تسليم الاسكندرية .

وعند رحيل السفير أرسل السلطان معه رسالة الى دوق البندقية ضمنها تحياته واعتزازه بالتعامل مع تجاز البندقية ، وأنه « أهدى وقلد الســفير البندقى وشاحا من صنع مصر ومبطن بالفرو ، كما أهدى

وشاحا آخر لسكرتيره من ألوان متعددة ، وأكرمنا وبجلنا سفيركم المذكور ... ولما كانت صداقتنا لكم قديمة فاننا نعلن أنه يسرنا تأكيد الاعفاءات السابقة والمعاهدات المعقودة بيننا وبينكم ، وكذلك وجود قنصلكم بيننا مع ما له ولتجاركم من امتيازات أقرها السلاطين السابقون ، كما أن لهم حق الابحار الى بلادنا والتمتع فيها بالحرية والأمان .. وسنرسل لكم سفراء من قبلنا وتتقبل سفراءكم بترحاب ونوصى براحتهم فى بلادنا وتجوالهم دون العوائق وبحرية ودون دفع رسوم أو عوائد ، لأننا سنراعى مصالحهم وراحتهم وسيكونون فى عدالتنا المقدسة » ..

ملحق رقم (٢)

خطاب من السلطان الأشرف قايتباى الى دوق البندقية

بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الموقر المحتشم الخطير الباسل المفخم الضرغام السميدع الهمام مجد الملة المسيحية جمال الطائفة الصليبية دوق البندقية والمايسين دوق كراك دين بنى المعمودية صديق الملوك والسلاطين، أدام الله تعالى بهجته، وجدد مسرته ، على أبوابنا الشريفة على يد المحتشم قاصده ، وأحطنا علما بها ، وتقدم مثالنا الشريف الى حضرة الدوج أعلمناه فيه بوصول القاصد المذكور وبما عاملناه به من الاحسان بأعظم من جميع قصاد ملوك الفرنج الواردين على أبوابنا الشريفة ، لما تتحققه من اخلاص حضرة الدوج فى محبتنا ، ودعائه لمقامنا الشريف، وأن مراسيمنا الشريفة برزت بقضاء جميع أشغاله وضروراته على حكم ما سأل فيه صداقتنا الشريفة ، ورسمنا بكتابة مراسيم شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية

لجميع تجار البندقية وأحوالهم عندنا مشددة ورسمنا أيضا بأن فلفل ذخـــيرتنا الشريفة الذى يعطى لكم يكون سالما من التراب والبلل والخلط ، كل ذلك لأجل خاطر (الآتى مكرر بالوثيقة) .
من التراب والبـــلل كل ذلك لأجـــل خاطر حضرة الدوج وغير ذلك مما نعرف به حضرة الدوج أن الذهب والفضة التى صارت تصل فى القطايع وغيرها الى الثغر السكندرى وغيره يوجد فيها الغش ، بحيث ان المائة درهم من الفضة اذا أضيفت لم تقارب ستين درهما ، وغالبها نحاس ، وأما القماش الذى يصل الى أبوابنا الشريفة من المخمل فغالبه مغشوش كالنحاس ، أما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة خمسة وخمسين ذراعا ، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ ثلاثين ذراعا ، وفيه وهو مقطوع من الوسط وتضرر تجار المسلمين بواسطة ذلك ، وتعجبا كل العجب من هذه الأمور وكونه يتفق من تجار حضرة الدوج اعلمناكم بذلك ليصير على خاطركم ومما نعرفه أن المركبين اللتين حضرتاصحية المحتشم قاصده تعرض من فيهما من الفرنج لجماعة من المسلمين بالمسير الاسلامية وأخذوا منهم وأسروا .. (ناقص بالأصل) ألا يحضروا ذهبا وفضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخا ولا قماشا الا كاملا على ما جرت به العادة القديمة ، وأنهم لايعتمدون قطع شىء من الخرق الجوخ ولا غيره ، ويؤكد عليهم فى ذلك ويعرفهم أنهم متى حصل منهم شىء من ذلك من الآن يقابلهم على ذلك ويصغى حضرة الدوج لما يطالعه به من المشافهة الصادرة هنا ، ويطلب حضرة الدوج البنادقة الذين كانوا بالمركبين المذكورتين على ما اعتمدوه مع المسلمين ويلزمهم باعادة ماأخذوه بتمامه وكماله، فانه هو الذى تحدى وفعل ذلك وأقدم عليه ، ولا يقبل ولا لمن كان معه فى ذلك عذر ولا حجة ، وان حصل منهم تهاون فى ذلك فيجهزهم الى أبوابنا الشريفة لنقابلهم على ذلك بالمعدلة الشريفة وقد أعدنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب الشريف بعد أن أنعمت صداقتنا الشريفة عليه وعلى جماعته بخـــلع

شريفة ونفقة وجهزنا على يده لحضرة الدوج وعلى سـبيل الهدية ، ما تضمنته القائمة المجهزة على هذا المقال الشريف . فحضرة الدوج بتسلم هذا ويطيب خاطره وخاطر تجار البنادقة ويعلمهم أنهم مشمولون بنظرنا الشريف وعنايتنا الشـاملة ـ فنحيط علما بذلك والله الموفق بمدرك ان شاء الله تعالى .

فى عاشر من شعبان الكريم سنة سبع وسبعين وثمانمائة حسب المرسوم الشريف .

الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم (٢) .

ملحق رقـم (٣)

٢٥ من أكتوبر ١٥٠٢ ـ البندقية .

تعليمات الى السفير بنديتو سانودو ـ سفير البندقية الى السلطان الأشرف قانصوه الغـورى .

١ ـ نحن ليوناردوس ليوناردو ـ بفضل الله دوق البندقية .

٢ ـ أمرنا بانتدابك أيها الأمير المواطن المحبوب سفيرا من لدنا الى سيادة سلطان مصر .

٣ ـ وعليك باسم الروح القدس « أن تعتلى السفينة المخصصة لك وأن تنتبه وتثابر وتجتهد وتسرع فى سفرك ».

٤ ـ اتصل أولا بالقبطان قائد أساطيلنا الذى أمرناه أن يعطيك سفينة موسمية مجهزة لتواصل عليها سفرك لمقصدك ...

٥ ـ اذا وصلت بخطاب اعتمادنا لك سفيرا فعليك بزيارة نائب السلطان

---

(٢) وثيقة رقم ٢ منقولة من نسخة مصـورة من أرشـيف الوثائق بالبندقية باللغة العربية ، (من مجموعة الدكتور توفيق اسكندر) .

بالاسكندرية وقدم له حسب المعتاد التحيات ، واتبع التعليمات المعطاة لك بدقة ، واستخدم فى ذلك كل ما لديك من عبارات مناسبة مستعينا بحكمتك وثاقب فكرك ...

٦ ــ وعليك أن تحصل من قنصلنا وتجارنا بالاسكندرية على كافة المعلومات العامة والخاصة اللازمة لك خلال سفرك وأثناء وجودك بحضرة السلطان ...

٧ ــ واذا سمح لك بالسفر الى القاهرة لمقابلة السلطان فعليك ابراز خطاب الاعتماد بسفارتك لكل من له صفة رسمية حتى تصل للسلطان نفسه وتحييه باسمنا بالعبارات المناسبة الجديرة بمقامه العالى والجديرة بمقام دولتنا ثم تهنئه بارتقاء عرشه وتعيينه سلطانا على مصر . وتذكر له أنه بمجرد سماع دولتنا بارتقائه العرش حصل لنا السرور والغبطة ...

٨ ــ ثم أيها السفير بما لديك من حصافة وشجاعة وعزة وقوة شخصية ستطلب من سيادة السلطان العطف على مواطنى البندقية من التجار الموجودين فى بلاده الذين ترددوا منذ مئات السنين للمتاجرة فى بلاده ثم تعطيه الهدايا المناسبة المقدمة له من دولتنا ...

٩ ــ ثم تذكر سيادة السلطان بالغرض من هذه الزيارة وهى طلب رعاية تجارنا فى دمشق مما يتعرضون له من مظالم من نواب وأمراء الشام ومن ذلك فرض الجمرك على تجارنا وشراء ٥٣٠ حملا من الفلفل بسعر مرتفع علاوة على حمولتنا العادية وهذا اجراء لا يمكن احتماله لأنه سبب لنا خسارة فادحة ولتجارنا .

١٠ ــ وبما أنك عليم بتفاصيل هذا الموضوع ، لأنك تحضر باستمرار

مجالسنا العلنية والسرية فأنت تعلم مدى الأضرار التى تلحق بتجارتنا فى دمشق من جراء تحول الطريق بوساطة البرتغاليين ، فعليك أن توجه نظر السلطان الى الأضرار التى تحيق بنا وبه من جراء تحول التجارة هكذا ، ثم تذكر سيادة السلطان بحرصنا على مصالحه ومصالحنا ، وعليك أن تعالج هذا الموضوع بمنتهى السرية ، وألا يعلم تغرى بردى الترجمان بأى طرف منها لأنك تعلم عداءه لنـــا .

١١ ــ كما أننا واثقون من شجاعتك وفضائلك وأنك ترضى رغباتنا وأمانينا لدى السلطان ، ولا نكرر لك مسألة عداوة الترجمان تغرى بردى لنا وعليك بمجرد نزولك بالاسكندرية أن تتصل بقنصلنا فى الثغر وتتحدث معه فى هذا الشأن للاتفاق على خطة موحدة ...

١٢ ــ وقد يحدث أن السلطان أو بعض نوابه أو غيرهم يتــكلمون معك فى شأن الحوادث الجارية فى قبرس وموقف حاكمنا فى هذه الجزيرة فعليك أن تطلع الســلطان أو نوابه أن حكومتنا لا علاقة لها بما حدث أو يحدث فى قبرس ، وتخلص بلباقة بأن تذكر بأنك ستكتب الينا بشكوى السلطان فى ذلك ، وأنك ســترد فى الوقت المناسب الرد الذى يرتاح اليه السلطان ...

١٣ ــ ولا نذكرك أن موضوع مهمتك لدى السلطان خاص بدمشق ، ولك مطلق الحرية فى أن تثير أى موضوع يتعلق بمتاجرنا وتجارتنا فى الاسكندرية ، أنما الموضوع الأساسى هو دمشق. وعلى أى حال فيحسن عدم اثارة شىء خاص بالاسكندرية قبل الانتهاء من موضوع دمشق ...

١٤ ــ من أهم ما يجب أن تلفت اليه نظر المسئولين أنك علمت أن

السلطات فى العام الماضى حجزت سفننا فى الميناء دون مبرر مما أثار ضيقنا ، ونأمل أن تنجح فى عدم تكرارها مرة أخرى ، وعليك أن تسلك سبيل الملاينة ولا تلجأ الى اثارة النزاع مع السلطان أو رجاله ، وأن تجنب نفسك مغبة ما قد يحدث لأى خطأ فى ألفاظك ..

١٥ ــ عليك أن تظهر أن هذه الأعمال التى تضايقنا لا شك أنها لا تصدر من السلطان ولا من نوابه ولا من عماله ، انما هى مسائل فردية من بعض الحمالين والعمال وأن حكومتنا تثنى على همة السلطان ورجال حكومته وتأمل التشديد على العمال والحمالين لعدم تكرار هذا التأخير ، فى رحلات سفننا التى ترتبط بمواعيد المدة السنوية ...

١٦ ــ بلباقتك تستطيع أن تذكر للسلطان أن مثل هذا التأخير يصيب تجارتنا بالخسارة مما يجعل التجار يحجمون عن الحضور للاسكندرية ، ومما لا شك فيه أن هذا يصيب تجارتنا وتجارة السلطان بأضرار كثيرة ، وهو ما لا ترجوه البندقية .

١٧ ــ وفى رأينا أن تذكر السلطان أن تاجره بابكر هو السبب فى هذه المشكلة . وهنا يجب أن تظهر لباقتك ومقدرتك السياسية بحيث تجعل السلطان يفكر فى الأمر ويعمل على تغيير هذا التاجر بغيره ممن يحسن التعامل معنا . واذا وجدت أن الأمور تسير ضدنا فى هذا الشأن ، وأن المسألة ستأخذ طريق التحقيق والدفاع ، فعليك أن تتخذ كل الوسائل لتبرئتنا وتقرير وجهة نظرنا ...

١٨ ــ وحسب العادة فى ميناء الأسكندرية تمنع السفن من الدخول ليلا حتى ولو كانت تواجه عاصفة مدمرة قد ــ لا قدر الله ــ تهلك السفينة ومن عليها وعليك أن تحاول الحصول على تصريح

السلطان بدخول هذه السفن بصفة خاصة للاحتماء من العاصفة ...

١٩ ـ وتمنح السلطات سفننا أربعة أيام بعد انتهاء الموسم لشحن وتسويق السفن ، وهذه المدة غير كافية وتضطر أحيانا الى ترك معظم السلع للمدة التالية فتفسد وتبور ويلحق بتجارتنا خسارة فادحة ، فحاول أن تحصل من السلطان على تصريح بمد هذه المهلة لامكان شحن كل مشترياتنا حتىلايحجم التجار من ورود أسواق مصر والاسكندرية ، وأن يكون بقاء السفن فترة أطول بدون الحاجة للحصول على ترخيص سابق من السلطات المعنية بالأمر فى الميناء .

٢٠ ـ عليك أن تصر على عدم تغيير عمال ديوان القبان وأن يبقى بدون أى اجراء آخر قد يضر بمصالحنا ..

٢١ ـ كل ما تحصل عليه من امتيازات أو اعفاءات أو تصريحات من السلطان ورجاله فاكتبه فى وثيقة مربعة ، لا طويلة .

٢٢ ـ لا نوصيك بأن تتصل فى كل ما يعن لك بتجارنا وقنصلنا لخبرتهم الطويلة فى التعامل مع السلطان ورجاله ، ونحن واثقون من أنك ستقوم بكل ما يفيد بلادك ..

٢٣ ـ أما عن فترة بقائك فى بلاد السلطان فنحن لا نحدد لك فترة معينة ، بل نترك ذلك لتقديرك والانتهاء من أعمالك ، ومع ذلك فاننا واثقون من أنك ستقوم بالمهمة خير قيام وفى أسرع وقت ، وأن تعطى أمرا بأن تنتظرك السفينة التى أقلتك لتعود بك ...

٢٤ ـ ومعك أمر ادارى بأن تحصل على جميع نفقاتك من هيئة التجار

والقناصل فى دمشق ، لأن المهمة التى ستقوم بها خاصة بهم كما هو المعتـاد مع غيرك ، وأن يـكون المبلغ فى حـدود ٤٠ دوكة ، ومعك أمر آخر بأن يعـاونك فى مهمتك جميـع قناصلنا والهيئات التى تشاركهم عملهم لأنهم مطلعون على بواطن الأمور ، بحكم بقائهم مدة طويلة فى بلاد السلطان ..

الموافقون ١٢٤ ـ المعارضون ٣ ـ الممتنعون .. (٣)

ملحق رقم (٤)

٢٤ مايو ١٥٠٤ ـ البندقية

تعليمات مجلس العشرة فى البندقية للسفير البندقى « فرانسوا تالدى » تكلفه بالتوجه للقـاهرة للتفاوض مع الســلطان المماليكى « الغورى » سرا فى الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسـع البرتغاليين التجارى فى مياه الهند .

١ ـ بعثة فرنسسكو تالدى الى سلطان مصر . تقبل هذه التعليمات باسم الأمير . نحن نضع فيك يا سيد فرنسسكو الثقة الكاملة . لذلك نرسلك الى سلطان مصر باعتبارك مواطنا صالحا . ولهذا نكلفك بأن تسافر بأول سفينة الى جزيرة كريت ومنها الى ميناء دمياط . وعليك أن تخفى عن الجميع صفتك الرسمية .

٢ ـ من دمياط تذهب الى القاهرة وتعمل بكل ما أوتيت من مهـارة وسرية أن تسمع صوتك للسلطان شخصيا ، وتمثل أمامه عن

---

(٣) Instruction a Penedetto Sunudo, Ambassadeur di Sultan El-Ghouri. Senato Secreta XXXIX fe 45.

من الدكتور توفيق اسكندر وترجمته .

طريق أمير الاسكندرية ، أو الدوادار أو كاتب السر ، أو من يبـــدو لك أنه الأصـــلح . وفى غياب الأمير لك أن تلجأ الى المهمندار (المندوب السـفرى) الذى يجب أن تكلمه سرا ، ولا تنس أن يكون حديثك مع السلطان نفسه سرا .

٣ ــ لما تسنح لك الفرصة للانفراد بالسلطان قدم له خطاب اعتمادك سفيرا لنا بعد التحيات الواجبة باسمنا وباســم دولتنا لفخامته تهنئه بالصحة والسلامة بألفاظ مناسبة ، وتتفاهم معه سرا فيما كان يتحدث به النبيل « بنديتو سانودو » فى العام الماضى عن الملاحة فى المحيط الهندى ، والتى أصبحت فى يد البرتغاليين ، وأن تفهم فخامته أنه يترتب على ذلك خسائر للجميع له ولنـــا ولتجاره وتجارنا . وبالنسبة للعلاقات القديمة التى بيننا وبينه ، والتى قامت على المصلحة المشتركة ، فاننا وضعنا مشاوراته معك ومع السفير سانودو موضـــع الاهتمام الكامل لامكان معالجة الأمر فى بدايته .

٤ ــ ولكى تكون على علم تام بكل ما يستجد فى هذا الموضـــوع نبلغك بأننا أثناء بحثنا هذا الموضوع فى السناتو مع مستشارينا وصل الى بلادنا الميعوث السلطانى مطران أورشليم الأخ المحترم « ماوروجواردیان » من جبل صهيون ، ومعه رسالة من سلطان مصر مملوءة بعبارات الود والاحترام والرقة التى يبديها السلطان نحو دولتنا فى كل مناسبة . فعليك أن تتولى نيابة عنا شكر السلطان الأفخم بعبارات ود واحترام مبادلتنا شعوره الطيب ، وأننا متأكدون جدا من أننا أكثر الجاليات رعاية فى بلاده وان تجارنا سيجدون كل عطف وعون ومودة من السلطان ورجاله مما يجعلهم يتلهفون على الذهاب للمتاجرة فى بلاده ولا يفكرون فى هجرته الى لشبونة مثلا ، لأنه من المعروف ألا يبقى أى فرد

فى مكان ما الا اذا كان يعامل معاملة طيبة ويحصل على فائدة كاملة .

٥ ـ ويجب أن تعلم فضـــــلا عن ذلك أن الأخ المحترم الســـيد ماوروجواردیان مطران أورشليم ومبعوث السلطان الينا قد تحدث معنا شخصيا ، علاوة على ماجاء بخطابات السلطان فى أن نكتب الى الحبر الأعظم البابا ، وملك اسبانيا ، وملك البرتغال ليعملوا على وقف ملاحة البرتغاليين فى الهند وتركها لهم ، كما طالبوا بأن يصدر مجلس السناتو قرارات يشيرون فيها الى ذلك ، فعليك أن تقول للسلطان : « اننا بكل صراحة وأمانة قد وجهنا الأخ المحترم ماوروجواردیان لرحـلة الى اسبانيا والبرتغـال وزودناه بكل المعلومات التى لدينا لكى ينهى الموضوع حسـب رغبة السلطان التى هى رغبتنا ، ولم نعط خطابات توصية الى البابا فى هذا الموضوع ، ولا الى ملك اسبانيا ، ولا الى ملك البرتغال، حتى لا تحدث نتيجة عكسية ، ولكى لا نتهم بأننا متواطئون مع المسلمين ضد المسيحيين ، لأن مثل هذه الخطابات ستحدث ضجة شديدة ضـدنا فى العالم المسيحى » . لأن الجميع يعرفون أن مجىء السيد/ ماوروجواردیان بناء على رغبة السـلطان وبناء على طلبه ، فلو أننا أرسلناه من طرفنا بخطابات توصية لفقدنا كل سمعة طيبة فى العالم المسيحى .

٦ ـ يجب أن تبلغ السلطان أن منع الملاحة فى المحيط الهندى لا يمكن أن تأتى من جانبنا للاسباب السابق ذكرها ، لأن المسافة من بلدنا للبرتغال طويلة لا تقل عن ٤٠٠٠ ميل ، فضلا عن المسافة من البرتغال الى الهند ثم ان اسبانيا وملكها القوى المحالف للبرتغال يقع فى الطريق بيننا وبين البرتغال ، علاوة على أنه اســتولى حديثا على مملكة نابلى من لويس ١٢ ، وله حدود مع مملكتنا

فى أماكن عـدة من البحر والبر . وقد ذكرنا هـذا للسـيد ماوروجواردیان ، وزودناه بنفقات الرحـلة الى روما واسـبانيا والبرتغال . وسنحاول أن نبلغ السلطان أولا بأول بخط سير وأخبار مبعوثه الى اسبانيا والبرتغال البابوية .

٧ ـ يهمنا أن تذكر لسيادة السـلطان أنه قد وصـل الى البرتغال ١٤ مركبا من الهند محملة بالتوابل من بين ما تحمله ٥٠٫٠٠٠ حمل من الفلفل وقد أرسـلت بوسـاطة ملك البرتغال الى انجلترا أو الفلاندرز وفرنسا وايطاليا ، ولكل العالم تقريبا . لفـائدته وربحه بحيث انه أصبح ملكا غنيا جدا . ويرجع ذلك الى أنه وجد أن سعر التوابل بالاسكندرية مرتفع جدا ، وكذلك فى دمشق أكثر من المعتاد ، وأنه لما كانت التوابل منخفضة الأسعار فى الهند ولشبونة ، لذلك لجأ عملاء نابلى الى أسواق البرتغال ، وهذا بالطبع أدى الى ثرائه ـ فضلا عن أن هناك فى ميناء لشبونة أسطولا مكونا من ١٢ سفينة مستعدة للرحيل فورا الى الهند و ١٦ سفينة أخرى مستعدة للذهاب فعلا بعد عودة السابقة لاحضار المزيد من التوابل .

٨ ـ وعليك أن تلفت نظر السلطان الى أنه ابتداء من الآن سـتكون الرحلة سهلة بالنسبة للبرتغاليين ولا نعرف طريقة نستطيع بهـا منع ملاحتهم الى الميـاه الهندية والتى نرى أنه ينشأ عنها ضرر لا يمكن احتماله ولا قبل للسلطان به . واننا فضلا عن مصالح تجارنا التى بدأت تنهار فاننا تحملنا خسائر فى جماركنا وضرائبنا تبعا لذلك .

٩ ـ واحقاقا للواقع كان قد اقترح علينـا الاشتراك فى الرحـلات لفائدتنا ، ودعينا فعلا من قبل ملك البرتغال لارسال تجارنا الى أسواق لشبونة لطلب التوابل . وكثير من تجارنا ورعايانا يرغب

فى ذلك ، لأن تجارنا لا يدفعون فى لشبونة ضرائب جمركية ، ومع ذلك فهم أحرار . الا أننا لما كنا نقدر عظمة السلطان ، وأننا لم نرغم أبدا على ترك التجارة معه والتى كانت على اتصال معه منذ قرون عدة والتجارة هى مصدر حياتنا وربحنا ، كما أننا لم ننظر أبدا للدعوة التى وجهها الينا ملك البرتغال والتى لا يزال حتى الآن يعرضها علينا ، ومصداقا لذلك أرسلنا سفننا هذا العام الى الاسكندرية لاعتقادنا أن السلطان المعظم هو الذى يستطيع وحده أن يضع حدا لتهجمات البرتغاليين فى مياه الهند ووقف تجارتهم حتى تعود تجارة التوابل الى ما كانت عليه من قبل .

١٠ ـ وعليك يا سيد فرنسسكو أن تضع أمام أعين السلطان النقط الآتية ، يبدو أنها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للسلطان ليتخذها ضد البرتغاليين فى الهند :

أ ـ العمل بأى وسيلة على وصول أكبر كمية ممكنة من التوابل الى بلاد السلطان لكى تقاوم بها اغراق البرتغاليين لأسواق أوربا بالتوابل ، لأن هذا سيمنع عن البرتغاليين المكاسب الضخمة ، وبالتالى يمنع سفنهم من الوصول للهند لجلب التوابل .

ب ـ يرسل السلطان من طرفه سفراء الى ملك كوشين بالهند وكانانور والأماكن الأخرى التى يتعامل معها البرتغاليون ، وأن يطلب منهم باسم الدين والجوار والتعامل القديم الامتناع عن معاملة ومد يد العون الى البرتغاليين وأن يضعوا العقبات باستمرار أمام البرتغاليين ، ويبينوا لهم الأضرار التى سوف تترتب على استمرارهم فى التعامل مع البرتغاليين ويستطيع فخامة السلطان بحكمته أن يبينها لهم ويفسر لهم أن كثرة وصول البرتغاليين لبلادهم ستكون لها آثار سيئة ، وربما استولوا على بلادهم نفسها ويصبحون أسياد هذه الجزر وبلاد كوشين وكانانور .

ونحن نؤمن بقدرة السـلطان المعظم على عمـل ذلك وامكانه الوصول الى اتفاق مع هؤلاء القوم .

جـ ــ ومن الممكن أن يسارع فخامة السلطان بارسال سفراء من لدنه الى قاليقوط وكامياى وأمراء هذه البلاد رفضوا قبول التعامل مع البرتغاليين ، وهؤلاء الأمراء بامكانهم التأثير على اخـوانهم ومواطنيهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ووجوب مرور التوابل كالمعتاد بمصر وسوريا ، ويذكرونهم بمدى الأضرار التى تحيق بهم من التعامل مع البرتغاليين ، وما يجره هذا كذلك على السلطان من أضرار .

د ــ يجب أن يرسل السلطان من لدنه قوات عسكرية قوية لمعاونة قوات الهند التى تحتاج لمزيد من الرجال والسفن والسلاح . وقد فهمنا أن السلطان أرسل فعلا السفن والسلاح والجنود ، وهذا ما نمدحه عليه ــ لأنه اذا لم يجد البرتغاليون من يقبل التعامل معهم واعطاءهم التوابل ، وانهم رجعـوا أكثر من مرة فارغين من غير هذه التوابل ، فانهم لن يفكروا أبدا فى العودة لهذه الرحلة الطويلة بعد أن يفقدوا السمعة والوقت . ولذلك فانه يلزم من الآن القيام باجراءات سريعة قوية لملاقاة هذا الخطر. وبيت القصيدة هنا هو ارسال سفراء للهند وحث أمراء الهند على عدم التعامل مع البرتغاليين ، وارسال الأسلحة والسفن للهنود للمعاونة فى حرب البرتغاليين ــ وهى الوسيلة لاستعادة نفوذ السلطان وبالتالى نفوذنا .

١١ ــ هذه هى كل الأشـياء التى نراها ذات أهمية بالغة وضرورية وتلفتون نظر فخامة السلطان اليها ليتخذ بشأنها اجراءات سريعة، واننا متأكدون ــ كما سبق أن ذكرنا لسيادة السلطان ــ أن

مصالحه العديدة فى الهند والتجارة الهندية ستجعله يقوم بأكثر مما أشرنا به عليه .

١٢ ـ ولكن نظرا لأن السيد المحترم ماوروجواردیان قد أبلغنـا أن السلطان الأعظم فى حالة رفض البرتغاليين الاستجابة لطلباته فانه سيمنع الزيارة للأماكن المقدسة المسيحية ببلاده ، ويغلق كنيسة القبر المقدس ودير سانت كاترين فى سيناء ، وكنائس المسيحيين فى مصر وسوريا .. ونحن نوجه نظرك الى أن تنصح فخامة السـلطان الى أن هذا الاجراء سيكون ضد مصـالح السلطان نفسه ، وعلى حساب سمعته ، وأن فتح هذه الأماكن فيه فائدة مادية له ولبلاده ، وغلقهـا ـ علاوة على الأضرار المادية التى قد تصيبه ـ فانها لن تجعـل أى مسـيحى يعطف عليه أو يوقف حملات البرتغاليين الى الهند بهذا السـبب ، لذلك يجب أن تنصحه بأن هذا العمل غير مجد وأن الأماكن المسيحية المقدسة يجب أن تظل مفتوحة ليعلم الغرب مدى سوء تصرف البرتغاليين ، واعتدائهم على حقوق ومصالح السلطان ، وعليك استخدام منتهى اللبـاقة والكياسـة والدبلوماسيـة فى هذا المجـال ... (٤)

موافقون ١٧ الرافضون ٥ المشكوك فيهم ٢

---

(٤) 1504/24 Mai, Le Venise.

Instructions du Conseil des Dix à Francis Taldi, chargé de se rendre au Caire pour concenter secretement avec le Sultan, les moyens d'empêcher le le développement du commerce des Portugais dans les Indes.

Venise : Archives Générales, conseil des Dix, Misti. Reg. XXX, fol. 49. Publié en 1856 par H. Eamuel Bomanian.

MD IIII, die XX IIII ; In Concilio X, Cum additione.

De Mas Latrie.

Traites du Commerce, pp. 259-263.

من الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

ملحق رقم (٥)

البندقية ٢٦ أكتوبر ١٥٠٦

مناقشات السناتو بشأن سفارة تغرى بردى الى البندقية ١٥٠٦ .
حيث ان المجلس قد استمع للتقرير المعروض عليه الآن والذى اشتمل على كل المحادثات والأحداث التى تناولها البحث بين مندوبينا والمندوب السلطانى تغرى بردى الموجود هنا ، فاننا نلخص هذه المناقشات فى مسألتين فقط :

المادة الأولى :

هى أن يسارع السفير تغرى بردى بالرحيل من هنا الى القاهرة ومعه ردنا على ما جاء بصدده ، واذا أراد الانتظار فعليه أن يرسل أحد وكلائه ليحمل الينا بعودته رد السلطان . فاذا أقر السلطان طلباتنا ، نستأنف ارسال سفننا الى ميناء الاسكندرية كما كان سابقا ، والا فاننا سنضطر الى ارسال سفن عادية صغيرة مثلنا فى ذلك مثل أى طائفة أخرى من الأجانب التى تتعامل فى موانىء السلطان وحيث ان هذا السفير كما علمنا يود البقاء هنا وارسال أحد وكلائه الى سيده فى القاهرة فاننا نرحب بهذا الاجراء ولا سيما وأن هذا الوكيل رجل بارع وعملي ويمكن أن يحصل على طلباتنا بسهولة من السلطان . كما أن هذا السفير يعتمد تماما على هذا الوكيل ويعتقد أن عودته الى القاهرة دون أن يحصل على طلبات السلطان سيعرض حياته للخطر ..

المادة الثانية :

وهى المشكلة الخاصة بالملاحة فى موانىء السلطان فان السفير يؤكد أن ارسال السفن الصغيرة Les Navires أمر لا يقبله السلطان بل سيثير غضبه وهو فى الواقع أمر لم نألفه منذ أن تاجرنا مع مصر

وانشام ـ وتوضيحا للأمر فان السفير تغرى بردى بعد أن كتب لسيده بكل طلباتنا ، لم يرد أن يذكر له أمر السفن ولم يرد كذلك أن يسمع منا أى اعتراض أو تنويه بما قد نلاقيه فى موانىء السلطان فى .ابى قير والاسكندرية » بل هو يؤكد أن الأمان والسلام والطمأنينة لا تزال كما كانت منذ أن تاجرنا مع السلطان . بل أكد السـفير أنه لدى عودته الى القاهرة سيعمل على تدعيم هذه المسألة كذلك وهو هنا يؤكد ذلك على لسان سيده السلطان .

رأى السناتو :

بعد الاطلاع على المقدمات السابقة وكلام السفير وما حدث مع مندوبنا فاننا نوافق على الرد على السفير لكى يرسله بدوره للسلطان بعد تقديم الكلمات الطيبة والتحيات المناسبة لمقام مولاه الرفيع ، كما أننا نترك أمر تدبير هذا وذاك لحصافة السفير ومندوبيه وان يعمـل ما يبدو له لتنفيذ الرغبات المطلوبة . أما فيما يختص بالسفن فان رغبتنا هى أن تقوم فعلا بالملاحة الى بلاد السلطان على النوعين المعروفين من السفن : القطائع Les Galères والمراكب Les Navires فقط نود الأمان والحرص من الاخطار سواء على طول الطريق أو فى الموانىء وأن تدخل الطمأنينة الى قلوب تجارنا حتى لا يمتنعوا عن السفر لموانىء السلطان لذلك يرجى من السلطان أن يسـاعد التجار على الرحيل فى الوقت المناسب بعد تسويق بضائعهم وحسب رغبته وظروف قباطنة السفن بدون الحاجة الى تصريح سابق . وكل ما عدا ذلك سيكون من السهل تدبيره .

وفيما يختص بانتخاب قنصل جديد فسيجرى هذا العمل فورا ،

فور اجابة مطالبنا ، لأن الصداقة الجديدة تتطلب هذا العمل لكى نستأنف علاقاتنا الطيبة مع السلطان كما كانت وحسب عادتنا فى السنوات السابقة ولمصلحة كلينا .

قرار

الآن يتقرر كتابة خطاب بهذا للسلطان ويرسل مع رسول الى القاهرة كما يجب الاجابة على خطاب السلطان وأن يكون كالآتى : (أنظر بعده رقم ٩) .

ملاحظات : هذه الوثيقة عن محادثات السناتور عبارة عن :

١ ـ اتفاقيات ومباحثات تغرى بردى سفير السلطان الغورى مع مندوبى البندقية .

٢ ـ اتفق الطرفان على المسألتين المسجلتين بهذه الوثيقة الا أن السفير تغرى بردى أحجم عن تسجيلها وتوقيعها قبل أخذ رأى السلطان نفسه .

٣ ـ رأى السناتو مسجل بهذه الوثيقة بالموافقة على أن يرسل نسخة منه مع مندوب خاص للقاهرة لعرضه على السلطان ومعها خطاب من السناتو الى السلطان ، برجاء الموافقة . (الخطاب بعده رقم٥ بنفس التاريخ ٢٦ أكتوبر ١٥٠٦) .

خطاب ملحق لرقم (٥)

٢٦ أكتوبر ١٥٠٦

خطاب السناتو الى السلطان الغورى بشأن المباحثات بين سفيره تغرى بردى ومندوبى حكومة الجمهورية على ما اتفق عليه الطرفان فى الوثيقة السابقة برجاء الرد بالموافقة .

---

(٥)
26 Oct. 1506, : Delibération du Sénat au Sujet de la Mission de Tanghribardi Ambassadeur Egyptien à Venise. (Senato Secreta Reg. XLF. 192.)
من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

السيد السلطان الأفخم

حضر الى دولتنا الفخيمة « تغرى بردى الفخيم سفير عظمتكم » وقد أكرمناه اكراما لكم واستمعنا له ، وفهمنا ما عرضه علينا باسم عظمتكم ، طبقا للخطاب المرسل بعد الينا ، لأجل مناقشة المسائل المتعلقة بالتجارة والتجار وانه طلب منا أن نناقش الموضوعين ، وأن نعين له مندوبين عن حكومتنا للتفاوض معه ، حتى يستطيع توضيح موضوع سفارته لنا وتوضيح ما يريده لفائدة وراحة كل من الطرفين .

وقد اجتمع الطرفان أكثر من جلسة وفحصوا بعناية المصاعب والخلافات ، ثم وجهوا الينا بكامل هيئتهم متفقين على شروط خاصة وضرورية نرجو من سموكم الأعظم الموافقة عليها ، لأنه بدون هذه الشروط سيصبح من العسير على التجار أن يستمروا فى الوصول الى بلادكم لأن تجارتهم ستتعرض للخسارة .

وقد قال السفير تغرى بردى خلال المحادثات انه ليس لديه تعليمات أخرى . ونحن نتعجب كيف ترسلون سموكم شخصا مسئولا مثل هذا السفير دون أن تكون لديه الصلاحيات الكافية لعمل شىء مهم أو الاتفاق على شىء مهم ، ولأنه لا يملك ابرام الاتفاقيات فهو مضطر لارسال خاصكى من لدنه لسموكم لطلب الموافقة على المفاوضات معنا ... ان أزمة عدم الثقة هذه لا تسمح اطلاقا بالاتفاق اذ كيف يقتنع التجار بهذه الشروط ومفاوضهم لايملك الصلاحية لابرامها ... ؟

ولكى يكون سفيركم ملما بالموضوع ، فاننا نخبره بما اتفق عليه أولا بأول لكى يكون على علم بالتفاصيل ليسردها لسموكم . ونحن منتظرون رد سموكم ، كما أنكم ستقدرون تماما وبكل حكمة حالة

البندقية التى أظهرناها مرارا وتكرارا لسموكم مع اخلاصنا لكم . هذه الروح لم تتغير اطلاقا ، وحيث اننا نشاء أن يكون السلطان بنفس هذه الروح وكذلك السفير فاننا لا نشك فى أن هذا السفير سيوضح لكم تفاصيل الموضوع حيث انه رجل عاقل وحكيم .. والله القادر على كل شىء يتعطف علينا بالخير والبركات .. وانا نأمل أن تجزوا الجزاء الأوفى لمن كان السبب فى هذه الغلطة التى أدت الى هذه الاضطرابات والتى قضت على المعاملات الطيبة التى ظلت بيننا قرونا طويلة ، وتنج عن ذلك خسارة فادحة لدولتينا . ان هذا اذا تم سيكون له أبعد الأثر فى اصلاح الحال وسيرضينا .. ويقضى على الأشرار .

ونرجو الله أن يطيل فى سنى حياتكم يا عظمة السلطان باذن الله، ومن الآن ليكن مقررا أنه اذا لم يتم الاتفاق على ما وضحناه بقرارنا وبعد المفاوضة مع سفيركم فانه لن يحق لأى مواطن منا أن يرسل الى الاسكندرية أو أى جزء من بلادكم سفنا أو سلعا ولا يتعاقد مع أى فرد بأى سلعة لمدة عشر سنوات على الأقل (٥) .

ملحق رقم (٦)

١٦ ديسمبر ١٥١٠ ــ البندقية

خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من أن عمال السلطان يعملون على ترحيل سفن المدة قبل انتهاء المدة أحيانا وبعد انتهاء المدة بوقت .

---

(٥) تابع Senato Secreta Reg XLF 192: Lettre au Spltan au Sujet de la mission de Tangri Bardi son Ambassadeur à Venise.

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

السيد السلطان الأفخم

١ ـ برجوع السفن من رحلتها للاسكندرية كالمعتاد ، عرض علينـا التجار والقباطنة أن موظفى فخامتكم بالاسكندرية حاولوا تعقيد المعاملات فى بداية الموسم « المدة » وتقصيرها لدرجة كبـيرة لا لبضع أيام ولكن لساعات قليلة ، وهذا بالطبع عمل لا يلائم مصالحنا ولذلك يعودون بدون تسويق كل سلعهم وفى ذلك منتهى الخسارة لهم ولنا . وقد بدا لنا أن نكتب اليكم هـذه الرسالة لتوضيح الأمر لفخامتكم .

٢ ـ كما أن عمالكم قد عطلوا علينا أعمـال ديوان الوزان وديوان القبان على غير ما تعودناه سابقا اذ يعطون لتجارنا توابل بالقسر غير المتفق عليها وتكون النتيجة خسـارة لنـا وللتاجر كما أنهم يجبرون على أخذ كمية كبيرة من التراب مع التوابل عنوة . ونظرا لأن المغربلين قد صمغوا الغرابيل لكى لا ينزل التراب من ثقوب الغربال ففى هذا خسـارة كبيرة لنا وهو عمل غير أمين اطلاقا ، وكذلك أنقصوا المعيار حوالى ٧٪ أكثر من المعتـاد وكل شىء لفائدتهم ولكن لخسارتنا مما لم نتعوده من قبل .

٣ ـ سمعنا بكل أسف عن الضرر الذى ارتكبه الفرنسيون ضد مصالح فخامتكم فى الأيام السابقة ، وان هذا يعتبر غدرا كما فعلوا لعدم انضمامنا اليهم لكى نحافظ على ايماننا وعهدنا كما جرت عادة دولتنا .

٤ ـ ونظرا لأن تجارنا راغبون فى زيادة وتوسيع تجارتنا على عهـد حكومتكم الرشيدة ونظرا لأن تصرفات عمالكم تقلل من هذه المعاملات ضـد رغبتكم فاننا طمنا تجارنا وشجعناهم حسـب ما نعرفه من رغبة فخامتكم فى توسيع نطاق التجارة وقد وعدنا

تجارنا بأننا سنسمع السلطان كل ما يتعلق بهذا الأمر لامكان الاستمرار فى المتاجرة معه وان صداقتنا لكم ستعاونا تماما فى معالجة الأمور بالعدل كما نرجو معالجة أمر عمال السلطان فى موانىء مصر وسوريا ويسرنا أن نسمع هذا من فخامتكم وان الأخطار السابقة لن تتكرر وان تجارنا لن يفقدوا العدالة بين موظفيكم حتى يستطيعوا المتاجرة بأمان لذلك نرجو من فخامتكم عدم نسيان الاجراءات اللازمة لذلك ، ولعل هذا سيعود بالفائدة لفخامتكم ودولتكم ودولتنا .

٥ ـ وقد أرسلنا سفننا الى الاسكندرية وبيروت ، فى المدة من ١٥ من أبريل القادم حيث ان تجارنا يمكنهم عرض سلعهم وكذلك شراء سلعكم لذا نرجو فخامتكم أن تأمروا عاملكم بالاسكندرية وبيروت بارسال وتشهيل السفن المذكورة مباشرة بعد تحميلها بعد فترة المدة بحيث انهم فى الوقت المناسب يستطيعون أن يتموا رحلتهم .

٦ ـ ولكى لا ننسى الصداقة التى بيننا فاننا نبلغ فخامتك أنه بفضل الله تعالى القادر على كل شيء اننا قد استرددنا بواسطة قواتنا العسكرية جزءا كبيرا من الأرض والقلاع التى كانت قد احتلت بواسطة أعدائنا الذين جاءوا مرتين لحصار مدينتنا « بادوا Padua » بحوالى ١٠٠٠٠٠ شخص وهزمناهم وهم يتراجعون الى مدينة « فيرونا Verona » ـ ونأمل أن تعاونا العدالة السماوية فى استرداد باقى ولاياتنا بواسطة جيشنا القوى الموجود بالريف الآن ونحن حاصلون الآن على رضاء البابا المعظم وانضمت جيوشنا لجيوشه بقصد طرد الفرنسيين أعدائنا الذين هم أيضا أعداء فخامتكم كما ثبت من تجارب عديدة تعرفونها فخامتكم . وقد تعاطفت الشعوب معنا للدفاع عنا بسبب العدالة التى كنا

ولا نزال ندافع عنها ، وخاصة أنهم عرفوا الآن الغدر والخيانة التى يمارسها الفرنسيون وبقى جزء كبير من أسطولنا فى بحر جنوة لمعاونة البابا ضد الفرنسيين . ونظرا لأن هذه الشواطىء خطيرة فاننا وضعنا الأسطول فى جزيرة كورفو لكى يقضى بها الشتاء وفخامتكم ستسرون لسماع هذه الأنباء الطيبة التى أردنا أن نبلغكم اياها كما هو مطلوب منا رعاية للود والثقة بيننا .

حاشية : بعد كتابة هذا كله نأسف اذ نبلغكم أن عمالكم حجزوا سفننا وتجارنا بعد فترة المدة بوقت طويل فى موانيكم ، وهو شىء لا ينتظر منكم ولا سيما للصداقة التى بيننا والتى جربتموها مرارا وتكرارا (٦) .

ملحق رقم (٧)

البندقية ٢٠ يناير ١٥١١

خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من الاجراءات الانتقامية التى اتخذت ضد مواطنيها بسبب مراسلتهم واستقبالهم مبعوث الشاه الصفوى .

السيد السلطان الأعظم الأفخم .

١ ـ فى الأيام السابقة سمعنا أن سيادتكم قد استدعيتم الى القاهرة القنصل فى دمشق والاسكندرية وتجارنا وأخذتنا الدهشة . وفى نفس الوقت تضايقنا مما حدث للقناصل وخاصة قنصل دمشق

(٦) Venise, Senato Secreta, Reg. XLIIIF 172 V.
Lettre au Sultan où Venise se plaint des ses agents qui font partir les galères avant ou après la « Muda » :

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

ونوابه وتجارنا ،، وقد رأينا أنه من حيث صداقتنا الطيبة التى اتخذناها دعامة صلتنا بكم ، واحتفظنا بها معكم ومع أسلافكم العظام ، قد تكون شفيعة فى أن يكون تجارنا معززين فى دولتكم .

٢ ـ وقد رأينا أن تجارنا ومواطنينا فى دولتكم قد وضعوا موضع الأعداء الذين هم أعداء لنا ولكم سرا وعلنا ، وبدون أى رعاية أو احترام .. وهذا سبب لنا الخسارة ولا شك أنه سبب لكم أيضا الخسارة .

٣ ـ ان هذه المعاملة قد أزعجتنا ولا سيما أننا نعرف أن التحريض آت من أولئك الذين يريدون أن يضروا بمصالحنا ومصالحكم .. ونحن موقنون تماما أنكم لما تتسلمون خطابنا هذا وتعرفون وتتأكدون من الحقيقة سيعود تجارنا الى مراكزهم وسابق عملهم مع تلافى الخسارة والضرر لكلينا .. ولا شك أنكم ستعاقبون الأعداء ويتبع هذا طبعا عودة الرحلتين السابقتين بدون أى تردد .

٤ ـ وقد علمنا الآن أن سموكم مستمرون فى حبس القناصل والتجار وان غضبكم منصب عليهم لتسهيلهم وصول رسل الصوفى الينا بدون أن نعطيك خبرا عنه . ونحن نعترف بأننا لم نعطك خبرا، وان كنا بطرق أخرى قد بينا لكم مصير وغرض هذه الزيارة .

٥ ـ ويسرنا أن نذكر لسموكم أن السفن المذكورة أى سفن المدة المحملة بالبضائع ستصل فى مواعيدها وأن ما حدث ما يمنع اطلاقا من وصولها وذلك نفيا لأى فكرة عدائية تكون قد تسربت الى نفوسكم منا .

٦ ـ ونحب أن نذكر أن كل بلاد العالم قد شاركت فى تجارة التوابل

من البرتغال ما عدا تجارنا وكنا قد أصـــدرنا أوامرنا صريحة لتجارنا وشددنا فى ضرورة تنفيذها .

٧ ــ واذا كان رســل الصـــوفى قد وصلوا الى بلدنا فانه لم يكن باســتطاعتنا منعهم من الوصول لأننا اعتدنا صــداقة الجميع والترحيب بالجميع وان كنا قد أغفلنا اعلامكم بهذه البعثة فى حينها فذلك لأن المحادثات بيننا وبينهم لم تكن لها قيمة أو أى وزن دولى كما أننا لم نسمع منهم أى عرض له وزنه . ونفيدكم أنه بعد التحيات المعتادة أخبرنا رسل الصوفى أن سيدهم ينشد صداقتنا وانه مستعد للمحافظة وتجديد الصداقة التى كانت بيننا وبين أسلافه . وقد أجبنا عن هذا الكلام اجابات عامة ــ وكنا لا نريد أن نضايق أسماع سموكم بأمور لا وزن لها ولا قيمة عن هؤلاء الرسل لذا بدا لنا أن نغفل هذا الأمر البسيط ولاسيما أننا قد علمنا أن هؤلاء الرسل كانوا بفرنسا قبل وصولهم الينا ولم يكن وصولهم الينا الا مرورا فقط ببلادنا فى طريق عودتهم الى بلادهم أى أن مقصدهم الأساسى كان فرنسا وليس البندقية التى مروا بها مر الكرام والتحية . فاذا كان الأمر قد سبب ازعاجا لكم أو أنه سيسبب قطع العلاقات بيننا وبينكم التى ظلت مئات السنين فان هذا نتركه لحكمتكم ونرجو سموكم الا تستمعوا لترهات الأشرار وألفاظهم ولا سيما الأعداء المفروض علينا أنهم أعداء لكم ولنا ويجب أن نضع نصب أعيننا فقط التجــارب السابقة والنتائج التى ترتبت على ذلك .

٨ ــ ونستطيع أن نؤكد لسموكم أن أى حادث يحدث فى الخارج لابد أن نوافيكم به فورا ولا يمكن أن يقال اننا قد خنا العهد فاننا لا نذيع سرا اذا قلنا ان صداقتنا مع سموكم قد سببت لنا أضرارا كثيرة ومتاعب فى السنوات الأخيرة ولا سيما فى التجارة

التى أصبحت أسعارها رخيصة بعد وصول التوابل الى لشبونة ثم موقف البابوية وملوك أوربا بسبب العداء القديم بين الشرق والغرب .

٩ ــ ان حكومة الجمهورية واثقة من أن أعداء الطرفين لا بد سيلاقون جزاءهم ونأمل أن نكون قد وصلنا الى حد ازالة ما يكون قد علق بأذهانكم من نحونا ... ونعود نؤكد لسموكم ولعظمتكم أن أى خبر يحدث لابد من أن يصلكم نبأه عن طريق رجالنا .

١٠ ــ ونفيد سيادتكم وفخامتكم أننا سوف لا نقدم أى اعتذار آخر الا اذا أطلق سراح تجارنا .وممثلينا وهم واقعون تحت العقاب الشديد .

١١ ــ ونفيد فخامتكم كذلك أن جمهوريتنا لا تساعد القراصنة وخصوصا أننا نتكبد نفقات ضخمة فى اعداد السفن المسلحة للقضاء على القراصنة كطائفة وعلى الحرفة نفسها كعملية مرذولة ومكروهة من الجميع فاذا وصل الى سمعنا أن أى تاجر من تجارنا قد خالف هذه الأوامر ولم يحترم أمرنا فى عدم مساعدة القراصنة ، فسنوقع عليه عقوبات شديدة ليكون عبرة لكل واحد ويمكن لسموكم أن تثق فى كلامنا هذا ...

١٢ ــ ولا نريد أن نؤكد لفخامتكم مراعاة قناصلنا وتجارنا ومعاملتهم معاملة طيبة كما نؤكد لسيادتكم أن السفن سترسل فى مواعيدها ولا تحجز ، ونفيدكم أنه بمجرد علمنا بابحارها من طرفكم فى طريق عودتها الينا سترسل السفن الأخرى ، « سفن المدة التالية » التى ستحمل أموالا وسلعا كثيرة لأن التجار يرغبون فى المتاجرة بدون انتظار .

١٣ ــ كما نفيد سيادتكم أننا بسبب ضيق الوقت لم نستطع ارسال سفيرنا الكبير اليكم السيد « تريفيزانى » وهو سيصلكم فى

ميعاد قريب دليل على حسن نيتنا نحوكم وتوكيدا للصداقة الطيبة بيننا وبينكم التى كانت منذ مئات السنين وندعو لسموكم بسنين طويلة سعيدة (٧) .

ملحق رقم (٨)

٣١ ديسمبر ١٥١١

تعليمات للسفير دومنكوتريفزانى ـ سفير جمهورية البندقية الى السلطان .

١ ـ نحن ليوراندس لاوريدانس بعون الله دوق البندقية .. نأمرك ونعنيك مندوبا عنا أيها الشريف دومنجو تريفزانى فارس سان مارك العظيم من السناتو الى السلطان المعظم ...

انك باسم الروح القدس يجب أن تركب على السفينة المعطاة لك بقيادة كونتارين وأن تثابر على السير حتى تصل الى جزيرة كريت ، وربما تجد جواز المرور الى بلاد السلطان فى انتظارك لتأخذه معك ليسمح لك بدخول الاسكندرية والقاهرة ، واذا كان جواز المرور لم يصل بعد الى كريت فلا تنتظر وصوله بل استمر لأنه قد يقابلك بالطريق ، والا فواصل الرحلة حتى تصل الى ميناء أبى قير ، ثم ارسل أحد أتباعك الى الاسكندرية لتحصل على هذا الجواز ، واذا حصلت عليه فادخل الى المدينة واعرض خطابات الاعتماد على أمير الاسكندرية واستخدم معه ألفاظا لبقة ومقبولة وتعطيه الهدية المرسلة له منا لكى يعرف سيادته أننا نقدر شخصه . ثم تزور السادة الآخرين والعظماء الذين ترى أن من

---

(٧) Venise, 20 Jan. 1511,
Lettre au Sultan où Venise se plaint des représailles contre sa reception des envoyés du Shah Safoui.
Senato Secreta, Reg. XLIV F. 31.

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

الواجب زيارتهم ثم تسافر للقاهرة وتصل الى بلاط سمو السلطان الأفخم بالطريق المعتاد مع الحاشية والحرس حسب التقاليد المرعية والتعليمات المتبعة والتى تؤمر بها ، ولما يتقرر لك يوم التشريف تذهب رسميا فى موكب فخم يليق بك وبنا ، وتقدم خطاباتنا وتحييه تحية طيبة وتمدحه بألفاظ عذبة باسم دولتنا وتهنئه بصحته ورخاء بلاده وعزتها وترسل له الهدايا الخاصة به فورا باحتفال عظيم وبحضور مواطنينا فى بلاد السلطان ، واننا متأكدون أنك ستعمل هذه العملية بهمة ونشاط . وسوف لا يتم بحث أى موضوع بطريق جدى فى أول جلسة ، ولذلك عليك قبل أن تبارح المكان أن تحدد مع رجال السلطان مقابلة أخرى مع سموه لعرض ما سنذكره لك الآن .. وخلال المقابلة الأولى عليك أن تجتهد وتحاول بالمهارة المطلوبة منك أن تجعل نفسية السلطان فى حالة طيبة بالنسبة لنا وخاصة مع حاشيته ، والذى لاتستطيع التحدث فيه بتوسع عليك بتأجيله فيما بعد للوقت المناسب ... ثم تطلب التصريح لك بزيارة عظمة السلطانة لكى تهديها هدايانا كذلك ، ثم تزور كبار الأمراء وتعطى لكل هدية ...

٢ ــ وفى مقابلتك الثانية مع السلطان عليك بتحيته أحسن التحيات وبكلمات مناسبة ثم تضع أمام عينيه المبادىء ورءوس الموضوعات التى ستتحدث عنها فتبدأ أولا : بايضاح وجهة نظرنا وتلتمس الأعذار لدولتنا بشكل واضح عن تأخير ارسال السـفارة الى بلاط جلالته وتنسب التأخير الى الأحداث العظيمة التى صادفتنا منذ ثلاث سنوات بسبب خيانة ملك فرنسا الذى ظل فى حلف معنا قرابة عشر سنوات وأفاد منا افادة عظيمة ثم امتلأ بالاثم والشهوة وحب السيادة والسيطرة فلم يتورع عن الحنث بالعهد المعطى لنا منه كما حنث بكل التزاماته وتحالف مع أعدائنا ضدنا

وكان يطمع فى أن يتغلب علينا ويوسع دولته على حسابنا ، وبالرغم من أننا قدتحملنا خسائر كثيرة فاننا بالمساعدة الآلهية دافعنا كثيرا حتى عادت الأحوال الى ما كانت عليه ونأمل أن تتحسن أحوالنا كذلك ، وأن أى فرد يحاول ايذاءنا سينال عقابا صارما من العناية الآلهية . وقد عقدنا حلفا فى أكتوبر الماضى فى روما مع فخامة البابا المعظم وأصحاب الجلالة ملك اسبانيا وانجلترا ، وقد أخبرنا سيادتكم به فى حينه ، ويوجد فى الميدان الآن جيوش تابعة للبابا ولنا ولاسبانيا وسيعمل ملك انجلترا مثلنا . وعليك أن تخبر عظمة السلطان أن سكان Sguisari المتوحشين والقاطنين بجوار ميلانو ، قد خرجوا واتفقوا مع ملك فرنسا حتى أصبح اسمه مكروها من الجميع لسبب رغبتهم وطمعهم فى السيطرة على العالم . وتستطيع أن تؤكد أن أمره سينتهى بالمصير الذى يستحقه هو وأمثاله نتيجة لاطماع غير محدودة .. وهذا هو السبب الرئيسى فى تأخير ارسال السفير، وهذا التأخير أردنا الآن أن نعوضه بأن نرسل الى عظمة السلطان سفيرا عظيما هو أنت (تريفزانى) وانك من أعظم رجال السناتو فى بلدنا .. لكى تؤكد لسيادة السلطان مانكنه له من حب وتقدير ورغبة دائمة فى الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة معه . كما أننا نحب أن يكون مواطنونا فى بلاد السلطان مستمرين فى علاقتهم الطيبة مع سيادته ، وأن تتحسن على مر الأيام وتتزايد كما هو معتاد من مئات السنين وعلى هدى ما ورثناه عن أجدادنا وما سنتركه لذريتنا ليستمر كما استمر من قبل . ولا شك أن طيبة السلطان والمودة التى يغمرنا بها من آن لآخر ستمحو كل أثر تركه أعداؤنا فى نفسه ، على أن استمرار غضب السلطان علينا سيجعل التجار يهجرون أسواقه الى بلاد أخرى ، كما أن السفن التى اعتادت أن ترد له كل عام وتحمل الذهب والفضة والنحاس والقصدير

والحرير والكتان والزيت والفواكه ستتحـول عن بلاده ولن تحصل من بلاد السلطان على التوابل وكل المتاجر التى يحصل من ورائها على فائدة عظيمة وفى كل مرة يحدث هذا لا يمكن تعويض الوقت الضائع ..

٣ ـ ويجب أن تنبه عظمة السلطان الى أعدائنا وأعدائه فهم يعادونه منذ ٥٠ سنة كما أن أعمالهم ضده ، ولا يحضرون بانتظام لبلاده، ويصلون مرة كل ٣ سنوات ، بعكس تجارنا الذين يأتون لبلاد السلطان بانتظام (البندقية هنا توصى سـفيرها باثارة أحقـاد السلطان وتحويلها عنهم الى الفرنسيين) وكثيرا مايقومون بأعمال القرصنة أمام الاسكندرية بعكسنا تماما . وقوات قراصنتهم تحتمى برودس مقابل ٣٠ أو ٤٠ ألف دوكات من الحكومة الفرنسية . وسيادة السلطان يعرف جيدا هجومهم الأخير على سفنه وأنهم حاولوا بالدس والوقيعة والحيل أن يتسببوا فى الاضرار بنـا وبه . ونحن لا نريد أن نتعب فخامة السلطان فى العمليات الأخرى الواسعة المؤسفة التى يقومون بها لأننا واثقون من أنكم تعرفون هذا فعلا وانكم حازمون وتدركون الأمور على حقيقتها وأنكم تسيرون فى نفس الطريقة التى سار فيها أسـلافكم العظام . وما نقول هذا الا لمصلحتكم ومصلحتنا ..

٤ ـ واذا كان فخامة السلطان قد غضب لأن بعض رجال الصوفى قد وفدوا الى بلادنا منذ ٣ سنوات بالرغم من أننا قد برأنا أنفسنا من ذلك فى خطابات وسفارات سابقة ، فعليك أيها السفير أن تعيد تبرئتنا مرة أخرى وتؤكد أن وجودهم لم يكن لأسباب ضارة بالسلطان وليس فى الموضوع أكثر من أن الشاه بادلنا العواطف والمودة فبادلناه بها وهو ما تفعله مع الجميع . واننا على استعداد

لاثبات حسن نيتنا نحو فخامة السلطان ، هذه النية الطيبة التى كانت ولا تزال قائمة لم تتغير كما أننا نبادله عواطف صادقة مخلصة ونرجو أن تستمر . ولكى تثبت له حسن نيتنا فاننا نترك فى بلاده تجارنا وسفراءنا وكميات كبيرة من الذهب والفضة كما يشاء السلطان . وعليك أيها السفير أن تلفت نظر السلطان الى أن تجارنا لم يحصلوا على فلفل من بلاده لأن أثمانه القديمة سببت لنا الخسارة بسبب انخفاض الأسعار فى أسواق البرتغال كما أن تجار أوربا أصبحوا الآن يتجهون الى أسواق لشبونة لطلب التوابل . وقد دعينا لمشاركة البرتغال فى الأرباح العظيمة وأن نقوم بنفس العمل وبأرباحه ولم نستمع لهذا الكلام بل منعنا تجارنا من الذهاب الى لشبونة وداومنا الوصول الى أسواق السلطان كالمعتاد حتى لا يشك سيادته فى اخلاصنا أو فى أننا نميل الى الشاه ضده أو الى البرتغال أو الى ملك فرنسا ، ان مودتنا لا تنفصل عن مودة السلطان وتستمر الى مالا نهاية ..

٥ ـ عند وصولك الى الاسكندرية تكون السفن الموسمية قد حملت وانتهى الموسم فعليك بالتنبيه بسرعة الرحيل بدون تأخير ولا سيما سفن بيروت التى أرسلت منذ أيام الى ساحل سوريا ..

٦ ـ اذا كان تجارنا وقناصلنا محبوسين فى القاهرة فعليك أيها السفير أن تعمل على اطلاق سراحهم ومباشرتهم أعمالهم ، وهو أمر سهل بالنسبة لك ، وبما أن السلطان يعرف اخلاصنا وسابق تجارتنا معه فانه سيسهل لك الأمر .

٧ ـ وأرفقنا بهذا الخطاب نص المفاوضات والاتفاقيات التى عقدت عام ١٥٠٧ مع مندوب السلطان تغرى بردى ، وبما أن نيتنا قد استراحت لهذه الاتفاقية فان شروطها لابد من مراعاتها ، وقد أقسم الترجمان تغرى بردى باسم مولاه على احترام نصوصها ،

فاذا عرض لك أو سمعت من أحد تجارنا أنها لم تحترم ، ولم تراع ، فعليك بـــكل قوة وشــــدة أن تطلب احترامهـــا وتنفيذ بنودها ..

٨ ــ واذا اضطررت الى المناقشة والجدال فيما يختص بالهدايا المرسلة للسلطان المعظم بواسطة نائبنا فى قبرس وانها لم تنتخب كما يجب وحسب مشيئته فعليك باعتذار عن ذلك وبأنك لا علم لك به وانك ستكتب الى قبرس لمراعاة ذلك ارضاء لفخامة السلطان ..

٩ ــ طلبنا عدة مرات أنه فى حالة مفاجأة الزوابع لنا ليلا يجب أن يؤذن للسفن بأن تلجأ للميناء وبدون استئذان وهو مطلب عادل ويمكن الحصول عليه وأن السفن يمكن أن تقلع بعد أربعةأيام من انتهاء «المدة» دون الحصول على أمر أو اذن بذلك آخر ..

١٠ ــ ديوان القبان ــ كما ستعلم من قناصلنا ــ هو بصفة خاصة من الأهمية بالنسبة لنا بحيث اننا لا نود عمـــل تغييرات فى هيئته لخدمة مصالحنا وتأمرك بعد أن تحصل على معلومات فى هذا الشأن أن تحصل على تأكيد بعدم تغيير هذه الهيئة على وجه الاطلاق وان يراعى ما هو واجب وعدل .

١١ ــ ويجب أن تجتهد فى الحصول على ذلك فى أمر مربع وليس أمر طويل الذى يكلف كثيرا ، ولان الأمر المربع واجب الاحترام والتنفيذ بعكس الطويل .

١٢ ــ كل ما سيذكره لك قناصلنا وتجارنا وهيئة التجار بالاسكندرية وبيروت ودمشق هو لفائدة تجارنا وتجارتنا ، فيجب أن تنصت لهم وتطيعهم وتجتهد فى الحصول على طلباتهم وان تهتم تماما بالنفع والفائدة لطائفتنا وتجارنا حسب مصلحتنا .

١٣ ــ لا تحدد لك وقتا لبقائك لهذه السفارة بل ان لديك من الوقت ما تحتاج له ، فقط عليك استخدام لباقتك فى الحصول على ما طلبناه بأسرع ما يمكن حسب قصــدنا . وفى الوقت الذى ستمكث فيه فى القاهرة تجعل الســفينة المذكورة تنتظــرك فى المكان المناسب حتى تكون مستعدة للرحيل فى أى وقت .

١٤ ــ من حيث انك قد تحتاج الى الأموال فى بعثتك هذه ، قرر مجلس السناتو أن يعطيك قنصل الاسكندرية وقنصل دمشق حسب طلبك كل ما تريد انفاقه بالكامل .

١٥ ــ لما تصل الى كورفو وكريت شرقا عليك أن تحصل على مركب آخر ضمانا للأمانة، مركب آخر من مراكبنا من أسطولنا، المنتشرة فى البحر المتوسط أفخم من هذه وتصل بها للاسكندرية . وبعد وصولك تسرح هذه السفينة لترجع لوحدتها بالأسطول .

١٦ ــ بالنظر لأنه فى مثل هذه السفارة لا يمكن اعطاء كل البيانات والتفصيلات المطلوبة والتى يمكن أن تحدث فاننا لسنا فى موقف ننتظر فيه خطابات منك بشأن كل صعوبة ستقابلها ولا يمكن الاجابة عليها بسرعة لأن المسافة والوقت والرحلة لا تسمــح بذلك . نقول لك اننـا واثقــون من براعتك وانك ســتذلل كل عقبة وكل صعوبة تتعلق بالتجارة أو أى شيء يحدث هناك بجانب الصعوبات التى عيناها فى أمرنا هذا لك ، فان لك مطلق الحرية

---

(٨) 31 Décembre, 1511.
Instructions à Domenico Trevisan ambassadeur au Sultan
Senato Secreta, Reg. XLIV F. 92 V.

1511 — Die Ultimo Decembris — ١٥١١ نهاية شهر ديسمبر
(Commissir Viri Nobilis Dominini Travia ani Equitis Procuratoris S. ti Marci, designati Oratoris ad Serenissimum D.m Sultanum etc...)

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

في التصرف بأى شكل وبأى كيفية تبدو لك أنها أفضل وأسرع من غيرها .

١٧ ـ يمكن أن تحمل معك نقودا بقيمة ٥٠٠ دوكات على حساب تجارنا بالاسكندرية ودمشق حسب ما هو معتاد حسابه فى جمهوريتنا ...

نص اتفاقية السفير البندقى « تريفزانى » والسلطان « الغــورى » ١٥١١/١٥١٢

الاتفــاقية التالية بين البندقية والسلطان الغـــورى من أهم الاتفاقيات التى عقدت بين جمهورية البندقية وسلاطين المماليك وتعرف « بالاتفاقية الشاملة » ـ وقد حوت العديد من التفصيلات والنظـم التجارية التى كانت متبعة فى تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى كما تعطينا فكرة عن حالة التجارة أواخر العصور الوسطى وبعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد أثر ذلك على تجارة مصر وسوريا مما مهد فعلا لسقوطهما فى يد العثمانيين ١٥١٦/١٥١٧ .

وقد لوحظ فى هذه الاتفاقية أن السلطان كثير القــلق والضيق بسبب النقص البادى فى ايرادات جمارك الاسكندرية من تجارة البهار والتوابل والسلع الشرقية عامة . وكان يحاول محاولات جدية استعادة مركزه الممتاز فى هذه التجارة ، المركز الذى كان له من قبل تحول الطريق الى الهند بحرا حول افريقيا ، ومحاولاته هذه فى الواقع كانت فردية وان عاونه بعض أمراء الهند ...

والسلطان بصفته رأس الحكومة هو المسئول الأول والأخير عن رفع أو تخفيض ضرائب الجمارك على السلع الشرقية ، كما أنه بنفسه كان يحتكر التجارة فى التوابل .

أما البنادقة فقد ساءهم ما وصلت اليه الحال بعد تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح وأثارهم تباطؤ السلطان واضطروا

أن يتحولوا الى أسواق لشبونة يعبون منها التوابل ، ولم يرسلوا كل عام للاسكندرية الا القليل الأقل من السفن .

وقد صحب تريفزانى الى القاهرة المترجمون والمختصون فى الشئون الشرقية بمجلس السناتو البندقى ، كما كان يصحبه فى أمثال هذه البعثات بعض رجال الدين ، وقد يكون ذلك للصلاة أو للطقوس الدينية فى حالات الوفاة المفاجئة .

والاتفاقيات الآتية ليست معاهدات بالمعنى المعروف بل هى مجموعة أسئلة يقدمها السلطان وتلقى عليها الاجابات من تريفزانى وبعثته ثم تجمع كلها ليعمل بها الطرفان وكانت تكتب باللغة العربية والايطالية القديمة ، والاتفاقية الواردة هنا مترجمة من الايطالية القديمة الى الفرنسية وهى مترجمة من كتاب

Reinaud, M.
Journal Asiatique. t. IV.

القاهرة فى ٥ يونيو ١٥١٢

السؤال الأول (من السلطان) :

اننا اعتدنا بمجرد وصول السفن الموسمية البندقية الى الاسكندرية ، فانها كانت تمارس عملياتها فى البيع والشراء بطريق المقايضة (التبادل) لجزء كبير من السلع ويختار القنصل أربعا من التجار البنادقة مواطنيه لتثمين وتحديد سعر التوابل الخاصة بالسلطان (توابل الذخيرة الشريفة) ، ثم تحديد سعر التوابل المشتراة من السوق بالأسعار الحرة ، ويصحب الأربعة المذكورين والقنصل مندوب السلطان الخاص لحضور تقدير أثمان التوابل والبهار . هذه الهيئة هى الموكل اليها تقدير أثمان التوابل السلطانية والتوابل الحرة ، وهذه الهيئة المذكورة لا تنتهى مهمتها فى مصر قبل أن تصل الى اتفاق مرض

للطرفين .. السلطان والتجار البنادقة .. وهى فى الغالب تصل الى ما يريح الأطراف المعنية ... هذا ما كان يتم قبلا ، أما منذ عـودة سفيرنا « تغرى بردى » من طرفكم فان هذا النظام تغير ولم يعـد معمولا به بنفس الدقة والنظام القديم ..

الاجابة من (تريفزانى) :

ردا على هذا السـؤال نقول اننا اعتدنا أن نحدد ثمن الـ ٢١٠ أحمال من البهار الذى نشتريه كل عام بواسطة الهيئة المذكورة ، أما الآن لما أصبح ثمن الحمل الواحد لا يتعدى ٨٠ دوكات فان وجود الهيئة على النحو السابق أصبح غير ذى موضوع ويقال مثل ذلك عن الأنواع الأخرى الحرة من التوابل والبهار .. ومن الآن يكون لنا ولكم مطلق الحرية فى وضع السعر المناسب وتحديد وتثمين التوابل .

السؤال الثانى (من السلطان) :

فى السنوات الماضية كان يصل لميناء الاسكندرية ثلاث سفن موسمية وفى فترة اعداد حمولتها تذهب الى بلاد المغرب وتعود محملة بالبضائع للاسكندرية ، فلما لم تواصل هذه السفن هذا النوع من النشاط التجارى منذ عودة بعثة « تغرى بردى » الى القـاهرة من أوربا ... ؟

الاجابة :

ان جمهورية البندقية لم تحاول أن تقلل من عدد السفن بل هى تحاول أن تجعلها مثلما كانت من قبل .. واذا كان عدد السفن قد قل لسبب خارج عن ارادتنا ، لأن السلام فى البحر المتوسط أصبح متقلبا ، وهدوء الملاحة فى هذا البحر هام جدا لتجارتنا فنحن لا نستطيع العمل الا فى بحر مفتوح غير مغلق بالحروب لا سـيما وأن ملك أسبانيا فى حالة حرب رسمية مع الولايات البربرية (يقصد البربر) فى شمال

افريقيا فى المغرب وفى الأندلس من قبل، والملاحة مهددة فى كل وقت..
ولكنا نعدكم أنه بمجرد ايقاف الحروب وبمجرد أن تستطيع سـفننا
المرور بدون خسائر فاننا سنواصل عملنا المعتاد كسابق عهدنا بكم ...

السؤال الثالث :

ان سفن البندقية كانت تأتى الينا كل عام محملة بالبندق واللوز
والجوز والزبيب والعنب ويعطى جزء منه هدايا لدار الذخيرة الشريفة
وللناظر والمفتش والقبان ولكل من له صلة بالنقل ، كل هذا لم نعد
نراه هنا منذ عودة سفيرنا تغرى بردى من أوربا .

الاجابة :

فيما يتعلق بتوزيع الفاكهة المذكورة نعلن أننا فى غاية الأسف
لسهونا عن هذه العادة القديمة ، وتفسيرا لذلك فاننا قد وجدنا أن
توزيع هذه الفاكهة بكميات كبيرة يؤدى الى خفض سعرها فى الأسواق
المصرية مما قد يؤدى الى الاضرار بتجارة السلطان فتوقفنا عن توزيعه
هبات لان جزءا كبيرا من هذه الفاكهة يباع فعلا بأسعار منخفضـة
جدا .. ولا يخفى عليكم أن مكسب هذه السلع قليل ولا يغرى تجارنا
على حمله اليكم ، وهم لا يربحون منه الا الضئيل القليل فى الوقت
الذى نود فيه أن نزيد من عدد تجارنا الوافدين اليكم .

السؤال الرابع :

ان تجاركم كانوا كل عام ملزمون بشراء ٢١٠ أحمال من التوابل
لحساب دار الذخيرة الشريفة ويدفعون لها الثمن نقدا بدون مساومة ...
أما الآن ومنذ وصول سفيرنا تغرى بردى من أوربا لم نلاحظ اهتمامكم
لتنفيذ هذا القانون بدقة .

الاجابة :

اذا لم يصر السلطان على رفع ثمن الحمل من التوابل الشريفة عن ٨٠ دوكات يصبح بامكاننا اغراء تجارنا بشراء الكميات المذكورة آنفا .. واذا رأى سموكم ألا يتنازل عن أسعاره بحجة أن التوابل ليست كسابق العهد وغير مربحة فان الطرفين حينئذ ليسا ملزمين بتنفيذ الاتفاقية .. وعلى أي حال فان سعر الحمل الآن حوالى ٤٠ دوكات ، ولكننا حسب الاتفاقية السابقة نعد السلطان بأن نشتريها بحوالى ٨٠ دوكات على ألا تزيد على ذلك اطلاقا ، وحتى على فرض اذا زاد الثمن فلن ندفع أكثر من ٨٠ دوكات وهو السعر المتفق عليه أما المشترى من السوق الحر فللسلطان أن يتصرف فيه كيفما شاء .. اننا نعدل فى معاملتنا مع الجميع ونحب كذلك أن نعامل بالعدل .

السؤال الخامس :

ان تجار البندقية فى أوبتهم للاسكندرية كل عام كانوا يحملون معهم من السلع : الزيوت والنحاس والرصاص والأنسجة الصوفية والجلود ووبر الجمال والقطيفة ، وحوالى نهاية العام تحمل السفن حاملة هذه السلع ومن يوم وصولها حتى انتهاء « المدة » أو « السوق السنوى » لا يتوانى البنادقة عن البيع والشراء والتعامل مع المصريين سواء بالمقايضة أو بالمقطوعية المتفق عليها بالنقد الذهبى ؟ .. أما الآن فلا يصل الا عدد قليل من السفن بل ان كل سنة لا تصل الا سفينة أو سفينتان موسميتان ، ولا تبيع ولا تشترى كسابق عهدها . وفى النهاية لا تصل أرباحنا حتى نهاية المدة المذكورة لاكثر من مبيعات يوم واحد من السنوات الماضية .

الاجابة :

حقيقة أن سفننا كانت تأتى فى بحر السنة وهى محملة بالسلع المختلفة وكان هذا للحرية الكاملة التى كنا نتمتع بها فى التجارة فى البيع والشراء . شكرا لكم للتسهيلات التى كنا نحصل عليها فان هذا يعطينا الفرصة مقدما لاحضار كميات من هذه السلع . أما الآن فان الحكومة قد رسمت بأن السلع التى تصل لا تباع الا بسعر مقرر مثل أسعار المدة السابقة عليها ، أو بالسعر الذى يقرر « للمدة » التالية وعلى هذا فان التجار الذين لا تمكنهم ظروفهم من الوصول خلال «المدة» الى السوق السنوية فانهم لايستطيعون البقاء للمدة التالية وهذا بالطبع يؤدى الى الاضطراب والانهيار فى الحركات التجارية .. ويستطيع السلطان أن يصدر أمره بأن تسرى أسعار المدة على أسعار العام كله حتى « المدة » التالية ليستطيع تجارنا ممارسة البيع والشراء فى أى فترة من السنة دون تحديد ضار ..

السؤال السادس :

تصل الى الاسكندرية كل عام خمس سفن موسمية ، هذا عدا السفينتين اللتين تتجهان الى ساحل المغرب وبلاده ، والسفينة التى نحجزها لخدمتنا الخاصة وبمجرد الانتهاء من البيع والشراء بانتهاء « المدة » تبقى بالاسكندرية كميات كبيرة من المتاجر من الزيوت والنحاس والرصاص والصوف وكلها لا تقل فى قيمتها عن ٣٠٠٫٠٠٠ دوكات ، ويصير البيع والشراء والمتاجرة فيها على مدار السنة هى فى الواقع تحدث ما يسمى باسم « السوق الدائم فى بلادنا » أما الآن فبعد انتهاء المدة لاحظنا أنه لا يبقى من البضائع الا فى حدود ٢٠٠٫٠٠٠ دوكات كما أننا نلاحظ أنه لا يصل أكثر من ثلاث سفن موسمية بمفردها ومعها قليل من المراكب وقليل من السلع .

الاجابة :

فيما يتعلق بعدد السفن القليلة التى تصل وقلة ما تحمله من التوابل ومن السلع الأخرى وهو مالا يملأ أكثر من سفينتين أو ثلاث فردا على ذلك نفيد أنه اذا كانت هذه السفن قليلة فان حمولة الثلاث منها بالتوابل ليس بالقليل فى هذا الوقت ، فخلال القرن الماضى كانت التوابل غير مرتفعة الأسعار : فمثلا أجود أنواع الزنجبيل الذى يساوى ما بين ٨ ــ ١٠ دوكات للقنطار الواحد فى القرن الماضى أصبح يساوى الآن ٤٥ دوكات ، وأسعار باقى التوابل ارتفعت بهذه النسبة بمعنى أن قيمة حمولة الثلاث سفن الآن تساوى ما قيمته ستة أمثال حمولة سفن العصر الفائت ، وهذا تفسير لقلة وصول السفن وقلة حمولتها فى القرن الماضى .

السؤال السابع :

بعد رحيل السفن الموسمية تبقى السلع طول العام بالاسكندرية وكان يتواجد باستمرار ما لا يقل عن ١٥ تاجرا للمتاجرة بيعا وشراء أما الآن فلا نرى أكثر من ثلاثة أو أربعة تجار على الأكثر وهم ليسوا سوى ممثلى الشركات طرفكم . ونريد تفسيرا لعدم وصول أعداد كبيرة وبقاء أعداد كبيرة منكم هنا للبيع والشراء .

الاجابة :

كان هذا يحدث كلما أحب التجار السكن والبقاء بالاسكندرية وكلما سنحت لهم الفرصة للعمل التجارى بحرية كاملة ، أما الآن فللأسباب التى ذكرناها فى الاجابات السابقة لا يبقى الا الرؤساء . فى الوقت الذى سيجد فيه التجار فائدة من بقائهم سيبقون بل وأكثر مما كانت أعدادهم فى الزمن السابق .

السؤال الثامن :

تجاركم كانوا يبيعون ويشترون طول العـام ويملأون مخازنهم بالتوابل فى انتظار عودة سفنهم من رحلتها الفرعية الى بلاد المغرب . وكانوا يشترون فى المعتاد حوالى ٦٠٠ طرد من التوابل أو على الأقل ٥٠٠ لا يدخل ضمنها حساب ما يشترونه من المغرب ، ولدى عودة السفن يقومون بتحميل التوابل بهذه السفن ودفع القيمة المطلوبة لعامل السلطان ثم يشحنونها ويبقون باقى المدة يتاجرون بيعا وشراء حتى نهايتها ، أما الآن فلا تجد بين أيديهم أكثر من ٢٠٠ طرد من التوابل بسبب قلة ما يحملونه الى بلادكم والركود الذى شمل معظم الأعمال .

الاجابة :

نعيد القول بأن حرية التجارة هى التى بامكانها وضع الأعمال فى حالة طيبة واذا كان بقاء التجار فيه فائدة للسلطان فهو خسارة لتجارنا والسلطان لا يستطيع أن يمن عليهم بشىء من المنفعة لقاء بقائهم بدون عمل حتى « المدة » القادمة .

السؤال التاسع :

يصلنا كل عام ٤٠٠ قنطار من صفائح النحاس وأحيانا ٣٠٠٠ قنطار دون حساب باقى الأنواع الأخرى من النحاس أما فى العـام الماضى فلم يصلنا أكثر من ٨٠٠ قنطار من الصفائح النحاسية وليس أكثر من ذلك .

الاجابة :

اجابتنا على هذا أن ما يمنع تصدير نفس الكمية من النحاس كالعهد السابق هو أن الكمية التى كنا نحصل عليها ونصدرها لكم كانت تؤخذ بدون رضانا أو رضاءأصحابها ودون موافقتهم فى معظم الأحيان،

وفي مقابل ذلك كنا نعطيهم مواد ثمينة كالتوابل ــ أما الآن فان التجار لا يطمئنون فى معاملة طيبةأو فى الحصول على مايطلبون مقابل نحاسهم ولا يطمئنون الى أنهم سيبيعون بالأسعار التى يطلبونها لذا لا يتاجرون فى النحاس بعد . وعلينا كذلك أن نضع فى اعتبارنا مسألة السـلام والعلاقات الطيبة مع الألمان وحرية التجارة معهم .

السؤال العاشر :

كان يصلنا كل عام من ٣٠٠٠ ــ ٤٠٠٠ طن من الزيوت وأكثر ، وهذا العام لم يصلنا أكثر من ٥٠٠ طن .

الاجابة :

ان ما يمنع تصـدير الكمية المذكورة هو تذبذب الانتـاج ، فالزيوت مثلها مثل منتجات الأرض الأخرى ويسرى عليها ما يسرى على غيرها فقد يتجمع فى سنة ما كميات كبيرة وقد يقل فى سنوات أخرى . ان قاعدة نجاح وثراء التجارة هو البيع بحرية سواء كانت الحرية فى الأسعار أو فى نوع البضائع واذا لم يتبع الفرد هـذه القـاعدة ولم تتح له فرصـة البيع بحرية فلا كانت تجارة ولا كان ربح ..

السؤال الحادى عشر :

كان يصل كل عام على السفن الموسمية والمراكب الاحتيـاطية أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ من النقد متعددة الأنواع .. أما الآن فلا يصل بالأكثر الا ٢٤٫٠٠٠ دوكات من النقد فى عامين ...

الاجابة :

ان ما كان يجذب رءوس الأموال هنا هو حرية التجارة والبيع والشراء فى التوابل على مدار السنة فى مصر بأسعار ملائمة لكل من المشترى والبائع ولكن الآن بعدما أصبح التاجر مرتبطا بالأسعار فى « المدة التالية » بالسعر الذى يحدده السلطان قبل انتهاء « المدة » القائمة فان أى تاجر أصبح لايجازف بارسال أمواله وتجارته الى مصر اذ ليس بامكانه بذلك أن ينظم أعماله التالية وفق ارادته . وعلى أى حال فان البهار الذى يكون الموارد الرئيسية فى تجارتنا معكم والذى يجذب الكثير من التجار ورءوس الأموال لم يعد بامكاننا شراء كميات كبيرة منه بسبب المبالغة الشديدة فى الأسعار فى مصر .

السؤال الثانى عشر :

اعتاد البحارة لدى وصولهم طرفنا بسفنهم الموسمية عرض مختلف أنواع السلع التى يملكونها كالأصواف والشمع وكلها لا يقل ثمنها عن ٥٠٠٫٠٠٠ دوكات ومبيعاتهم لنا بالنقد وبهذه الفلوس يشترون حتى نهاية « المدة » توابل دار الذخيرة الشريفة ومتاجر المغرب .. ونحن كنا نمنحهم مطلق الحرية فى هذا الخصوص ، أما الآن فلا يمكن الشراء طالما أن « المدة » انتهت وهذا مما يزيد فى استيائنا وتذمرنا .

الاجابة :

انه لنفس الأسباب السابق ذكرها لا يمكن اخضاع أو اجبار البحارة لأن يعملوا الا بنفس الأساليب التى يعامل بها التجار ، وفى الواقع ان كثيرين منهم يشترون ليس فقط لحسابهم الخاص بل كذلك لحساب آخرين من التجار الذين لا يتمكنون من المتاجرة بأنفسهم حسب القوانين الموضوعة وليس هناك من الأسباب ما يجعلنا نفرق

بغير العدل بين الجميع فى التجارة . ان القانون والقاعدة العـادلة يجب أن تسود بين كل المواطنين .

السؤال الثالث عشر :

كنا نرى من قبل فى المعتاد أربع سفن موسمية للبندقية تتخذ مركزها باستمرار على ساحل جزيرة قبرص وسوريا بقصد تعقب وطرد سفن القراصنة ولكن نلاحظ أن القراصنة الآن يتموّنون بالماء من هذه الجزيرة ، بل انها تعتبر وكرا للقراصنة البحريين ونقطة ارتكاز لهم فى اغارتهم علينا .. بل ان الأهالى بالجزيرة يموّنونهم بالماء والميرة وكثيرا ما هاجموا موانينا عند دميـاط ورشـيد ويحملون ما يعثرون عليه وما ينهبونه كما يأسرون الأهالى .

الاجابة :

فيما يختص بجزيرة قبرص فاننا لم نهمل أى مادة تعهدنا بها فى أى وقت فى أى اتفاق معكم . ومنذ عامين لو لم نستخدم الحزم والشدة فى سياستنا فى الجزيرة لأصيب الجميع بأضرار جسيمة . فيما يتعلق بباقى الشـكوى فان حكومة الجمهورية سـترسل لنائبها فى الجزيرة ونأمل ألا يحمل السلطان هما لذلك بعد الآن .

السؤال الرابع عشر :

كل الذهب والفضة الذى يصل للاسكندرية سبائك أو عملة لا تباع الا لدار الذخيرة الشريفة وبسعر السوق الجارى . واذا أراد بائع هذه المعادن رفع أثمانها فهو فى ذلك السيد المطلق على الأقل اذا لم يرد استبدالها بتوابل من تجار الاسكندرية وفى هذه الحالة يؤذن للتجار بترك ما لهم فى دار الذخيرة بدون أى خوف من أن يختلس منه شىء حتى يتم لهم الشراء ضمانا لأموالهم وضمانا لتجارة وأموال التجار بالاسكندرية ، وليكن معلوما أنه اذا حدث أن أى

بندقى حاول بيع الفضة لغير دار الذخيرة الشريفة الخاصة بها ـ فان هذه الكمية تصادر لصالح دار الذخيرة الشريفة .

الاجابة :

اذا كان هناك أى شىء يجب أن تترك حرية تجارته وان تسهل عمليات تداوله والتعامل معه وبه فهو لا شك الذهب والفضة . واذا أجبر أولئك الذين يقومون ببيعه على خطة معينة ولفرد دون فرد فمعنى هذا أن الحرية منعدمة تماما ، وهذا يجعل التجار يحجمون عن الحضور ... ولذا فانه من الأفضل أن يتركوا أحرارا فى عرض سلعهم حسب رغبتهم وبيع فضتهم حسب السوق الجارية . ويهمنا هنا فى ذلك الاهتمام بالموازين كما هو متبع فى البندقية والمدن الايطالية الأخرى .. أما السبب فى نقص الفضة عما كانت عليه من قبل فهو لأن الحرب قد وضعت أوزارها بعد أن وضعت عراقيل ازاء اخراجها من المناجم ، وأما لأن الكمية كبيرة منها قد مرت الى لشبونة لاستخدامها فى شراء توابل الهند وبهارها بأسعار رخيصة ، ونأمل ألا يفهم أى فرد من العامة أن السلطان له اعتراض على هذا الأمر .

ملحق رقم (٨ أ)

الاتفاقيات بين السلطان « قانصوه الغورى » والبندقية عن طريق السفير البندقى « تريفزانى » فيما يتعلق ببيع الـ ٢١٠ أحمال من التوابل احتكار خاص السلطان .

ان تجار البندقية المتفاوضين مع رجال السلطان ، بناء على حث السلطان لهم لاتمام المهمة قد انتهوا فيما بينهم على اعطاء السلطان

مبلغ ٦٠٠٠ أشرفى ثمنا لبهار « ثلاث سنوات » مقدما بمعنى أن قيمة توابل السلطان لكل سنة هى ٢٠٠٠ أشرفى . ولما كان السلطان يبدو غير موافق فان هيئة المفاوضين بعد أن حاولت واستخدمت عدة طرق وافقت بعد جهد جهيد على الشروط أدناه ، وذلك بحضور القنصل والتجار الذين يتاجرون بالاسكندرية .

الاتفـــــاقية

١ ـ فيما يختص بالمائتين والعشرة أحمال من البهار : اذا جعل السلطان ثمن الحمل الواحد ٨٠ دوكات طبقا لاتفاقيتنا وطبقـا لأوامر الجمهور فاننا نجد أنفسنا مضطرين لأن نقوم بالتنفيذ .

٢ ـ اذا كان سمو السلطان لا يريد التعامل معنا على أساس هذا السعر اما لأن تجارة البهار لم تعد مربحة واما لأنه يستطيع أن يفعل مايشاء : فان البهار لا يساوى فعلا الا ٤٠ دوكات للحمل الواحد ونحن لا ندفع الزيادة الا لخاطر السلطان .

٣ ـ أما باقى الشروط فاننا نترك الحرية الكاملة للسلطان لوضـع ما يلائمه من شروط مع عدم الاضرار بنا وعلينا الموافقة والتنفيذ على أنه اذا وافق السلطان على طلبنا ولم يعمل على رفع السعر عن ٨٠ دوكات للحمـل الواحـد ، فان الجمهورية توافق على المتاجرة بما قيمته ٥٠٠٠ أشرفى لكل مدة سنويا ، من السفن الموسمية التى تصل من البندقية الى الاسكندرية وتدفع مقدما قيمة ثلاث سنوات وهو ١٥٫٠٠٠ دوكات أشرفى .

٤ ـ وقبل أوبتنا لوطننا فاننا نأمل فى سـمو السـلطان الأفخم بأن يسمح وهو العادل بأن يأمر رعاياه وموظفيه بعدم اجبار تجار

البندقية على شراء البهار رغما عنهم لا بطريق المقايضة ولا بالنقد والا يجبر على أن يشترى بسعر حدد من قبل سوى سعر البهار الخاص بالسلطان عن طريق الذخيرى عامل دار الذخيرة الشريفة أى اا ٢١٠ أحمال السابق تحديد سعرها . وبعد الانقضاء للثلاث سنوات المذكورة أو الثلاث مدد المذكورة سنقوم بعمل ترتيب جديد ان شاء الله ، وكما نود أن يكون التحسين كاملا فى الأمور كلها ، فان كل شيء سيسير حسب راحة وسرور السلطان .

٥ ــ اذا حدث بطريق المصادفة أنه بعد هذه الثلاث مدد أن السلطان لم يوافق على الاستمرار بالعمل على أساس سعر الحمل ٨٠ أشرفيا سلطانيا فان حكومة الجمهورية فى هذه الحالة لا تكون ملزمة بأن تحمل المبلغ الذى تدفعه فى كل مدة ٥٠٠٠ أشرفى كسابق العهد لكل مدة وبنفس الشروط المعمول بها الآن .

ملحق (٨ ب)

ان التجارة فى هذا الوقت المبكر من القرن ١٦ وأواخر الحكم المماليكى بدأت تتدهور حتى ان الدخل السلطانى قل بدرجة كبيرة ، وساء السلطان برغم الاتفاقية السابقة أن تصل تجارته لهذه الدرجة وأخذ يسترجع العظمة والدخل العظيم اللذين كانا لتجارته من قبل ، وجأر بالشكوى واتخذ تدابير جديدة فقدم طلبات للسفير البندقى تريفزانى على شكل أسئلة ويرد السفير باجابات .

السؤال الأول أو الطلب الأول :

اعتاد البنادقة بعد وصول سفنهم الموسمية البيع والشراء بطريق المقايضة لأهم أجزاء حمولتهم بعد أن يوافق القنصل على ثمن توابل الذخيرة الشريفة ولكن هذا لم يتم فى السنوات الأخيرة .

الاجابة :

اجابتنا على ذلك أننا سنعمل جهدنا على انهاء كل المسائل الخاصة بالسلطان مع مدير أعماله على أن تكون هى فى المقدمة على كل الشئون .

السؤال الثانى :

فى كل عام يظهر للبندقية ثلاث سفن موسمية وهى بعد أن تبحر جيئة وذهابا عدة مرات على طول الساحل الافريقى ، تحمل التوابل من الاسكندرية الى بلاد المغرب لحساب تجار الاسكندرية وكذلك للجزر القريبة فان هذا كان يؤدى لمنفعة كبيرة لدار الذخيرة الشريفة والجمرك وتجار الاقليم .

الاجابة :

سنعمل على ارسال السفن التى ذكرتموها طالما أن ليس هناك أى خطورة فى الطريق .

السؤال الثالث :

ان البنادقة لدى وصولهم الى الاسكندرية بالفواكه كان من عادتهم ترك جزء منها لمن هم فى خدمتهم بموجب عملهم ...

الاجابة :

سنعمل على ابقاء هذا طبقا للعادات القديمة .

السؤال الرابع :

كانت العادة أنهم يحملون كل عام ما حمولته ٢١٠ أحمال من البهار بمعنى أنهم يحصلون على ٢٠٠ حمل من توابل السلطان وعشرة أحمال من عامل الخزينة هذا هو التقرير الذى رفعه الينا القاضى علاء الدين وكيل دار الذخيرة الشريفة . هذا لا يتم الآن .

الاجابة :

ان مبلغ الـ ٥٠٠٠ أشرفى تدفع فى كل مدة لصالح الـ ٢١٠ أحمال من البهـار دون تجـزئة .

السؤال الخامس :

ان السفن الخاصة بالبنادقة تحمل كل أنواع المتاجر من نحاس وفضـة وهى غفل والزئبق والزنجفر والجوخ والقصـدير والقطيفة والزيوت والغراء .. وتصل السفن الخاصة بكم حوالى نهاية العام لكل أنواع السلع فيسير البيع والشراء بطريق التبادل فيما يختص بالتجار الذين يشترون نقدا ويتم الموافقة على دفع الثمن قبل انقضاء فترة المدة .. والآن لا يصلنا الا عدد محدود من السفن .

الاجابة :

أشرنا الى هذا سـابقا ، وفيما يختص بهـذا الموضـوع فقد وافقنا عليه .

السؤال السادس :

تصل كل عام فى المعتاد خمس سفن موسمية للبندقية مع اثنتين أخريين وبعض السفن الصغيرة ، وبعد انتهاء المدة ورحيل السـفن الموسمية تبقى بالاسكندرية سـفن الزيوت والسلع الأخرى ، ومعها الفضة وتبلغ قيمة السلع على وجه العموم ٣٠٠ر٠٠٠ أشرفى ويواصلون بعدئذ البيع والشراء حتى عودة السفن الموسمية ، والآن لا يتبقى على أكثر تقدير من السلع ما قيمته ٢٠ر٠٠٠ أشرفى ولا يصل أكثر من ٣ سفن موسمية ومعها بعض السفن الصغيرة .

الاجابة :

لعـل العجز البادى هنا يرجع الى الحروب .. وهذا خارج عن ارادتنـا .

ملحق رقم (٨ ج)

تعليمـــات

١ ـ لا يستطيع أى فرد من الفرنجة أن يبقى بالقاهرة أكثر من ثلاثة شهور وألا يشترى من التوابل ما يشاء باسم غيره « يهودى أو مغربى » انما له أن يشترى ما يشاء باسمه الخاص .

٢ ـ فى حالة مخالفة هذا القانون ، فان السلع المشتراة تصادر لحساب « دار الذخيرة الشريفة » ، وعلى الفرنجى المخالف أن يتحمل القصاص الذى يفرضه عليه السلطان ، وليس من المصرح لأى فرنجى أن يتزوج من القاهرة أو يبقى بها كجاسوس ، وعلى الجميع أن يعرفوا التعليمات لدى وصولهم بلادنا .

٣ ـ ان الأقمشة التى تحمل الى مصر كانت فيما سبق متساوية الأطوال جميلة المنظر أما الآن فهذا النظام يسرى على الثلاث أذرع الأولى فقط من الثوب أما الباقى فيدعو للرثاء حقا .

٤ ـ يبدو أنكم تلفون الثوب دون تنديته حتى يبدو أطول ومرنا ، ولكن بعد أن يفصله المصرى ويغسله ينكمش وينقص ، ونقصه هنا نقص مزر ـ نرجو مراعاة ذلك فى المستقبل .

٥ ـ للعربى الحق فى رد الثوب الذى يباع له دون أن يبتل واذا قبل شراءه على حاله دون بله فلا دخل لنا فى ذلك .

ملحق رقم (٨ د)

بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية فى الاسكندرية بناء على طلب القنصل وتجاره بالمدينة .

يجب مراعاة الآتى :

١ ـ بعد وصول سفن البنادقة الموسمية الى ميناء الاسكندرية تتم

أعمال البيع والشراء حسب الاتفاقيات السابقة ، ثم يبقى تجار البندقية مدة ثمانية أيام لدفع أموال دار الذخيرة الشريفة ووسق السلع التى اشتروها ، وبعد ذلك يتصل حاكم الاسكندرية مع مدير أعمال السلطان ، ويكتبون لبلاط السلطان بانتهاء الأعمال المطلوبة ويطلبون تحديد موعد الرحيل فاذا جاء التصريح يطلق للبنادقة حرية السفر ، هذا اذا لم يكن هناك ما يعترض عليه أو اذا رغبوا هم فى البقاء .

٢ ـ كل المعادن الثمينة (النقدية) سواء كانت عملة أو خام التى يحضرها البنادقة لابد من دفع الرسوم الجمركية المفروضة عليها للسلطان لامكان ادخالها الى البلاد ثم بعدها يمكن البيع والشراء لمن يريد من البنادقة بمنتهى الحرية ويحظر على البنادقة بيع هذه السلع المالية على ظهر السفن الموسمية أو على أى سفينة أخرى عادية .

٣ ـ كل الأعمال التجارية التى تتم نقدا تكون قيمة السمسرة المستحقة عليها هى ١٠٪ واذا حدث أى تغيير تصير ١١٪ فيما يختص بالتوابل التى لم تحدد أثمانها (الحرة غير الـ ٢١٠ أحمال توابل شريفة) يسرى عليها سعر السمسرة الجارى تداوله .

٤ ـ لا يجبر أى بندقى على بيع تجارته بالدفع المؤجل سواء كانت سلعة أو عملة أو معدنا ، كما أن العامل المختص لا يبالغ فى عمليات السمسرة الصغيرة بأكثر من ٤ مدين لكل ١٠٠ دوكات أما حق الترجمان فلا يدفع الا بعد شراء التوابل وانتهاء فترة المدة وحقه لا يزيد على ٤ مدين لكل ١٠٠ دوكات(Medins)

٥ ـ للتاجر البندقى حق البيع والشراء بحرية ـ أما من يصير منهم تسجله لدى القبان (ديوان القبان : Gaban) فلا يمكن ابطاله

أو شطبه أو منعه من المتاجرة ، أما من لم يسجل فمن حقه أن يطالب بتسجيل اسمه .

٦ ـ للقنصل البندقى الحق فى البيع لحسابه الخاص نقدا فى حدود ألف دوكات سنويا بالنقد .

٧ ـ ما يدفع للقنصل يخضع للقانون والنسبة التى يحصلها القنصل لحسابه تعرف باسم Honoraris (وتعرف بالعربية باسم « العلوفة ـ الذخيرة » وأيام المماليك كانت تقابل « جامكية » وكانت بدايتها فى معاهدة بين جمهورية بيزا وأمير تونس وفيها يدفع التجار جعلا معينا لصالح القنصل) (فى مرسيليا كانت الغرف التجارية تحصل رسما كهذا لصالح القنصل وينص عليه فى المعاهدات التجارية) .

٨ ـ يحق للقنصل انزال النبيذ الخاص باستعماله واستعمال مواطنيه الخاص .

٩ ـ لا يجبر على تأجير مراكبنا أو شحنها أو تفريغها بالقوة وبدون ارادتنا واذا واجهت سفننا متاعب وتأخير من جانب تجار المغاربة خلال الرحلات الاحتياطية التى نجبر على القيام بها خلال المدة فان جمهوريتنا ليست مسئولة عن هذا .

١٠ ـ اذا أساء أحدالفرنجة لأحد المماليك أو لمغربىأو لأىعربىأو لأى كائن ما كان فلا تسأل أفراد جاليتنا عن هذا اطلاقا .

١١ ـ للتجار البنادقة مطلق الحرية فى اجراء ما يرونه لازما لهم من اصلاحات خاصة فى فندقهم بدون واسطة أحد لأن التكاليف حينئذ تكون قليلة وكذلك يحق لهم اصلاح مخازن الجمارك الخاصة بسلعهم .

١٢ ــ النبيذ الذى يصل الى الاسكندرية هو لصالح مواطنينا ، واذا صدر للقاهرة تدفع رسوم قدرها سبع دوكات لكل طن لصالح الوالى والوزير على أساس أننا سيكون بامكاننا أو سنتمكن من بيعه بالقاهرة وأجوارها بدون مضايقات .

١٣ ــ النبيذ الذى يدخل الاسكندرية تدفع عنه الرسـوم المطلوبة (للبيع العام) واذا أوصلناه الى القاهرة بواسطة النيل ففى هذه الحالة لا يدفع عنه أى رسم لا فى القوارب ولا فى السفن ولا جمرك القاهرة حتى وصوله للقاهرة .

١٤ ــ كل العمليات التجارية التى تتم بين بندقى وعربى وتسجل فى جمرك القبان لا يحق لأى فرد ابطالها أو اعاقة سير اجراءاتها بأى حجة من الحجج .

ملحـق (١٩)

اتفاقية خاصة بتجارة البندقية فى ميناء طرابلس بالشام .

١ ــ لا نجبر على شراء السلع بالقوة حتى ولا القطن ما عدا بالطبع ما يخص السلطان والحاجب أو من يحل محلهما .

٢ ــ نعطى مطلق الحرية لشراء الموجود من المواد حسب حاجتنا .

٣ ــ ليس بامكاننا اعطاء الحاجب أكثر من بالة من الجوخ كل سنة هدية ، ومثلها لكل بيت تجارى . سـنراعى أننا اذا تمكنا من احضار كمية أكبر من النسيج للاستهلاك الخاص والبيع فسنزيد من نصيب الحاجب ولو أن فيه امتهانا لنا .

ملحق رقم (٩ ب)

عريضة مقدمة للسلطان من قنصل وتجار دمشـــق

ووافق عليها الأمير نائب السلطان فى دمشق

١ ـ لا يسمح لليهود بالحضور الى سواحل الليفنت الشرقى بقصد شراء التوابل أو أى سلعة أخرى بالمقايضة أو بالنقد . واذا رغبوا فليكن ذلك فى دمشق حتى لا تضيع على السلطان رســوم الجمارك وغيرها .

٢ ـ لتجار البندقية الحق فى التجول فى البلاد بحرية للبيع والشراء بدون أن يعترضهم أحد أو يتدخل أى فرد فى أعمالهم كما أنهم لا يدفعون من الرســوم الا المفروض ولا يجبرون على دفع مالا عن غيرهم من التجار .

٣ ـ لنائب السلطان أو لناظر الخاص فقط الحق فى المساءلة والتدخل فى شئون الفرنجة واعطائهم الأوامر .

٤ ـ لا يحق لأى حاكم أن يعاقب البنادقة أى عقاب كان ، على الأقل بعد أخذ اذن من السلطان نفسه .

(تحدث البنادقة كذلك عن الفضة التى يحملها تجـارهم لدار السك ، مما يوحى بوجود هذه الدار فى دمشق) .

ملحق رقم (٩ ج)

اتفــاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين فى حلب

١ ـ القاضى كاتب السر فى حلب ألزمنا فى الرسوم الأولى المطلوبة منا بما قيمته ٢٫٥٠٠ دوكات وأجبرنا على دفعها بالقوة .. ولكن لا نقبل بعد الآن أن ندفع أموالا من هذا النوع وبهذه الطريقة .

٢ ــ يجب أن يقف دائنونا أمام القاضى أو الحاكم بلا استثناء لأى فرد مهما كان مركزه .

٣ ــ يحق لنا توزيع سكر قبرص فى سوريا دون اعتراض مع مراعاة القوانين المحلية .

٤ ــ ترد للسيد زينو القنصل (زانون Zanon) والذى كان قد اتهم فى حادث التجسس لصالح الشاه اسماعيل الصفوى ، الـ ٣٠ بالة قطن التى أخذت منه لضمانه أحد الفرنجة الذى مات ، ولا يدفع على هذا القطن أى رسوم لأنه من العدل ألا يدان فرد بسبب خطأ غيره . وفى بلادنا لا يسأل الأب عن خطأ ابنه ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب .

٥ ــ تبقى لنا حسب المعتاد حرية وأمان كاملين داخل فندقنا طالما أننا لا نقلق ولا نثير غيرنا .

٦ ــ قد يحدث أحيانا أن يفلس بعض المدينين لنا ويعلن الافلاس أمام القاضى الوطنى فيلزم من الآن أن يتم ذلك بحضور صاحب المال البندقى والا فان هذا الاعلان يصير لا قيمة له بالنسبة لنا ، ويصبح مالنا لا يزال فى عنق المدين .

٧ ــ منذ عامين فقد أحد تجارنا مبلغ ٢٠٠٠ دوكات وبما أن الحكام ملزمون بحماية وسلامة الأقطار التى يحكمونها ومسئولون عن الأمن فيها فاننا نطالب برد هذا المبلغ من الحاكم المتصرف فى مقاطعتنا والا فجميع السكان فى المنطقة مسئولون عن سداد هذا الدين .

٨ ــ الدارصينى ــ القرفة ــ لا نشتريه الا مغربلا ، أما غير المغربل فلا ندفع عنه الا ٥٠ أشرفيا لكل عبوة فى كميات احتكار

السلطان ، أما الباقى من السوق الحر فالبائع مسئول عن غربلته أولا .

٩ ـ نصف عوائد الدلالة أو السمسرة للسمسار والنصف الاخر لترجمان السلطان .

١٠ ـ لا يسمح للأجانب من العرب أو المغاربة أو الفرنج المسموح لهم باقامة دائمة فى البلاد أن يحوزوا محلات لبيع الجوخ .

١١ ـ لا يمكننا أن نزيد من عوائد الخفر أكثر من ٤ دراهم للفرد الواحد .

١٢ ـ لا يحق لأى فرد وطنى أو يهودى أن يقوم ببيع التوابل الا اذا كان مصرحا له بذلك من قبل .

١٣ ـ اذا أدين أحد الفرنجة لأمر من الأمور فلا القنصل ولا باقى البنادقة مسئول عن أخطائه أو عقابه .

١٤ ـ اذا أدين أحد الفرنجة لأمر فالقضاء المحلى هو المسئول عن محاكمته .

١٥ ـ يصرح للبنادقة باقامة الصلاة فى منزل القنصل على أساس أنها عادتهم من قبل .

١٦ ـ لا تجبر سفننا على حمل السلع لتجار آخرين أو أقطار أخرى كما يسمح لنا بالسفر وقتما نشاء .

١٧ ـ اذا حدث أن غرقت احدى السفن للبنادقة أو السفن التابعة لاحدى الدول التى تعتمد فى تجارتها على البندقية فيصير انقاذها وانقاذ حمولتها وردها لأصحابها . (منذ وقت طويل وغنائم الغرق ملك للأمير التى تحدث الحادثة فى حدوده) .

١٨ ــ لا يؤخذ الوالد بجريرة الابن ولا الابن بجريرة الوالد الا اذا كانت هناك صلة بين جريمتهما .

١٩ ــ يحق لتجارنا أن يبيعوا السكر كسابق عهدهم .

ملحق رقم (١٠)

المعاهدة بين السلطان سليم الأول العثمانى وطائفة البنادقة فى ثغر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر . بتاريخ ٢٢ من المحرم . ٩٢٣ هـ / ١٤ من فبراير ١٥١٧ م .

ملاحظة : التعليمات فى المعاهدة موجهة الى حاكم المدينة ــ مدينة الاسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشي وضباط الشرطة كي يحاطوا علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها لهم من أيام المماليك بعد موافقة السلطان سليم عليها .

المادة الأولى : جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها . رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع . لا يحق لأى فرد كان أن يهينهم أو يتكبر عليهم فى الموانى المصرية عامة . من حقهم البيع والشراء والأخذ والعطاء ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية ولا يدانو لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية . يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسئولة وليس من حق أى فرد الخروج على هذه القوانين كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعادات المرعية بدون أى تغيير أو تعديل .

المادة الثانية : عدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما فى داخل مخازنهم ، كما

لا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقوهم على ذلك ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها .

المادة الثالثة : بامكان القنصل أن يبيع ويشترى بالنقد بدون حدود .

المادة الرابعة : يحصـــل القنصل على مرتبه مجمدا كل أربعـــة شهور .

المادة الخامسة : القنصل دون سواه هو الذى يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت فى الأمور لصالحهم . أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضـــاء الوطنى الاســـلامى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله أو نظر شكواه وعليه أن يعيده الى قنصله ، واذا رغب القنصل فى طرد أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه فى ذلك . كما منح القنصل حق ابداء الرأى فى سفر الأفراد على سفن بلاده ، ولا يحق لأى فرد كان أن يغادر الاسكندرية على ظهر احـــدى سفن البندقية ليعود لوطنه أو يبارحها لأى قطر شاء الا بعد الحصول على تأشـــيرة خروج من القنصل نفسه .

المادة السادسة : اذا وصلت أى سفينة من البندقية للإسكندرية أو باسم البنادقة فلا يحق لأى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ويسمح لهم بصعود السفينة فى حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المشتراة « السلع التى تحملها السفن » العسل ، والفاكهة .

المادة السابعة : ممنوع على أى فرد سواء كان حاكم المدينة أو عين من أعيانها أو تجارها أو أى فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن

الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء ، أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لأى سبب سواء كان قرضا أو شراء .

المادة الثامنة : يصير تنفيذ كل التجديدات أو المبانى اللازمة أو الأعمال الضرورية فى فندق البنادقة واذا رغب القنصل فى بناء مبنى جميل خاص به فله ما يشاء وممنوع منعا باتا التعرض له أو رفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فرد مضايقتهم أو التعرض لهم اذا رغبوا فى استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين .

المادة التاسعة : اذا رغب القنصل فى مقابلة أى فرد من الحكومة فى دواوينهم وامتطى صهوة جواده أو رغب فى الخروج للحدائق العامة أو أى مكان من أطراف المدينة فله أن يفعل ما يشاء وليس لأى فرد أن يعترضه .

المادة العاشرة : السلع التى تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لأصحابها البنادقة أما السلع التى تقذفها الأمواج الى الشاطىء نتيجة الغرق لاحدى السفن فهى ترد لأصحابها ان عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد للقنصل . والسفن التى تصل الشاطىء سليمة بعد انقاذها يجب صيانتها .

المادة الحادية عشرة : السفن التى تلجأ للميناء لسوء الأحوال الجوية ولا ترغب فى تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا لم يكن عليها سلع للاسكندرية .. واذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها فى أى ميناء الا فى الاسكندرية نفسها . واذا كانت تحمل سلعا لم ينص عليها فى المعاهدات ولا يتاجر فيها فى الاسكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على طول السواحل المصرية .

المادة الثانية عشرة : العلاقات السياسية .

اذا حدث أى حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسأل القنصل عن هذا .. كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث . أما من يكون مديونا لأحد رعايا السلطان فانه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان تام فى موانىء البندقية والبلاد الخاضعة لها .

المادة الثالثة عشرة : يعفى القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عدا فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء .

المادة الرابعة عشرة : اذا أصر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها فى موانىء السلطان فمحظور على أى فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار ..

المادة الخامسة عشرة : اذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أى مواطن عادى أو عضو فى وكالتهم فلا يحق لأى فرد اهانته أو الحاق الضرر به .

المادة السادسة عشرة : كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سجل خاص ويتعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالأجانب أو بالحكم فى مصر .

المادة السابعة عشرة : للقنصل السلطة التامة اذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه «قنصل بالنيابة» أو نائب قنصل Vice-Consul فى البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان .

المادة الثامنة عشرة : عرض قنصل البنادقة ، أنه حسب المعتاد، كانت تصل بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من زيت البترول اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن السلطات المصرية ترفض هذا البيع لكى تبيع ما لديها فى مستودعاتها هذا الأمر يجب أن يتدارك ، فسفن البندقية تستطيع من الآن فصاعدا بيع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد ، وفى حالة وصول هذه السفن الى بولاق تتبع القواعد المرسومة فى هذا الميناء .

المادة التاسعة عشرة : أشار القنصل الى العبيد والفقراء الأجانب الذين يعيشون فى الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البنادقة لكى يأكلوا .. وكان اذا مات أحد العبيد بالفندق، والقنصل مطالب بدفع ثمنه ، وكان الثمن الذى يفرض مرتفعا . هذا يصير ممنوعا من الآن فصاعدا .

المادة العشرون : محظور على موظفى الجمرك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم .

المادة الحادية والعشرون : فيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكشافين فيدفع دينار واحد من كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحرى ويحصل الحمال على دينار عن كل سلة يحملها .

المادة الثانية والعشرون : انقاص وتخفيض الضرائب التى تدفع عمن يموت من الأجانب فى بلاد السلطان .

المادة الثالثة والعشرون : الافرنجى الذى يرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا فى حله ولا ترحاله .

المادة الرابعة والعشرون : السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء

التجاريين لهم حق استخدام تراجمة ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة .

المادة الخامسة والعشرون : فى حالة نقـل البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر بشىء ما كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفـوظة والمسكرة والطازجة للمسافرين .

المادة السادسة والعشرون : لا يجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم فى حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو فى أى مكان آخر

المادة السابعة والعشرون : من حـق التجار البنادقة ممـارسة التجارة البحرية وتنفيذ التعليمات والعمليات التجارية مع جميع الفئات من مسلمين ويهود ومسيحيين بلا أدنى شرط أو قيد ، ولا يجوز منع أى ترجمان من مباشرة أعماله أو تسجيل أى عقد أمام القاضى والقنصل وتجاره ووكالته التجارية وكل من يأوى الى فندقه تجرى عليه واجبات الحماية من السلطان .

المادة الثامنة والعشرون : للبنـادقة حق شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصة .

المادة التاسعة والعشرون : قيام الكشـافين بعملهم فى حالات الشحن والتفريغ يكون بموافقة ومرافقة البنادقة . وما يفسـده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة .

المادة الثلاثون : لا يتصدى أى فرد للقنصل أو لتجار البنادقة الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ويراعى ألا يؤخذ الابن بجريرة الأب ولا الأب بجريرة الابن الا اذا كان أحدهما ضـامنا للآخر شخصيا وماليا .. أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة .

المادة الحادية والثلاثون : جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون للموانىء المصرية يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع .

المادة الثانية والثلاثون : قدم قنصل البنادقة فى الاسكندرية تقريرا ذكر فيه أن تجاره كانوا يعفون سابقا من ضريبة البهار ، ولكن حكومة الغورى وضعت رسوما جديدة بلغت حوالى ٥٠٠٠ دينار سنويا تحصل من التجار ، والقنصل يطالب باعادة هذه المنحة منحة الاعفاء ..

(شملت ملاحق عن ارجاع واعادة ما كان لهم من أيام المماليك من باقى الامتيازات والاعفاءات والاحترام والمعاملة الطيبة والحماية والرعاية فى كل مكان يحملون فيه) (١٠) ٠

ملحق رقم (١١)

اتفاقية بين جنوة والسلطان محمد الثانى العثمانى بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ والاتفاقية بتاريخ ١١ مارس ١٤٥٤ م

شملت على اتفاقيات سياسية وتجارية واجتماعية وفى المقدمة قامت جنوة :

١ ــ بتهنئة السلطان محمد الثانى العثمانى بفتح القسطنطينية والأمل فى ازدهارها فى العهد الجديد .

٢ ــ تذكر السلطان بالعلاقات الطيبة التى كانت بين الجنويين وأسرة السلطان منذ القرن الرابع عشر الميلادى والرغبة فى استمرارها .

٣ ــ بحث حالة مدينة بيزا وما تتعرض له تجارتها من أخطار واقتراح وضعها ضمن مجال جنوة التجارى .

٤ ــ لفت نظر السلطان الى أنه بامكان تجار جنوة أن يمدوه بما يطلبه

---

(١٠) Combe. E., Precis de l'Histoire d'Egypte. T. III. p. 6 ff. (Wiet. G.)
La Traité : Veneto-Turc. De 1517.

من السلع التجارية والشرقية كالأحجار الكريمة والأنسجة وخلافه بسرعة وبأسعار معتدلة .

٥ ـ يدفع الجنويون الجزية بشرط أن يضعوا يدهم على خاصية بيرا Pera ـ صيانة لمصالح الطرفين وان يبقى أحد المبعوثين فى المدينة ليقوم مقام الحاكم المحلى بالمدينة ورئيسا للجالية .

٦ ـ حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا فى بلاد السلطان بنفس الشروط التى كانت لهم على عهد البيزنطيين وسلاطين آل عثمان الأول كما تترك لهم موانى ومضايق البحر الأسود مفتوحة طول العام .

٧ ـ السماح لجنوة بالحصول على كمية معقولة من القمح من بلاد السلطان .

٨ ـ مطالبة السلطان بأن يمنح الجنويين بعض الممتلكات فى بيزا لاستخدامها ، مراكز رسمية لهم مع تعويض مناسب لتدمير أملاكهم وتجارتهم خلال الغزو العثمانى .

٩ ـ هدم أسوار خاصية غلاطية .

١٠ ـ تأكيد امتلاك الجنويين لمنازلهم ومخازنهم وكرومهم ومطاحنهم .

١١ ـ للجنويين الحق فى التجوال وبيع سلعهم فى بلاد السلطان بشرط دفع الضرائب الجمركية المعلومة .

١٢ ـ منحهم حق ممارسة قوانينهم فيما بينهم .

١٣ ـ لهم أن يختاروا من بينهم من يشرف عليهم ويفض المنازعات وينظر القضايا .

١٤ ـ وعد من السلطان بعدم أسر أبنائهم والحاقهم بالانكشارية .

١٥ ــ لهم كنائسهم الخاصة بهم ولكن يشترط عدم قرع الأجراس .

١٦ ــ وعد من السلطان بعدم اجبارهم على دخول الاسلام قسرا (١١)

ملحق رقم (١٢)

اولى المعاهدات التجارية بين البنادقة والعثمانيين

بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ بتاريخ ١٨ ابريل ١٩٥٤

نجحت بعثة البندقية يرأسـها Barthelomeo Marallo في عقد اتفاقية تجارية مع السلطات العثمانية في القسطنطينية بتاريخ ١٨ من ابريل ١٩٥٤ .

١ ــ فك أسر البنادقة المحجوزين لدى السلطات العثمانية منذ سقوط القسـطنطينية واطلاق سراح نسـائهم اللواتى ألحقن بالحريم السلطانى .

٢ ــ تعيين قنصل بندقى ورئيس لجاليتهم Bayle ويعمل كمستشار وقائم بالأعمال فى كل ما يتعلق بمواطنيه فى الشئون العـامة والتجارية وآخر خاص بالشـئون القضـائية ويكون مركزهم القسطنطينية .

٣ ــ يعطى السلطان تعليمات لمحافظ القسطنطينية لكى يذلل للبنادقة ومعتمدهم كل الصعوبات التى تعترضهم .

٤ ــ منح البنادقة حرية التنقل فى بلاد السـلطان العثمانى حرية

---

(١١) Depping, Histoire de Commerce, T. II. pp. 214, 215. 227-228. N. 8 p. 341.

الدخول الى الموانىء ولا سيما ميناء القسطنطينية دون أى صعوبة .

٥ ـ تقرير دفع الجزية المعينة للسلطان لقاء دخول سفن البندقية البحر الأسود وقدرت هذه الجزية بصفة مبدئية بحوالى ١٠ر٠٠٠ دوكة سنويا .

٦ ـ فى حالة حدوث حالات الغرق تتولى السلطات المحلية مهمة الانقاذ نظير رسوم معينة .

٧ ـ يدفع البنادقة رسوما جمركية على مشترياتهم ومثلها على مبيعاتهم وقدرت بحوالى ٢٪ .

٨ ـ لم تعترض السلطات العثمانية على تجار البندقية فى الرقيق الأبيض من منطقة البحر الأسود وتصديره للخارج وخاصة لمصر ولكن نص فى الاتفاقية على أنه اذا تم البيع داخل نطاق بلاد السلطان يصير تحصيل جزية لا تقل عن ٢٪ من المباع وقد راعى البنادقة الناحية العاطفية والدينية فلم يتمسكوا بشراء الرقيق من المسلمين وبالتالى فانهم كانوا يطلقون سراح من يقع فى أيديهم من الأسرى المسلمين دون ابطاء .

٩ ـ يمنح البنادقة نفس الامتيازات لرعايا السلطان العثمانى فى البندقية وأملاكها الأخرى والبلاد التى تشرف عليها كما سمحوا للأتراك بالتعامل مع أسواق البندقية نفسها أملا فى أن يعامل البنادقة وتجارهم بالمثل .

١٠ ـ حمل البنادقة على حرية تصدير القمح من بلاد السلطان العثمانى لقاء جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكة (١٢) .

---

(١٢) Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, T. III. pp. 30-36-46 & p. 240.
Depping, Histoire du Commerce, T. II, pp. 227-228.
Heyd, Histoire Du Commerce, T. II, pp. 316-319, 320

ملحق رقم (١٣)

نسخة من الشروط بين فلورنسا والسلطان قايتباى

بشأن التجارة الفلورنسية فى مصر ودمشق وبيروت ١٤٨٨ م
السلطان الأعظم سلطان مصر :

مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرنتيين فى مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورئيسها الأفخم لورنزوديميدتش والمقدمة بواسطة التجار لمنحهم امتيازات مثل ما للبنادقة فى بلادنا ...

بوصول التجار الفلورنسيين (الفرنتيين) الى بابنا بخطابات من دولتهم الفخيمة ومن رئيسهم لورنزو الفخم علمنا من هذه الخطابات رغبة طائفة الفرنتيين العودة للمتاجرة فى بلادنا ، ومعنا وخاصة بالاسكندرية ودمشق وكافة موانينا وبلادنا كما كانوا من قبل بمعنى اعادة قنصلهم وتجارهم للبيع والشراء ويرغبون فى أن يكونوا تحت رعايتنا ، وأعطينا أوامرنا لارضائهم كما أننا نكتب لهم هذه الشروط بنفس الأسلوب والشكل الذى كتب للبنادقة وان يكتب الى الدولة الفخيمة ولورنزو الفخيم بارسال قنصلهم وتجارهم الذين سينالون ويعاملون معاملة حسنة ويكرموا كأى طائفة أخرى .

فصل (١) لا يتعرض أحد لأى تاجر فلورنسى ولا لتجارته ولا لحاجاته ولا لممتلكاته ولا لسفنهم ولا لأشخاصهم ولا لقنصلهم بأى شىء ضد العدل كما لا يطالبون بدفع ضرائب أزيد من المطلوب على متاجرهم الا حسب العرف القديم كما يظهر للديوان وكما يدفع البنادقة حاليا دون اتخاذ أى اجراء مضاد مخالف للعدل والنظام . ولذلك نأمرك أيها الأمير الحاكم حاكم الاسكندرية أنه يجب أن تعمل وتلاحظ تنفيذ هذه الأوامر مع عدم القيام بأى اجراء مضاد .

فصل (٢) اذا حدث بيع أو شراء بين تجارنا والتجار الفرنتيين فان هذا البيع والشراء يجب أن يحدث أمام شهود واذا حدث أن تحلل أحد الطرفين من الاتفاق على البيع أو الشراء دون موافقة أو رغبة الطرف الآخر فانه فى هذه الحالة يجب عليك أيها السيد أمير الاسكندرية أن تراعى القانون فى حل هذه المشكلة وأن يكون الشراء والبيع منذ ذلك الوقت باشراف القانون أمام شهود لامكان تحديد المسئولية .

فصل (٣) يقول التجار الفرنتيون ان بعض تجارنا يشترون من هؤلاء التجار الفرنتيين أثوابا وأقمشة وكماليات وحريرا وأنواعا أخرى كثيرة من المتاجر ، ويتاجرون بها فى أماكن كثيرة ، ولكنهم أحيانا لا يجدون من يشتريها منهم ، وحينئذ يعودون بها الى التجار الفرنتيين مرة أخرى لاسترداد أموالهم ورد السلع ، ولما كان هذا ضد العدل والحق وليس فيه أى حرية لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى عدم حدوث مثل هذه الأمور وأن تستمر فى المعاملة كما كان سابقا وينال كل فرد حقه بالعدل .

فصل (٤) يقول التجار الفرنتيون أن بعض تجارنا يعاملوهم بطريق المقايضة وقد جرى العرف أنه فى حالة المقايضة يكون سعر السلعة المقايض عليها لأى الطرفين أكبر قليلا من السعر فى حالة الدفع نقدا لهذه السلعة، ولكن يحدث أحيانا أن يرفض التاجر المسلم استلام السلعة المقايض عليها ويطلب الثمن على أساس السعر المرتفع (عن سعر المقايضة) للانتفاع بفرق السعر . ولما يرفض التاجر المسيحى تصير خناقة ضخمة يحاول فيها التاجر المسلم استغلال وجوده فى بلده والمطالبة بالسعر المرتفع لسلعته دون السلعة الأخرى موضوع المقايضة ولما كان فى هذا ظلم صارخ للتاجر الفرنتى لذلك نأمرك أيها السيد أمير

الاسكندرية بألا يحدث مثل ذلك ، واذا حدث أى اتفاق فسيكون أمام الشهود ويلزم الطرفين بالعدل .

فصل (٥) اذا حدث خلاف بين تاجر من الفرنتيين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب أن ييسر لهما الأمر ، وفى حالة غيابنا ينوب عنا الحاكم أو نائبه أو الكاتب (كاتب الديوان) لذلك نأمرك أيها السيد أمير الاسكندرية بأن يراعى ما جاء بهذا الأمر وينفذ بكل دقة والا يمنع أى شخص من المثول أمام السلطان للمقاضاة وخاصة من التجار الفرنتيين ...

فصل (٦) يقول التجار المذكورون ان الحمالين والمكاريين الذين كانوا يحملون التوابل من مكان لآخر ، يعمدون الى سرقة التوابل ثم غشها بوضع مواد غريبة أخرى بدل المأخوذ وهذه الطريقة تضر التجار المذكورين لذلك نأمرك أيها السيد أمير الاسكندرية أن تراقب هذه الأشياء وتجلد الحمالين والمكاريين المذكورين وتحل محلهم غيرهم ويعطى التجار تعويضا لذلك من الجزء المزيف — ونأمرك أيها السيد أن تراعى ما جاء بأمرنا هذا وتنفذه ..

فصل(٧) يقول التجار الفرنتيون انهم بعد وصولهم الى الاسكندرية وموانى سوريا والمدن الأخرى فى بلادنا بمتاجرهم ، ويدفعون الضرائب المطلوبة ويحاولون بعد ذلك اخراج متاجرهم للسوق فيمنع ذلك عمال الجمرك وعمال الميناء وموظفو السلطان ويريدون أن يتم البيع بالجمرك قبل اخراج المتاجر الى الأسواق — وأن الموظفين لا يعطون للتجار الثمن الذى تساويه السلع ، وأنه عند دفع ضرائب الجمرك ، يجبرون على دفع رسوم أكثر مما يعود على هؤلاء التجار بضرر كبير ، لذلك نأمرك أيها الأمير أنه بمجرد دفع التاجر الفرنتى الضرائب الجمركية يمكنه أن يخرج الى أى مكان يريده أو يخزنها أو يبيعها كما يشاء ، ولا يجبر أحد على أن يشترى أو يبيع غير ما يريد كما يجب أن يكون تقدير

ثمن السلعة المذكورة ودفع الضريبة المطلوبة عنها بما تساويه فعلا عند وصولها لبلادنا وتأمرك أيها السيد الأمير بمراعاة ذلك عند وصـــول هؤلاء التجار ...

فصل (٨) كما كان يجرى العرف سابقا أنه يُجب الا يدفع التاجر الفرنتى رسوم المتاجر والسلع الا حين تكون فى ديوان الجمرك ، واذا كان للتاجر الفرنتى نقود من مدة سابقة فانه بعد بيعه سلعة ويريد خصم الرسوم المطلوبة من الحساب الذى له لدى الجمرك فيجب أن ييسر له هذا الأمر ، لأن التجار يشتكون من أن الجمرك لايريد خصم الرسوم مما يستحقه التجار لديه من أموال كما لا يريدون اعطاءهم الباقى . لذلك نأمرك أيها الأمير أن تلاحظ العرف القديم وأن التجار الفرنتيين لا يجب أن يدفعوا الرسوم الا اذا كانت السلع فى الجمرك (أى لا يدفع مقدما ويدفع الرسوم حين وصول السلع الى الجمرك) ويجب أن تعمل له تسوية حساب للمطلوب والخصم مثلما تفعل تماما مع التجار البنادقة لذلك نأمرك أيها الأمير أن تراعى ذلك وألا تفعل غير ما نأمرك به كما نفعل نحن مع البنادقة .

فصل (٩) جرى العرف القديم أنه اذا مات تاجر مسيحى ، فان قنصل دولته وحـــده هو المختص بالاشراف على سلع هذا التـــاجر المتوفى ، أو من ينيبه القنصـــل ســـواء كان وكيله أو أحـــد تجار طائفته ، لذلك نأمرك يا حضرة الأمير أنه بالنســـبة للتجار الفرنتيين يسرى العرف السابق .

فصل (١٠) يحدث أحيانا بعد وصول مراكب الجالير (القطائع) للفرنتيين وعليها تجارهم أن تحجز السفن والتجار بواســـطة الجمرك أو كبار تجارنا الوطنيين فلا يستطيع الفرنتيون البيع والشراء الا اذا قررت أسعار التوابل لهذه المدة ، وهذا يسبب تعطيل التجار ويسبب لهم خسائر كثيرة ــ لذلك نأمرك أيها الأمير أن تكون الموافقة وتحديد

السفر جاهزة قبل وصول هؤلاء التجار بسفنهم والا توضع أية عقبة في سبيل البيع والشراء كما هو الحال بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١١) يقول تجار الفرنتيين ان بعض التجار المسلمين كثيرا ما يشكوهم للسلطان في دعاوى لا أصل لها مما يسبب لهم خسائر جسيمة ، لذلك نأمرك أيها الأمير أنه اذا حدث مثل هذا فان التاجر المسلم لا يحق له أن يستعدى التاجر المسيحى الا اذا أعلنت الشهادة الواجبة بما حدث ، وحينئذ اذا لم يدفع التاجر المسيحى المطلوب منه ، فيجب أن يمثل أمام القاضى أو السلطان فى حالة الاستئناف، والقضاء هو وحده المختص بذلك .

فصل (١٢) توجد مراكب لبعض القراصنة المسلمين ، وهم ينتظرون فى الموانى أو بالقرب منها ويتعرضون لسفن التجار المسيحيين ، لذلك نأمرك أيها الأمير ، أنه فى حالة وجود هؤلاء الأشخاص أن تصادر سفنهم وترسلهم لحضرتنا لينالوا جزاءهم .

فصل (١٣) جرى العرف أن قنصل البنادقة فى دمشق يشرف على جمرك مواطنيه وسلعهم به كما أن قنصلهم بالاسكندرية يراقب حركة تجارة مواطنيه، ولذلك نأمرك أيها الأمير أن تعطى قنصل الفرنتيين فى الاسكندرية ودمشق نفس الوظيفة التى لقناصل البندقية فى بلادنا .

فصل (١٤) اذا دفع التاجر الفرنتى رسوم الجمارك على سلعة فى بيروت فلا يلزم بدفع رسوم أخرى على سلع دمشق الا اذا أوصلت هذه السلع الى دمشق فعلا فتحصل عليها الرسوم ، لذلك نأمرك أيها الأمير نائبنا على دمشق وبيروت أن تراعى ذلك مع التجار الفرنتيين حسب ما هو متبع مع تجار البندقية .

فصل (١٥) كما جرى العرف السابق ألا يؤخذ تاجر بجريرة أو ذنب تاجر آخر الا اذا كان التاجر الأول ضامنا شخصيا ملزما للثانى،

لذلك نأمرك أيها الأمـير بالنسبة لتجار الفرنتيين أن تراعى ما هـو متعارف عليه وما هو متبع بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٦) جرى العرف أنه اذا نهب قراصنة المسيحيين سـفن المسلمين فى البحر ثم جاءت سفن الفرنتيين الى موانينا فان تجارنا وعمالنا يجبـرونهم على دفع تعـويض عما لحق بالمسلمين من أضرار بوساطة قراصنة المسيحيين ــ فنأمرك أيها الأمير أن تبطل هذا ، وألا يجبر هؤلاء التجار على دفع تعويض أيا كان ، ولا يؤخذوا بجـريرة القراصنة المسيحيين ويوضع هذا الأمر موضع التنفيذ مثل ما هـو متبع مع البنادقة تماما .

فصل (١٧) حيث انه من الضرورى لهؤلاء التجار أن ينتقلوا من ميناء لآخر ومن بلد لآخر لجمع المتاجر المطلوبة فهم يحتاجون للميرة لمعيشتهم ، لذلك نأمرك أيها الأمير نائبنا أنه بالنسبة للتجار الفرنتيين لايمنع عنهم مايحتاجون اليه من الميرة ــ فى رحلاتهم ويلبسون الملابس المماليكية ويتجولون آمنين اذا أرادوا فى أى مكان يشاءون، فعليهم أيها الأمير نائبنا مراعاة ألا يتعرض لهم أى أحد فى الطريق كما يراعى ألا يغلق باب فندقهم الا ليلا ويظل مفتوحا طول اليوم .

فصل (١٨) اذا جاءت سفن فلورنسية بمتاجرها فلا تجبر على دفع الجمارك الا بعد التفريغ ، واذا لم يوجد من يشترى هذه السلع ويريد أصحابها اعادتها مرة أخرى الى السفينة فلهم الحرية فى ذلك على ألا يدفعوا رسوما لا قبل ولا بعد الانزال مادام البيع لم يتم ، ونأمرك أيها الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لطائفة الفرنتيين على ما هو جار بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٩) اذا وجدت سفن قطائع (جالير) أو مراكب أخرى فى الميناء أو أى موانئ خاصة بنـا واحتاجت الى اصـلاح فعليكم

مساعدتها ومنح الامتيازات الخاصة بذلك لها ولأصحابها ولتجـارها وتقديم الخدمات لهم بنقودهم . وتأمرك أيها السيد الأمير باتباع ذلك مع طائفة الفرنتيين المذكورة مثل ما يتبع مع البنادقة .

فصل (٢٠) اذا وجدت سفن لطائفة الفرنتيين فى أى مكان تابع للسلطان وهاجمتها سفن القراصنة فعليكم مد يد المعونة لها ومساعدتها فى كل ما تطلبه بنقودهم لذلك نأمرك أيها السيد الأمير اتباع ذلك مع طائفة الفرنتيين مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢١) المتبع مع طائفة البنادقة أنهم عندما يحضرون معهم خرافا بيضاء وسوداء لطعـامهم الخاص فى فنـدقهم ، فان موظفينا يحصلون على بعض منها ، بدون مقابل فنحذركم أيها الأمير الا تفعلوا مثل ذلك مع طائفة الفرنتيين ، كما لا تمنعوهم من البيع بالأسـعار المنـاسبة ولا تجبروهم على بيع خرافهم بأسـعار منخفضة بل بحرية كاملة ولفائدتهم ولا ينهبون كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٢) جرى العرف أن طائفة البنادقة تصل للميناء ومعهـا بعض المئونة الخاصة بهم مثل الجبنة وغيرها ، ولا يدفعون عنها رسوما الا على المتاجر فقط ، فى حين أن جماركنا تحصل من الفرنتيين ما قميته ٣$\frac{1}{3}$٪ ، لذلك نأمرك أيهـا السيد الأمير أن تراعى عـدم الزام الرعـايا الفرنتين بدفع مثل هذه الضريبة ، كما هو متبع فعلا مع البنادقة .
البنـادقة .

فصل (٢٣) جرى العرف فى ميناء بيروت أنه اذا حملت سفينة للبندقية ٥٠ طردا من التوابل فانها تلزم بدفع خمسة دوكات رسـما اضافيا لنائب بيروت واذا نقصت الحمولة عن ٥٠ طردا ، فلا تجبر على دفع شيء لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لطائفة الفرنتيين ، كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٤) جرى العرف أنه اذا حملت سـفينة رفاتا أو رمادا لموتى فان صاحب السفينة يدفع لنائب بيروت ٥ دوكات ، كما أن سفن القطائع (الجالير) تدفع ٣ دوكات عن كل واحدة لنائب بيروت ولا تدفع أكثر من ذلك . وقد اعتاد البنادقة أن يفعلوا ذلك ، فيراعى أيها السيد الأمير أن يتبع مثل ذلك مع طائفة الفرتتيين . ويراعى كذلك ألا يؤخذ تاجر باهانة وجهها بحار لأى عربى مسلم ، انما يؤخذ بالعقاب من قام بالاهانة فعلا لا غيره . لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى تنفيذ ذلك مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢٥) جرت العادة أنهم يدفعون عن كل جوال قطن خام رسما قدره ٨ دراهم فضة وعن كل جوال قطن خيوط ١٥ درهم فضة، ويوجد من يريد سرا أن يدفع أكثر من هذا لأكثر من سبب ، لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لتجار جميع الطوائف ولطائفة الفرتتيين خاصة وألا يجبروا على دفع أكثر من المعتـاد من الرسوم كما يفعل البنادقة . واذا حدث أى ظلم لأى تاجر وأراد المثول أمامنا ومعه القنصل فلا يمنع من ذلك .

فصل (٢٦) جرى العرف أنه لدى وصول السفن الى بيروت اعتاد العرب نهب الخطابات المرسلة للتجار الأجانب ولا ترد لهم الا بعد دفع اتاوات بعد بضعة أيام، وكذلك بالنسبة للخطابات المرسلة لجهات أخرى طريق موانينا ، وقد رجا البنادقة مراعاة عدم فقدانهم شيء من خطاباتهم فى السفن أو على البر الا اذا وجدت خطابات تخص دولتنا فهى تحجز لنا ، لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى هذا بالنسبة لتجـار الفرتتيين وألا يضايقهم أى فرد فى الميناء أو البر كما هو متبع الآن مع البنادقة .

فصل (٢٧) اذا أدان تاجر مسيحى آخر مسلما ولميستطع الحصول على باقى أمواله وأراد الحضور لحضرتنا فلا يمنع من ذلك ، ونأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك مثل ما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٨) اذا اشترى تاجر مسيحى توابل أو سلعا من تاجر عربى ودفع الثمن وأودعها عند التاجر العربى على الذمة ، ثم حاول صاحبها العربى استردادها بعد بيعها للمسيحى فلا يحق له ذلك ، الا اذا كان المسيحى قد دفع عربونا فقط عنده . وعليك أيها الأمير أن تراعى هذا الأمر كما أن السلع لمن اشتراها مهما كانت الظروف ويحق للتاجر المسيحى صاحب السلع أن يقاضى التاجر المسلم الذى يعيد بيع السلع وهى فى ذمته ولا يلتزم التاجر المسيحى بشىء سواء أكان رد البضاعة أم رد الثمن .

فصل (٢٩) اذا أراد القنصل أن يصل الينا للشكوى بسبب ظلم وقع عليه أو بسبب خطابات وصلته من دولته لنا ، أو لأى سبب آخر فيكون له مطلق الحرية فى الحضور بدون أى عقبة ، وكذلك عند وصول السفن التجارية ومتاجر التجار فهم يحضرون معهم ، دوكاتات منقوشة بندقية لنقائها وجودة ذهبها وضبط وزنها وتأمرك أيها السيد الأمير أنه بالنسبة للتجار الفرتتيين أن يراعى ما جاء بهذا النص ولا يعمل عمل مخالف لذلك وأن توجه اليهم عناية ورعاية كاملة (١٣) .

ملحق رقم (١٤)

ملحق لمعاهدة الامتيازات الممنوحة لطائفة الفرتتيين ببلاد السلطان المماليكى عام ١٤٨٨ ـ بامتيازات جديدة غير ما منح للبنــادقة

فصل (١) اذا باع مسلم توابل لمسيحى مقابل سلع أخرى نقدا أو بالمقايضة ثم رفض التاجر المسلم تسلمها بعد الاتفاق على البيع

(١٣) Amari, I Diplomi Arabi, XLV. p. 363-369.
Il Sultano (d'Egitto)
Editto intorne I privilegii commercialii accordatii ai Fiorentini in Egitto e in Egitto e in Siria a dimmanda della Signora di pirenze e del magnifico Lorenzo (de medica presentata per mezzo di alcuni mercantanti. 1488. 7).

بسبب الخوف من ضياعها قبل نقلها الى مخازنه أو لأى سبب آخر وانها تبقى تحت مسئولية التاجر المسيحى لفترة أخرى، فاننا نأمرك أيها السيد الأمير أنه بمجرد حدوث اتفاق البيع يتم الاتفاق على التسليم فى مدة محدودة وعند حدوث التسليم يتخذ التاجر المسلم شاهدين ويتسلم السلع وكذلك التاجر المسيحى يسلم السلع أمام شاهدين فى جمرك القبان . ثم بعد الاتفاق تخرج السلع خارج الجمرك وخارج المخازن وتبقى تحت مسئولية التاجر المسلم ولا يلزم التاجر المسيحى بشيء بعد ذلك . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرنتيين .

فصل (٢) اذا دفع التاجر المسيحى رسوم الجمارك ثم تغير بعدها ناظر الخواص والموظفين الذين تسلموا الرسوم ، ولا تزال السلع بالجمرك ، فانه لا يحق للناظر الجديد أو الموظفين الجدد أن يحصلوا رسوما جديدة ـ لذلك نأمرك أيها السيد الأمير بمراعاة عدم الدفع الا مرة واحدة سواء تغير الناظر أو الموظفون أو بقوا . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرنتيين .

فصل (٣) اذا دفع التاجر المسيحى السمسرة الخاصة بالتوابل ، ثم تغير الناظر والموظفون وحاول الجدد الحصول على سمسرة جديدة قبل أن يحمل التاجر المسيحى سلعه فيجب ألا يحدث ذلك ، ويجب أن تراعى أيها الأمير أن السمسرة لا تدفع الا مرة واحدة فقط ، ويلاحظ كذلك أن يسرى هذا خاصة على التجار الفرنتيين .

فصل (٤) فضلا عن هذا ، كما هو متبع مع تجار البنادقة أنهم يبيعون سلعهم على السفن وعلى البر ، نأمرك أيها الأمير بمراعاة منح هذا الامتياز للتجار الفرنتيين ، وأن يمارسوا هذا فى البر والبحر كالمعتاد .

فصل (٥) جرت العادة أن التجار عندما يرحلون بالمراكب لا يدفعون

رسوما جديدة ، لذلك نأمرك أيها الأمير أن تراعى هذا بالنسبة للتجار الفرنتيين كما هو متبع مع الطوائف الأخرى .

فصل (٦) جرت العادة أن التجار ينقلون توابلهم الى الخارج من الاسكندرية لنقلها الى السفن حسب ما يتراءى لهم ، لذلك نأمرك أيها الأمير ألا يعوق أحد لهم هذه الرغبة ولا تحصل منهم رسـوم جديدة .

فصل (٧) طلب التجار الفرنتيين أن يراعى موظفو الجمرك تقدير أثمان السلع حسب تسعيرة اليوم نفسه فى السوق (يوازى الآن سعر البورصة) يوم وصول السلع ــ وأن يكون لكل سلعة رسم الجمرك المحدد لها ــ لذلك نأمرك أيها السيد الأمير مراعاة عدم رفع الأسعار بالنسبة لهؤلاء التجار وحساب السعر حسب سعر السوق .

فصل (٨) طلب التجار المذكورون مراعاة أنه اذا باع تاجر منهم سلعا لتاجر مسلم أو اشترى تاجر مسيحى سلعة من تاجر مسلم ، ثم رجع أحدهما فى كلامه ثم بعد ذلك تصرف التاجر المسيحى أو المسلم فى السلعة بالبيع لثالث ــ وحاول استردادها بحجة أنها كانت على الذمة ــ لذلك يراعى عدم حدوث شىء من هذا ولا يلزم التاجر المشترى الجديد (الطرف الثالث) برد البضاعة مادام البيع تم حسـب القوانين أمام الشهود وأن يراعى ذلك بالنسبة للتجـار الفرنتيين خاصة .

فصل (٩) يطلب التجار المذكورون أنه بعد وصول سفنهم والانتهاء من البيع والشراء لا يعوق رحيلهم بأى حال من الأحوال كما يسمح لهم بالتعامل بالفرنتى الخاص بهم مثل الدوكات الذهبى البندقى .. ولا سيما أن عملتهم نقية وسليمة الوزن (الفلورين = الفرنتى) ،

لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى هذا بالنسبة لطائفة الفرنتيين .

فصل (١٠) يطلب التجار المذكورون أنه بمجرد مجيئهم ومعهم قنصلهم أن يمنحوا فندقا للاقامة وتخزين سلعهم وان يكونوا فى رعايتنا الخاصة ولا يضار أحدهم لأى سبب ونأمرك أيها الأمير أن تسلم صورة من هذه الشروط والمنح لهؤلاء التجار وقنصلهم وللسلطات المسئولة للتنفيذ وحدوث الأمان لهم .

ملحق رقم (١٥)

تعليمات للسفير لويجى دلاستوفا سفير فلورنسا لسلطان مصر بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ .

تعليمات فلورنسا لسفيرها لويجى ديللا ستوفا الى سلطان مصر ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ .

١ ــ ستذهب الى سيادة السلطان بأسرع ما يمكن ــ وبعد الوصول تقابل فخامته وتشكره على انسانيته نحونا ونحو مدينتنا وكذلك للهدايا المرسلة لنا منه ذاكرا أن شعبنا لم ير مودة مثل هذه ولا روحا طيبة مثل ذلك ، وان كرم سفيره كان له أثر طيب علينا . بحيث أننا نبقى فقط مدينين لعظمته بهذا الفضل ولكن كذلك لما أعطيناه اياه بصفة خاصة من شروط المعاهدة التى حملتها الينا والتى يمنح فيها تجارنا الحرية فى استخدام موانى بلاده وما يتبع ذلك من امتيازات .

---

(١٤) Amari, I Diplomi Arabi XLV, pp. 369-371.
Capitoli Aguinti dipoi per nostra adimander ; Ultra quelli de Venitiani...

٢ ــ وانت أيها السفير الأفخم سيكون لديك وثيقة رسمية موافق عليها منا ، كما جرت العادة ويمكن أن تترك هذه الوثيقة فى أيدى قنصلنا ليهتدى بها التجار فى التعامل مع السلطات المحلية وسيكون لديك أيضا مع هذه الوثيقة مذكرة موضحة بها المداولات التى تحدث هنا بشأن هذه المعاهدة وغيرها ، لتكون على علم ببواطن الأمور أولا بأول فعليك أن تحاول الحصول على شروط وامتيازات عديدة من فخامة المعظم ، أكثر مما هو عندنا . وستجد هنا نسخة من هذه الشروط مع الشروط الجديدة التى أضيفت لكى تطالب بها ومصدقا عليها منا . وستجد نسخة أخرى لدى القنصل بطلبات جديدة . وفى الوقت والمكان المناسب لك . قدم لسيادة السلطان هدايانا وبين لسيادته أننا نعلم جيدا عظمة السلطان وأننا نطمع فى قبول سيادته لهذه الهدايا . تعطفا منه وتكرما واظهارا لشعورنا الطيب نحوه .

٣ ــ وبعد أن تنتهى من المهمة الخاصة بالمعاهدة وكذلك تقديم الهدايا لسيادته فلا داعى لبقائك أكثر من ذلك وحاول أن تعود تاركا أثرا طيبا فى نفس السلطان من ناحيتنا ومن ناحية طائفتنا فى بلاده .

٤ ــ وبمرورك على روما فى العودة تزور قداسة البابا المعظم ومعك خطاب الاعتماد الذى تحصل عليه كسفير لنا عند البابا وتعلن قداسته برحلتك الى بلاد السلطان وتعرض عليه خدماتك ، وفى نابلى تزور فخامة الملك بخطاب اعتماد آخر منا وتحييه بنفس الكلمات الطيبة ثم تسرع الينا بلا ابطاء .

La Signoria di Firenza (١٥)

Istruzioni a Luigi di Mosser Angolo della Stufa Ambascitore al Sultano d'Egitto (Ital.).

Amari, I diplomi Arabi XLV, 1488-10-Novembre. No. 73, p. 372-373.

Nell'Archivio Fiorentino Niformagioni, classe X, distinz 1 No. 75 fog. 78 Verso.

ملحق رقم (١٦)

اتفاقية بين السلطان الأشرف قايتباى ، سلطان مصر والمعظم الأفخم لونزوديميدتشى حاكم فلورنسا بوساطة سفيره المعظم لويجى ديللاستوفا .

باللغة الايطالية عام ١٤٨٨ م

ملاحظة :

استطاع الفلورنسيون أن يحوزوا ثقة السلطان محمد الثانى العثمانى وأصبحت لهم تجارة واسعة فى بلاد العثمانيين بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ وأضمروا الشر للبنادقة فنكل السلطان بهؤلاء وأصبح للفلورنسيين الحظوة لدى السلطان كما استطاع تجارها أن يدسوا مندوبا عنهم فى خدمة السلطان وهو الفلورنسى .
Laurant de Medici

وفى نفس الوقت لم يهملوا صلاتهم الطيبة مع سلطان مصر وأرسلوا سفارة يرأسها السفير Louis de la Stuffa ومعه هدايا للسلطان المصرى وطلب عقد معاهدة بامتيازات لها ولتجارها وفى ديباجة الاتفاقية ذكر الآتى: «الطلب مقدم الى عظمة سلطان مصر من السفير لويجى ده مسيو ديللاستوفا سفير عظمة السيد حاكم فلورنسا وباسم فخامته ، بالموافقة على مواد معاهدة مكتوبة لصالح كل رعايانا وتجارنا الفرنتيين الوافدين لبلاد سيادة السلطان سواء كانوا باقين أو متجولين أو مؤقتين للحصول على الرعاية والحماية فى جميع أملاكنا فى حلهم وترحالهم وهذه الطلبات قدمت الى عظمة السلطان بواسطة حاكمنا المعظم سنيور فلورنسا لونزوديميدتشى » ..

والملاحظ أنها فى مضمونها لا تخرج عن المعاهدة السابقة لذا سنذكر هنا ما يجد من طلبات دون ذكر التفاصيل :

١ ـ فى أى ميناء أو مكان تابع للسلطان ، تأتى سفينة فلورنسية أو سفينة عليها فلورنسيون أو أموال فلورنسية ، تستطيع هذه السفينة أن تبقى أو تذهب بحرية دون أن يطلب منها دفع أى شيء سواء بالنقد أو عينا ـ باسم ضرائب واجبة للجمارك أو ضرائب ملح أو ضرائب ادارية أو أى ضريبة أخرى .

٢ ـ حرية البيع والشراء دون قيد وحرية وتسهيل الشحن والتفريغ فى جميع الموانى (برقم ٢٥ بالأصل) .

٣ ـ السفن المحملة بالزاد والطعام لاتدفع الا ثلثا فى المائة من الرسوم المفروضة .

٤ ـ لا يفصل فى منازعاتنا الخاصة سوى القنصل الا اذا طلب أحد الطرفين اللجوء للقضاء الوطنى .

٥ ـ يحق للفلورنسيين أن يرتدوا الزى العربى حتى لا يقابلوا بجفاء من الوطنيين .

٦ ـ اذا أحضر تاجر فلورنسى الى الاسكندرية عسلا أسود فلا يدفع عن ذلك الا دوكة عن كل كركر (برميل) .

٧ ـ قنصل الفلورنسيين يعطى كل الامتيازات التى يحصل عليها قنصل البنادقة فى جميع مدن وموانى السلطان مع مرتب وأسبقية وخلافه .

٨ ـ لا يدفع الفلورنسيون فى بيروت ضرائب الا مثل البنادقة واذا أخذوا من بيروت أو دمشق رمادا لأحد المتوفين فلا يدفعون الا مثل البنادقة .

٩ ـ يسمح للفلورنسى أن يشحن سلعة على أى سفينة دون تعويق وبدون دفع ضرائب غير المفروضة ومثل ذلك بالنسبة للمسافرين (برقم ٢٦ بالأصل) .

١٠ ــ (برقم ٢٨ فى المعاهدة) اذا حدث أن اعتدت سفن مهما كانت جنسيتها أو نوعها فى البحر على سفن فلورنسية أو على سفن أخرى تنقل بضاعة فلورنسية بالنولون (بالأجرة) فان التجار الفلورنسيين يطلبون اجراء العدالة من السلطان ويطلبون منه أن يعوضهم عن بضائعهم وسفنهم التى أصابها الغدر من جراء الاعتداء ، وأن يعوضهم عن ذلك من التجار ومن بضائع التجار الذين من نفس جنسية السفن المعتدية ، والذين يوجدون فى بلاد السلطان . واذا اعتدى بالمثل فلورنسى على أى شخص فى البحر فان للسلطان الحق فى تعويض المعتدى عليه من المعتدى الفلورنسى أو من الفلورنسيين الموجودين فى بلاد السلطان .

١١ ــ طالما أن الفرنتي جيد الوزن والذهب ، يجب أن يكون جاريا مثل البندقى .

١٢ ــ اذا احتاج الفلورنسيون الى فندق أو منزل بالاسكندرية ينزل فيه القنصل والتجار الفلورنسيون فينبغى على السلطان أن يجهز لهم فندقا ويعطيه للقنصل حسب الأصول المرعية مع باقى طوائف التجار الأجانب فى بلاد السلطان . (برقم ٣٢ بالأصل) وقد راعى المندوب الفلورنسى أن يذكر للسلطان ما يلاقيه مواطنوه من اهانات فى الشام وموانى بيروت وطرابلس وغيرها . لبعدهما عن مقر السلطنة بالقاهرة وأبلغ ذلك للسلطان الذى وعد بمراعاة مصالحهم ونص فى الملاحق على :

١ ــ أمر من السلطان لعمال الموانى فى الشام وجماركه بعدم مضايقة أو تعطيل سفن وتجار فلورنسا أو مضايقتهم فى تخزين سلعهم وتوصيلها من والى دمشق .

٢ ــ رسم جوال القطن الخام ٨ دراهم والقطن المندوف ١٥ درهما .

٣ ـ يحق للقنصل مقابلة السلطان فى أى وقت بدون تعويق مثـل ما يمنح للقنصل البندقى أو مقـابلة من ينوب عن السـلطان لعرض مشاكلهم ومشاكل مواطنيه وابلاغ رسائل للسلطان .

٤ ـ ملحق آخر بالمعاهدة خاص بمطالب جماعة تجار التوسـكانيين التابعين لفلورنسا ومفاداه شكوى هؤلاء التجار من أن الحمالين الذين يحملون التوابل من مكان لآخر لتوصيله يعمدون الى فتح الجوالات وغش ما بها من توابل أو وضع تراب بدل التوابل وقد وعد السلطان بمعاقبتهم عقابا شديدا وتغيير السلع المزيفة بغيرها .

ملحق رقم (١٧)

خطاب السلطان قايتباى لأمير فلورنسـا بشأن تأكيد امتيازات طائفة التجار الفلورنسيين ببلاد السلطان . بتـاريخ ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤ هـ/١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ م

السلطان الأعظم المالك الملك ، الأشرف السيد الأبجل العـالم العادل ، محيى العدل فى العـالمين ، منصف المظلومين ، قامع الخوارج والمتمردين ، اسكندر الزمان مولى الاحسان ، جامع كلمة الايمان ، مملك أصحاب المنابر واليخوت والتيجان فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، بيد الطغاة والبغاة ، وارث الملك ، حامى القبلتين ظل الله فى أرضه ، القائم بسـنته وغرضه ، سـلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين أبو النصر

---

(١٦) Luigi di Messer Angiolo della Stuffa.
Domande fatte al Sultano d'Egitto a nome della Signoria de Firenge e del Magnifico Lorenzo de'Medici (Italiano)
Amari, I Diplomi Arabi, 74. XLVIII. pp. 374-381.

قايتباى خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه وأعلى على هام الجوزاء مكانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى حضرة الملك المبجل الموقر السميدع الهمام الضرغام البطل الباسل ، مجد أهل ملته العادل فى رعيته ، عظيم أهل مملكته ، صديق الملوك والسلاطين ، وفقه الله تعالى وحدد مشرفه . موضحة تعلم أن قاصده حضر الى أبوابنا الشريفة وتمثل بمواقفنا المعظمة وأحطنا علما بما على يده ، وشمله نظرة الرب ، وعاملناه بمزيد الرعاية وأجبناه بما سأل عنه من كتابة الفصول المتعلقة بجماعة الفرنتيين وتجارهم ليكون العمل بما رسمنا به والنبأ تشريفا شريفاً لحضرتنا الشريفة، وعاد من أبوابنا الشريفة مجبور الخاطر على أحسن الوجوه وسيطا ليعلمكم بذلك ، فالحضرة يطالعنا بأخباره ويتابع تجهيز قصاده وتجار أهل مملكته الى ثغر الاسكندرية المحروس وغيره من الموانى الاسلامية الداخلة فى حوزتنا الشريفة بما صحبتهم من البضائع والمتاجر للبيع والشراء والقياض وترسم بمعاملتهم بالمعدلة الشريفة فيعلم بذلك ويعتمده والله تعالى الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى .. فى رابع عشرين ذى الحجة سنة أربع وتسعين وثمان مائة حسب المرسوم الشريف ، الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبى بعده حسبنا الله ركن — تم .

حضرة الملك المبجل الموقر السميدع الهمام الضرغام البطل الباسل مجد أهل ملته ، العادل فى رعيته ، عظيم أهل مملكته ، صديق الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى حاكم الافرنتيين (١٧) .

---

(١٧) Amari, I Diplomi Arabi, pp. 181-183. & R.p. 435.

ملحق رقم (١٨)

المعاهدة الشاملة : وهى امتيازات منحها السلطان قايتباى لطائفة الفرنتيين ببلاده وهى باللغة العربية بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦/١٨ ذو القعدة الحرام عام ٩٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ضاعف الله تعالى نعمه

الجناب العالى الملك قايتباى

الأميرى الكبيرى ، العالمى العادل ، المؤيدى العونى ، الذخيرى الغياثى المهدى المنيرى ، الزعيمى المقدمى ، الظهرى السيفى عن الاسلام والمسلمين سند الايمان فى العالمين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ممهد الدول ، مشير الممالك عون الأمة كهف الملة ، ظهير الملوك والسلاطين سيف أمير المؤمنين وما زال مشكور الاهتمام موصوف المحاسن بين الأنام .

صدرت هذه المكاتبة الى جناب العالى يهدى اليه السلام والثناء العام وتوضح بعلمه المتباذ أن جماعة مشايخ الفرنتيين ودوجهم جهزوا قاصدا الى أبوابنا الشريفة ، وعلى يده قصة لمواقفنا المعظمة ، وأنهوا فيها أنه كان فى أيام الملوك السالفين كانت قناصلهم وتجارهم يترددون الى الثغور الاسلامية لأجل البيع والشراء كمثل طائفة البنادقة وأنهم اختاروا العود الى الثغور الاسلامية كما كانوا عليه ، وسألوا صداقتنا الشريفة فى الاذن لهم فى ذلك وكتابة شروط لهم على جارى العادة ليكونوا تحت النظر الشريف والذمام المنيف، فأجابتهم صداقتنا الشريفة الى ما سألوه من ذلك وبرزت مراسمنا الشريفة بالاذن لهم فى تجهيز

قناصلهم وتجارهم ومراكبهم الى الثغور الاسلامية المحروسة، ورسمنا بكتابة شروط لهم على حكم شروط طائفة البنادقة الآتى ذكرها فيه .

فصل (١) ان تجرى طائفة الفرنتيين المذكورة على حكم شروط البنادقة القديمة وأن يمنع من يتعرض اليهم فى بضائعهم ومتـاجرهم وأموالهم ومراكبهم وبحريتهم باليد العادية ، وآلا يلزموا بموجب عن بضائعهم الا على حكم ما تشهد به الضرائب الديوانية المخلدة بالدواوين المعمورة السلطانية من أيام الملوك السابقين سقى الله تعالى عهدهم من أحداث حادث ولا تجديد مظلمة فالجناب العالى يتقدم بمنع من يتعرض لطائفة الفرنتيين المذكورين فى بضائعهم وأموالهم ومتاجرهم ومراكبهم وبحريتهم باليد العادية ولا يلزموا بموجب عن بضائعهم مكرر ...

فصل (٢) ذكر من شروط البنادقة أنه اذا وقعت مبايعة من تجار المسلمين فى أصناف البهار لطائفة البنادقة يكون المعاقدة بينهم بالعدول فان بعض المذكورين يمتنع عن التسليم للبهار بعد المعاقـدة وقبض العربون فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على حـكم الشروط المذكورة ومنع من يقصـد ذلك ، وأن يكتب بين المتابعين من المسلمين والفرنتيين معاهدة شرعية بالعدول عند صـدور البيع وقبض العربون عملا بما تقتضيه الشريعة المطهرة .

فصل (٣) ذكر فى شروط البنادقة ان تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة أصنافا من متاجرهم من جوخ وأصـواف وغير ذلك ويتسلم المشترى الأصناف ويخزنها تحت يده ومنهم من يسافر بهـا شرقا وغربا لا يجد من يشتريها منه فيرجع ويردها على الذى اشتراها منه بغير مستند شرعي ويلزمه بالثمن ، فبرزت المراسيم الشريفة من الملوك السالفين بانه اذا أوقعت مبايعة بين المسلمين والبنادقة فليشهد فيها بالعدول ومنع من يقصـد الرد الشرعى فالجناب العـالى يتقدم

باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين فى ذلك على حكم الشروط المذكورة ومنع من يقصد الرد بغير طريق شرعى .

فصل (٤) ان من تجار المسلمين من يقع بينه وبين تجار البنادقة مقايضة فى صنف البهار وان العادة تمييز سعر الأصناف فى المقايضة عن النقد ، فعندما تقع المقايضة بما يقع عليه الاتفاق ولا يبقى الا التسليم يمتنع المسلم عن التسليم ويقصد فقد ثمن البهار بالنقد على حكم ما يميز السعر فى القياض فبرزت المراسيم الشريفة من الملوك السالفة بمنع من ينكث منهما على الآخر وان يشهد بينهما بالعدول عند حدود المقايضة وعقد البيع على الوجه الشرعى وان كلا منهما قاعد على ذلك ورضى به فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على ذلك كله .

فصل (٥) ان من شروط البنادقة أنه اذا وقعت محاكمة أو مخاصمة أو دعوى بمال أو غيره من مسلم على بندقى أو على مسلم من بندقى تكون المحاكمة مرفوعة الى الأبواب الشريفة ان كنا بالأبواب الشريفة أو الى النائب والحاجب أو المباشرين بالثغر وألا يحكم بينهما غير المشار اليهم فرسم لهم باجرائهم فى ذلك على العادة والشروط القديمة ومنع من يقصد الحكم بينهم غير المشار اليهم الا بمقتضى الشرع الشريف .

فصل (٦) ان من شروط البنادقة انهم لما يحضرون الى الثغر المحروس وغيره من الممالك الاسلامية ويقيمون بما يتعين عليهم من الموجب والعشر السلطانى فيقصدون خروج بضائعهم وقماشهم فلم يمكنوا من ذلك ويحصل لهم بذلك الضرر وتؤخذ بضائعهم وقماشهم باليد العادية ولا يصرف لهم الثمن عنها وتقوم البضائع بالعشر والخمس بأزيد من القيمة ويؤخذ منهم الموجب على حكم الزيادة ويحصل لهم بذلك الضرر فرسم لهم بذلك بألا يؤخذ شىء الا برضاهم وان

يعتمد الحق فى التقويم وغيره واذا ما خافوا على بضائعهم من الموجب والشر فلا يعوق عليهم ولا يلزموا بالبيع قبل خروج البضاعة ومنع من يتعرض اليهم بغير مستند عملا على ما جرت به العوائد وما تضمنته الشروط المشار اليها فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين فى ذلك على جارى عادة شروط البنادقة المذكورة .

فصل (٧) ان العادة فى الشروط القديمة من الملوك السالفين ألا يؤخذ من البنادقة الموجب على البضائع الا عند وصولها الى الثغر المحروس ، وأنهم لم يعاملوا بذلك ويؤخذ منهم الموجب قبل وصول البضائع واذا كان للتاجر منهم قرض على الديوان لا يحاسبونه بقرضه من الموجب فرسم لهم باجرائهم فى ذلك على العادة وماتضمنته الشروط القديمة ولا يؤخذ منهم موجب قبل وصول البضائع حملا على العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها ، واذا كان لأحد منهم قرض على الديوان الشريف فليحاسب بما له من القرض من عرض وما يتوجب عليه فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين فى ذلك كله عملا بالشروط المذكورة .

فصل (٨) ذكر أن من العادة فى الشروط القديمة من الملوك السابقين أنه اذا هلك أحد من طائفة البنادقة لا يتعرض أحد من المسلمين الى موجوده ، بل يكون جميع ما يخلفه تحت يد القنصل أو رفقته من التجار ، وأنه ثم من يتعرض لموجود من يهلك منهم فرسم له يمنع من يتعرض لموجود من يهلك منهم، وأن يتولى أمر الهالك القنصل أو رفقته حملا على جارى العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين فى ذلك على جارى العادة عملا على ما تضمنته شروط البنادقة المذكورين ، ومن هلك من طائفة الفرنتيين المذكورين يتولى أمره القنصل أو رفقته ومنع التعرض لموجود الهالك على جارى العادة فى ذلك .

فصل (٩) ذكر أن من شروط البنـادقة أن ثم من يلزمهم عند حضورهم الى الممالك الاسلامية بالثغر المحروس والمملكة الشـامية المحروسة وغيرها بالقطايع ألا يبيعوا ولا يشتروا الى أن يقطعوا السعر فى البهار ويرمى عليه بالغضب فيحصل لهم فى الضرر والعـامة عن مصالحهم وسفرهم . فرسم لهم بألا يلزموا بما فيـه ضرر عليهم من ذلك ولا غيره وان يحمـل الأمر فى ذلك على ما جرت به العوائد وما تضمنته الشروط القديمة ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفـة الفرنتيين المذكورين فيما هو ضرر عليهم حملا فى ذلك على جارى العادة والشروط المذكورة .

فصل (١٠) ذكر فى شروط البنادقة ان لهم معاملات ويحصل بينهم وبين تجار المسلمين اختلاف، ثم من يشكوهم من الأبواب الشريفة ومن ولاة فيلزموا بالحضور فيحصل لهم الغرامة والمشقة ولا يحضروا غرماءهم ، فرسم لهم بأنه اذا وقعت شكوى على أحد منهم لا يحمل الا بعد ثبوت الحق وامتنع عن القيام به، أما الجناب العالىفيتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين فى ذلك على جارى العادة المذكورة وأنه اذا وقعت شكوى على أحد من الفرنتيين لا يحمل الا بعد ثبوت الحق وامتنع عن القيام به على حكم الشروط المذكورة .

فصل (١١) ذكر فى شروط البنادقة أن ثمة أغربة تراكمين وغير تراكمين يتقصدون لقطع الطريق ويخرجون من الثغور ويقطعونعليهم الطريق فى البحر وينهبون ما مع البنادقة من المال والقماش وغير ذلك فرسم لهم بمنع المذكورين للتعرض لتجار البنادقة وطائفتهم ومن وجد من التركمان المذكورين وغيرهم ممن يتعمد ذلك فليمسك وليحضر الى الأبواب الشريفة ليقابل بما يسـتحقه من بين يدى المواقف الشريفة فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على جـارى العادة فى ذلك ومنع من يتعرض لهم من التركمان وغيرهم من التعرض

للتجار الفرنتيين المذكورين ومن وجد من التركمان المذكورين ممن يعتمد على ذلك فليمسك وليحضر الى الأبواب الشريفة ليقابل بما يستحقه لدى المواقف الشريفة .

فصل (١٢) ذكر أن من الجارى فى شروط البنادقة من أيام الملوك السالفين ألا يؤخذ تاجر عن تاجر ولا يلزم بشىء ما لم يكن ضامنا أو كفيلا وأنه من يتعرض للتجار المذكورين يلزم بعضهم ببعض عن غير ضمان ولا كفالة ، فرسم لهم ألا يؤخذ تاجر بتاجر ولا يلزم عنه بشىء الا اذا كان ضامنا له أو كافلا عملا بما تضمنته الشروط المشار اليها، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين فى ذلك على جارى عادة البنادقة المذكورين بألا يلزم تاجر عن تاجر ما لم يكن ضامنا أو كفيلا عملا بشروط البنادقة المذكورين .

فصل (١٣) ذكر أن ثم من طوائف الفرنج من يكون معه فى الغراب ممن يتحرم أو يقطع الطريق أو البحر ويأسر المسلمين ويحضرهم الى الثغور والسواحل ويقصدون بيعهم فيتعرض المسلمون لتجار البنادقة بابتياع الأسرى وان لم يكن الحرامية من جنسهم فرسم لهم بأنهم اذا كان المعتدى من طوائف البنادقة فيلزمهم به حملا على ما تضمنته الشروط القديمة المذكورة ويحرم التعرض لتجار الفرنتيين فى أمر مشترى الأسرى ما لم يكن الحرامية من جنسهم حملا على ما تضمنته شروط البنادقة المشار اليها .

فصل (١٤) سأل قاصد الفرنتيين المذكورين أنه اذا كان لهم حقوق شرعية فى جهة أقوام تعلقت فى خلاصها ممن يتعين فى جهة ، فالجناب العالى يتقدم انه اذا كان لأحد من تجار الفرنتيين حقوق شرعية يخلص ذلك ممن يتعين به فى جهة على ما تقتضيه الشريعة المطهرة والعدل الشريف .

فصل (١٥) ذكر أن تجار البنادقة لا يبرحون مسافرين من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان ومن مملكة الى مملكة ولابد لهم من زاد ومطعوم ومشروب وانهم ثم أول من يتعرض لهم ويقطع مصانعهم ويمنعهم من ذلك فرسم لهم بتمكينهم من ذلك ومن زادهم ومأكولهم ومشروبهم بحسب ما يكون معهم ومنـــع من يتعرض اليهم فى ذلك أو يقطع مصانعهم حملا على ما جرت به العادة وما تضمنته الشروط القديمة من الملوك السالفين الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد والنـــاصر حسن واخوته والأشراف شـــعبان سقى الله تعـــالى عهدهم صوب الرحمة والرضوان ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين فى الزاد والمشروب والمأكول على جارى العادة المذكورة ومنع من يتعرض لهم فى ذلك وتمكينهم من ذلك على حكم الشروط المشار اليهـــا .

فصل (١٦) ذكر أن فى شروط البنادقة ان جماعة السماسرة بثغر الاسكندرية المحروس أدال منهم جماعة من المعلمين كبار ضمان جهة السمسرة وفيهم جماعة فرادية وان المعلمين الكبار أدال يتعرضون الى الســـماسرة الفرادية ويمنعونهم من البيع والشراء وحصـــل لهم ذلك للضرر فرسم لهم بأنه من كان سمسارا لا يمنع من البيع والشراء وان المعلمين يأخذون فى معلومهم على ما جرت به العادة فالجناب العالى يتقدم باجراء فى ذلك على جارى العادة المذكورة .

فصل (١٧) ذكر أن من شروط البنادقة أنه اذا صدرت معاهدة بيع بين المسلمين والبنادقة فى ديوان القبان ويشهد فيها بشهود عدول ولا تفسخ البيعة الا برضـــا المتبـــاعين واذا اشترى التـــاجر المســـلم شـــيئاً من البنادقة فليؤمر بالتقليب والمعاينة الشرعية قبل خروج البضاعة من مخازنهم وفندقهم وكذلك الفرنج اذا اشتروا شيئا من البضـــاعة من المسلمين فليقلبوا ويعاينوا المعاينة الشرعية قبل اخراجها من مخزن التاجر المسلم أو فندقه بحيث لا يقع فى ذلك خلف ولا نكس ، فرسم لهم

آن يعتمد ذلك ويعمل به ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين فى ذلك على جارى العادة المذكورة مع طائفة البنادقة .

فصل (١٨) ذكر أن من شروط البنادقة ان العادة أن المغربلين اذا غربلوا لأحد بهارا يأخذون أجرتهم بالكامل، واذا لم يغربلوا ووقع الغبار فباتفاق من غير أن يتعمد ذلك يعمل به فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين على جارى العادة المذكورة ويعمل به .

فصل (١٩) ذكر أن من شروط البنادقة انه اذا دخلوا بأصنافهم الى الثغر المحروس وخرجوا بالأصناف التى يبتاعوها تحضر اليهم ضمان الجمال ويأخذون منهم الأجرة بالكامل ثم يحضرون حمارة (مكاريين) وغيرهم يحملون ما معهم من الأصناف فى الدخول والخروج ، ويقول لهم أصحاب الجمال أعطوا الحمارة أجرتهم وهاتوا أجرة الجمالفستصير الأجرة مثلين ويحصل لهم بذلك الضرر فرسم لهم أن الجمالة لا يأخذون من الفرنج شيئا الا ان شالوا لهم فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين فى ذلك على العادة المذكورة أو لا يؤخذوا الجمالة من الفرنج الفرنتيين المذكورين الا ان شالوا لهم .

فصل (٢٠) ذكر فى شرط البنادقة أن مرشدى البحر عند حضور القطائع يشوشون على الفرنج البنادقة وعلى جميع من بمراكبهم ويعوقوهم من غير سبب ولا دين شرعى ولا أمر النائب ، وأنه يحصل لهم بذلك الضرر فرسم بأن أحدا لا يشوش عليهم ولا يعوقهم ولا يقف فى طريقهم الا اذا كان عليهم دين شرعى أو بأمر النائب فى ذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على عادة الشروط المذكورة بأن أحدا لا يشوش عليهم ولا يعوقهم ولا على من بمراكبهم ولا يقف فى طريقهم الا ان كان عليهم دين شرعى أو بأمر الجناب العالى عملا بشروط البنادقة فى ذلك . . . .

فصل (٢١) ان مما جرت به عادة البنادقة انه اذا وصل شختور

أو مركب فيه مشروب للبنادقة الجارى به عادتهم يكون للناظر رسم على كل خمسين بنية وما فوقها بنية واحدة وانه جدد الناظر عليهم عادة وهو انه اذا حضر اليهم شختور فيها عشر بنانى أو خمس عشرة بنية يؤخذ من ذلك بنية نظير ما كان يؤخذ على الخمسين فرسم لهم أن الناظر لا يأخذ منهم بنية الا من خمسين فما فوقها على جارى العادة وان كان دون الخمسين فلا يأخذ شيئا ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين على جارى العادة المذكورة ولا يأخذ منهم الناظر الا على كل خمسين بنية واحدة وان كان دون الخمسين فلا يأخذ شيئا على جارى عادة البنادقة .

فصـــل (٢٢) ذكر أن من شروط البنادقة أن ثم من الخاصكية والمماليك السلطانية والبريدية الذين يحضرون الى ثغر الاسكندرية ومن يشوش على طائفة البنادقة ويسجنهم ويهينهم ويضربهم قصــدا لقطع مصانعتهم بغير مستند ولا طريق فرسم لهم بمنع المذكورين من التعرض اليهم الا بطريق أو مرســوم شريف وكذلك لا يســجنهم النــائب ولا يضربهم ولا يمكن أحدا من التشــويش عليهم ولا من معارضتهم الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف واذا طلب أحد من البنــادقة الحضور الى الأبواب الشريفة لا يمنع ولا يعوق عليهم الأبواب بل يمكن من ذلك بدون تعويق فالجناب العالى يتقدم باجراء جمــاعة الفرنتيين المذكورين الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف ومن طلب منهم الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن ولا يعوق على حكم شروط البنادقة المذكورين .

فصل (٢٣) ذكر فى شروط البنادقة أنهم سألوا أن يمكنوا من ركوب الحمير بالثغر المحروس فرسم لهم بذلك بحكم أن يكون لهم عادة بذلك فالجناب العالى يتقدم فيمكن طائفة الفرنتيين المذكورين من ركوب الحمير بالثغر المحروس على جارى عادة البنادقة ان كان لهم عادة بذلك .

فصل (٢٤) ذكر أن من شروط البنـادقة انه اذا تسـلم التاجر الفرنجي بهارا ليبعه فيتسلم التاجر المسلم بضاعته بعد الاتفاق بينهما على أيام معلومة يكتب به ديوان القبان وهى من زيوت طيب وعسل نحل وصابون وبندق وقلب لوز وغير ذلك من سائر البضائع والأصناف فاذا امتنع التاجر المسلم عن تسليم بضاعته بعد وزن البهار العوض ومضت أيام الاتفاق بينهما فتوزن بضاعة التاجر المسلم بحضـور شاهدى عدل وتخرج من الديوان أو من المخازن وتصير على ذمة التاجر المسلم فرسم لهم بذلك ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على حكم الشروط التى للبنادقة المذكورة .

فصل (٢٥) ذكر أن من شروط البنادقة أن البضائع التى يقومون بعشورها فهى بالخمس ، واذا انفصل ناظر الخواص الشريفة وفوض نظر الخاص بغيره فلا يقومون الا بعشورها ولا يطالبون بذلك ثانيا ـ فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على حكم الشروط المذكورة فى ذلك .

فصل (٢٦) ذكر أن من شروط البنادقة أنهم اذا أقاموا بالترجمة لمن هو مستقر فى الترجمة فلا يطالبون بترجمة ثانية ولو كانت البضاعة المبيعة مقيمة بالثغر ولو أخرج التاجر الفرنجى بهار العوض فلا يطالب بترجمة ثانية فرسم لهم بذلك حيث ان التاجر الفرنجى أقام بالترجمة أولا للترجمان المنفصل من الترجمة ، فالجناب العالى يتقدم باجراء تجار الفرنتيين المذكورين على حكم شروط البنادقة المذكورين فى ذلك .

فصل (٢٧) إن عادة تجار البنادقة أن يبيعوا بضائعهم بظاهر الثغر المحروس وداخل الثغر المحروس وسألوا تجار البنادقة ان يجروا فى ذلك على جارى عادتهم فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء تجار الفرنتيين فى ذلك على عادة البنادقة المذكورين واجابتهم لذلك .

فصل (٢٨) ذكر من شروط البنادقة ان التاجر الفرنجى اذا خرج من باب البحر بالثغر المحروس الاسكندرى بقصد السفر وصحبته فرسه وهديته مثــل أرز وبيض وســكر وشراب وغير ذلك مما هو للأكل فلا يوزن على ذلك الدرهم الفرد ، فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة جمـــاعة الفرنتيين المذكورين على حكم شروط البنادقة فى ذلك .

فصل (٢٩) ذكر أن من شروط البنادقة أن الناظر بالثغر المحروس لا يأخذ على المكركرات الداخلة اليهم الى الثغر المحروس الا على كل خمسين مكركرا ــ مكركرة واحدة من غير زيادة على ذلك على حكم ما بأيديهم من الأمثلة الشريفة ، فرسم لهم باجرائهم على جارى عادتهم المستمرة الحكم فى آخر وقت من غير احداث حادث ، فالجناب العالى يتقدم باجراء جماعة تجار الفرنتيين المذكورين على جارى عادة لبنادقة فى ذلك المستمرة الحكم الى آخر وقت من غير أحداث حادث .

فصل (٣٠) ذكر أن من شروط البنادقة ان جرت عاداتهم أن يخرجوا بهارهم من داخل الثغر المحروس الى ظاهر الثغر من جهــة البحر المالح فى وسط السنة ولا يعوق عليهم بهارهم المذكور ، وسألوا البنادقة ان يمكنوا من اخراج بهارهم الى ظاهر الثغر المحروس فى وسط السنة لا يعوق عليهم أجراء على جارى عادتهم فرسم لهم بذلك اجراء على عادتهم المستمرة الحكم الى آخر وقت فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتيين المذكورين على جارى عادة البنــادقة المذكورة من اخراج بهارهم من جهة البحر المالح فى وسط السنة على جــارى العــادة .

فصل (٣١) سأل القاصد المذكور انه اذا أورد أحد طائفتهم من التجار الى الثغر السكندرى وغيره بالمملكة الشريفة ببضائع وأقام بما على البضاعة من الموجب واختار تحويلها الى حاصله يمكن من ذلك

ولا يعارض أحد فى ذلك ويبيع لمن يختار وانه اذا ثمنوا البضـاعة لا تثمن الا بسعر ذلك الوقت فى البندر ، واذا قصدوا أخذ موجب زائد لا يمكنوا من ذلك وأن يؤخذ الموجب من كل صـنف بقدره فرسم لهم بذلك ، فالجناب العالى يتقدم باعتماد ما رسمنا من ذلك .

فصل (٣٢) سأل قاصد الفرنتيين المذكور للصدقات الشريفة انه اذا باع تاجر فرنجى الى تاجر مسلم وكان التاجر المسلم قد أخـذ البضـاعة بالدين الى القاهرة وقصد الفرنجى ومعه البضـاعة فحضر صاحب البضاعة الأول وادعى أنها بضاعته لا تسمع دعواه عليه بذلك، لأن الملك لمن هو بيده وان أحدا لا يعارض تاجرا افرنجيا من المذكورين ولا يشوش عليه ولايبلغه لا من خاصكى ولا من بربرى ولا من شوكة من غير حق الا بمرسوم شريف واذا حصل لهم مظلمة بغير حق وبغير مرسوم شريف وقصد الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن من ذلك ولا يعوق لخلاص حقه فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باعتماد ما رسمناه من ذلك .

فصل (٣٣) سأل القاصد المذكور للصدقات الشريفة انه اذا قصد قنصلهم الحضور الى الأبواب الشريفة لظلم حصل عليه فى البندر أو لأحد من تجاره أو وردت عليه كتب من بلاده لعمل مصالحهم يمكن من الحضور الى الأبواب الشريفة فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باعتماد ما رسمناه به من ذلك .

فصل (٣٤) سـأل القاصـد المذكور انه اذا أحضرت مراكبهم وقطائعهم وأحضر معهم ذهبا نقدا لأجل الشراء والمصروف وقصدوا اخـراجه فى معـاملة مقامنـا الشريف يخـرج كمثل ذهب البنادقة على أوزانه وعياره الطيب فان التـاجر ما يقـدر يحمـل ضرب ذهب البنادقة ولا لهم حيلة غير ضرب بلدهم وان الذهب المذكور يـكون طيب العيار والوزن فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باعتماد ما يكون الذهب طيبا وازنا كامل العيار .

فصل (٣٥) سأل القاصد المذكور للصدقات الشريفة أنه اذا حضر قنصلهم وتجارهم الى الثغر المحروس يعين لهم فندق ينزلون فيه على العادة فى ذلك فرسم لهم بذلك الجناب العالى يتقدم بأنه اذا حضر القنصل المذكور وتجارهم يعين لهم الجناب العالى فندقا ينزلون فيه على العادة فى ذلك مع الوصية بهم وكف أسباب الأذى والضرر عنهم وسط المعدلة الشريفة فيهم والاحسان اليهم ويستمر هذا المرسوم الشريف بيدهم بعد العمل به قولا واحدا وأمرا حازما والمراسيم الشريفة تؤكد عليه فى ذلك غاية التأكيد تحيط علمه بذلك والله الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى

فى سابع عشر من جمادى الآخرة احدى وتسعمائة

حسب المرسوم الأصلى

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد النبى (١٨) .

(22 feb. 1496)

ملحق رقم (١٩)

خطاب السلطان قايتباى الى حاكم فلورنسا بمنح رعاياه وتجاره فى بلاده امتيازات خاصة بالتجارة ، وصورة الخطاب لنائب الاسكندرية والشام لمراعاة هذه الطائفة

السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل المجاهد المثاغر المرابط المظفر ، سيف الدولة والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين، قامع الخوارج والمتمردين ، اسكندر الزمان ، مولى الاحسان جامع

---

(١٨) Amari, I Diplomi Arabi XL, pp. 184-209 & pp. 436 ff.

كلمة الايمان ، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، فاتح الأقطار مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، مبيد الطغاة والبغاة الكفار ، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك ، خادم الحرمين الشريفين مسلك سبل القبلتين ظل الله فى أرضه القايم بسنته وفرضه ، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين أبو النصر قايتباى خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأحزابه وخدمته وأعوانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لعلم حضرة المشايخ المبجلين

الموقرين العارفين الأبطال، مجد أهل ملتهم كبراء طائفتهم اختيار الملوك والسلاطين وفقهم الله تعالى، أن قصادهم حضروا الى أبوابنا الشريفة وأحطنا لهم علما وأجبناهم الى ما سألوا فيه كتابة مراسم شريفة تتضمن شروط ان تجهزوا قنصلا من طائفتهم يقيم بالثغر الاسكندرى المحروس وان تحضر تجارهم الى الثغر الاسكندرى المحروس بمتاجرهم وبضائعهم للبيع والشراء على عادة البنادقة ورسمنا بالكتابة الى الثغر الاسكندرى والى الشام المحروس أعلمنا بذلك ورسمنا باعادة قصادهم فعادوا على أحسن الوجوه ورسمنا بتجهيز المجلس السامى الخواصكى الشمسى بن محفوظ أحد أعيان التجار وصحبتهم بما جهز معهم على سبيل الهدية من خدمة مقامنا الشريف وكتبنا الى حضرة المحتشم دوق الفرتتين بأعلاه مبينة فيتقدموا بالاقبال على الخواجا بن محفوظ ومعاملته بالاكرام والاحترام وتجهزوا قنصلا من الفرتتين الى الثغر الاسكندرى المحروس يقيم به على عادة قنصل البندقية ويطيبوا خواطر تجارهم ويأمروهم بالحضور الى الثغر الاسكندرى ببضائعهم ومتاجرهم للبيع والشراء والقياض على عادة

البنادقة ويكونوا آمنين مطمئنين فتعلموا بذلك تعلما به والله تعالى الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى .

فى عاشر من جمادى الآخرة سنة احدى وتسعمائة

حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده وصلى الله على من لانبى بعده حسبنا الله ركن ـ تم .

حضرة المشايخ الموقرين والمبجلين العارفين الأبطال المحترمين مجد أهل ملتهم كبراء طائفتهم اختيار الملوك والسلاطين وفقهم الله تعالى .

مشايخ طائفة الفرنج الفرنتيين (١٩) .

ملحق رقم (٢٠)

مرسوم سلطانى صادر من السلطان قنصوة الغورى لجميع عماله ونوابه وموظفى الدولة فى الاسكندرية وجميع بلاد السلطان بتنفيذ ما تضمنه هذا المرسوم لطائفة الفرنتيين الوافدين لبلاد السلطان وتأييد ما منح لهم من امتيازات سابقة وهو بتاريخ ١٨ من ذو القعدة ٩١١هـ/١٢ من ابريل ١٥٠٦ م .

مرسوم شريف .

الى كل واقف عليه وناظر اليه من الجنابات العالية والمجالس السامية النواب والحجاب والمباشرين والنظار والمتكلمين وأرباب الادراك وأصحاب الوظائف بالثغر الاسكندرى المحروس وغيره من

---

(١٩) (26 feb. 1496)
Amari, I Diplomi Arabi. XLI, pp. 210, 213 & p. 443.
مكتوبة باللغة العربية

الثغور الاسلامية والسواحل بممالكنا الشريفة ضاعف الله تعالى نعمة الجنبات العالية وأعز المجالس السامية يتضمن اعلامهم .

١ ــ قد برزت مراسمنا الشريفة لطائفة الفرتتيين من الافرنج بالامان والاطمئنان والأخذ والعطاء والبيع والشراء وأن يحضروا الى الثغر الاسكندرى المحروس والى غيره من الثغور الاسلامية والى السواحل بممالكنا الشريفة ببضائع متجر ولهم الأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء وعليهم أمان الله تعالى وأماننا الشريف فيتقدم كل واقف عليه من الجنابات والمجالس بالوصية التامة لهم اكرامهم واحترامهم ومعاملتهم بالعدل ومنع من يتعرض لهم بسوء أو ضرر ولهم عادة التجار من الافرنج وأن يحضروا الى ثغر الاسكندرية ولهم الأمان والاطمئنان فى البيع والشراء والأخذ والعطاء وأنهم يحضرون طيبى القلب منشرحى الصدر آمنين على أنفسهم وأموالهم ومراكبهم واذا حضروا من غير المراكب لطائفتهم يكون لهم الأمان فى البر والبحر وان يعاملوا بالعدل الشريف ولا يحدث حادث ولا مظلم وألا يوزنوا الا أسوة بالتجار البنادقة وغيرهم من تجار الافرنج الذين يحضرون الى الثغر الاسكندرى فى البحر وذلك على حكم ما بيدهم من المراسيم الشريفة فى أيام الملك الأشرف العبد الشهيد قايتباى سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان على يد قاصدهم الوزير « دالستوفا » مع الوصية لهم ومنع من يتعرض لهم بسوء أو ضرر . .

٢ ــ من هلك منهم عن وصية فليعمل بها من غير أن يتعرض أحد لوصيته .

٣ ــ اذا انكسر مركب من مراكب الفرتتيين بممالكنا الشريفة فلا أحد يتعرض الى البضاعة ولا الى أى شىء منهم سوى السلاح على ما جرت به العادة من تقادم السنين .

٤ ــ اذا حضر بلادهم قنصل فلا أحد يحكم بين طائفة الفرنتيين الا القنصل يتعامل قولا واحدا وأمرا حازما ومراسمنا الشريفة تؤكد عليهم فى ذلك غاية التأكيد فيحيط علمهم بذلك والله تعالى الموفق بمنه وكرمه .

ان شاء الله تعالى .

فى ثامن عشر فى القعدة الحرام سنة احدى عشر وتسعمائة .

حسب المرسوم الشريف والحمد لله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم (٢٠) .

ملحق رقم (٢١)

هذا الخطاب موجه من حاكم فلورنسا الى السلطان الأفخم قانصوه الغورى بشأن الهدايا المرسلة مع سفيره تغرى بردى عام ١٥٠٧ وهو فى طريقه الى أوربا وتقديمه مقترحات جديدة من سيده السلطان بامتيازات أخرى لتجار الفرنتيين فى بلاد السلطان .

السيد السلطان الأفخم .

حيث ان الأفخم سفيركم تغرى بردى ترجمانكم الموجود بالبندقية الآن قد أظهر عواطفه الطيبة نحونا وعرض من جانبه الأمان والمعاملة الحسنة لكل تجارنا الذين يذهبون للمتاجرة ببلاد عظمتكم فاننا نقدم الشكر لهذا الكرم العظيم وان كل ما يمكن أن يخطر على البال من عبارات الشكر تفى بالواقع ونظن أن فخامتكم تقدرون أننا نشعر به وبأماناته . وقد قبلنا الهدية التى أرسلت لنا على يد سفيركم تغرى

---

(٢٠) Amari, I Diplomi Arabi, XLII, pp. 214, 217 & p. 444.
مكتوب باللغة العربية

بردى وحملناه الشـــكر العظيم لكم وامتناننا لكم ولعمالكم الذين سيمنحون الأمان والتسهيل والثقة ولا نشك أننا حصلنا على امتيازات مثل هذه فى أى وقت مضى لمواطنينا فى بلدكم (٢١) .

ملحق رقم (٢٢)

مرســوم موجه لجماعة الفرنتيين ولتجارهم فى بلاد الســلطان باعفاءات وامتيازات جديدة وصورة المرسوم لعمال ونواب السلطان لمراعاة تجار هذه الطائفة فى بلاده بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة ٩١٣ هـ ٢٩ أكتوبر ١٥٠٧ م .

مرسوم شريف أن يتقدم كل واقف عليه من جماعة الفرنتيين وفقهم الله تعالى باعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى قانصوه الغورى السلطان الملكى الأشرفى السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه ان يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من جماعة الفرنتيين وفقهم الله تعالى بعلمهم أن المجلس السامى الأميرى الترجمان الكبير المقصدى الذخيرى الأوحدى الأكمل السيفى تغرى بردى الترجمان القاصد أدام الله سعده حضر الى خدمة أبوابنا الشريفة وذكر لنا أنه جهز اليكم امانا شريفا لا يحصل معه تشويش على أحد فقد أحاطت

---

(٢١) Amari, I Diplomi Arabi, XLIX (1507).
80 La Signoria di Firenze, al Sultano d'Egitto Ningranziamento pei, favori commerciali promenai d'all'ambasciatore Tangaberdi (Italiano 1507 — 15 April).
(Nell'archivio Fiorentino, Signori Carteggio, missine, registro I, Cancelleria(No. 54 fog 181 recto.)

مكتوبة باللغة العربية

علومنا الشريفة بذلك وهو ناشيء عن مقامنا الشريف ورسمنا لكم أن تحضروا الى موانينا الشريفة بالثغر الاسكندرى وثغر دمياط وبرلس ورشيد وسائر الموانى الداخلة فى حوزتنا الشريفة وتبيعوا وتشتروا أسوة ببقية التجار وعليكم الأمان من الله تعالى وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأماننا الشريف ورسمنا بمنع من يتعرض لكم بأذية أو ضرر أو تشويش وألا يطالب الأب عن ابنه ولا الأخ عن أخيه الا بمستند فى الثغر الاسكندرى أو فى ثغر من ثغور الاسلام بمستند شرعى ــ فيقدموا باعتماد ما رسمنا به من ذلك على الحكم المشروح أعلاه ويحضروا الى ثغور مملكتنا الشريفة طيبى القلب منشرحى الصدر آمنين على أنفسكم وأموالكم لا يمسهم ضرر ولا سوء فيتعلموا ذلك ويعتمدوه والله الموفق بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى ــ فى ثانى عشرين من شهر جمادى الآخرة المبارك سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (٢٢ جمادى الآخرة ٩١٣ هـ) .

حسب المرسوم للشريف الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم نعم الوكيل حسبنا الله تعالى . تم (٢٢ أكتوبر ١٥٠٧) (٢٢) .

ملحق رقم (٢٣)

أمر من السلطان قانصوه الغورى لتسهيل الأمر على تجار الفرنتيين فى موانىء مصر . الملك الأشرف قانصوه الغورى سلطان مصر .

أمر بمرسوم بخصوص نفس موضوع موانىء الاسكندرية

(٢٢) Amari, I Diplomi Arabi, XVII, pp. 218 - 219 - 220.
مكتوبة باللغة العربية

ودمياط والبرلس ورشيد نوفمبر ١٥٠٨ ـ ٩١٤ هـ . أمر من فخامة السلطان بوجوب عمل كل ما هو مذكور بعد لطائفة الفلورنسيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به السلطان الملك الأشرف السيفى الذى رفعه الله .. والحمد لله أنه يجب أن تكون أوامر السلطان مطاعة فى كل بلاده ـ ان الأمير الترجمان « تغرى بردى » عرض علينا كما طلبتم أيها الفلورنسيون باسمنا الأمان والطمأنينة ولما سمعنا كلماته وما قاله لنا ـ أمر بالأمان واطمأن لهم فى موانينا بالاسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وكل الموانى التابعة لنا ، للبيع والشراء حسب العادة المتبعة من التجار ـ وقد ارتضينا أن تكونوا أيها الفلورنسيون تحت حماية الله وحمايتنا الشخصية بهذا المرسوم ونأمل ألا أحد يعترض عليكم أو يزعجكم أو يضايقكم ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب ولا القريب بالقريب ولا يطالبوكم بأى شىء لأى سبب فى الحال والاستقبال . نريد منكم أن تشعروا بالعدل فى أراضينا وفى أى بلد توجدوا فيه ـ واذا رغبتم أن تحضروا فى بلادنا فاننا نرضى أن تحضروا تحت مرسومنا وأماننا السابق وبكل أمان وثقة وأن تكونوا آمنين على أموالكم وأشخاصكم ولا تخشوا من أى ازعاج أو مضايقة والله هو الذى يعطى الخير لكل انسان ..

سنة النبى ٩١٤ هـ ـ ١٥٠٨ م .

(منشور السلطان الى الفلورنسيين والى عماله بمراعاة مصالحهم فى بلاده وهو الذى أصدره السلطان بعد عودة تغرى بردى الى القاهرة بناء على طلب حاكم فلورنسا) (٢٣) .

---

(٢٣) مكتوب باللغة العربية

Amari, 1 Diplomi Arabi, L. p. 388.
82 Nell Archivio, fiorentino atti publici Tom X., Tuniai, No. 10. Novembre 1508. DCCCCXIII 91411.

ملحق رقم (٢٤)

مرسوم من السلطان قانصوه الغورى بشأن منح وامتيـازات جديدة لطائفة الفرتتيين لدى وصولهم لبلاده . وذلك بناء على طلب سفيرهم الى السلطان وهو السيد برنالدين بيروشوا Bernardo Baruzzi ومنحهم موسـما لتجارتهم ومركزا لقنصلهم على مثـل ما لغيرهم من الفرنجة فى بـلاد وموانى السلطان . (١٠ ربيع أول ٩١٥ هـ ـ ٥ يوليو ١٥٠٩ م) .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليه السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل والمجاهد المؤيد الرابط والمثاغر المظفـر والمنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيى العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك ظل الله فى أرضه القائم بسنته وفرضه فاتح الأقطار فاتح الممـالك والأمصار اسكندر الزمان مولى الاحسان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت ملك البحرين ملك سبيل القبلتين خادم الحرمين الشريفين سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة جامع كلمة الايمان ناشر لواء العدل والاحسان سيد ملوك الزمان أمام المتقين قسـيم أمير المؤمنين أبى النصر قانصوه الغورى خلد الله سلطانه ونصر جيوشه وأعـوانه وأعلى على همام الجوزاء مكانه ...

صدرت هذه المكاتبة الى حضرة الملك الجليل البطل الباسـل الهمام السميدع الغضنفر فخر الملة المسيحية وذخر الأمة النصرانيةعماد بنى المعمودية صديق الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى ويقيه مصارع السوء ويجرى له بالسلام فى النفس والمال احكامها يتضمن الأعلام أن علومنا الشريفة أحاطت بمضمون قصته الواردة الى خدمة أبوابنا

الشريفة على يد قاصده برنالدين بيروشوا فى معنى ما قصده حضرة
الملك من عمل موسم بثغر الاسكندرية المحروس كعادة غيره من تجار
الفرنج وانه تجهز تجارا وقنصلا يقيم بالثغر بالاسكندرية من الجماكية
وما سأل فيه من بروز أمرنا الشريف يكتب مرسوم شريف بتأمين
القنصل والتجار عند حضورهم ومضاعفة الوصية لهم ومعاملتهم بالعدل
الشريف والنداء لهم بالامان الطمان والبيع والشراء والأخذ والعطاء
على عادة أمثالهم بحيث يكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم
وألا يطلب أحد ما لم يكن ضامنا أو كفيلا واذا باعوا واشتروا
وقاموا بما يجب عليهم للدواوين الشريفة وقصدوا وسعروا مايبتاعونه
فى مراكبهم أو فى مراكب يختارونها وقصدوا العود من حيث أتوا
فيمكنوا من ذلك ولا يعوق عليهم ولا يؤخذ منهم بضاعة غصبا
الا برضاهم واذا انصاح (انصلح ــ أو انصاخ) لهم مركب من ريح
عرضت فيمكنوا من رجالهم وبضائعهم أسوة أمثالهم ويساعدهم
المتكلمون عن مقامنا الشريف فى ذلك اذا هلك واحد منهم عن وصية
فيعمل بمضمون وصيته وان هلك عن غير وصية وترك موجودا فيسلم
الموجود للقنصل على الصون الشريفة وعلمنا ذلك مفصلا وصار ذلك
على خواطرنا . وأجبنا حضرة الملك الى ما سأل فيه من ذلك وبرز
أمرنا الشريف بكتاب أمان شريف للقنصل والتجار وما سأل فيه حضرة
الملك وجهز ذلك اليه ورسمنا للمجلس العالى الأميرى الكبيرى
المجاهدى المؤيدى الذخيرى النصرى الأوحدى الأكملى الأعزى السيفى
عمدة الملوك والسلاطين تغرى بردى أحد أعيان أمراء العشرات بالديار
المصرية والترجمان بأبوابنا الشريفة ادام الله تعالى سعده بأن يكتب
الى حضرة الملك بما فيه اطابة خواطر التجار بما سيعلم حضرة الملك
بأمر تجاره وجماعته بالحضور الى ثغر الاسكندرية المحروس للبيع
والشراء والأخذ والعطاء ولهم الأمان والاطمان على جارى العادة من
ذلك ومستقر القاعدة من غير ضرر ولا تشويش ، وقد اعدنا اليه

قاصده بهذا الجـواب الشريف فنعلمه باعتمـاده والله تعالى الموفق سبحانه .

ان شاء الله تعالى

فى رابع عشر ربيع الأول المبـارك سنة خمس عشرة وتسعمائة حسب المرسوم الشريف .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله وسلم حسبنا الله ونعم الوكيل . تم . (خطاب السلطان لحاكم فلورنسا) .

حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السميدع الغضنفر فخر الملة المسيحية ذخر الأمة النصرانية عماد بنى المعمودية صديق الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى صاحب الفرنتيين (٢٤) .

ملحق رقم (٢٥)

مرسوم صادر من السلطان قانصوه الغـورى الى جميع نوابه وموظفيه وعماله لمراعاة مصالح الفرنتيين فى بلاده .

الاسم الشريف

مرسوم شريف أن يتقدم كل واقف عليه من النواب والنظـار والحكام والمباشرين والمتكلمين وتجار الذخيرة الشريفة وولاة الأمور بثغر الاسكندرية المحروس أميرهم الله تعالى اعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى قانصـوه

السلطانى الملكى الأشرف السـيفى أعلاه الله تعـالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن يسـطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه

(٢٤) Amari, I Diplomi Arabi. LI - XLIV. (Ital.) pp. 389 - 390.

(مكتوب باللغة العربية) عربى ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

من النواب والنظار والحكام والمبـاشرين والمتكلمين وتجار الذخيرة الشريفة وولاة الأمور بثغر الاسكندرية المحروس أيدهم الله تعالى بعلمهم آنه حضر الى خدمة أبوابنا الشريفة قاصد حضرة الملك الجليل الهمام الضرغام صاحب فرنتيين هو المحتشم المبجل برنالدين بيروشوا بما على يده من كتاب مرسله المذكور ذكر فيه أنه يقصد أن يعمل موسما بثغر الاسكندرية المحروس على ما يترتب له من الجامكية أسوة بغيره من القناصلة وسأل صداقتنا الشريفة فى أنه يبرز مراســمنا الشريفة بكتب هذا المرسوم الشريف بتأمين القنصل والتجار عند وصولهم الى الثغر المحروس للبيع والشراء والأخذ والعطــاء ومعاملتهم بمعدلتنا الشريفة ومضاعفة الوصية بهم والنداء اليهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على عادة أمثالهم بحيث يكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وألا يطـالب أحد منهم عن أحد ما لم يــكن ضامنا أو كفيلا واذا باعوا واشتروا وقاموا بما يجب عليهم للدواوين الشريفة وقصدوا وســق ما يبتاعونه من مراكبهم أو بمراكب اختاروا وقصدوا العود من حيث أتوا فيمكنوا من ذلك وألا يؤخذ منهم بضاعة غصبا الا برضاهم ، واذا انصــاح لهم مركب من ريح عرضت لهــم فيمكنوا من رجالهم وبضائعهم أسوة أمثالهم . واذا هلك واحد منهم عن وصية فيعمل بمضمون وصــيته واذا هلك من غير وصية وترك موجـودا فيســلم موجـوده الى قنصــلهم ما لم يكن وارثه حـاضرا على جارى العادة فى ذلك فأجبناه الى ما سأل فيه من ذلك ورسمنا بكتب هذا المرسوم الشريف للبيع والشراء والأخذ والعطاء على جارى العادة فى ذلك ومستقر القاعدة واجهار النداء اليهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على جارى العادة فى ذلك ومستقر القاعدة قولا واحدا وأمرا حازما ومراسيمنا الشريفة تؤكد فى ذلك غاية التأكيد فيحيط ان شاء الله تعالى .

فى رابع عشر من ربيع الأول المبارك سنة خمس عشرة وتسعمائة حسب المرسوم الشريف فالحمد لله وحده وصلى الله على نبيه محمد وسلم .. تم (٩ يوليو ١٥٠٩) (٢٥) .

---

(٢٥) مكتوبة باللغة العربية

Amari, I Diplomi Arabi, XLV - LII.
84 Lo Stresso : Editto Comunicato ai luogotementi ad altri oficiali d'Alexandria sul Commercio do Fiorentini (Arabice p. 226. Ital. p. 391, 392) pp. 226-229. 9 luglio 1509.

أولا : المراجع العربية

١ ـ المخطوطات

١ ـ الأسدى محمد بن محمد ٩ هـ/١٥ م ـ
كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاختيـــار فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة والتصرف .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٥٤٨٢ تاريخ جـ ١ مصورة .

٢ ـ ابن الأثير الجزرى : أبو المحاسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد ٨٧٢ هـ .
تحفة العجائب وطرفة الغرائب ـ
مخطوطة بدار الكتب برقم ط ١٣٤٤ .

٣ ـ ابن اياس : محمد بن أحمد ١٥٢٤ م / ٩٣٣ هـ . ـ
نشق الأزهار فى عجيب الأقطار وهو كتاب خريدة العجـائب وفريدة الطالب ـ .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٣٩ جغرافيا و ٣٣٢٠ أدب .

٤ ـ أبو المحاسن : ابن تغرى بردى ـ حوادث الدهور فى مـــدى الأيام والشهور . نســـخة مصـــورة بدار الكتب عن الأصل المخطوط باستانبول المجلد الأول من الجزء الأول ٢٠٠ ورقة ـ
مخطوطة برقم ٢٣٩٧ تاريخ .

٥ ـ ابن زنبل الرمال : أحمد بن زنبل الرمال المحلى ـ قرن ١٠ هـ . ـ
آخرة المماليك أو وقعة الســلطان سليم خان فى فتوح مصر مع السلطان الغورى وطومانباى .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٤ م ـ ١٢٤ م ـ ١٢٩ م .

٦ ـ الخالدى :
كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادى لصناعة الانشا .
مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .

٧ ـ السخاوى ، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ١٤٩٧/١٤٢٧ م.
٩٠٢/٨٣١ هـ . ـ
كتاب التبرك المسبوك فى سير السلوك .
منقولة عن نسخة مخطوطة برقم ٤٠ تاريخ بدار الكتب .

٨ ـ العسقلانى : ابن حجر ٨٥٢ هـ ـ ١٤٤٨ م .
انباء الغمر بانباء العمر .
مخطوطة بدار الكتب فى جزءين برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

٩ ـ النبراوى : عبد الرحمن نصر بن محمد ـ
نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .
مخطوطة بجامعه القاهرة برقم ٢٤٥٠٣ .

١٠ ـ محمد بن سباهى : ٩٩٠ هـ ـ
أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك .
مخطوطة بدار الكتب برقم ١ جغرافيا .

٢ ـ كتب مطبوعة

١ ـ ابن البيطار : الشيخ ضياء الدين ابى محمد المالقى الأندلسى ٦٤٦ هـ . الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ـ أربعة أجزاء .
القاهرة ١٢٩١ هـ

٢ ـ ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى .
كتاب البلدان .
ليدن ١٣٠٢ هـ

٣ ـ ابن الوردى : سراج الدين أبى حفص عمر .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب (جزءان) .
القاهرة ١١٣٦ هـ

٤ ـ ابن أيوب : السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل
كتاب تقويم البلدان ، نشر رينود وماك كوكين .
باريس ١٨٤٠ م

٥ ـ ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله .
تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجايب الأسفار (جزءان) .
القاهرة ١٩٢٨ م

٦ ـ ابن تيمية :
الحسبة فى الاسلام .
القاهرة ١٣١٨ م

٧ ـ ابن جبير : محمد بن أحمد ـ
رحلة ابن جبير أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار .
القاهرة ١٩٥٥ م

٨ ـ ابن حجر :
الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (٤ أجزاء) .
القاهرة ١٢٨٧ هـ

٩ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد .
(أ) مقدمة ابن خلدون .
القاهرة ١٩٠٩
(ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء) .
القاهرة ١٢٤٨ هـ

١٠ ـ ابن حوقل : أبو القاسم :
كتاب المسالك والممالك .
ليدن ١٨٧٢ م

١١ ـ ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله
كتاب المسالك والممالك ـ شرح وطبع جوجيه .
ليدن ١٣٠٩ هـ
ليدن ١٨٨٩ م

١٢ ـ ابن دقماق المصرى : صارم الدين ابراهيم بن محمد .
كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ وج ٥ .
بولاق ١٨٩٣ م

١٣ ـ ابن شاهين الظاهرى ١٤٩٧ م
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
باريس ١٨٩٤ م

١٤ ـ ابن فضل الله العمرى :
رسالة لابن فضل الله العمرى .
روما ١٨٨٣ م

١٥ ـ ابن فضل الله العمرى :
التعريف بالمصطلح الشريف .
القاهرة ١٣١٢ هـ

١٦ ـ ابن مماتى : الاسعد ٦٠٦ هـ ـ ١٢٠٩ م
قوانين الدواوين (نشر عزيز سوريال عطية)
القاهرة ١٩٤٢ م

١٧ ـ أبو شامة : عبد الرحمن بن أسماعيل ،
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ـ جزءان .
القاهرة ١٢٨٧ هـ

١٨ ـ أبو محمد عبد الله بامخرمة :
تاريخ ثغر عدن ـ جزءان .
ليدن ١٩٣٦ م

١٩ ـ أبو المحاسن :
النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر
والقاهرة ـ ١٢ جزءا بدار الكتب وطبعة أخرى بكاليفورنيا .
القاهرة ١٩٥٦ م

٢٠ ـ ابن اياس :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ٣ أجزاء طبع بولاق ١٣١٢ هـ
وجـ ٤ ، جـ ٥ طبعة محمد مصطفى .
استنبول ١٩٣٢ م

٢١ ـ أحمد دراج :
المماليك والفرنج .
القاهرة ١٩٦١ م

٢٢ ـ آدم متز :
الحضارة الاسلامية في القرن ٤ هـ ـ جـ ٢
ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .
القاهرة ١٩٤١ م

٢٣ ـ البغدادى ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م :
كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر .
(نشره وعلق عليه ده ساسى)

٢٤ ـ الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر ٨٦٩ هـ
كتاب التبصر بالتجارة .
القاهرة ١٩٣٥ م

٢٥ ـ الجزيرى :
كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ـ ٤ أجزاء .
القاهرة ١٩٣٥ م

٢٦ ـ السيوطى : جلال الدين بن أحمد : حسن المحاضرة
في أخبار مصر والقاهرة ج ٢
القاهرة ١٩٤٩ م

٢٧ ـ الفقيه الشيخ زين الدين ١٥٧٩/٩٨٥ :
تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين .
لندن ١٨٢٨ م

٢٨ ـ القرمانى : أبو العباس بن أحمد الدمشقى :
أخبارا الدول وآثار الأول .
بولاق ١٢٩٠ هـ

٢٩ ـ القلقشندى : أحمد بن على ١٤١٨/٨٢١
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ـ ١٤ جزءا .
القاهرة ١٩١٩ م

٣٠ ـ المسعودى :
مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ جزءان .
باريس ١٨٦١ م
باريس ١٨٧٧ م

٣١ ـ المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله الشامى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
ليدن ١٩٠٩ م

٣٢ ـ المقريزى : تقى الدين بن أحمد ١٤٤١ م :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ جزءان طبعة بولاق .
١٢٧٠ ـ ٤ أجزاء طبعة النيل .
١٩٠٧ م

٣٣ ـ المقريزى : تقى الدين بن أحمد :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم أول وثان صححه
ونشره وعلق عليه دكتور زيادة .
١٩٣٤ م

٣٤ ـ النجدى : أحمد بن ماجد ـ
أرجوزة العرب فى خليج فارس أو حاوية الأخبار فى أصول علم
البحار ، نشره وعلق عليه فرائد .
١٢٩١ م

٣٥ ـ بزرك بن شهريار الناخذاه الرامهرمزى :
عجايب الهند بره وبحره ٠
ليدن : ١٨٨٣/١٨٨٦ م

٣٦ ـ توفيق اسكندر :
(أ) نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العهد الوسيط٠ بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٠
١٩٥٧ م

(ب) بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ٠
١٩٦١ م

٣٧ ـ جاستون فييت :
مصر الاسلامية ٠
القاهرة ١٩٤٠ م

٣٨ ـ جورج فاضلو حورانى :
العرب والملاحة فى المحيط الهندى (مترجم) ٠
القاهرة ١٩٥٨ م

٣٩ ـ جورج يعقوب :
اثر الشرق فى الغرب وخاصة فى العصور الوسطى ٠ ترجمة فؤاد حسنين على ٠
القاهرة ١٩٤٦ م

٤٠ ـ حسن عثمان :
تاريخ مصر العام (بالاشتراك) مصر العثمانية نشره قسم التاريخ بآداب القاهرة ٠
القاهرة ١٩٤٢ م

٤١ ـ زكى محمد حسن :
(أ) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ٠
القاهرة ١٩٤٥ م

(ب) فنون الاسلام ٠
القاهرة ١٩٤٨ م

٤٢ ـ ستانلى لين بول
(أ) سيرة القاهرة (مترجم) حسن ابراهيم وزميله ٠
القاهرة ١٩٥٠ م

(ب) العرب فى اسبانيا (مترجم) على الجارم ٠
القاهرة ١٩٤٤ م

٤٣ ـ سعيد عاشور
(أ) قبرس والحروب الصليبية ٠
القاهرة ١٩٥٧ م

(ب) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ٠
القاهرة ١٩٦٢ م

(ج) مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ٠
القاهرة ١٩٥٩ م

(د) العصر المماليكى فى مصر والشام ٠
القاهرة ١٩٦٥ م

(هـ) أوربا فى العصور الوسطى ج ١ و ج ٢ ٠
القاهرة ١٩٦٤ م

٤٤ ـ السخاوى : كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ـ طبع دار الكتب
(عن نسخة مخطوطة برقم ٤٠ بدار الكتب) ٠
القاهرة ١٨٩٦ م

٤٥ ـ سليمان الفارسى ـ وأبو زيد حسن السيرافى ٠
سلسلة التواريخ ـ رحلة الى الصين والهند ٠
باريس ١٨٨١ م

٤٦ ـ سليمان خليل بن جاويش :
كتاب التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية ٠
بيروت ١٨٧٣ م

٤٧ ـ شارل ديل :
البندقية جمهورية الارستقراطية تعريب أحمد عزت عبد الكريم
وتوفيق اسكندر ٠
القاهرة ١٩٤٨ م

٤٨ ـ صبحي لبيب :
التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ـ المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ٢ ٠
القاهرة ١٩٥٢ م

٤٩ ـ طاهر مكى :
(أ) المجلة ـ عدد سبتمبر ١٩٦٠ ٠
القاهرة ١٩٦٠ م

(ب) المجلة ـ عدد يناير ١٩٦١ ٠
القاهرة ١٩٦١ م

٥٠ ـ عبد الرحمن فهمى :
النقود العربية : ماضيها وحاضرها .
القاهرة ١٩٦٤ م

٥١ ـ فيشر :
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ج ٢
نقله الى العربية زيادة والعرينى والعدوى ٠
القاهرة ١٩٥٧ م

٥٢ ـ محمد جمال الدين سرور :
دولة بنى قلاوون فى مصر ٠
القاهرة ١٩٤٧ م

٥٣ ـ محمد جمال الدين الشيال :
الأطلس التاريخى لمدينة الاسكندرية من أقدم العصور الى الوقت الحاضر المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الثانى ـ القاهرة ٠
أكتوبر ١٩٤٩ م

٥٤ ـ محمد عبد الله عنان :
(أ) مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ٠
القاهرة ١٩٣١

(ب) تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ٠
القاهرة ١٩٣٦ م

٥٥ ـ محمد مصطفى زيادة :
(أ) نهاية سلاطين المماليك .
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ·
القاهرة ١٩٥١ م

(ب) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .
مجلة الجيش ·
القاهرة ١٩٤٦ م

(ج) الاطلس الاسلامي : هـ ج · هازارد ترجمة زيادة ·
القاهرة ١٩٥٧ م

٥٦ ـ محمد كرد علي :
خطط الشام ج ٤ ·
بيروت ١٩٢٦ م

٥٧ ـ مصطفى الحفناوى :
قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ج ١ و ج ٢ ·
القاهرة ١٩٥٢ م

٥٨ ـ ناصر خسرو :
سفرنامة : ما كتبه بالفارسية ناصر خسرو علي ونقله للعربية يحيى الخشاب .
القاهرة ١٩٤٥ م

٥٩ ـ وطسن (اليزابث ج · بوح) وح اليزابث كراثرو :
قصص الرحالة والكشافين ـ ترجمة أحمد خاكى وادوارد رياض ·
لندن ١٩٤٩ م

ثانيا : المراجع الأوربية

1. Allen, J., The Cambridge Shorter History of India.
London. Camb. Univ. Press, 1924

2. Allan, E.A., History of Civilization. Vol. VI. The Medieval World. U.S.A. 1909.

3. Amari, N., I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino.
In Firenze MDCCCLXIII.

4. Anchieri, Ettore, Sues, Il Endo D'oggi. Rome 1950.

5. Archer, T.A. & Charles Lethbridge Kingsford, The Crusades, The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem.
London 1919.

6. Atia, Aziz Suryal, The Crusade in the Latter Middle Ages,
London 1936.

7. Baker, Ernest, The Crusades. London 1925.

8. Peazley, C. Raymond, Prince Henry The Navigator.
London 1923.

9. Peazley, C. Raymond, The Dawn of Modern Geography.
2 Vols. London 1895.

10. Bernard, Alexander, Cypris. Chronique de l'Ile au Moyen Age. Paris 1902.

11. Breydenbach, E. DE., Les Saints Peregrinetions.
Le Caire 1904.

12. The Camb. Mod. History. (8 Vols.) Camb. 1936.

13. The Camb. Mod. History. Vol. 1. The Renaissance. Camb. 1907.

14. Cattaui, Joseph, Coup d'oeil sur la Chronologie de la Nation Egyptienne. Paris 1931.

15. Charles, Roux, J., L'isthme et le Canal de Suez. T. 1-2. Paris 1901.

16. Cioli, Lionello, Histoire Economique, Depuis l'Antiquité Jusqu'à Nos Jours. Paris 1939.

17. Clerget, Marcel, Le Caire, Etude de Geographie Urbaine, et d'Histoire Economique. T. II. Le Caire 1934.

18. Colbeck, C. Historical Atlas. London 1923.

19. Combe, M. Et. Alexandrie Musulmane. Le Caire 1933.

20. Combe, M. Et. Precis de l'Histoire d'Egypte. T. III. « L'Egypte Ottomane de la Conquête par Selim I, 1517 à l'Arrivée de Bonaparte 1798 ».

21. Darnes, M. Longworth, The Book of Dunrfe Barbosa 1518 A.D., 2 Vols. London 1921.

22. Day Clive, A History of Commerce. London 1950.

23. De Mas Latrie, M.L., Traités de Paix et de Commerce. Paris 1865.

24. Depping, G.B. Histoire duCommerce Entre le Levant et l'Europe, Depuis les Croisades Jusqu'à la Fondation des Colonies d'Amérique. T. I & II. Paris 1830.

25. De Sacy, M. Silvestre, Relations de l'Egypte par Abd Al-Latif, Medecin Arabe de Baghdad. 1231 A.D.

26. Devonchire, R.L. L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.

27. Doppe, P.H., L'Egypte au Commencement du 15ème Siècle. (D'après le Traité d'Emmanuel Pileyi de Grete. Inscript. 1420). Le Caire 1950.

28. Dunbar, George. A History of India from the Earliest Times to Nineteen Thirthy-Nine. 2 Vols. (Vol. 1 ancient and mod.). London 1929.

29. Encyclopaedia Britannica. London 1929.

30. Felix Fabri, The Wanderings of... 2 Vols. (1480-1483). London 1897.

31. Ferrand, O. Relations de Voyages. (2 Vols.). Paris 1913-1914

32. Ferrand, G. Instructions Nautiques et coutiers Arabes et Portugais des XV et XVI Siècles. T. 1-5. Texte Arabe, par Ibn Magid.

33. Fischel, W.J., Jews in the Economic and Political Life of the Medieval Islam. London 1958.

34. Fischel W.J., The Spice Trade in Mamluk Egypt, a Contribution to the Economic History of Medieval Islam. Vols. 1, 2, 3. Leiden 1958.

35. Encyclopedie d'Islam.

36. Gayet, Le Cours. Histoire de Commerce. T. II. Paris 1923.

37. Goiten, E.P., New Lights on the Beginning of the Orient. Journal of the Economic and Social History of the Orient. Vol. I. 1958.

38. Hakluyt Society, India in the 15th Century. IV.

39. Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, 18 Vol. Paris 1835-1943.

40. Henry Higga, A Dictionary of Political Economy. Vol. II. London 1935.

41. Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, T. I & II. Leipzig 1925.

42. Horn, Paul, International Trade, Principles & Practices. New York 1953.

43. Howe, Sonia, E., In Quest of Spices. London 1946.

44. Hyzayyin, S.A., Arabia and the Far East. Cairo 1942.

45. Jacob, E.F., & Crump, P.P. C.C. The Legacy of the Middle Ages. London 1927.

46. Johnson, A.H., Europe in the 16th Century. (1434-1598). London 1924.

47. Journal Asiatique, Traités de Commerce entre la Republique de Venise et les derniers Sultans Mameluks d'Egypte, par M. Reinaud. T. IV, Paris 1829. (Nouveau Journal Asiatique, 2ème Série).

48. Kammerer, La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabie Depuis l'Antiquité Jusqu'a XVe Siècle. 4 Vols., T. II, Part I. Le Caire 1929-1935.

49. Kimble, George, H.T., Geography in the Middle Ages. London 1936.

50. Lane-Poole, Stanley., Medieval India under Mohammedan Rule A.D. 712. 1764. London 1925.

51. Lane-Poole, Stanley, A History of Egypt in the Middle Ages. London 1936.

52. Lane-Poole, Stanley, Turkey. London 1922.

53. Lane-Poole, Stanley, The Story of Cairo. London 1924.

54. Leo L'Africanus, The History and discription of Africa. (3 Vols.) London MDCCCXCVI.

55. Lodge, H., The Close of the Middle Ages. London 1922.

56. Lopez, and Raymond, Medievel Trade in the Mediterranean World. London 1955.

57. Maillet, J., Histoire des Faites Economique des Origines au XXe Siècle. Paris 1952.

58. Marco Poles Travels (2 Vols.). London 1903.

59. Miller, William, The Latins in the Levant. A History of the Frankian Greece (1204-1566). London 1908.

60. Mookerji, Radhakumud, N.A., Indian Shipping, A History of Sea. Borne Trade and Maritime Activity of the Indians from the Earliest Times to the End of the Moghal Period. London 1912.

61. Moreland, W.H., The Ships of the Arabian Sea about A.D. 1500. The Journal of the Royal Asiatie Society of Great Britain and Ireland. p. 1 - 11. London 1939.

62. Muir, W., The Mamemluk or Slave Dynasty of Egypt. Lodon 1896.

63. Newton, Arthur Percival, Travel and Travellers of the Revival Irade. Prinotion 1925.

64. Pirenne Henri, Medieval Cities. Their Origins and the Revival Trade. Princeton 1925.

64. Pirenne, H., History of Europe from the Invasions to the 16th Century. Lodon 1939.

66. Pirenne, H., Economic and Social History of Med. Europe. London 1937.

67. Poliak, Les Révoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Mamelouks et leur Cause Economiques. 1934.

68. Poston, M.M. & Habakkuk. The Cambridge Economic Hist. of Europe. Part II. Camb. 1952.

69. Power, Eleen, Medieval People. London, 1954.

70. Quatremer, Mémoire sur l'Egypte. Histoire de Sultans Mameluks de l'Egypte (2 Vols.). Paris 1837-1845.

71. Regine Pernaud, Les Villes Marchands aux XIVème et XVème. Impérialisme et Capitalisme au Moyen-Age. Paris 1948.

72. Richard, Hakluyt., The Principals Navigation Voyages, London.

73. Roberta Leues, The Merchant's Moppe of Commerce, Wherein the Unirateral Manner and Matter of Trade, in compendiously handled. London MLCXXXVIII. 1638.

74. Schameil, Maurice. Le Caire, Sa Vie, Son Histoire, Son Peuple. Le Caire 1949.

75. Synge, M.P., A Book of Discovery, The History of the World's Exploration from the World Earliest Times to the Finding of the South Pole. London 1925.

77. Thenaud, J., Le Voyage d'Outre Mer de Jean Thenaud. Paris 1888.

78. Varthema, Ludvice, di. Les Voyage de Ludvico Varthema, Paris 1888.

79. Von Harff, Arnold, The Pilgrimage of von Harff. (1496-1499). London 1946.

80. Waugh, W.T., A History of Europe (1378-1494),

81. Wobester, Hutton, A History of Civilization, Ancient and Medieval. Boston, U.S.A., 1947.

82. Wiet, G., L'Egypte Arabe, Histoire de la Nation Egyptienne. Paris 1926-1937.

83. Wilson, Arnold T., The Persian Gulf. London 1954.

84. Ziada, Foreign Relations of Egypt in the 15th Century. (Thesis.)

85. Gibb, H.A.R., Historical Atlas of Muslim Peoples. Amsterdam 1957.

ملاحق الكتاب

قائمة الوثائق والمعاهدات

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

نظرة سياسية عامة فى احوال دول البحر المتوسط من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ الى دخول العثمانيين مصر ١٥١٧ م

الفصل الثانى

العلاقات التجارية الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغربه فى النصف الثانى ـ القرن ١٥ م

والهند بعد ديو ـ الفتح العثمانى لمصر واتفاقية التجارة بين العثمانيين والبنادقة .

الفصل الثالث

الطرق والمراكز التجارية

(من ص ١١٥ ـ ص ١٨٨)

الطريق الأول البحرى من الهند والصين الى الخليج العربى وفروعه ومراكزه ـ الطريق الثانى من الشرق الأقصى للبحر الأحمر وفروعه ومراكزه فى مصر والشام ـ الطريق الثالث من وسط آسيا والهند برا الى بلاد البلقان شمالا والبحر الأسود وآسيا الصغرى والشام ـ الطريق الرابع بحرا من الصين الى الهند والخليج العربى والبحر الأحمر ومراكزه طريق البندقية التجارى لشرق البحر المتوسط ـ طريق جنوة التجارى لشرق البحر المتوسط ـ طريق فلورنسا التجارى لشرق البحر المتوسط ـ طريق مرسليا التجارى لشرق البحر المتوسط ـ طريق برشلونة التجارى لشرق البحر المتوسط ـ طريق القسطنطينية البرى .

الفصل الرابع

السلع التجارية

(من ص ١٨٩ ـ ص ٣٧٢)

أنواع السلع المتبادلة ـ موقف البابوية من التعامل مع المماليك ـ التوابل : الفلفل ـ القرفة ـ القرنفل ـ الخلنجان ـ الزنجبيل . العقاقير الطبية : البلسم ـ الكافور ـ الهندشعيرة ـ خيار شمبر ـ الراوند ـ العفص والمن ـ العود الهندى ـ جوزة الطيب ـ التوتيا ـ الزعفران او الكركم . الرقيق الأبيض والأسود ومصادره ـ موقف البابوية من تجارة الرقيق . البخور والعطور : عود الند ـ المسك ـ خشب الصندل ـ العنبر ـ البخور ـ اللادن ـ المصطكى ـ اللبان الجاوى ـ الصمغ ـ صمغ الك . مواد الصباغة : الفرة ـ النيلة ـ

دودة القرمز ـ الشب ـ التوتيا ـ القطران الطبيعى ـ خشب البرازيل ـ العاج ـ السكر ـ الخزف ـ والبورسلين ـ المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط الذهب والفضة ـ المنسوجات الصوفية . موقف الكنيسة من استيراد المنسوجات من الشرق ـ الخشب . الأحجار الكريمة : الزمرد ـ الفيروز ـ اللازورد ـ العقيق ـ الذهب ـ الماس ـ الزجاج والبللور .

الفصل الخامس

النظم التجارية

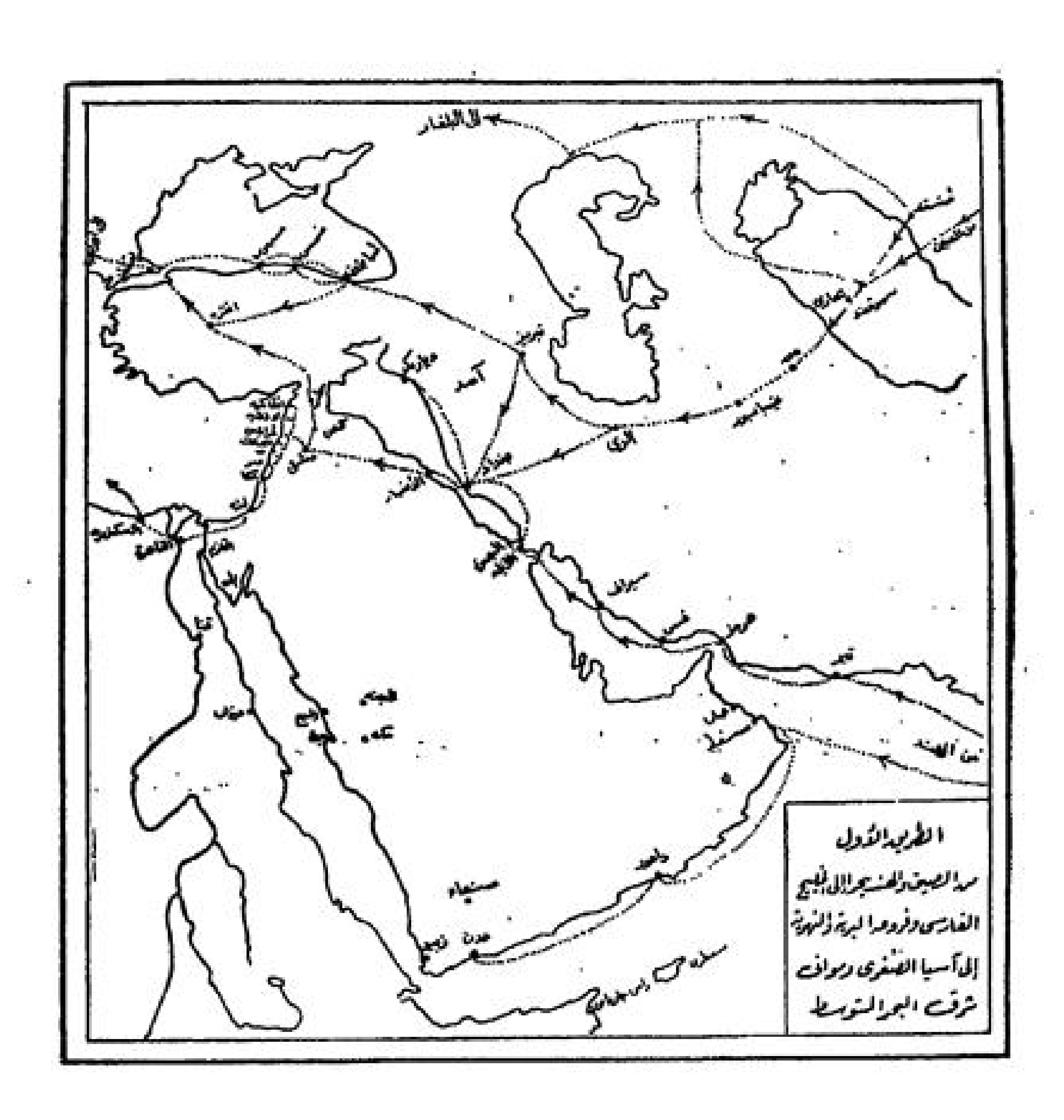
سبق الشرق فى نظم التجارة ونقل الغرب عنه ـ بعض المشاكل التى واجهت تجار العصور الوسطى ـ نظام النقل البحرى فى التجارة ـ نظام سفن المدة البحرى ـ نظام النقل البرى ـ نظام تجارة العبور ـ المنشآت والمرافق التجارية : الأسواق ـ الوكالات ـ القياسر ـ الخانات ـ الفنادق ـ طوائف التجار الشرقيين والغربيين والوطنيين ـ الهيئات المشرفة على التجارة ـ الاجراءات الجمركية فى ميناء الاسكندرية ـ القناصل التجاريون ـ نقابات التجار ـ الاحتكار التجارى ـ الرأسمالية فى النظام التجارى ـ المعاملات المالية : النظام المصرفى ـ طرق المحاسبة التجارية ـ الضرائب التجارية ـ نظام الدفع فى المعاملات التجارية ـ نظام المقايضة .

الفصل السادس

خاتمة

كشف طريق راس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك

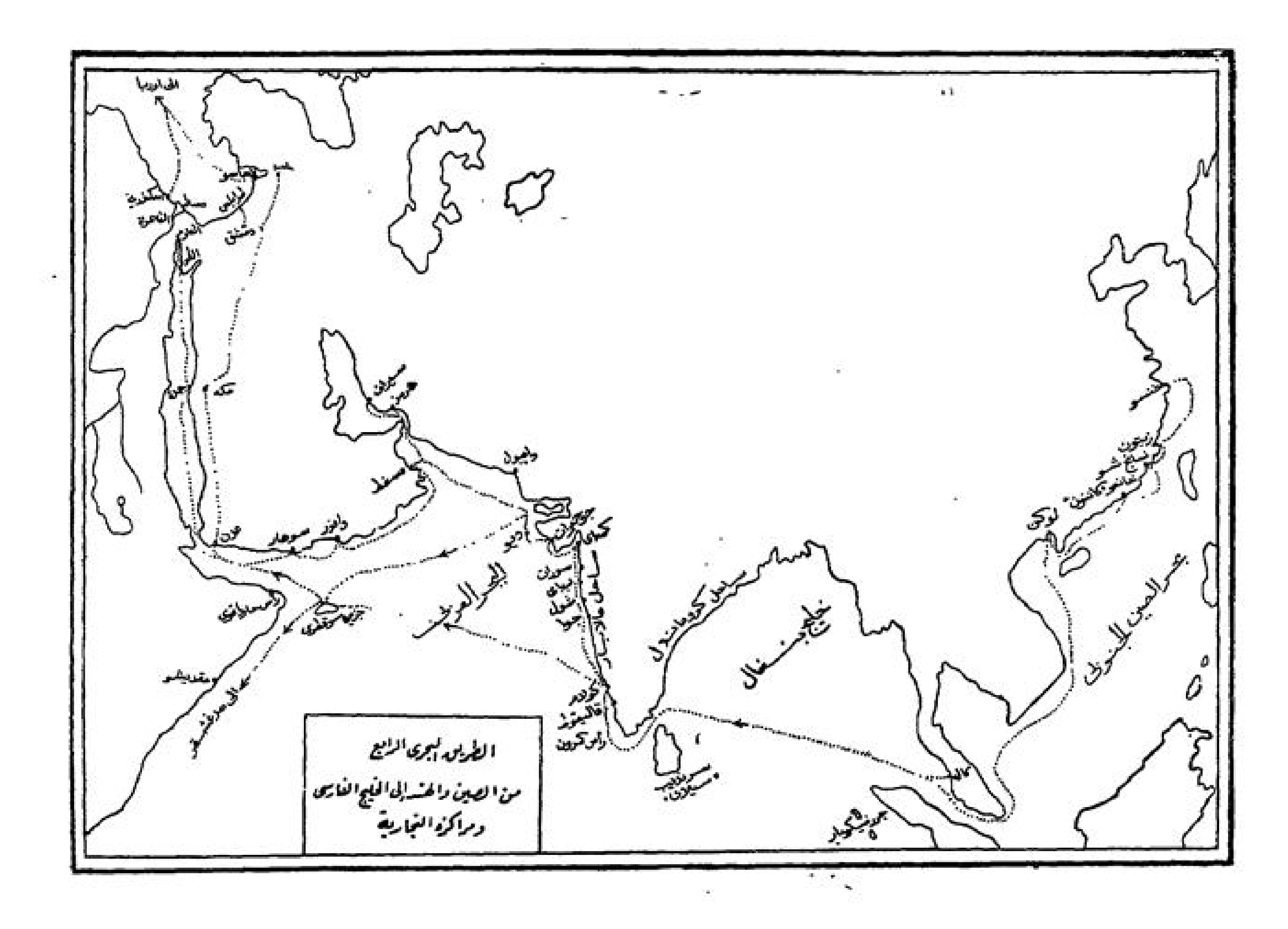
عوامل الانهيار فى دولة المماليك وفى طريق التجارة بالبحر الأحمر ـ فساد النظام الاقطاعى ـ احتكار التجارة ـ طبيعة تكوين دولة المماليك ـ عداء البرتغال والأسبان للمماليك ـ تحول تبر السودان الى لشبونة ـ وصول البرتغاليين الى الهند ـ فاسكوده جاما ـ كابرال ـ البوكيرك ، وجهودهم ضد المماليك وتجارتهم ـ العلاقات العثمانية المماليكية وانهيار دولة سلاطين المماليك ـ مصر والشام ولايتان عثمانيتان .

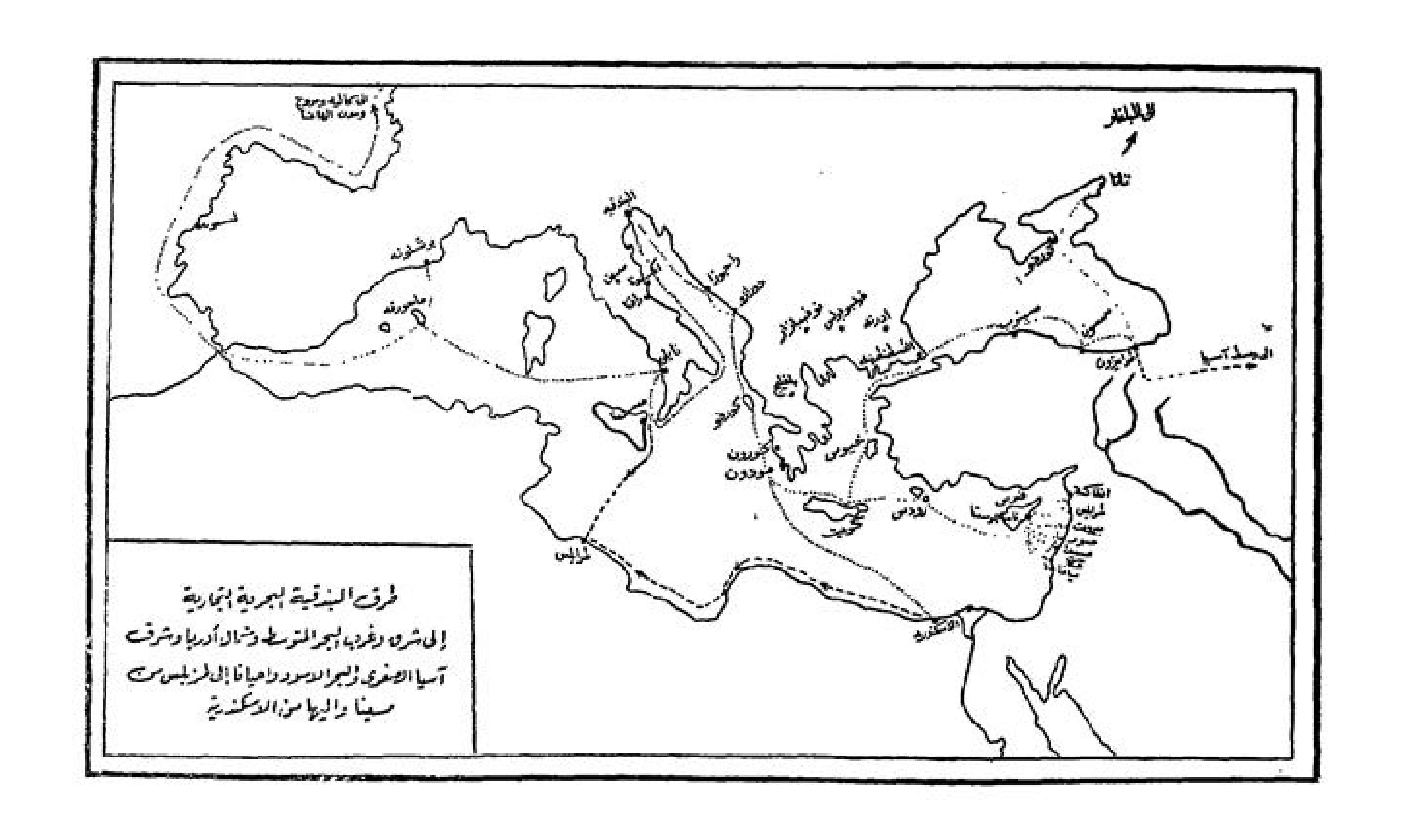

إلى البلغار
الري
من الهند
مكة
صنعاء
عدن
الطريق الأول
من الصين والهند إلى الخليج
الفارسي وفروعها البرية والنهرية
إلى آسيا الصغرى وموانئ
شرق البحر المتوسط

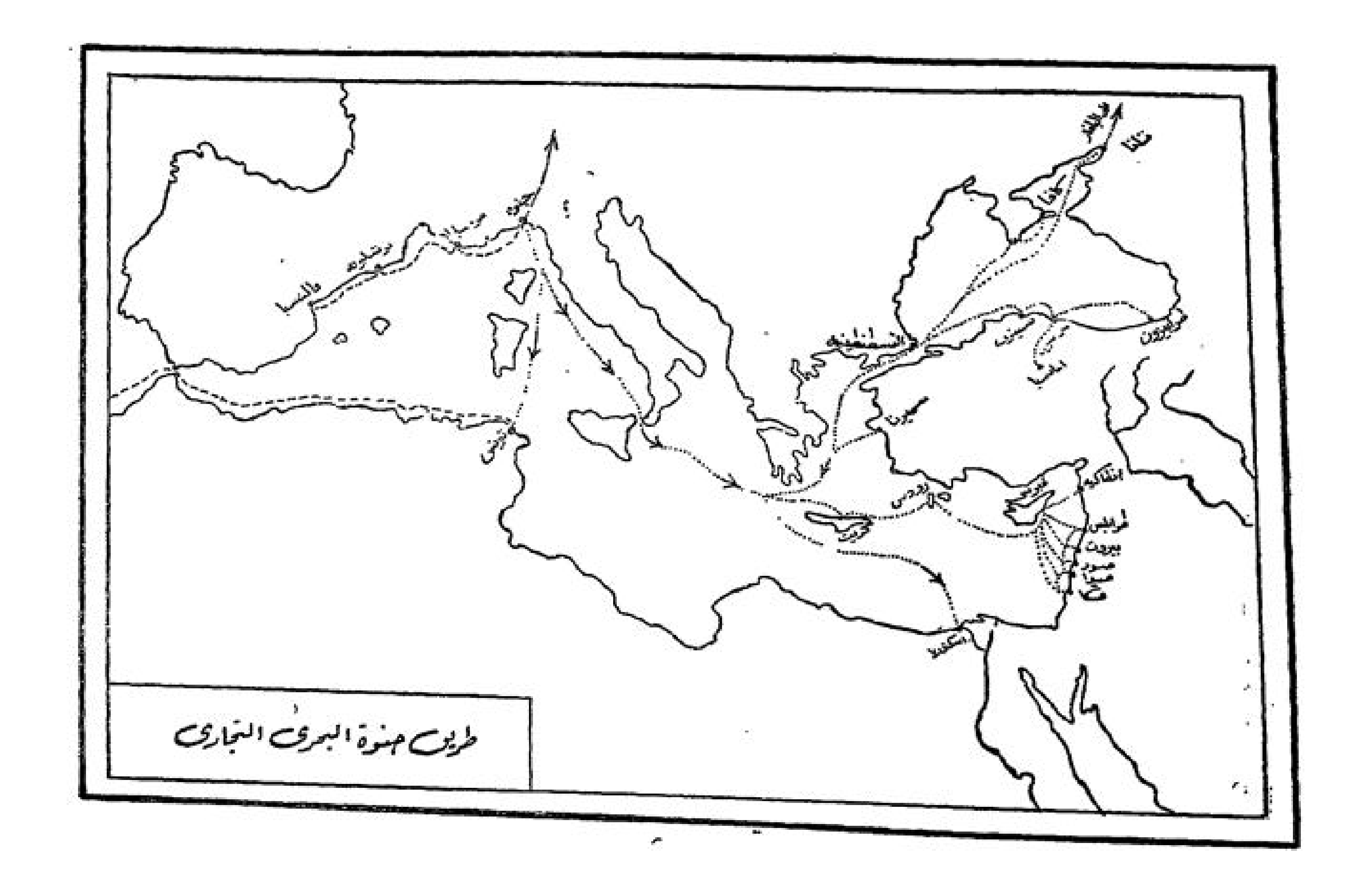
الطريق الثاني

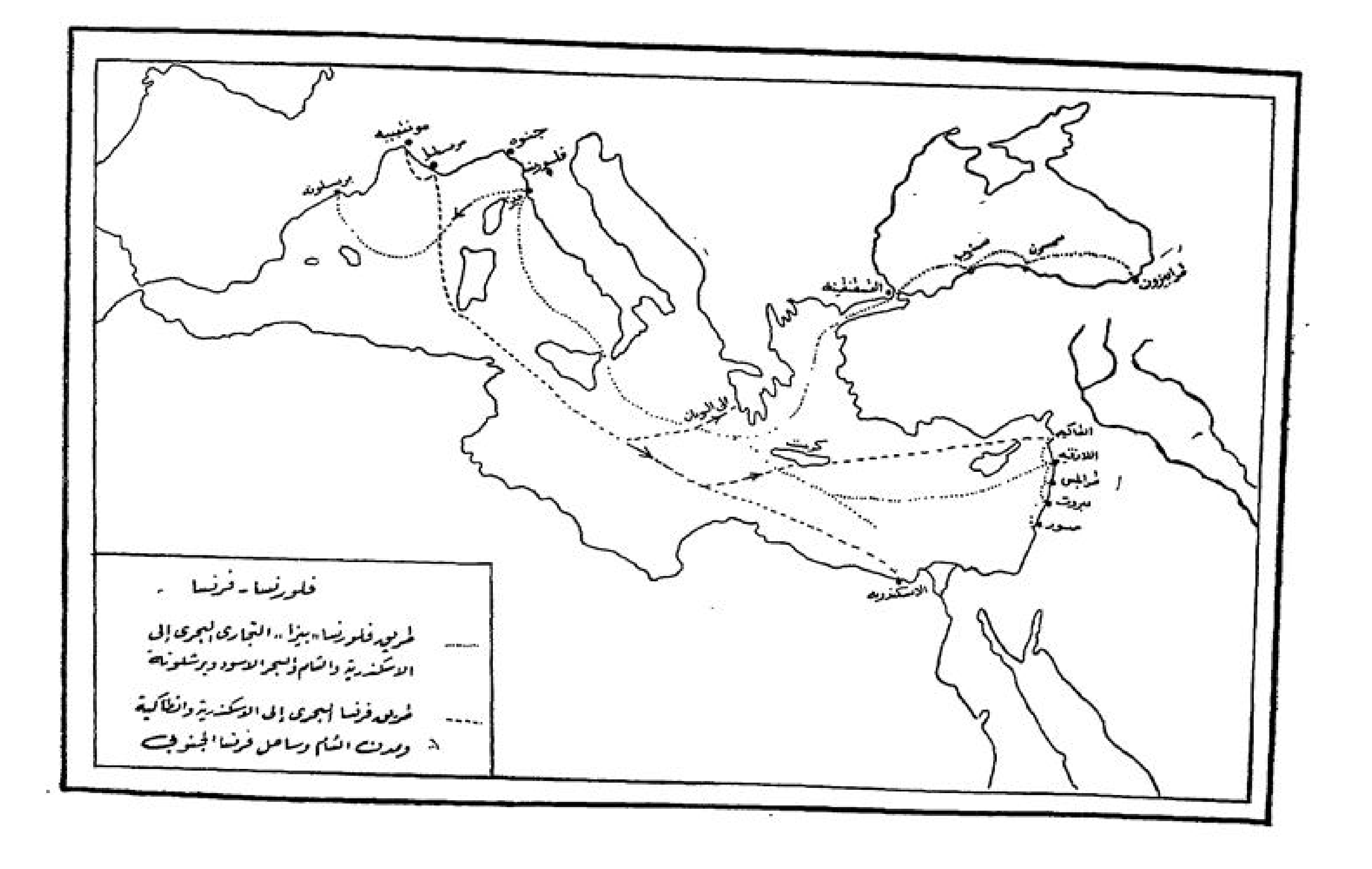
من الصين والهند بحراً إلى البحر الأحمر وفروعه البرية إلى الشام والنهرية إلى مصر والاسكندرية

خريطة رقم (٣)


الطريق البحري الرابع
من الصين والهند إلى الخليج الفارسي
ومراكزه التجارية
البحر العربي
ساحل مالابار
ساحل كورومندل
خليج بنغال
بحر الصين الجنوبي


طرق البندقية البحرية التجارية
إلى شرق وغرب البحر المتوسط وشمال أوربا وشرق
آسيا الصغرى والبحر الأسود وأحيانا إلى طرابلس من
البندقية
طرابلس
رودس
الإسكندرية
تانا


طريق جنوة البحري التجاري
جنوة
سميرنا
رودس
طرابلس
بيروت
كفا
تانا



مونبلييه
مرسيليا
جنوة
فلورنسا
بيزا
برشلونة
القسطنطينية
سينوب
سمسون
طرابزون
إلى اليونان
كريت
اللاذقية
طرابلس
بيروت
صور
الاسكندرية
فلورنسا - فرنسا
طريق فلورنسا "بيزا" التجاري البحري إلى الاسكندرية والشام والبحر الاسود وبرشلونة
طريق فرنسا البحري إلى الاسكندرية وانطاكية ومدن الشام وساحل فرنسا الجنوبي



الثمن ١٢٠ قرشا